

مصطفى منير

تِلَاوَاتُ الْقَحْوِ

”ثَلَاثَ دَهْشَاتٍ لِحَيَاةٍ أُخِيرَةَ“

رواية



المكرهسة

تلاوات المَحو

"ثلاث دهشات لحياةٍ أخيرة"

مصطفى منير

الطبعة الأولى 2019

إهداء

إلى "شروق"

التي تسألني في كل مرة أطلب منها كوبَ شاي: "بالنعناع أم الفانيليا
أم الفراولة أم بالتفاح يا مصطفى؟"
شكراً لأنكِ لم تغضبي يوماً وتطالبيني بتحديد النكهة من البداية.
زوجكِ متردد حتى في أبسط الأمور..
وأنتِ الأمر الوحيد الذي سعى إليه بثبات.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

سورة البقرة - الآية 30.

"الإنسان مجموع نكباته".

ويليام فوكنر

"إن الإنسان - كل إنسان بلا استثناء - إنما هو ثلاثة أشخاص في صورة واحدة، الإنسان كما خلقه الله، والإنسان كما يراه الناس، والإنسان كما يرى نفسه".

أوليفر وندل هولمز

"فَقَالَ الرَّبُّ: أَمْحُو عَنْ وَجْهِ الْأَرْضِ الْإِنْسَانَ الَّذِي خَلَقْتُهُ، الْإِنْسَانَ مَعَ بَهَائِمٍ وَدَبَّابَاتٍ وَطُيُورِ السَّمَاءِ، لِأَنِّي حَزِنْتُ أَنِّي عَمَلْتُهُمْ"

إصحاح 6 - سفر التكوين.

أيام الدهشة الثانية

السارد الأول

في عُرفِ الحكي، مُنذ البداية المحفوظة، حدّثنا السارد الأول، عن فتنة السرد، وعن شهوة الفضول، السارد الأول كان عليماً، عرفَ كل الحكايات، حفظها في لوحٍ فريد، تَمُرُّ الأحداث، تتوالى السُير، تموت حكايةٌ وتُبْعَثُ أخرى، والسارد الأول يرى ويسمع، يكتب ويحفظ، إلى أن شعرَ يوماً بفقدان الشغف، رمى لوحَ التدوين، ونزل بين الناس، شهدَ التابعَ والمتبوع، الحاكمَ والمحكوم، المُخاطَبَ والمُخاطَب.

بعد أيام معدودات، صعد إلى فراغه العظيم، وخلقَ جيلاً كاملاً من الساردين، يوزّع بينهم الحكايات، يجلسون جميعاً في غرفةٍ فسيحة، لا يتكلم الرجل إلى أخيه، يقرأ كل ساردٍ حكايته

المكلف بها، يضع لمساته في حدود المسموح، يضرب السقطات
بمذبة، مثلما فعلتُ مع حكايتي، فمحوْتُ مثلاً كل ما يخص
التوقيت، ووسائل التكنولوجيا، وحكىْتُ بنفسى أجزاء من
الحكاية، وسمحتُ لأبطال الحكاية، في بعض الأجزاء، بالحديث
عن ذواتهم، بأصواتهم ومشاعرهم، دون أدنى تدخّل مني.

فرح السارد الأول، لأنني حاولتُ الخروجَ عن المألوف،
وجعلتُ حكايتي حكايةً مُلهمة، تستحق السرد بكل الأعيه،
بعيداً عن بهرجة وزيف العصر الحديث، ولأنني الأنثى
الوحيدة الساردة بين ملايين الساردين الرجال، حفظتُ حكايتي
كاملةً، وجعلتها مثاليةً، وأنتظر الأمر من السارد الأول.

وهو ما حدث هذا النهار، حين كلفني السارد الأول بمهمتي،
لم ينطق حرفاً واحداً، نظر إلى بابِ الغرفةِ ففتّحَ فجأةً، رفعْتُ
لوحى، قلتُ: "أستطيع حكي كل التفاصيل إن شاءت الإرادة
السردية!" هز رأسه نفيًا، وعرفني أنه سيتدخل في الحكاية لما
يحين دوره، ولا حق لي في الاعتراض أو الجدل.

فباسم السارد الأول، نُسمِعكم تلاواتِ المحو.

مُحيي ابن طاهرة

كل أهل المدينة صاروا بلا ملامح.

صحوثُ على صراخ أحدهم، أجهل السبب وراء نومي في الشارع، تحديدًا في هذه الأيام العصيبة، مشيتُ في الطرقات، أراقب الجنون التام، ومع كل بابٍ يُفتح، تخرج الصرخة قبل صاحب الدار، ثم يسقط الرجل بلا ملامح. لم تتمكن الحكومة من فهم ما حدث، رجال الدين قالوا: "طردنا الله من سلطانه!" رجال السياسة لم يتحدثوا، كانوا أسرع المتأثرين بمسح الحياة عنهم، كيف سنسمعهم وتفاصيلهم مبهمة! لن يصدقهم أحدٌ مطلقًا!

لمحتُ أطفالاً يركضون أسرع من البرق، وتقريبًا هذه المشاهد من تأثير الصدمة، شيءٌ مُستحيل أن يركضَ طفلٌ بهذه السرعة! حاولتُ بكل الطرق، بيني وبين نفسي، التضرع للذي يجلس على العرش ويسمعنا، والذي أشك أنه فعل ذلك، لأنه يريد نظامًا جديدًا للحياة.

أهل المدينة كلهم صاروا بلا ملامح، إلا أنا، مُحيي ابن طاهرة، اسم شهرقي في المدينة، الاسم الثاني تحديدًا، ذلك لأنَّ الاسم الأكثر شهرة يسوع! لسوء حظي، أنا نسخة طبق الأصل من يسوع، كأنني خرجتُ من صورة مُعلّقة في بيتٍ قديم لعائلةٍ مسيحية، لأرعى السبيل إلى الجنة أو الخلاص، الشَّعر الطويل ذاته، الملامح الوسيمة الهادئة، صفاء الوجه، طول الجسد، الهيبة التي تحاوطني. مكantني بينهم -المسلمين

والمسيحيين- مُحيرة، فمثلاً حين أمر بمسلم أنا نبي، أما إذا كان مسيحياً فأنا ابن الإنسان!

ما حدث لهم بالخارج يؤنب ضميري، أنا سعيدٌ سعادة الخليل إبراهيم حين أتاه أمر الكيش، أخيراً لن يبهت أحدٌ لرؤيتي، لن يمجّدي مسيحي، لن تمسك عجوز صليباً وتقبّله، لن يستغفر مسلماً، لن يمزح معي آخر ويدعوني للإسلام! المخيف في الأمر، إلى متى سيستمر وجودي بمفردي هكذا؟ هل ستقع عني معالم وجهي، مثلما حدث لهم، أم سأظل على هيئتي؟ مرّ عام كامل، لم أتحدث مع شخصٍ من وقتها، مرّ عامٌ كامل والأسئلة تحدثني يومياً، أفداني الإنسان هذه المرة؟ هل قالوا كلهم لرّبهم خذ ملامحنا واترك ابن طاهرة؟ أم أن الله غضبَ عليهم، فتركني لأنني نسخة من المسيح، وعدّ بهم بما يستحقونه، بعدما خذلوا المسيح الذي حمل عنهم الخطايا؟

سؤالان في غاية الأهمية، ماذا كنتُ أفعل في الشارع لأستيقظ وأجد نفسي نائماً على الأسفلت؟ والسؤال الأكثر أهمية ينقسم إلى شقين، الأول: لماذا يوجد خلفي صليب؟ والآخر: هل هذا اليوم الأخير الذي تحدثوا عنه؟

فيليب

أبانا الذي في السماوات، احمل عني الكاس إذا أمكن، يا يسوع، حمل الله الذي يمحو الخطيئة من العالم، أنت تحب البشرية كثيرًا، حتى إنك لا تتواضع فقط بتأنسك، بل أنت الحمل الوديع الذي يحمل جميع خطايانا، شكرًا على هبة تواضعك ورحمتك ومغفرتك، أبانا الذي في السماء، أنا خائف والطمأنينة والتحنان في يدك، التحنان في يدك يا يسوع.

أرجوك هل تسمعني يا يسوع؟ لن يسمعني أحد غيرك، لا أعرف ما الذي جرى، لقد كنتُ داخل فرن الفخار، بعدما خمدت ناره، قفزتُ داخله كي أخرج كل ما أصبح جاهزًا، لفحتني الحرارة العالية، لم تعد تضايقني الحرارة في المجمل، سمعتُ صوتَ ابني مينا: "يا فيليب، يا فيليب قلبي منقبض، تعال ونُخرج الفخار في وقتٍ آخر"، ضحكْتُ وأنا أشعر بصدق كلامه، فُلْتُ: "بسلامة أضطجع بل أيضًا أنا، لأنك أنت يا رب منفردًا في طمأنينة تسكنني.. انزل يا مينا، انزل يا بن أمك".

والأفران الموجودة في قريتنا، خاصةً التي تعمل تحت إشراقي، كانت حديثَ الجميع منذ بنائها، فقد رسمها وخطط شكلها الباشا الذي أعمل لديه، وجعلها تُشبه أفران الخزف القديمة الضخمة، القرن الواحد تشعر أنه على هيئة برج حمام مثلاً، بشكلٍ دائري، من أحجار وطوبٍ بلدي، ويمر بثلاث مراحل، الأولى هي المحرقة، وهي بالأسفل، نضع فيها القش والمطاط، وكل ما يساعدنا على تغذية النار، والمرحلة الثانية هي جسم

الفرن الداخلي، الذي نضع فيه الأشكال الفخارية بعدما شكّلناها لتحترق وتصير جاهزة، والمرحلة الثالثة هي فوهة الفرن، التي يصعب على الإنسان تسلّقها أو القفز لدخولها، لا بد من استخدام السلم الخشبي للصعود إلى القمة، وحمله وأنت بالأعلى، ثم وضعه في فراغٍ مخصوص يتيح لك تمرير السلم من خلاله والعبور إلى داخل الفرن، وهذا الفراغ مُغطى بطوب عازل، فلا يحترق السلم بفعل الحرارة، ولا يحترق الشخص النازل إلى الداخل في حالة لم تخدم كل النيران. التصميم عجيبٌ وغير مفهوم، وكان ردّي واضحًا: "الباشا الذي اشترى الأفران يريد هذا هكذا!"

حين نزل مينا بجانبني، سمعتُ صوتَ هبوطِ جسده، وهبوط شيءٍ آخر، ظل واقفًا بلا حراك، قلتُ في عصبيةٍ: "يا مينا، الجو هنا ليس ساحرًا كي تبقى طوال اليوم يا..". صرختُ لما وجدتُ جسدًا فقط، لا ملامح، وجه ممسوح، أمسكته وهزّزته إذ ربما يتوقف عن هرجه، إذا كان هذا هرجًا، لم يتحرك، جلس مكانه، جلس في ضعفٍ وخنوعٍ، كأنه مسافرٌ يجهل أي بلدةٍ نزل إليها، يمسح على رأسه، يمسك بيدي، استسلامٌ تام لأمرٍ يا يسوع، الفرن حولنا شديد السواد، بين قطع الفخار أرى حمرةً، ونورك يا يسوع بالأعلى، الفوهة فوقنا، السلم الخشبي الذي يساعدها على الطلوع والنزول، بجانب مينا، سقط معه نصفين. هممتُ بالصراخ، لم يُطعني الصوت، وضعتُ يدي على رقبتني في البداية، ثم حركتها إلى فمي، تراجعْتُ إلى الخلف، أسندتُ ظهري إلى الفخار، حرارته تؤلمني، أيعقل يا يسوع، أن نارَ الفرنِ أذابت

ملاحنا؟ سقطت ملامحي عني، باستثناء عيني.. ماذا تريدني أن أرى يا يسوع؟ وهل هذا عقابك لي، على حياتي القذرة، التي عشتها؟ لقد صليتُ كثيراً لتغفر لي!

نعمة

إذا كان عدلاً ما حدث، إذا كان انتقاماً سماوياً، أو تصحيحَ خطأ إلهي، ربما هو اليوم الذي تحدثوا عنه في كل مناسبة، أو اعتذار رسمي من صاحب العرش عما أعانيه منذ سنوات، فأنا موافقة وتقبلتُ رد الكرامة، كرامة بنت مسكينة، وجسد تستعمره بقع خضراء، جعلت الأوساخ يلقبونني بنعمة التتنة، مع أن البقع لا رائحة لها، ولم تضر أحداً. رماني والدي وأنا ابنة السابعة، لكثرة المضايقات، ولقلقه من العدوى، ولقلة المال للتكفل بعلاجي، ومن وقتها والشوارع أهلي وبيتي، أستقر في منطقة معينة كل فترة، الرجال يضاجعونني، ويحضرونني من أجل تنظيف بيوتهم، ومن أجل راحة زوجاتهم ظاهرياً، ومن أجل الفرجة علي حقيقتاً.

أصحاب المحلات استخدموني في تنظيف أماكنهم وترتيب المخازن مقابل وجبة أو مال لا يسدّد، وفي أغلب الأحيان مقابل فتحني السفلى الخلفية، التي صارت أوسع، ولم تمسها البقع، اليوم، بعدما نظفتُ مخزن محل ملابس، وقميصي الأبيض الملطخ بحيوانات منوية، خرج المالك المنتشي، البخيل في كل

شيء، إلى محله، فتح درج مكتبه، وأخرج ورقة لم أتبينها، لأن عينية سقطتا، صرخ في فزع، صرخته مختلفة تمامًا عن تلك التي أخرجها وحيوانات قضيبه الصغيرة تهاجم قميصي، ثم وقع أنفه ولحقه فمه، وفي دقيقة تكوّم بجانب المكتب، جسده يهتز بعنف كأنه يبكي لموت أحدهم. قلتُ له: "خمسون جنيهًا، موافق؟" بالطبع لن يرد إليّ إجابة. سحب ما طالته يميني من المكتب، ورحلتُ عن المسخ الذي صار مجهولاً.

في الخارج، يمينًا ويسارًا، الناس على الأرض، فوق الرصيف، ومنهم من وقف مكانه، الجميع بلا ملامح، أجسادٌ مبهمة، ضعفٌ مُبهج، أخيرًا رأيتهُم مذلولين مُهانين، أتمنى أن يكونَ الأمرُ حقيقيًا، وليس حلمًا أو دعايةً سخيفة كسخفهم المزعج. السيارات واقفةً بمنصف الطريق، الحافلات والدراجات البخارية، الحياة تعطلتُ كساعةٍ قديمة، يا أولاد الكلب، هذه نهايتكم لما فعلتموه بي. من هذه اللحظة لن أضع المرهم الذي وصفه لي طبيب الجلدية، الذي وعدني بعلاجٍ بعد مضاجعتي، واصفًا استخدامه لتهدئة البقع. نعمة ستحرر من ملابسها، وحجابها، وكل ما يخفيني عن أعينهم، يا أولاد الكلب، أنا عارية بينكم، أنا الوحيدة الكاملة الآن وكلكم ناقصون!

عبد القوي

منذ متى وأنا في النهر؟ مثلي مثل ورقة رماها أحدهم،
كسمكة ميتة، أو غائط كلب، أحب هذه اللعبة، لعبة الذي
هو أدنى سميتها، أرى نفسي أدنى مخلوقات العالم، أصلاً أنا
عامل دوكو يدهن المانيكان بهذا اللون الوحيد الذي أملكه،
لون لحم الهوانم، هكذا أطلقنا عليه، نحن وبائعو الرخام،
بعد شهرة ذلك النوع الذي ينتج عن تـمـازج لونين، الأبيض
والأحمر، فنجد الناتج لوناً زهرياً يقترب من لون جلد الإنسان،
تحديداً الهوانم النظيفات جداً، بعد حمام وبخار وتنظيف
وإزالة شعر، فنقلنا الاسم عنهن.

مهنة مملة، لا أعرف غيرها، توارثتها عن أبي، مهنة من لا
مهنة له، فمن الطبيعي ألا أشعر بإهانة إذا وصفت نفسي بأقذر
وأكثر الصفات وضاعة، وما حدث هو عقاب الله، ذلك لأنني
ببساطة، والله العظيم ببساطة، كنت مع خطييتي، عفواً مع
التي كانت خطييتي، في مركب صغير، أقبلتها وهي على وشك
الاستجابة، وأعتذر عن هجري لها، ثم فجأة، لم أر ملامحها!
بحياتي لم أتخيل نهايةً لمتعتنا كهذه. من الصدمة نهضت، ثم
تراجعت إلى الخلف فكان طبيعياً أن أسقط، ومن وقتها وكلانا
في النهر بلا معالم كأنها ذابت، هي على المركب وأنا أسبح،
ممسوح الهوية والقدر، لا أعرف أين مرفتي، وهل ما حدث
أمر اختصه الله بي وخطييتي أم البشر كلهم؟

العجيب في الحكاية أن شخصاً عادياً مثلي تحفُّه نهاية غير عادية، خاصة أنني ابن الأشياء العادية، السجائر المحلية، عصير "جهينة" الرخيص، المقهى الشعبي، الفطائر الشرقية، الأماكن التي يذهب إليها الجميع، أنا ابن الانتشار، حتى خطيبتني، كانت تضع الهاتف فوق خدّها الأيمن، وتسند به بحجابها، هذا المخبأ السري، وضعت به تذاكر السفر والأنفاق ومرآة صغيرة لتؤكد من رسمه حاجبيها! لم يعرفني التفرد يوماً، يستقبحني الاختلاف وأستقبحه، ولما يأتني ملك الموت. في أثناء رحلتي النهرية التي أتمنى مقابلة نهايتها، سيندهش من روتينية حياتي السابقة، سيستفسر: "إذا طلبتُ من الجبار أن يمدّ في عمرك، هل ستغفر؟" سأجيبه حينها، ولا أعرف كيف دون فم أو حتى أذن تسمع: "سأتعرف إلى أشياء عادية جديدة، لن أصير مميزاً أبداً".

أما ما يخص السؤال البدهي: "لماذا حدث ما حدث؟" أقولها وأنا في كامل قواي العقلية: "يُعاقبُ أهل الأرض مَنْ خلقَ العقابَ والأهل والأرض!" نحن نستحق ما جرى، أنا على وجه الخصوص غير منزعج، فقط جل ما أريده الوصول إلى النهاية، صار الموتُ غايةً وفي موقفِي الآن غواية! هل يا رب لأننا عرفنا كل شيء، ولم نتحرك، سَدَدْتَ إلينا سَهَامَ غَضَبِكَ؟ ليس السؤال مَنْ الذي على صواب ومن اقترف الأخطاء، السؤال - إذا سمحتَ لي جلالتك - أنت من بدأ غريزةً المَحْو، صرنا نعرف كل شيء عنّا، وما حدث بعد ذلك كان رد فعل. نحن البشر لن نتغير، فلماذا تعاقبنا على تواكلنا حتى نصل إلى مرادنا؟

عامّة، اكتب عندك يا رب: أقر أنا المواطن/ محمد عبد
القوي، عامل الدوكو، الذي كان يقبض في المانيكان الواحد
خمسة جنيهات، السابح الآن في مياه النهر إلى ما لا نهاية،
غير العارف بمصيره، أنني آسف على فعلتي، ولن ألمس منة
خطيبتني مجددًا حتى نتزوج، فهمت عقابك لنا، أما إذا كان
ما حدث أصاب البشر جميعهم، وهذا هو يوم القيامة، فهل
تحاسبنا الآن؟ كفاني سباحة في النهر وحدي.

المدينة الفاضلة (تفاصيل الدهشة الأولى)

عامل الدوكو

في أثناء قعوده على المرحاض، صباح يوم عادي، في حين تتناوم عيناه، دخلت إليه الحمام فكرةً بلا استئذان! صفعه الانتباه، والمفروض أن شخصاً مثله يستفيق، الحقيقة لا نعلم ماذا سيفيد العالم، استيقاظ عامل دوكو مبكراً! على أي حال بدأ في استيعاب الدنيا من حوله، سأل الصمت فجأة: "لماذا لا يُحسب عمرك منذ الحمل؟ أعني بعدما لفظني رحم أمي -رحمها الله- لم يدوّن أي اسمي وعمري وقتها، الذي -حسب المنطق والتفكير الصحي- تسعة أشهر! أنا في الحياة -على نحو

ما- منذ تسعة أشهر وليس لحظة ولادتي! هل هذه الفكرة التي عرفتُ أنني سأفكر فيها؟ أم أنها صدمة ما بعد الحلم اعجيب المُتكرر، حلم قتل الطفل الصغير؟"

خرجَ إلى الصالة الضيقة، ومنها إلى غرفته الوحيدة الأكثر ضيقًا، شقته غرفة نوم وصالة وحمام ومطبخ، لا مفر من الذهاب إلى العمل، الفكرة بنت الأبالسة تتقاذز حوله. سمعَ صوتًا يسبُّ الدين بالأسفل. في منطقته -شارع السد بالسيدة زينب- قد تقوم الخناقة في ثوانٍ، ثم تهدأ في ثوانٍ. فتحَ النافذة، إذ ربما تكون خطيبته مئة من تتعارك، عاجلته جارتها التي تسكن أمامه مباشرة، ويعرف متى ينام معها زوجها بسبب قرب البيوت من بعضها: "صباح الخير يا محمد، لا تشغل بالك، عربي لا يؤمن بفكرة مدينتنا الفاضلة، غازل بنتًا من بنات مدرسة السنية". دخلَ وصدر جارتها الخارج من عرينه يزار في مخيلته، يسارر نفسه بفرج قريب، أعصابه قاربت على الانهيار، ومئة بنت محترمة ترفض تحرشاته البريئة.

اليوم هو يوم اليتيم، طبقًا لقانون المدينة الفاضلة الجديد. ظنَّ محمد أن ربما هذا العربي منهم، ولمَّا لم يجد من يحنو عليه ثار على مبادئ مجتمعهم المُستحدثة. هذه -كما يقول عبد القوي لنفسه- السيئة الأولى التي يراها أمامه منذ ما حدث لعالمهم.

رَنَ هاتفه القديم، الذي نسي بسبب قدمه متى أو من أين حصل عليه. رقم مئة العجيب، تركته غاضبًا منذ البارحة

بسبب ملابسها التي تتحرر من الحشمة مؤخرًا. نعم يعشق البنات وأجسادهن وفتنة صدورهن ومؤخراتهن، لكن الأدب أدب! لم يرد على مكالمتها، لبس القميص الأسود السادة، البنطال الأسود، الحذاء الأسود، النظارة السوداء، بقرفي من الحياة قالها: "اجعله يا رب يومًا أسود على المحل وزبائنه".

نزل إلى شارعهم، الزحام من الثامنة صباحًا، صباح الخير يا أم العواجز، يا صاحبة المقام يا سيدة زينب. المحل يبعد عن البيت مسافة عشر دقائق، ومع ذلك كان أول الحاضرين دومًا، وذلك لسبيين، أولهما كي يرى منة، التي تعمل بمحل ملابس حريمي بالقرب من المحل، قبل بدء وردية عملها، وثانيهما لأنه الوحيد عامةً، فلا يوجد صنايعي أو صبي يُساعده!

رائحة الفول تلاطف الطعمية، بائع المخللات يفتح محله، شحاذو المقام وعاملو النظافة، كلهم في أماكنهم، يستعدون ليوم رزقي جديد. يتخيل الشمس فوقه، تشرب قهوتها مع السحاب، تقول له: "لن ألسعهم، يا الله! أطفال المدارس شكلهم لطيف! انظروا! موظف غلبان يمر! خذ لسعة على قفاك!" أبواق السيارات وعربات النقل العام، الشد والجذب، ميدان السيدة زينب المزدهم طوال الوقت، رائحة ملابس المدارس الجديدة، عرف من الحركة الغربية والمضطربة أن اليوم هو بداية العام الدراسي.

وصل إلى محل منة، تكنس التراب، تتظاهر بعدم رؤيته، مرّ بجانبها كأي غريب يمر، نادته في حقيق: "محمد!" حين تنطق

اسمّه، تغسله من عفن يوم عمل، من روائح العرق ورذاذ
الكمسري، من عبوس الزبائن وطلباتهم الغريبة، حتى صدر
جارتها، ينسأه مع جمال اسمه، الواقف خلف مشربة فمها.
رجع إليها، خطفَ نظرةً إلى صدرها، الذي يعاني ليعلم وجوده
من خلف العباءة السمراء، والذي يعرف جيداً أنها تلبس
حمالة صدر لترفعه أعلى من وضعه المعتاد. سألتها في هدوءٍ
مصطنع: "أهكذا يعجبك وسع ملابسني؟ أم تريدني أن ألبسَ
كالمهرجين؟" إذا قالت منة جملةً كاملةً دون أن تنهيها بقرفٍ أو
خراء الكلام، سيشعر أنها ليست بخير!

"صباح الخير يا منة، نعم يعجبني هكذا، أنتِ جميلةٌ على
أي حالٍ، ولا يحتاج جمالكِ إلى إضافاتٍ لتظهره، مع الوضع في
الاعتبار كلام مجتمع السيدات، طبقاً لدستور مدينتنا الفاضلة،
عن الحشمة والتخلص من العُري! بالمناسبة سنخرج بعد
الوردية، سنذهب إلى دار أيتامٍ أولاً ثم إلى السينما، أرجوكِ لا
تخبريني بوضع المبلغ في تجهيز الشقة، وهذا أفضل من صرفه
في تفاهات المخطوبين، المال الآن بلا قيمة، مدينتنا الفاضلة تكره
المال، وزواجنا يقترب بصورة مُبشرة، على ما أعتقد يعني".
مشى إلى المحل، لم ينتظر جواباً منها، يتصرف اليوم بغرابة. مما
عُرفَ عن محمد عبد القوي، حياته العادية، لا يفكر كثيراً، لا
يُرهق باله بالتفكير عمومًا. نظريته البسيطة في الحياة؛ ضياع
الأيام حتى الموت مجهودٌ يستحق الراحة يوميًا.

وعلى الرغم من نظرية عبد القوي في الحياة، فإنه يعرف
معلومات عن الأشياء، يُقسم لنفسه يوميًا إنه لم يقرأ أو يسمع

عنها، ولا يعرف من أين له بتلك المعلومات، لذلك ينصرف عن التفكير بدافعٍ داخلي يُخبره أنه موسوعة متحركة، وبدافع آخر، يتدافع مع الدافع الأول، ويوصيه في كل يوم: "دع التفكير، سنموت بلا قلق!"

رفعَ بابَ المحل الصغير الكتيب، الإضاءة الخافتة بالداخل التي ينساها ولا يطفئها قبل رحيله، رائحة الدُوكو والماء المختلط بالزيت والدهانات، الجو المكتوم نتيجة سوء التهوية، الكحول والمزيلات والسكاكين المعدنية، العطور الرخيصة التي ينثرها أحيانًا للتغلب على رائحة الزيت النفاذة الذي يفضلُه بعض الزبائن في طلاء المانيكان بالأسود، روائح صمغ الملصقات، ماكينة غسيل السيارات الصفراء الموضوعة منذ زمن بعيد، يستخدم مسدس الماء خاصتها في تنظيف المانيكانات. كان أبوه -رحمه الله- يغسل السيارات إذا ما نامت الحال، ولكن مع اختفاء المهنة، أو بمعنى أدق مع اختفاء المتخصصين في مهنته، لم تَتم الحال معه عامةً، جنيهاً قليلة ولكنها يومية، اليوم يمر وجيبه عمران بالخمسات.

أدار المُذْياعَ على صوت الست، تغازله بالشوق وتأوهاتِها من الشوق وعمايله. وقف أمام مانيكان لونه أبيض وصاحبه يحتاج إليه بعد نصف ساعة من الآن. نزع ورقة ملتصقة بكتف المانيكان، تركها لنفسه البارحة، فتحها وهو يسعل: "لحم الهوانم".

سمعَ صوتَ نَحْنَحْتِهَا، قالتُ في دلالٍ يعشقه: "بعيدًا عن جلفك في التعامل مع الأنثى، نسيْتَ إقطاركَ معي يا سيدي وتاج رأسي"، تأملَ جسدها النحيف مجدّدًا، ونظرَ إلى الورقة قبل أن يرميها، بسمَلٍ وخلَعَ حذاءه، لم يجدَ علبةَ السجائر في جيبه، الستُ تسألُه في المذِياع وما العمل؟ وتستنكر عليه حرمانه منها وهو الأمل! سألَ منة: "هل يأتي يومٌ ويطلب مني العالم أن أدهنّه بلحمِ الهوانم يا منة؟" لم تفهم السؤال، ضحكٌ حد السعال، أشاحَ يديه، وجدَ سيجارةً فوق ماكينة غسيل السيارات، سحبَها ليسحبَ فتنتها إلى رثيته، قال لمنة الواقفة في ذهول: "منذُ صحوْتُ والأفكارُ تتلاعبُ بي يا منة، من الواضح أن عقلي ينهني لضرورة استخدامه قليلًا، ولكن لماذا أرهق نفسي في التفكير أو إثبات خطأ ما فعله الغير؟ السينما يا منة بعد الوردية. اذهبي الآن، رزقي واقف، إذا كنتِ تعرفين ما هو رزقي أصلًا!"

ابنة الشوارع

في حارةٍ ضيقة، داخلَ بنايةٍ قديمة، بشقةٍ أكثرَ قدمًا وضيقًا، لا يدخلها هواءٌ ولا تعرفها النظافة، تنامَ نعمة على بطنها أرضًا، ذلك لأن صاحبَ الشقة طلبَ هذا مقابلَ وجبةٍ وربما يعطيها مالًا. البنْتُ سمعتَ الكلامَ ونقذتْ ما أمرَ به، الرجلُ يتوددُ إليها لتخلعَ بنطالها كما علّمها، يُقسمُ بعدمَ لمسِها تمامًا، سيشاهد من مكانه، لم ترفض له طلبًا، تخلعَ البنطال وتثبتَه

بعد عجيزتها، تجلس في وضع السجود فتبرز مفاتها السفلى في شكل يحرك الجبل والحجر، مدح الرجل النبي، ثم مدح الخالق ومدحها، ولم يتكلم بعدها، يمينه تكتم فمه، ويساره تكتم على لحم منتصب بالأسفل، قبل أن يسب نعمة: "الله يحرق سنينك يا نعمة! عليك الدورة وتأتيني وأنا هائج!"

نعمة، ابنة الشوارع والعشرين، الجميلة بهدوء، الفتاة بهدوء، المثيرة وهي بملابسها المربعة دونها، كلما شاهد أحدهم بقع جسدها هذأت ثورته وابتعد عنها، إلا هذا الرجل، كان الأذكي بينهم جميعاً، صاحب محل كشري، وهذه الشقة لنزواته، التي كثرت مع نعمة، صاحبة الرقم القياسي في فك زنقته، كما يقول لها دومًا.

إذا ما تغاضينا عن بقع نعمة المنتشرة في أماكن مختلفة على جسدها، فهي صاحبة ملامح هادئة، وجهها عادي، ليس نحيفًا ولا يدركه الخير الوافر، البين بين هو الوصف الأدق، جسدها ثورة في حد ذاته، قصيرة القامة، الأرداف تغذيها الطبيعة، الصدر هو أكثر ما يلفت الناظرين إليها، وطبقًا للمقولة القديمة: "كثرة الضغط عليهما يفجرهما حجمًا وجمالًا"، وهذا ما يعتقده الجميع، صدرها كبير لكثرة ماسكيه وضغطيه، قوامها قوام الساعة الرملية، وهذا في عرف النساء وسوقهن نعمة من الله عليهن، ولكنها لم تشكر واهبها قط، يوميًا وهي ترى أن أي رزق أو أي إضافة إليها ما هو إلا اعتذار منه على مرضها، الذي لا علاج له.

رفعت بنطالها وقامت، تمسح يديها في قميصها، تسأله بنظراتها عن الوجبة أو المال، نظر إلى الباب فخرجت قبله، قال لها وهو يغلق الباب: "هذه المرة ليست محسوبة يا بنت الحرامي، اذهبي إلى المحل، عطوة معه كل شيء، وجبتان وعلبة عصير وتفاحة، الله يسامحك على هذا القرف".

ركضت إلى المحل، لم تركض من الفرحة، ما يدفعها هو العوز، وتصميمها العنيد في الحصول على حقها، لن تترك فرصة أبدًا، كلمة "فرصة" في قاموس نعمة تعني مالاً أو طعاماً أو شرباً أو كل شيء يفيد، كل شيء ستحصل عليه، بجسدها المغطى، وهذه هي المفارقة العجيبة في حكاية نعمة.. أنثى تغريك وهي بكامل ملابسها، أو تزيج البنطال قليلاً حتى رسمة الصدر التي يلهث خلفها الرجال، لم يلهثوا خلفها عند نعمة، يكتفون فقط بمشاهدة شكل الصدر في الملابس الضيقة والمداعبة، ما زرع في نفسها غضباً عظيماً، يبدأ ضد الخالق وينتهي إلى أضعف مخلوقاته.

تجهل نعمة الملابس القصيرة أو المفتوحة، فستانها دوماً ضيق، يصف الجسد بكامله، لكنه طويل والأكمام أطول، وأسفله البنطال القماشي، أسود وضيق جداً، صيفاً شتاءً لم يتغير نمط تفكيرها، ستدثر البقع ولو على حساب نسمات الهواء، تضع مساحيق التجميل خاصة البودرة، لأن بقعة تكبر يومياً، فوق حاجبها الأيمن، ما يدفعها لتغطية الأمر، حتى لا تخسر نظرات الناس نهائياً، الناس الذين تكرههم، وفي الوقت ذاته

تتعامل معهم مجبراً، الناس الذين يتغزلون في جمال جسدها،
ظاهرياً فقط.

الشارع ليلاً في مركز أبي حماد بمحافظة الشرقية مفعم
بالحياة، المقاهي الشعبية ومحال الحلويات والبقالة والكشري،
العربات تمر والدراجات البخارية لا ترحم، سائقو التوك توك
يعرفونها اسماً وجسداً، لا يجروا أجدعهم على مغازلتها، لا يجروا
أحدهم على الحديث إلى نعمة، التي تمشي بكيس من البلاستيك
لونه أزرق، به أكل وفوط صحية وسكين لزوم ما يلزم.

وقفتُ على الرصيف المقابل للمحل، اللافتة الكبيرة المضيئة:
"كشري أبو عطوة"، لمحتُ عطوة يدخل ولا يهتم للزبائن،
تأكدتُ من اختفاء البقع تحت ملابسها، نادته بصوتٍ واثقٍ،
تغافل عنها متعمداً، رفعتُ حجراً كبيراً من الأرض، ضحكاً من
جنونها، أشار لها أن ترميه بعيداً، تحرك ناحيتها، عطوة هو
الرجل الوحيد الذي تحبه نعمة، عطوة هو الشخص الوحيد
الذي يعرف ما تفعله مع أبيه، ولا يمانع لأنه لا يحب نعمة،
بل يشجع من جسدها فقط، الحكاية المعروفة التقليدية،
البنات الفقيرة التي يتسلى بها الغني، وهي هيلة وتصدق.
أما بالنسبة إلى نعمة، البنات متأكدة من أنه لا يحبها، وهي
تقنع نفسها بحبها له، كي تشعر أنها مثل البنات، لديها
حبيبٌ يعذبها بقسوته عليها. المسكينة تراه وسيماً إلى حدٍّ ما،
جسده الضئيل وقامته القصيرة، شعره الأسود الطويل، الشارب
الخفيف، البشرة القمحية، الأسنان الصفراء بفعل السجائر،

رجلٌ شعبي درجة أولى، في الحياة العادية لن تنتظر إليه أنثى حيوان الكوالا، ولكنها حكمة الله ولن نعترض.

غازلَ جمالها، لم تتفاعل معه، طلبتُ منه الأمانة، سألتها في وقاحةٍ فجأة: "هل استمتع أبي؟ هل أخرج من خيره كثيرًا عليك؟" لم تجب عن السؤال، طلبتُ منه الأمانة مجددًا، قال لها: "لن تحصلي على شيءٍ قبل أن أعرف! هل استمتع؟ الإجابة مقابل الأمانة يا بنت الوسخة!" بإيماءٍ بسيطة فهمتُ، ضحك وهو يُخرج من جيبه ورقةً بخمسين جنيهًا: "خذي يا سافلة، لقد أكلت الكشري والفاكهة وشربتُ العصير، ليس خسارة في حبيب قلبك، بهذا المال هاتي ما تريدين"، ثمّنتُ لو تقتله الآن، لو رفعتُ الحجرَ مجددًا ورمته عليه، ثمّنتُ لو سقط من السماء أهل الجنة فوقه جميعًا.

بحركةٍ إغراءٍ مُحترفة رفعتُ فستانها من الخلف لتضع الورقة في جيبها، جيبها المحفوظ، لأنه ساكنٌ فوق مؤخرتها. بلع ريقه وحرك قضيبه من تحت الجينز المُستفز، ثم هدهدها بصوتٍ واثق: "إذا عرفَ أحدٌ بما يحدث بينك وبين أبي، سأقتلك يا نعمة! أنا لا يهمني إطلاقًا مدينتنا الفاضلة، أنا أحبُّ الذنوبَ عامةً، وخدمة أبي خاصةً. مع السلامة يا نقمة". المزاح السخيف الذي تكرهه، حين يستبدل حرقًا من اسمها ليغيّر معناه تمامًا. مشّت إلى موقف السيارات دون أن تردُّ له تهديدًا أو وعيدًا أو حتى سبة، لم يعجبها الموقف المزدهم الذي يستطيع الواحد من خلاله الذهاب إلى الزقازيق، فرجعتُ وجلستُ على الرصيف المقابل لمسجد "العسال"، وهو أجدد المساجد المُفتتحة قريبًا،

وجعل للشارع قيمةً ووقارًا، لحدائثة طراز البناء، وللراحة النفسية التي قللت من دخان المقاهي المنتشرة.

راقبت المارة، سبتهم بصوتٍ عالٍ، بعدها نظرتُ إلى السماء وقالتُ: "أين العدل يا صاحبَ العدل؟ أيرضيك ما يحدث لي؟ طبعًا لا يهتمك، أنت إلهٌ جالسٌ فوق العرش، يعبدك الكل، يسبح لك الكل، وأنا المطرودة من كل شيء.. لماذا كتبتُ عليّ الشقاء؟ لن تجيبي عليّ أي حال، كعادتك كل يوم".

عامل الفخار

يجلس في المنتصف، يسمح على الخبز، يعطيه لتلميذه، يشير إليه أن يقترب، يقوم من مكانه فورًا، يبتسم ويربتُّ على كتفه، ينهض ليخرج معه من غرفةٍ نورها هو، إلى حقلٍ بديعٍ فرجٍ بنوره، أعواد القمح وسنابله ترقص لوجوده بالوسط، نسمة هواء خفيفة تداعب ممشاهما، يقول له: "يا فيليب، حين تحل عليكم المصيبة، أريدك أن تذكرني كثيرًا، أنت رجلٌ مؤمن، نبراسُ إيمانٍ في ظلمة دنياكم". لا يتكلم فيليب، ينظر إليه فقط ليشتيع من ملامحه الدافئة، وجهه المريح، ابتسامته الممزوجة بالحكمة، جماله العظيم الهادئ، شعره الناعم المنسدل، نظرته التي تحملها إلى الراحة، جلاببه الطويل المصنوع من الصوف، رائحته التي لا تفارقه.

يحدثه: "يا فيليب، النار لن تمسك، أبناء الملكوت لا يعرفون العذاب، حين يحدث ما يحدث، اذكرني، صل لي، أنت غيرهم، الملكوت في بياض قلبك"، ثم يسبقه بخطوات، يلتفت إليه، يشق الحزن مسارات وجهه، يمد يده، يخلع فمه، بعده أنفه، فأذنيه، يراقب فزعّه، ينزع عينيه، ثم يصلب نفسه في الهواء، جسد يتلوى من جراحات لا يحتملها سواه.

يفتح عينيه، حلم كل يوم، في الماضي كان يستيقظ مفزوعاً، لكنه منذ فترة أقنع نفسه بأن رؤيته للمسيح وكلامه كافي. حاول كثيراً أن يغير مسار الحلم، خصوصاً مسألة مبادلتها الحديث، بلا فائدة، يتكلم ويسمعه، متى يا فيليب يبارك الرب اسألك؟ يد ناعمة تمسح على شعره، يد الست أم مينا، تسأله في وداعة مريم: "الحلم يا فيليب؟" من ابتسامته تعرف الإجابة، ومن حركتها المفاجئة يعرف الآتي، حين تنهض بجسدها المملوء لحماً وجباً، تسند رأسه إلى صدرها الحنون المكتنز، تقول بعدها: "يسوع يحبك يا فيليب، حظك من السماء، إياك والبعوض لأحد يا فيليب! أنا بئر سرك الوحيدة!"

تساعده على النهوض من السرير، تنظر إلى عضوه المنتصب بفعل طبيعة الصباح وطبيعة صدرها، تضحك في غنج لم يتغير منذ ثلاثين عاماً، تفهم من نظراته مدى شوقه، تتحرك بسرعة ناحية الدولاب، تختار قميص نوم، تضعه على السرير بجانبه، تخرج وتغيب قليلاً، ترجع بطست الماء وآخر خال، العادة التي أقسمت عليها، ما دامت الروح لم ترافق يسوع بعد، لن يغسل وجهه أو يبول بنفسه، تسحب ذكوره ليتبول، تنتظر

رعشة جسده، حتى ينتهي، تغسل وجهه بالصابون، تسند إلى فخذه لتقوم، تخرج بالطستين، ليبدأ فيليب في ارتداء ملابسه المتهالكة، البنطال الذي نسي لونه الأصلي، القميص الأحمر المثقوب من المنتصف، ينظر إلى المرأة المثبتة إلى باب الدولاب، يتأمل مظهره الكتيب ثم يخرج إلى الصالة متوسطة المساحة، يجد مينا جالساً على الأريكة الخشب، يقرأ في الإنجيل، يغلقه حينما يلحظه، يقوم إليه وينحني ليقبل يمينه، يقول له كل مرة: "يا مينا، نحن نقبل يد القساوسة ليمنحونا البركة، لماذا نقبل يدي؟" يضحك وهو يقبل اليسرى.

"يا فيليب الروح ويا مينا القلب، الفول جاهز". ثلاثون عاماً وهي تقول له "يا فيليب الروح"، ولما شرفهما مينا بالمجيء صار "مينا القلب". جلسوا إلى المنضدة المستديرة التي تواجه لحمل طعامهم، المفروش الذهبي العتيق، صحن الفول والطعمية، البطاطس والجبنه والمخللات والسلطة، أم مينا هي أسرع من يحضر الطعام!

جلسوا والمسيح رابعهم، يراه أمامه بلا ملامح، يُطمئن دواخله، بأنه يبتسم خلف هذا الوجه الممسوح، وقبل أن يمد يده إلى الرغيف يسقط مينا على الأرض، ينزف من عينيه، يتقيأ دمًا، تصرخ أمه، تقول للمسيح: "افعل شيئاً!" لا يتحرك المسيح ولا يتحرك مينا! تضربه في عنف: "هل مات يا فيليب؟" ثم تضحك فجأة، وتقول له، وهي تتعري لترقص: "نعم يا فيليب! لقد مات! مثلما ماتوا من قتلهم بنفسك! يا حامل الأكاذيب!"

يقوم فزعًا من النوم، الحلم الطويل المتكرر، في الواقع هما حلمان متداخلان، يعجز عن تفسيرهما، يقتلان راحة نوميه على فتراتٍ متقاربة. ينظر إلى ساعة يده، الثانية صباحًا، لا تشاركه القلق أم مينا، تقول له وهي نصف نائمة: "البصارة صعبة الهضم لمعدتك، ثم يا فيليب، ثم".

ابن طاهرة

كما جاء المسيح مخلصًا للبشرية، وعرفوه فاديًا وقدم خلاصًا تامًا أبدئيًا، كذلك فعل محيي ابن طاهرة، نظرًا إلى تطابق الشبه بينه وبين المسيح، ظل يبحث عن وظيفة، تكسبه ما يعينه على المعيشة، ولا تطلب منه مغادرة البيت، فيقابل كائنات العالم الخارجي المخيف، حتى عثر على مراده، وعمل مصححًا ومدققًا لغويًا، أقنع نفسه بأنه مخلص البشرية من الأخطاء اللغوية، هذا الأمر الوحيد الذي تقبله في مسألة تطابق الملامح، سيصحح أخطاءهم، سيكرس حياته لتخرج كتب إلى النور، كتب صحيحة مُصحَّحة، فلا يشعر قارئ بالضجر من كتاب ركيك غير مُدقق، ولا يحس كاتب أنه بلا فائدة لضعف لغته وركاكتها وعدم تمكنه، خاصة أنه تم حظر النشر بصورة عامة في مصر، واقتصر الأمر على مجموعة من الكتاب تنشر لهم الحكومة متوجههم الأدبي.

في ما يتعلق بالنشر حاليًا، فالحكومة هي من تتكفل بالأمر، مع تخصيص أماكن لبيع الكتب، وضرورة الاحتفاظ بإيصال

الشراء للتأكد من حصولك على الكتب المراد توزيعها، وذلك ما تعاد إذاعته في النشرة اليومية، سواء في التلفاز أو المذياع، بجانب تذكير المواطنين بعقوبات المخالفين، السجن على أي حال هو النهاية الثابتة، واختلاف المدة هي الحقيقة المتغيرة.

لم توافق الحكومة على تعيين محيي، الحضور يوميًا هو الشرط الأساسي الأول، وشهادة تخصص في اللغة هو الشرط الأساسي الثاني، راسل محيي دور النشر العربية والخارجية، لم يكمل قراءة سيرته الذاتية أحدهم، الاسم والعنوان، ثم المؤهل التعليمي، وهو حيرة محيي الأدبية، لذلك كتبه (مؤهل متوسط)، ودائمًا ما كانت الجملة الأخيرة، قبل رفض طلبه، حتى حدثت معجزة المعجزات، كما أطلق عليها محيي ابن طاهرة.

في يوم من أيام الرفض، غادر منزله، لم يخبر طاهرة عن وجهته، خرج ليجاور خيالاته في تمشية، وجد عجوزًا تبكي على بعد خطوات من عمارته في شارع رمسيس بالقرب من مسجد الفتح، العجوز تشير إلى المسجد وتصرخ: "افتحوا جامع باب البحر، افتحوا جامع باب البحر". لم يساعدها المارة، يضحكون على جنونها، إلا محيي ابن طاهرة، هو الوحيد الذي اقترب منها، سكتت لما شافت رجلاً يشبه المسيح، بكثت وقالت: "هل حان وقتي؟ أستقبض روحي بنفسك؟ ملاك الموت مشغول إلى هذه الدرجة؟ هل أنا مهمشة ولا تراتي السماء فيرسل الله إليّ المسيح ليقبض روحي؟" بكثت بحرق، طلبت منه أن يهملها وقتًا حتى تفتح جامع باب البحر، قال لها إن هذا المسجد اسمه

الفتح، وإنه ليس المسيح ولن يقبض روحها. صرخت به: "هذا جامع باب البحر، ارجع إلى تاريخك واعرفه، أم أنك مسيحي كالمسيح الذي تشبهه؟" رفضت العبور التكلّم معه، والتفت إلى الناس تناشدهم فتح الجامع.

تركها للتهيئات، مشى بعيداً، مشى طويلاً، لا يتحدث إلى أحدٍ ولا إلى ذاتِه، لم يزعجه صوتُ العربات أو آلات التنبيه، لم ينتبه إلى نداءات الباعة أو شتائم السائقين. ما سحبه من دوامات التيه صوت أنثى تستغيث بمن حولها من ذلك الشاب الذي يدّعي أنها حبيبته، وقف بين المشاهدين، البنْتُ تُقسِم للجميع إنها لا تعرفه، والشاب يضحك ويقول: "إذا لم تكن حبيبتي، هذه تهمة خطف صريخة! لماذا قد أفعل ذلك بنفسِي!" قالت امرأةٌ في تهكم واضح: "من الواضح أنها تخلع من علاقتكما، الواسع يحمل من الأحباب كثيراً، اتركها تذهب إلى القوَّاد الذي تريده، أنت شاب محترم". البنْتُ تبكي وتستغفر، تقسم وتحوقل، الجمهور بدأ في الصياح، صاحوا كلهم: "اذهبي مع خطيبك يا شرموطة!" لم يدافع أحدٌ عنها، ولما أحس الشاب بانتصاره، وانضمام الجمع إلى صفّه، سحبها من شعرها، وعند اقترابهما من المرأة، صفعت مؤخرة البنْتُ وقالت بصوتٍ مسموع: "هذه المؤخرة فعلاً لعاهرة، والله الواسع يحمل من الأحباب كثيراً، ومؤخرة البنْتُ هذه تُغري الملائكة قبل البشر!"

رفض التدخل هذه المرة، رجموها بإهاناتهم، رموها بحجر سوء الظن، تقاعسوا عن التأكد، اكتفوا بحجة الشاب. أكمل محيي ابن طاهرة مسيرته، مسيرة الخيبة والألم، حتى توقف

أمام كاتدرائية القديس مرقس، الشهيرة بكاتدرائية العباسية، تعجب من طول المسافة التي مشاها. ولم يشعر، قبل أن يرى نوراً في السماء فوقها، النور يجذب الناظرين، يتقلص ليشكل جسداً، الجسد تظهر ملامحه، الجسد للمباركة العذراء مريم، تطل من السماء، بنظرتها الحانية، وجلبابها الأبيض الفضفاض، حجاب رأسها الأزرق، تحيط بها هالة، هالة سماوية تثبت المعجزة. نظرت إليه وقالت: "ولدي"، سمعها واهتز قلبه، وقع على ظهره، لم يجرؤ على تحريك عينيه بعيداً، تنظر إليه، تشبع منه، بكث فسقط المطر، قالتها ثانية: "ولدي" واختفت، ساعده على النهوض شاب بسيط، اكتشف أنه من أمن الكاتدرائية، ركض معه إلى الداخل، بمجرد ولوجه إلى المكان رأى الشماسة والقساوسة والراهبات وزائري الكاتدرائية، مجدوا كلهم اسم المسيح، وباركوا نعمه وظهوره الآن لهم. وضح محيي ابن طاهرة من هو، اسمه وأنه ليس المسيح، والشبه الذي بينه وبين الصور، ضحك أسقف الكاتدرائية، وطلب من الجميع المغادرة.

قال الأسقف: "يدعونني نيافة الحبر الجليل الأنبا بطرس، الأسقف العام في القاهرة، نحن نعرف من أنت، نراك كل فترة، الكثير من أحباب يسوع حكوا لنا عنك، نعمة كبيرة يا ولدي أن تشبه ابن الإنسان، أنت تذكر الناس بوجوده، بما فعله لهم، لضعيف الإيمان الذي شكك، تذكرهم بمن فداهم ليخلصهم من خطاياهم. يا ولدي، أنت لا تعرف كم الراحة التي أشعر بها لمجرد وقوفي معك، وهذا نادراً ما يحدث، الراحة لا تعرف

الأساقفة، نحن نحمل الهم الأكبر لكل الكنائس في المدينة. ماذا أقول لك؟ أعتذر عن حديثٍ لن يفيدك ولا يهتمُّك. قُل لي يا محيي ما مهنتك؟"

بعد توضيحٍ لما يمر به محيي ابن طاهرة من مضايقاتٍ وحواراتٍ وتنمُّر، عرضَ الأسقف على محيي العملَ لديهم في تصحيح كل الكتب الصادرة عن دار نشرٍ تابعة للدعوة التبشيرية، ومُصرِّح بها من قبل الحكومة، تدخل في نطاق النشر الحكومي، وشرَّح له أنها كتبٌ متنوعة، أبحاثٌ وسير ذاتية واجتهادات وروايات وقصص، والمطلوب منه تصحيح الأخطاء والتدقيق، وأي خطأ في المعلومات الواردة إذا كان يملك دليلاً. فليتواصل معهم أولاً، ويستطيع البدء غداً.

شكره محيي على كرم عرضه، وقبل أن يغادر سألَه عن النور الذي ظهرَ في السماء. ابتسم الأسقف وقال له: "أي نور يا محيي؟ عامةٌ هنالك معجزات لا تظهر إلا لصاحبها، فلا تقلق، ما رأيته يخصك وحدك، نحن رأينا فقط المطر الذي باركنا في الصيف". عاد محيي إلى منزله، ومعجزة المعجزات في باله، ذكَّرتَه طاهرة بأن اليومَ هو يوم المُسنين، وأنها في طريقها إلى زيارة أحدهم، مع جملتها الشهيرة: "الأكل في الثلاجة، سخَّنه وبالهناء والشفاء على قلبك".

أيام الدهشة الثانية

محيي ابن طاهرة

طبّقاً للتقرير الشهري الذي ترسله الكنيسة، لقد صححتُ لهم ما يفوق الثلاثمئة كتاب، لم أقابل كاتباً واحداً، لم أرَ البهجة اللامعة في أعينهم، كل خطأ لغوي اختفى زاد من ثقة المؤلف. في الحقيقة ما ضرتني عدم رؤيتهم، بل ساعدني في سمو رسالتي، الرجل الذي محا أخطاء! يومياً يهاجمني الهاجس الأشهر: "الخطية كلمة مختلفة تماماً عن الخطأ"، ومع ذلك تجاهلته، هديتُهم بوقتي ونظري ومكوثي في البيت، فديتُهم بمعاناتي المستمرة، فديتُهم باستسلامي التام لتناسخنا.

قبل خضوعي ذاك، ولحماقتي وعدم نضجي، ظننتُ أنني مع حلق شعري مثلاً لن أشبهه. الغريب أنني مع كل خطية في

حربي لقتل الشبه بيني وبين المسيح، تطابق الشبه أكثر! أذكر هذا الوقت الذي صرْتُ فيه حليقَ الرأس والذقن، خرجتُ إلى الناس، إلى أماكن لا يعرفني الرجل فيها، حتى لاحظتُ نظراتهم، التعجب ذاته. كم صرختُ بداخلي: "ألا يوجد ولو واحد بالمنة اختلاف عنه!" بعد عشرات المحاولات، والبُكاء في حضن طاهرة، أيقنتُ أن المسيح لن يتركني إلا مع نزولي إلى القبر.

ثم تأتي المعاناة الثانية، أين سأدفن؟ طاهرة ليست أمي، هذه الطاهرة وجدتني أمام البناية، سكان العمارة كلهم رفضوا الاقتراب مني، كنتُ -وفقًا لما قالته- في حالة مُزرية، فاقد الوعي، وبعدها عرفتُ أنني فاقد الذاكرة. حملَ جسدي البواب وطاهرة ورجلٌ عجوز إلى شقتها بالدور الخامس، ثم غادر البواب وقال العجوز: "فليكن معلومًا عند جميعكم وجميع شعب إسرائيل، أنه باسم يسوع المسيح الناصري، الذي صلبتموه أنتم، الذي أقامه الله من الأموات، بذاك وقفَ هذا أمامكم صحيحًا"، سأله البواب عما يقول، فابتسم العجوز ورحل.

لما قامت الروح وسحبَتْ معها الإدراكَ بما حولي، وفتحتُ عيني، سألتني طاهرة: "من أنت؟" السؤال كان صعبًا، وقتها كان من الممكن أن أخبرها أين الله، لكن من أنا؟ لم تُهلني وضربتني بالأصعب: "ما ديانتك؟ ما مدينتك؟ كيف جئت إلينا؟" السؤال الواحد بمثابة مسمارٍ، مسمارٍ معدني طويل، مثل الذي استخدموه في صلب المسيح، صلبتني طاهرة بأسئلتها.

شرحت طاهرة الوضع لي، رجل غريب، لا نعرفه ولا يعرفنا، يشبه المسيح، فاقد الذاكرة، يجهل اسمه وديانته ومدينته، رجل بحسب ما لدينا، أقر من السماء. رفضني الناس، أوتني عجوز، ولسهولة التواصل معي سميتني "محيي". تغاضت عن أي شيء آخر، لم تدفعني لدين بعينه، الناس شافوا ما فعلته، عرفوا قصتي، فعرفت بينهم محي ابن طاهرة، الذي يخرج أحياناً، حتى لا ينسى البشر والشوارع.

منذ هبطت إلى حياة طاهرة، وهي تتحمل تكاليف المعيشة، معاش بسيط مبارك بطريقة عجيبة، طوال وجودي معها لم تقل لي يوماً: "نفد المال؟" وبالصدفة البحتة اكتشفت طاهرة أنني أستطيع القراءة، فوفرت لي كتباً، لعل كتاباً ينتشلني من جهالتي، كتاب يتبعه كتاب، كُنْتُ حصيلَةً لغوية ومعرفية مرعبة، ومع أي موقف تنمّر، كنتُ أرجع إلى البيت وأقرأ، القراءة كانت ملجئي الوحيد من عالم كتيب يهزأ بك ساكنوه، مع أنه لا علاقة لي بالأمر، الله من ورطني، لماذا لم يوجهوا سخريتهم إليه؟

الحياة صارت أكثر جمالاً الآن، بقعودهم على الأرض، بوجودهم في كل مكان، ضعفاء، لا يقدر الواحد منهم على المشي خطوة، أو النفوه بكلمة، بلا ملامح، وأنا أسير بينهم، بلامحي وكمال جسدي، العالم صموت، هدوء عظيم، يُجبر المرأة على القراءة، أو الاستماع إلى الموسيقى، ربما التأمل في حياته، ومحاولة تذكر الماضي، الحياة بصحبة كتاب، بلا ضغوطات، توقفت الحياة بالكامل، لا وظائف، لا سعي نحو رزق أو تحقيق ذات،

لا صراعات، لا نحت في صخرٍ، لا خوف، لا نصائح مستهلكة، لا نظرات تعجيزية، لا قصص نجاحات مبتذلة، لا تنافس بكل أنواعه، لا شركات ترفض وترقد، لا زواج وتناسل والذي منه، لا تلفاز أو مذياع، لا جديد بالمرّة، فعلاً لا جديد نهائياً، الذين يفعلون كل ما سبق في مصيبة، وأنا تتوسدني راحة، أتمنى من الله دوامها.

توجهتُ إلى طاهرة، الجالسة في الصالة، بلا أي حركة، يعلو صدرها ويهبط، أمسكتُ بيديها، فضغطتُ على يديّ وانتفض جسدها، حركت رأسها في اتجاهاتٍ مختلفة، بسرعة وبعشوائية، تشعر أنها تبحث عن شيء، ثم مالت برأسها على صدري ببطء، تفهم منه أنها تحسب المسافة إليه لعدم قدرتها على البصر، شعرتُ بأنها تبكي من الداخل، قلتُ لها: "مسكينة يا طاهرة، لا تستحقين مصيرهم نفسَه".

فيليب

هل سنخرج من الفرن؟ ومن مصيبتنا؟ ومن هذا العالم المخيف؟ تحدّث إليّ يا مينا يا ولدي، حتّى لو بلغة الإشارة، قل لي كيف أخفف عنك يا صغيري، لا أطيق النظر إليك وأنت ضعيف، أبوك أضعف منك يا ولدي، يا ليت نظري ذهب قبل أن يذلني هكذا، نحن الآباء يسندنا وجودكم، أنتم عكاز العُمَرِ يا مينا، ليسوع حكمة في بقاء نظري، لكنّ الحزن هو من يقتلني كل ثانية.

علو المسافة بيننا وبين فوهة الفرن يؤكد طول مدة بقائنا هنا، إلى أن يمسك بأيدينا ملاك الرب، ويذهب بنا إلى ملكوت يسوع، ولأنني يا مينا لا أسمعك ولا تسمعني، فسأراقبك ولن أتركك مهما حدث. ماذا تفعل يا مينا؟ لماذا تضرب حائط الفرن؟ هل تظن أن شخصاً سيسمعنا بالخارج؟ أنا واثق بتعميم المصيبة يا مينا، كلنا يعاني، تعال في حضني يا ولدي، لا تخف يا مينا، أنا أبوك، لا تخف، لا تخف يا مينا، باسم الصليب، اهدأ يا مينا، اهدأ يا صغيري، لا تنتفض، أنا خائف مثلك، بل وأكثر منك، منذ كبرت وأنت ذراعي والشعور بالأمان. الموقف يذكّرني بيوم مولدك، الضعف والخوف ذاتهما، خرجت من ظلام إلى دنيا تجهلها، نهدهدك ونلاعبك، فتكف عن البكاء، تذهب إلى بز أمك لترضع منها، تسمع نبضاتها فتتعرف على هذا الصوت الذي لطالما صاحبك وصاحبه، لا تخف يا صغيري، أنا هنا، الموقف واحد مع كثير من الاختلافات، لا بز أمك ولا صوت تسمعه، لا رائحة ولا بصر، غموض مفاجئ تام، الدهشة التي لا دهشة بعدها.

سأفعل مثلما فعلت يا مينا، سأضرب حائط القرن بكل قوتي، لعل معجزةً تحلّ علينا، وينقذنا أحدهم، سأضرب الحائط لأثبت لنفسي أنني قوي يا مينا، سأضرب الجدار بجانبك، فتشعر بقليل من الأمان بسبب المحاولات، هذه طبيعتنا يا ولدي، نطمئن حين نحاول أو نشعر بمن يحاول لأجلنا، هذه نظرتي في الحياة من البداية، نظرية (الإنسان محاولات)، محاولة الوصول والنجاح والزواج والوجود والعيش والفرح والبقاء وتحقيق الذات، نظرية

عظيمة أو من بها منذ... الحقيقة يا مينا هذه نظرية وليدة اللحظة، وما العيب في ذلك؟ نعم هي نظرية سأومن بها من الآن، حتى إن لم تسمعني، لن أكذب عليك، حين ينتهي كل هذا البؤس، سأجعلها إنجيل حياتك، الإنسان محاولات يا ولدي، وأنا محاولة ستنجح لأن يسوع يرفعها.

نعمة

وقتما رماني أبي إلى الشارع، ليلاً بعدما نام الجميع، وجدتُ قدامي رجلاً، لا أعرفه ولا يعرفني، خلَعَ ملابسه وركض، أسرّني الفكرة، مشيتُ عاريةً لأنني كنتُ وحدي، نام الشارع والطريق وأعين الناس. وأنا ابنة السابعة، خلعتُ عني قمّاشَ السر، جريْتُ ابتهاجاً، تفافزتُ كالفراشات، إلا أنني وجدتُ هذا الرجل يقترب مني، ويطلب أن نلعبَ معاً، وركض، فجريْتُ خلفه، حتى وصلنا إلى مصنعٍ مهجور، دخلتُ معه وأنا خائفة، وخرجتُ منه وفتحة شرّجي يسيل منها الدم. قال لي الرجل وقتها: "أنتِ جميلة وزوجتي، لا بد أن نفعل مثل الكبار، أنتِ كبيرة وجميلة، ويجب أن تفعلي مثلهم!" فعلها الوسخ وهرب، ولم أر وجهه ثانيةً، والحقيقة لم يهرب لأنه وضع فرجه الكبير في فتحةٍ تُخرج برازها بصعوبة. بل ركض لما وجد الدم الخارج مني لونه أبيض، ملمسه لزج، فخاف وركض، لم يخف من اغتصاب طفلة، ولكن خاف من دمها الغريب.

وها أنا، أركض وأتقافز مجددًا، في هذه اللحظة، وهم كلهم حولي، في كل مكان، مهما كان وضعهم. مر وقت وأنا أعيش حياتي عارية، لم يخطر على بالي، ولو في الحلم حتى، أنني يومًا ما سأواجه هذا العالم، مثلما جئتُ إليه، وأنني الوحيدة المعفاة من العقاب، التي يعتذر لها خالقه عما ابتلاها به.

الدهشة الأولى بالنسبة إليّ، منذ حدث ما حدث، لما دخلتُ محل ملابس، ولم تطردني البائعة، أو صاحبة المحل، جئتُ بالداخل، في سلام تام، في عري كامل، بيمينني علبة كشري، بيساري زجاجة مياه غازية، كلمة "جيوب" نسيئها تمامًا، ما فائدة الجيب؟ لماذا قد أحمل شيئًا لوقتٍ آخر؟ فكرة الاحتياج إليه لاحقًا تلاشت، ما أريده سأحصل عليه، في أي وقتٍ ومن أي مكان، الحرية العظيمة التي عاشها آدم وحواء، على الرغم من عدم معرفتي لقصتهما كاملة، إلا أنني سمعتُ هذا المعلم يشرح لتلاميذ صاحب بيت، عندما كان يضاجعني أبوه - صاحب البيت - في المطبخ، وابنه بالخارج مع زملائه، يستمعون إلى درس يتحدث عن حياة آدم وحواء، عن الحرية العظيمة، وكيف ستر عورتهم، وهو أمر عجيب، أو متناقض مع فكرة الحرية، لماذا أستر عورتي وأنا حرة؟ بحسب فهمي لقصة آدم وحواء لم يكن على الأرض سواهما!

أما الدهشة المستمرة، هي تلك الروائح التي تهاجم أنفي من حين إلى آخر، منذ سقطتُ ملامح الناس، وأجهل مصدرها، رائحة خبز، رائحة وقود، ورائحة ذهب! الدهشة ليست في وجودهم - مع أنه أمرٌ يستحق التدبر - عامة، الدهشة في ما

يحل بجسدي، فمثلاً عندما تمر رائحة الخُبز، في حركة لا إرادية وأنا واقفة، يتسمر جسدي، أرفع ذراعي، أحرك قدمي اليمنى، أضعها أمام اليسرى، ثم أضعها إليها، وأنظر إلى الأرض مجبرة، وضعية غريبة تستمر لدقيقة، ثم أعود إلى حالتي الطبيعية.

الأغرب هو رائحة الوقود، في اللحظة التي تضرب فيها أنفي أشعر بحكّاتٍ من بقع جسدي، ويتطور الأمر إلى خروج شعرٍ قصيرٍ جداً، يميل إلى اتجاهٍ مُحدّد. شككتُ كثيراً بضرورة الاستجابة، والمشي إلى ما يشير، أو على أقل تقدير الاقتراب من الوجهة، الأمران يتكرران على نحو متفاوت، وثالثهما هو الحلم المرتبط بهما، الحقيقة لست متأكدة مما إذا كان مرتبطاً بهما، ذلك الحلم الغامض الذي لا تفسير له.

أرى في المنام بقعاً كثيرة خلفي، العدد يصعب حصره، البقع تتحرك في خنوع، إذا مشيتُ يميناً جاءت، إذا مشيتُ يساراً فعلت، بقع بأقدام إنسان، يفرغني صوتُ الخطوات، لا أعرف كيف أقودها، والنهاية في الحلم واحدة، بعد مسيرة، نقف أمام رجلين، أحدهما يمسك شيئاً ضخماً، أعتقد أنه صليب، والآخر ينظر إلينا في رهبة، حامل الصليب يقول له: "جاء الضعيف إليك، فهل ترفضه؟" وينتهي بركض البقع فوقّي، فأقوم من الألم.

أما رائحة الذهب، فلا تؤذيني، ولكنها في الفترة الأخيرة تتزايد، وصارت الأوضح بين الثلاث روائح، أوقاتٌ لا تلتقط

أنفي سواها، الموضوع غريب ويحتاج إلى قرارٍ يا نعمة يا صاحبة القرار!

عامّة، أنا قبلتُ اعتذارك يا رب عمّا حدث لي، وأطلب منك دوامَ الحال، الوضع ممتاز، لدرجة أن الملل لم يوسوس إليّ نهائيّاً. والآن يا نعمة، يا مالكة العالم، فلنذهب إلى محل الكشري، لنضرب صاحبَ المحل، ونغتصب ابنه، الذي يخاف في البداية ثم يستسلم. ما أعظم حياتي! أنا من يحدد كل شيءٍ وفقاً لرغباتي! وحياتك يا رب أنا قبلتُ اعتذارك!

عبد القوي

لماذا لا يتأثر جسدي؟ أسأظل عائماً في النهر؟ هل من الله عليّ بجسدٍ، يتحمّل الماء كل هذه المدة؟ أين سأقف؟ متى سأصل؟ كيف لم أغرق؟ لِمَ أشعر بأنني أسبح عكس تيار النهر؟ ما السبب وراء فشل كل محاولاتي للسباحة خارج النهر؟ أتسحبني قوةٌ ما؟ أتيان اللقاء مع ملك الموت؟ تقتلني الأسئلة، أكثر من رحلتي المجهولة في النهر، لماذا لا أموت؟ كيف تتمسك روحي بالحياة؟ أي حياةٍ تتمسك بها؟ حتى الجنون يرفض أن يمّسني، الزمان مجهول، الفصل مجهول، المكان مجهول، عدد الأيام التي مرّت لا أعرفه، وهل هي أيام أم شهور أم أعوام؟ أندم في كل لحظةٍ على عمري الذي كنتُ تافهاً فيه، كنتُ شخصاً عادياً، لا تشغله الأمور، لا يسأل عن شيء، لا يرهق

دماغه بالتفكير، ومع ذلك يعرف كل شيء بطريقة غرائبية، وكانت أمي لا تصدقني حين أقول لها: "يا أمي! والله العظيم أنا أعرف هذه المعلومة! ولا تسأليني كيف!" وكنت أقول لها: "افتحي أي كتاب، مهما كان، وأقسم لك سأعرف إجابة سؤالك!"

أندم على أنني كنت شخصاً مهمته مواصلة الحياة، ليتم دوره، ثم يموت ولا يتذكره أحد، فلسفة فرد يفهم اللعبة الموضوعة من صانع كل الألعاب، أنار بصيرتي عامل في ورشتنا، سمعتُ منه الكثير حين كنت صغيراً، فصله أبي لأنه كان فاشلاً بحسب وصفه، لا يملك هدفاً، لا ينظر إلى الأمام، يجهل بواطن الأمور والأمور نفسها، لا يشغل باله نهائياً، يستيقظ، يأكل، يعمل، يأكل، ينام، حتى لما تزوج، تغيرت دورة حياته تغييراً طفيفاً، صار يستيقظ، يأكل، يعمل، يأكل، يعاشر، ينام!

سحرنى هذا الرجل! أذكر يوم بكى أبي وقتما سمعني أحكي لأمي عن عم آدم، وكم تمنيتُ أن يكون أبي مثله، كم تمنيتُ أن يكره أبي تحقيق الذات، والسعي خلف الرزق، والنجاح لترفع رأسك بين الناس، وكل هذه الشعارات الخائبة إلى ما لا نهاية. عم آدم كان أسطورةً بيننا، أسطورة تستحق تمثالاً، وأنا واثق بأنه كان ليرفض مثل هذا التكريم، سيقول لنا -وهو يتابع بنتاً حلوة تمرّ- بهدوء: "هاتوا ثمن التمثال، أدخل به السينما وأشتري ماء الأنس واكله تُشبع!" وإذا ما مازحه أحد بشراء قرص ليساعده على المعاشرة، سيجيبه: "أسأل أمك إذا كنت احتاج إلى قرص وهي ستقول لك!" يا ليتني ما جعلتك مثلي الأعلى يا عم آدم!

لم يكن العم آدم، والمعرفة الشاملة، ومثالية أبي الزائدة على الحد، أسباب همي وحزني، كان هناك الحلم الغريب الذي أراه على فتراتٍ متقاربة، أراي وأنا أقتل طفلاً، يبدأ الحلم هكذا فجأة، أركض تجاه طفل، ينظر إليّ في خوفٍ، أخرجُ سكينًا، أذبحه، ثم يظهر عجوزٌ، لم أره من قبل، يصرخ ويسألني عن فعلتي، فلا أجيبه ونكمل المشي في طريقٍ لا أول له ولا آخر.

السؤال الذي يفترسني، من اليوم الأول لمصيبتني، أو مصيبتنا إذا حلّت بالناس مثلي، هل ما يحدث لنا هو نتيجة معرفتنا للغيب؟ أم هذا عقابٌ لمدينتنا الفاضلة التي تغيرت فجأة بسبب الكتب؟ أنا واثق بأن هذا هو اليوم المقصود، اليوم الذي تحدثوا عنه جميعًا، ولم يفهم فردٌ واحدٌ ما هو!

الدهشة الأولى

عامل الدُّوكو

ربما الحكاية تستحق توضيحًا مثاليًا، والمثالية في إتمام الأشياء - خاصةً بين مجتمع الساردين - تستلزم لمسات أنثوية، لمسات توضح الحكاية، فلا يتعجب السامع، أو يسقط عنه الانتباه للأحداث، إذا بدأنا بالدهشة الثانية، وهي تساقط الملامح، وأغرنا الدهشة الأولى، مع الاحتفاظ بالاسم ذاته، ما أم السارد عاشقٌ - وفي حكايتنا هي عاشقة - للتمايز، فيحق لها المربع نص الحكاية، وتفصيل سير الأحداث كما تهوى، فنعرف هذه اللحظة أن الدهشة الثانية هي أحداثٌ وقعت، بعد أحداث الدهشة الأولى، ولشرح التفاصيل أكثر نرى البداية مع

محمد عبد القوي، يوم ذهب ليخطب منة، التي تلبس عباءة ضيقة، ويعاني صدرها ليُعلن ظهوره.

"هنا يا أسطى، شكرًا، والعقبى لأولادك، الأجرة يا طيب"، نزل من سيارة الأجرة، هو وعُلبَةُ الحلويات الشرقية، بعدما حدثه السائق عن صعوبات الحياة، عن ابنه المعاق، وزوجته التي يشك في سلوكها، صاحب السيارة الظالم، الجنيه العاجز أمام حاجتهم، ابنته التي يشك في سلوكها استنادًا إلى مبدأ القُلة التي تَقْلِبُهَا، عن أخيه الغشاش، وأخته الجالسة على حجر مديرتها طمعًا في ترقية أو زواج سري، أمه التي لا يشك في سلوكها، عن أبيه القعيد، وجده السعيد المتزوج بأربع، زواجه الثاني الجميل الذي لا تعلم زوجته الأولى عنه شيئًا، التي يشك في سلوكها. أعطاه الأجرة المطلوبة، لم يقع في فخ الحيلة القديمة المتوارثة، حكايات سائقي الأجرة من زمن فات، حكايات عن مدى البؤس والشقاء لتدفع لهم أكثر.

حمدَ عبد القوي الله على خروجه من مستنقع الدناسة والدياثة. وقفَ أمام واجهة محل، زجاؤها نظيفٌ يعكس صورته، تأكدَ من وجاهته، البدلة السوداء، رابطة العنق الحمراء الرفيعة، وصلَ الرجلُ الأكثر أناقةً إلى بولاق، لا مفر من إكمال نصف الدين، منة بنتٌ مهذبة، تستحق كل خير، ومحمد عبد القوي -والحقُ يشهد- كل الخير!

لأعوام وهو يرى منة نقيضه التام، هي الطاقة وهو الكسل، هي النعمة وهو النعمة، وتعجب من حماسها منذ أول يوم

لها بالمحل، بهجة البدايات، الحماس غير المبرر والمفهوم، وفي النهاية ومع الغلطة الأولى سيفصلونها!

الشهادة لله منة كساعة قديمة، لا تخطئ، صنعها خواجه سويسري، في جلسة أنيس، مع كأس الخمر، وأغنية سويسرية قديمة، فلنقل أغنية لأم كلثوم سويسرا، العدسة المكبرة، التروس، العقارب، الجسم المعدني المصنوع بمزاج، أي نعم الجسم المعدني غير متكافئ، ولكن بلا ضرر، في النهاية هي أنثى، والرجال يبحثون عن أي ثقب، يحتوي سن مثقابهم!

هذا الوصف الخاص بالساعة وأم كلثوم، الذي يعيده عبد القوي في كل مرة يلمح منة، كان قد استعاره من عم آدم، لما حكى له عن بنت، تظهر وتختفي في المنطقة، ولا يعلم عنها شيئاً، يومها لم يصدق عبد القوي، كيف خرج من عم آدم، الرجل الكاره للتفكير، والمحِبِّ للاثيء، مثل هذه المشاعر؟ ونفاجأ أكثر عندما قال له: "يا عبده، بعدما فصلني أبوك، فتحت محل العَجَلِ هذا، مهماته سهلة جداً، بالكاد قد أشعر بالتعب، ولكن تلك البنت -الله يحفظنا من رد فعل زوجتي إذا عرفت- تستحق التعب والتفكير والمجهود!"

وفي يوم من الأيام، عرف عبد القوي عنوان بيت منة، في دليقية فقط، دون أي كلمة زيادة، مع ابتسامة خفيفة، وها هو الآن في شارع ناهية ببوراق الدكرور، أمام العمارة التي تركز على حلواني العروسين، محل حلويات رخيص، قطعة الجاتوه بهمسة جنيهات فقط، تقريباً مصنوعة من لبن الكلاب،

الواجهة باللون الرمادي، الاسم مكتوب بخط أحمر غليظ، أطراف الحروف بها أسلاك كهربائية، يتراقص الضوء بداخلها، يومض ويختفي في سرعة مستفزة، الناس يتهافون على حلواه، سمع منة يومًا تقول لزميلاتها بالمحل في وقت راحتهن: "تقدّم لخطبتي عامل، أعتقد شيف بسبوسة، من حلواني العروسين الموجود أسفل العمارة، رفضته طبعًا، رخيص ولا يعجبني"، لم يشغل عبد القوي باله وقتها، بمن "الرخيص" الذي كانت تقصده، العامل أم المحل؟

صعدَ درجَ البيت القديم، عدد السلام بين كل طابقٍ كعددها في عمارةٍ كاملة! الطابق الثالث، الشقة اليسرى، طرقَ الباب، صوتُ أقدامٍ تركض بالداخل، كلماتٌ لا تكونُ جملةً، ولكن المقصودَ مفهوم، مثل: "لقد أتى، بسرعة، لا تخرج، استر نفسك يا زفت، هل ستقابل الرجل بالبوكسر يا بن الوسخة؟" عاد الهدوء في لحظاتٍ إلى أهل البيت، خطواتٌ تمشي في رصانة، فُتِحَ الباب، استقبله الأب بحفاوةٍ مبالغ فيها، دخلَ الشقة، العائلة كلها في انتظاره، عشرات الأيدي توجهه: "من هنا تفضل، تفضل".

الرجل يجلس في أدب، بجانبه زوجته، تبتسم والقلق بالمثل، اختفى كل المُستقبلين، الصمتُ يشاركهم الجلسة، لا يُزعج عبدَ القوي الجوُّ العام، لم يزعجه إطلاقًا طقمُ الصالون المذهب المعروف، لون قماشه أحمر غامق، والحائط بنفسجي، والسجادة زرقاء! تشيكة ألوان مُقرفة، ولكنه لم يهتم، اقتحم المناخ الصامت، دقاتُ كعبٍ تتهادى، طرقتِ الباب، جاءت منه

القلب، في خجلٍ تقدم الشربات، أو يقدمها الشربات إليهم،
الفستان الأخضر الفاتح، المنفوخ من الوسط إلى الأسفل، شالٌ
أخضر شفاف من الشيفون، شعرها يرقص فوق كتفيها، كحل
وأحمر شفاه وبودرة حُمرة وغيره، وقد أقسمتْ له منة، في
يومٍ بعد الخطوبة، أنها لم تضع الكثيرَ من زينة التجميل!

"عمي، يسعدني ويشرفني، أن أطلبَ يد ستِ الحُسنِ
والجمالِ، منة"، الرد لم يأت من أبيها، الرد جاء من السماء..
حرفيًا!

سمع الجميع صوتَ ارتطام متواصل، لم يفهم أحدُهم ما
يحدث، تحرك عبد القوي ناحية النافذة، وصل إليه صراخُ
الناس بالشارع، وقبل تفسير الموقف، ضرب رأسه كتابٌ! نظر
إلى أعلى لعله يجد إجابةً فوجد إجاباتٍ!

السماء ممطر كتّابًا، حاول الإمساك بكتابٍ وفشل، تجاهل
نداءات أبيها تمامًا، نزل إلى الشارع، كل الأسئلة التي في عقله
ندفعه، خرج من باب البناية، لِيُسقطه كتابٌ ضخْمٌ أرضًا،
نظرات الخوف على وجوه الناس، وقف رجلٌ أمامه وقال:
"إنها القيامة يا ناس! هذه كُتُبنا! انظروا! أعمالِ كلها مُدونة!
القيامة يا ناس! والله العظيم القيامة!"

قام عبد القوي من مكانه، وبعدم استيعاب رفع كتابَه،
بمهل سبب ثقله، هل هي ذنوبه أم همومه؟ وكيف يكون
أبيه ثقیلاً هكذا، وحياته خالية من أي حكايات؟ أيامه عادية
و«نبيهة»، يمكن حصرها في صفحاتٍ، مع توفير وقت المدون،

بكتابة هذه الجملة: "اليوم نفسه، الاختلاف فقط في كذا أو كذا!!" تأمل المشهد حوله، ليجد الناس راكعين، لا صوت أكثر وضوحًا سوى البكاء، لم يركع عبد القوي ولم يبك، ومشى إلى أقرب محطة للحافلات.

عامل الفخار

كل شهر يسافر مينا بن فليب إلى القاهرة، إلى الباشا صاحب الأفران بقرية النزهة، قرية النزهة مركز أبشواي، محافظة الفيوم، ليحصل على راتبهما. يتراوح عدد الأفران بين خمسة عشر وعشرين، يملك الباشا بمفرده النصف أو أكثر، لا يُرسل إطلاقًا المال بالبريد، أو في حساب بنكي، مذبذبا معه فيليب من ثلاثين عامًا وهو يطلب حضور العمال بأنفسهم، لن يحصل أحدهم على راتب زميله مهما كانت الظروف، والده توفي، زوجته حامل، ابنه خُطِفَ، ابنته تتزوج، كل ذلك آخر همه، المال لمن أتى. كان فيليب الاستثناء الوحيد، ذلك لأنه اختار اسم الباشا لابنه، فَرِحَ حينها، ووعدته لما يكبر مينا ويعمل لديه، يمكنه المجيء بمفرده، وقد كان.

حجز مينا تذكرتين، درجة ثانية مكيفة، من الفيوم إلى رمسيس بالقاهرة، كراسي القطار زرقاء، الطلاب الداخلي رمادي، قطار كتيب، لا يحمس ركابه على الابتهاج، أو حتى على الفرحة بالسفر، جلس فيليب بجانب النافذة، ضحك مينا: "المنظر الذي تحبه يا أبا مينا، خذ سيجارة ولن أخبر أمي، سرك في بنر

يا فيليب، تعالَ نشربها في المكان المخصص، مع كوب شاي يرد الروح، أشعر أن الباشا يريدُك في أمرٍ سيبهجنا كلنا". فهم من صمته، الذي يشبه الرهبان في خلواتهم، ونظراته الحائرة بين الزجاج وصورته المنعكسة عليه، والشجر والطريق بالخارج، أنه ليس مطمئنًا، وكيف يهجره القلق والباشا أرسل في طلبه؟ ماذا يريد منا جميل من فيليب وفخاره؟

بعد رجوعهما إلى مقعديهما، لمَّا دخنا سيجارتين مع كوبي شاي، نام مينا وتركه مع الطريق، رأى فيليب المسيح يمشي في الممر، يُخرجُ من سلةٍ خبزًا وماء، يناول كل راكبٍ بابتسامة حنون، وإذا رأى طفلًا حمله وقبّله، وقف أمام مينا، مسح على رأسه، مد يمينه ليساعد فيليب على القيام، ثم خرجا من القطار، سارا في الهواء، في منتصف الصحراء، يضرب وجهه هواءٌ لطيف، وصلا بعدها بفترةٍ إلى بحيرةٍ كبيرة، مشيا عليها معًا، كلما نظرَ فيليب إليه ابتسم، قال بصوتٍ رخيم: "يا فيليب، هل ستكرهني يومًا؟" نفى سؤاله بهزة رأس، أعاد سؤاله، كررَ إجابته، سأله: "متي يا فيليب ستحدث إلي؟ هل تكرهني؟"

من هول الكلمة، نطق فيليب بصوتٍ مبحوح: "كيف أكرهك يا يسوع، وأنت منقذي وماوأي وحياتي وقلبي وحبتي، البركة منك ولك، يا يسوع المجيد، يا من قلتَ تعالوا إليُّ أيها المتعبين وثقيلي الأحمال وأنا أريحكم، ها أنا أمشي معك فوق الماء، لا أخاف، لأن إيماني عظيم بك، يا شاطئ الإيمان، خذ بلحبي إلى ملكوت رحمتك، أنا ساكت بسبب عجزِي وضعفي، في حضورك، يا يسوع الذي حمل الصليب ومشى به إلى قدره،

احمل عني همومي وصليبي وارحمني، ارحمني يا يسوع من رؤياي المتكررة، من وقوع الملامح عن البشر، الحلم محزن ومخيف، أكمله فقط لأنك به".

ربت المسيح على كتفه: "ولدي فيليب، لا تكرهني، افهم مشيتي، سينقلب القطار، بمجرد أن تفيق من غفوتك، ستدخل في أخرى، هذا أفضل لك يا فيليب، محبتي الخالصة يا بني البار، وطلبي الأخير لا تسمعه لأنني لن أسامحه يا فيليب!" اختفى، تركه بوسط الماء، تعجز قدماه عن الحركة، تهتز البحيرة كاهتزاز بيت قديم مر قطار بجانبه، يسمع صفيرًا عاليًا، صراخ أطفال، ولولة نساء، البحيرة تنفجر أمامه، المياه تصعد إلى السماء، يقف في الهواء، على أرض مبتلة رطبة، وماء البحيرة بكاملها فوقه، تبتعد بسرعة، صوتٌ مينا يناديه، يجهل مكانه، جسده يهتز بعنف، صوتٌ مرعبٌ في السماء يقول: "المشيئة يا فيليب"، الأرض تجف من تحته، تتشقق، تخرج الثعابين والعقارب من شقوقها، يلمح عملاقًا بلا هوية أو معالم، يضرب بمطرقة حديدية، بعشوائية فجأة، لا يحدد هدفه، كأنه يلهو، يقترب منه في سرعة مُربكة، صوبها نحوه من بعيد، كل عظمة في جسده تؤلمه، كل مسام الجلد تنزف، كل ثانية تمر، وهو طائر في الهواء، من شدة وقوة الضربة، يبكي وجعًا، تهشم جسده تمامًا، غاب الشوف، ضَعَفَ السمع، غاب عن الوعي.

صوتٌ مينا يجاهد ليصل إليه، في بحةٍ تصف ضعفًا: "هل تسمعني يا أبا مينا؟ قُمْ وحياة حبيبك يسوع، لا نفهم ماذا يجري، كتب كثيرة تضر بنا من السماء، قُمْ يا فيليب! قُمْ وحياة

حبيبك يسوع!" شعر فيليب في رؤياه بأحدهم يهز جسده، همس في أذنه بشيء، لم يسمعه من المرة الأولى، أعاد كلامه: "لماذا تراه طوال هذه الفترة في ملامحي؟ أنا لستُ يسوعكم يا فيليب، لماذا تريد أن تراه مثلهم؟ أنا يهوذا يا فيليب! إن كنت لا تسمعي أعيدها عليك.. أنا يهوذا الإسخريوطي!" قام يهوذا لپراقص بنتًا صغيرة، يضحك وحبلاً ملفوف حول رقبتة، يسأله: "قُل لي يا فيليب، هل هذه مريم ابنتك؟ أم واحدة أخرى من الذين قتلتهن يا فيليب؟" لم يقوَ على الرد، فقد الوعي مجدداً، وكل ما يسمعه في أذنه: "لماذا قتلنا؟ ما ذنبنا في ذلك؟ هو من فعلها وليس نحن!"

ابلة الشوارع

لما كانت البنتُ جالسةً، داخل محل الكشري، في ترقبٍ وريبةٍ، بيمينها السكين، التي تضعها دوماً في الكيس الأزرق البلاستيكي، وبيسارها حجرٌ صغير، تُراقب الناس المهرولين خوفاً من الكتب التي تسقط من السماء، البنتُ لا تقرأ، ولا تعرف حرفَ الألف من لوح الخشب، لذلك لم تهتم، تضع نصلَ السكين فوق بقعةٍ، تقنع نفسها بفلسفةٍ خاصة، أنها إذا حدثت أطرافُ بقعةٍ، وأزالتهَا عن جليدها، ربما لن تنمو ثانيةً، ومع الوقت قد يلتئم الجرح، وربما لا، ومع ذلك ترى بعين حكيم أن السنين بين العلم والحكمة، أن جرحَ إنسانٍ من صنْعِهِ، ينقلبُهُ أخوه الإنسان، أما الإنسان المخلوق بعيبٍ، سينظر

إليه الشخص الصحيح بعين التفضيل أولاً، ثم عين الشفقة، أما الأولى فهي نظرة بسبب الخالق الذي أوجده في أحسن صورة، والنظرة الثانية -وفقاً لفلسفة بنت الشوارع- بنسبة كبيرة لن تحدث.

كل النائحات الباقيات الشاقيات اللاتي لمحتهن نعمة في مصيبتهن، سبّتهن في رضا تام، وكل الرجال الراكضين الخائفين الساجدين، الذين لمحتهم نعمة في مصيبتهم، سبّتهم ولعنّتهم وبصقّ عليهم في رضا تام وسلام نفسي، ولم تستنّ أحداً، حتى الأطفال طالهم سبابها ولعناتها.

وعلى عكس فطرة الكون، تكره نعمة الأطفال، تراهم السبب الرئيس وراء كل المصائب، فهم الدافع خلف الجنس، الهدف الأساسي من أي علاقة شرعية، الخوف الذي يمنع النشوة من الوصول إلى الكمال، العار الذي يصاحب الأهالي إذا ما كان الطفل فاشلاً أو معاقاً أو مصاباً بمرض، وهكذا، لم تبتسم يوماً لطفل، لم تلاعب أو تلاطف قط طفلة، ساعدها أحدهم على الهرب، من محافظة الإسكندرية، بعدما عرف أهالي المنطقة التي كانت تسكنها مؤقتاً حينها أنها تضاجع أطفالاً دون العاشرة، أو أكبر من ذلك بعام أو عامين، ثم تجرح أعضاءهم بمومي حلاقة، وتهدهدهم بعدم حسابان أنفسهم الأسمى، قبل أن تضعهم في حيرة من أمرهم حين تنهي تهديدها بجملة: "ولا نحن النساء أيضاً! إيّاكم ومضايقة الضعفاء عامةً والمخلوقين بعيوب خاصة!" لم ترَ نفسها بطلة! نعمة مخلوقة من الكراهية وعدم الاقتناع بأي شيء، من الإنكار التام لما تعانيه، من أسئلة

كل شخص مصاب بعيب إلى خالقه، من سؤال (لماذا أنا؟) بالتحديد.

دلف صاحب المحل إليها، طلب منها الغفران والصفح، ظنث في بداية الأمر أنه يمزح، لكنها بدأت تصدق طلبه، لما جثا على ركبتيه وقال لها: "وحياة أغلى حاجة سامحيني، يا نعمة هذه الكتب هي كتبنا، وهذه علامة من علامات القيامة، وحياة ربنا سامحيني، هاتي يدك أقبليها!" قامت من مكانها، رفعت فستانها، وأنزلت بنطالها، وأشارت إلى المستور بقطعة قماش: "بل قبل هذا الذي كنت تريده دومًا، أنت وابنك!" لم يرفض أمرها، ولم تقف طويلًا أمامه، تركته وخرجت إلى الشارع، سحبت كتابًا ورجعت إليه، طلبت منه أن يقرأ لها المكتوب، هز رأسه نفيًا: "يا نعمة كل شخص يقرأ كتابه فقط، إذا نظرتُ إلى كتابك سأجده أبيض"، سألته كيف تعرف أنه ثابها، شرح لها: "ما فهمناه منذ تساقطت الكتب أن الفكرة ليست في وقوع كتاب صحيح على صاحبه، متى فتحت أي كتاب، ستجده كتابك، الله قادرٌ على كل شيء! وهناك من أخبرنا أن الله يأمر الأيادي بسحب كتب أصحابها، لذلك لن تخطئ أبدًا، لا يهمني التفسيران، ما يهمني أن النتيجة واحدة! أي كتاب هو كتابك مهما كانت الطريقة!"

تأملت نعمة الكتاب، جلده بُني، رائحة الجلد الطبيعي الموح منه، ملمسه ناعمٌ جدًا، حجم الكتب وعدد صفحاتها واحد، فتحته لتتفاجأ بصورة! رأَتْ صورًا منذ يوم مولدها، مرورًا بأهـام طفولتها، وطردها من البيت، حتى تلك اللحظة التي

قُبِّلَ فيها صاحب المحل فرجَها، ظلت تقلب الصفحات، تلهث خلف يوم يتغيَّر به كل شيء، أو تجد صورة لها دون بقع، أو تجد نفسها في بيتٍ وتزوجت كسائر البنات اللاتي تحسدهن، لم تجد ما تبحث عنه، كتابُ الشقاء والبؤس، هو أنسب ما يصفه، صفعَتْ صاحبَ المحل وقالت في عصبية: "الحياة المعتادة! الهروب إلى الشوارع، مضاجعة الغرباء، البقع لن تختفي، بل العكس، في بعض الصور بالأمام البقع كُثِرَتْ!"

سألها صاحبُ المحل بصوتٍ خفيض: "نعمة، ركزي جيداً، الكل بالخارج يسأل السؤال ذاته: هل آخر يوم في كتابك هو يوم الأربعاء الثالث من أبريل؟ فقط دون تحديد في أي عام؟ سأرسم لك شكل الأرقام، فقط نريد معرفة هل الشكل ذاته أم ثمة اختلاف؟"

محيي ابن طاهرة

عرفنا عن السارد الأول، في جلسة صفاء، تخلو من أي تكبر، أو أي تعظيم في الذات السردية، أن مصائب قوم عند قوم فوائد، ضحك لما قالها، وعندما سألتها عن السبب، أوضح بهيبة لائقة: "سُتَسَب هذه المقولة إلى شاعر عظيم، وهذه هي الكارثة! أنا الأصل في كل شيء، ويعتقد السامع الجهول أن القائل هو المصدر! كل الأشعار والكتب والروايات والحكايات والقصص، المكتوبة والتي تُكتب والتي سَتُكتب، مني أنا! ينكرون وجودي بكلمةٍ ماسخة، يقولون عني الوحي!" وما دام

السارد الأول قد أقنع نفسه بفكرة، مهما حاولنا تغيير رأيه
سنفشل، لن ينزعها عنه إلا نزع الروح، وهذا لن يحدث ولو
مات الساردون جميعًا، وبُعثوا من جديد.

وفي موقف محيي ابن طاهرة، مصيبة الناس كانت فائدة،
وفتها كان جالسًا يقرأ كتابًا جديدًا، ليبدأ بعدها في تصحيحه،
هكذا كانت عاداته، ينتهي من الكتاب قراءة، ثم يعيش رحلته
معه تصحيحًا، وفي أثناء مرور عينيه على سطر، نادته طاهرة
بصوت هادي: "يا محيي، الجنون ضرب الشارع! حاول يا بني
أن تعرف ما الذي يجري بالخارج؟" فتحّ النافذة ولم يصدق
المشهد! لم يتفوه بكلمة، طاهرة اقتربت ببطء، وأشارت بسكين
كانت تقطع بها البصل مستفسرة: "هل تمطر السماء كتبًا يا
محيي؟ أم أنني صرّ عجوزًا يلاعبها الخرف والخبيل؟"

عيناه تتابعان الكتب، التيه في نظريته مدهش، الجمع بين
الشغف والتكذيب، في البداية كان مصدومًا، كرجل حارب جيشًا
مفرده وعضه فأر في النهاية، تغيرت ملامحه فجأة، من التردد
إلى الثقة، من عدم التصديق إلى عظيم الإيمان، خطف كتابًا
ونجح من المحاولة الأولى، فتحّ الكتاب ليجد اسمه، تأكدت
هذونته، لم تفهم طاهرة سر سعادته، أعاد فعلته، وحصل على
أمر، ناولها إياه مبتسمًا، ثم أغلق النافذة وقال لها: "هذه
أمننا يا طاهرة، كل صغيرة وكبيرة دُونَتْ هنا، الآن سأعرف من
أنا!"

أيام الدهشة الثانية

فيليب

هل تؤمن يا مينا بالخروج من هنا؟ أعرف أنك لا تسمعي،
ولا أنا أسمع نفسي، ولكنني سأحدث مهما حصل، وسأحكي لك
لأ مينا عن مواضيع تُقلق راحتي منذ زمن طويل، سأخيل
أنك تسمعي، وتفهم ما أقوله، وأنك ستسامحني على ما خرج
من بئر حياتي، أبوك يا مينا يرى أحلامًا تُقلق منامه، وتعكر
لبه صباحه، وتجعله حزينًا مهمومًا، يذهب إلى عمله، وهمُّ
أسير فوق قلبه، كأنني مثلاً أحمل صليب المسيح، وأمشي به
وميًا.

أرى مثلاً بنتًا صغيرة، لا أذكر أنني قابلتها من قبل، تحترق
أهل فرن الفخار، تضحك وجلدها يذوب، تقول لي: "تعال

ضاجعني، نشوتي تحترق لرؤياك!" وأوقات أخرى، أرى مريم، لا يهم أي مريم التي أراها، أنا لست متأكدًا من هي، وتسالني: "لماذا؟" وهي تركض عاريةً، وخلفها رجلٌ أكبر مني، يجري عاريًا، يحمل قضيبًا بحجم برج القاهرة، يُريد أن يدخله فيها، وهي ترفض خوفًا، وأوقات أخرى أرى فتياتٍ يركضن كلهن حولي، ثم يسكن عليّ ماء بولهن، ويقلن في نفس واحد: "لماذا فعلتُها؟ ما ذنبنا في ما حدث؟ هو من قتلها وليس نحن!"

وأنا يا مينا لا أعرف عمن حديثهن، تقلقني جدًا تلك الأحلام، مع نظرات أهل البلد إليّ، نعم يا مينا تقلقني نظرات أهل البلد جدًا! أبوك يا مينا محبوبٌ في البلد طبعًا، ولكنني أسمعهم كثيرًا وهم ينظرون إليّ ويقولون في وجهي بصوت مسموع: "أنت من قتلتها!" هم لا يقولونها فعلًا، لكن نظراتهم تفضح شعورهم تجاهي، وأبوك غير عليم بمن الذي قتله، ولماذا أنا تحديدًا، الذي سيقتل!

ومع ذلك، أمك في يومٍ وضعت شيئًا في غاية الأهمية حين قالت: "من الممكن أن تكون تكلمت عن يهوذا الإسخريوطي وسط الناس والقهوة، فسمعك المسيحيون، ودفنوها في قلوبهم احترامًا لك ولمكانتك عند الباشا، ولأنك أكبر وأقدم منهم جميعًا. حذرتك كثيرًا يا أبا مينا من تأثير كلامك، ومن تكذيبك وكسب عداوة، مع ناس تحبهم ويحبونك"، وما الذي يضرهم يا مينا إذا قلتُ إن يهوذا بريء؟ أو إنني متعاطف معهم؟ ذنب الرجل كبيرٌ، وغيره في تاريخ ديانتنا كانت ذنوبه جبالًا، ومع ذلك الجميع يسمع قصص التوبة، ويصقون بمجرد سماع قصة

يهودا! أتعرف يا مينا؟ أوقات كنتُ أشعر بأنني إذا مجدتُ الشيطان ابن الوسخة، لن يُعارضني أحدهم! المهم ألا أتكلم عن الشرير، صاحب القلب الأكثر شرًا، يهوذا الإسخريوطي.

إذا سألتني يا مينا عن السبب الرئيس لقلقي من كلامهم ونظراتهم، سأقول إنها الأفران! كل يوم يسألونني لماذا بنيتُ الأفران بهذا العلو؟ ويحذرونني من سقوط أي شخص بداخلها، لا أنكر يا ابني أن إجابتي حاضرة: "الباشا يريد هذا هكذا!" ولكن يا مينا إلى متى؟ أشعر بأن الشك يلعب في صدورهم، وقد يتسلل أحدهم إلى الأفران ويرى ما بداخلها! ماذا تقول يا مينا؟ ماذا بداخل الأفران؟ الفخار طبعًا يا مينا! وماذا سيكون بداخلها غير الفخار؟

لا أريد أن تكرهني لكثرة كلامي وشكواي، يرحم الرب عمك نجيب، صديق عمري، الذي كان يسمعني، أتذكره يا مينا؟ سل له يا حبيبي، عمك نجيب كان صديق المقهى، وصديق العمر، في كل رحلاتي، من قريننا، إلى القاهرة، إلى مُختلف قرى ومحاافظات مصر، وكان يضرب رأسه، حين نجلس على مقهى وأطلب فقط الأرجيلة! ويقول لي: "معقول يا فيليب! لا تشرب الشاي أو القهوة! كيف تعيش يا صديقي؟ الحياة بنت وسخة، يجب أن تُبهج دماغك لتتحمل تعب الشغل!" الله يرحمك يا نجيب، كنتُ وفيًا جدًا لي، وكنتُ وفيًا جدًا لك.

بعيدًا عن عمك نجيب، أتعلم أنني حاولتُ منذ حدث ما حدث أن أخرج من القرن؟ السُّلم الخشبي مكسور، أواني

الفخار هنا ليست كثيرة لأجمعها وأصعد فوقها، وحتى يا حبيبي لما تسَلَقْتُ كتفك، لم تفهم وظللتَ تضرب في الهواء، تعتقد أنني شخصٌ أريد الأذى لك، لذلك قررتُ البقاء هنا، وعدم تكرار ما يزعجك أو يُخيفك، سنخرج من هنا معًا، أمواتًا أو أحياء! آسف يا بني، الفضضة معك دائمًا تسير بي إلى طرق الرب، وإلى الراحة.

يسوع، يا سيد العالم، أنقِذنا بمشيئتك من النكبة والمحنة.

لعمّة

دخلتُ البيوت الفقيرة، وشاهدتُ الأهالي واقعين أرضًا، يا سلام يا نعمة، أنتِ الوحيدة التي تمشي بحرية، ولأنكِ مُباركة، كما قال لكِ هذا الرجل أو الملاك العجيب، الذي قتلته تقريبًا، فطبعًا لن يحدث لكِ شيء.

من وقت مسح الملامح وأنا أرفض تلطيخ جلدي بهذا المرهم الرخيص الذي وصفه لي الطبيب الشاب الهائج، حين رشحتني بائع البوظة له، وكيف أنني ماهرة في كل فنون السرير، وهي بالمُناسبة خبرةً ربانية، كأنني نزلت من بطن أمي أحمل معي أسرار الجنس كلها، وفي معافطات مصر أن تعرفَ الأنثى أسرارَ الجنس، قبل الزواج، فهذه مصيبة! على حد علمي من المتزوجات، اللاتي حكّت كل واحدةٍ منهن وأنا أنظف لهن بيوتهن، أو أزيل شعر أجسادهن الزائد، كيف

كانتِ الواحدة منهن على علاقة حب مع رجلٍ قبل زواجها، وتعلمتُ على يديه الجنس وأموره، وحين تدخل بيت زوجها يجب ألا تُظهر له أي معالم خبرة عن التقبيل أو الممصصة، أو عن الكلمات الغريبة التي تخرج مع النشوة، وتحذر كل أم ابنتها من الشخير في أثناء المُضاجعة، إلا إذا طلبَ منها زوجها ذلك.

أذكر كيف أقنعني هذا الطبيب بمدى جمالي وجمال جسدي، وفي أقل من ثانية، لم يقدر ابن الوسخة وقتها على إخفاء ضيقه من البقع المنتشرة حين خلعتُ ملابسِي لنتهي ويُعاسبني، وأضحكني جداً لما تحجج بالذكاء، وقال لي: "ارتداء الملابس في حالتنا سيكون أفضل، حتى لا يدخل علينا مريضٌ فجأة، أو حالة طارئة، ويجد الطبيب يركب مريضته!"

تعمدتُ معاملته بأوسخ طريقة، وإحراجهِ لما قذف مُبكراً: "طبيبٌ وتجيهم بهذه السرعة؟ يا ميل بختك يا نعمة، ربنا يبارك في الخيار والبادنجان الأسود"، أعطاني مرهماً، ونبهني لاستخدامه ثلاث مراتٍ، وفي كل زيارة، بعدما ننتهي من متعتنا، سيعطيني مالاً وأجمل الملابس، ولأنني نعمة المباركة وعدته بزيارةٍ أخرى، لم تحدث إلى وقتنا هذا.

يا سلام يا رب.. منظر الناس حولي، بهذا الضعف والذل، في الشوارع والميادين، وأنا ماشية وعارية، أخيراً تحررتُ من الفستان والبنطال الضيق، يا سلام يا نعمة، منظرٌ جميل وحياة النعمة، جعلني أسامح في ما حدث لي، لما كانوا يلتفون حولي،

في أي منطقة أنزل إليها، ويقذفونني بالحجارة وأكياس الماء، ويقولون: "نعمة التتنة، نعمة التتنة"، الله يرحمك يا عم سند، يا رجل يا طيب، كان الوحيد الذي يقول لي: "التتانة فيهم لا فيك، أنت بنت جميلة، تستحقين حياة كريمة، هوني عليك يا بنتي"، أنت يا عم سند من كان يستحق الحياة الكريمة كلها، وأن يرى كل هذا الجمال.

عم سند أنقذني وأنا صغيرة من عيال أولاد وسخة، ربطوني بحبل، وجردوني من ملابسي، وعلقوني في فرع شجرة عارية، يضربونني على طيزي بعضا، ومنهم من يدخل إصبعه في مؤخرتي، وأنا لم أكن أصرخ، كنت أكم الصراخ، حتى لا أظهر أمامهم ضعيفة، لكن حين ملحنني عم سند وهو راجع من عمله بالصدفة، بكيت لأنني وجدت الحائط الذي يسندني ويمكنني البكاء عليه، بكيت لما رأيته، من فرط حنانه الظاهر حوله، كأنه نور خارج منه، بكيت وأنا أقول له: "يا عم سند أنا بنت كلب، ولست طيبة وجميلة كما تقول لي، يا عم سند اقتلني الله يكرمك، وخلصني من عذابي".

صحيح يا عم سند.. إنكنت حيا بيننا الآن هل ستكون مثلهم؟ أم لطيفة قلبك لن يؤذيك الله؟

عامه الله يرحمك، ويرحم أنفي من رائحتي الوقود والخبز اللتين لا أعرف مصدرهما، رائحتهما تستزفني، وتجعلني مجنونة أريد البحث عنهما حالا!

عبد القوي

متى يا رب سأصل إلى نهاية رحلتي؟ لقد كفرتُ بهذا السؤال، لكثرة عدد المرات التي سألتُ نفسي فيها: متى سأصل ومتى سأخرج ولماذا أنا؟

ولكي أخرج من دوامة الأسئلة، أفنعتُ ذاتي الضعيفة بالتفكير في أمرٍ آخر قد يُلْهِينِي عن الوصول، فحذفتُ عقلي بسؤالٍ مهم: لماذا فقدتُ القدرة على التخيل أو استحضار أي صور؟ حتى شكلي لا أتذكره! كأن تروسَ دماغي تعطلت، وكلما عافرتُ لتدور، أوقف دورانها حجرٌ صغير، مزنوق بينها، فلا هو قادر على الفرار، ولا هي قادرة على فرمه ومواصلة العمل.

كيف يفقد الإنسان قدرته، على رؤية الأحلام، على تذكر شكل أبيه مثلاً، كيف يفقد الإنسان عامةً قدرته المعلنة والمعروفة للكل على تطويع خياله الخصب، وترويض أفكاره كما يحلو له، لتعرض له أجمل ما يريد، في عالم مخلوقٍ من خيالاتٍ تُرضيه؟

الصدومات تتوالى، ورأسي المسكين يُطالبني بمساندته، ولأنني رجلٌ نبيلٌ، لم يُرهق باله في التفكير، مع أن لديه كثيراً من المعلومات، سألتُ رأسي المسكين، الذي يحتاج إلى مساعدة، سؤالاً جديداً، ليضيفه إلى قائمته: هل ما قاله لي العم آدم في آخر أيامه صحيح؟ أيقصد ما قاله؟ هل أنا فعلاً لسْتُ ابن الحاج عبد القوي؟ دماغي يستعطفني لطرد هذا التساؤل،

ويقول لي: العم آدم وقتها كان في عالم آخر صنعته له الخمر
المُعْتَقَة، فلا يجب علينا تصديق كلام السكران.

ولأنني رجلٌ لم يُرهق باله بالتفكير، وهو يعرف كل شيء في
الوقت نفسه، ضربت رأسي بسؤالٍ مُحيرٍ: إذا كان العم آدم كاذبًا،
لماذا فعلاً لا أذكر أي شيء من مراحل طفولتي؟ فيجيبني دماغي
بكلام أبي، أقصد الذي أنا محتار في أمره هل هو أبي أم لا، ويقول
لي: "حين كنت صغيراً يا محمد، سقطت على رأسك، لأنك كنت
طفلاً شقياً يقفز هنا وهناك، ويلعب مع كل شيء، وفي كل شيء!"
ومع أنني لم أفهم الجملة الأخيرة، وأشعر أنها سافلة، إلا أنه
يكمل بأنني فقدت الذاكرة على نحو مؤقت، ولما عادت، لم
تعد مع غالب ذكرياتي، وهو كلام لا يدخل عقل طفل.

إذا كان كلام العم آدم صحيحاً، وأنا لست محمد عبد القوي،
عامل الدوكو، ووريث الحاج عبد القوي الوحيد، إذاً من أنا؟

محيي ابن طاهرة

منظر الصليب الذي وجدته خلفي حين صحوْتُ من نومي
في الشارع، يظهر لي كثيراً، أين كنت؟ ولماذا كنت نائماً في الشارع
فعلاً؟

أعتقد أن شخصاً غريباً، في مثل هذه الأيام، ووسط كل هذا
الصمت، كان سيضربه الجنون إذا لم يكن قارئاً! الكتب هي ما
يهوّن عليّ وحدتي، الله يهون عليك يا طاهرة، كانت تقول لي

"أنت تحب الكتب يا محيي، أكثر مني ومن الأكل!" والحقيقة هي لم تكن مخطئة، أنا لا أجعد دورها في حياتي طبعًا، ولكنني لا أعرف من هي؟ سألتها كثيرًا عن تاريخها، والإجابات لم تكن كافية، إجابات من نوعية: "أنا عجوز وحيدة" و"تركني زوجي منذ زمن" و"لا تسألني يا محيي، المهم أننا معًا، وأنني وجدت من أعامله كابن لي"، كلها إجابات تفتح باب الشك، وتدعوه للدخول إلى قلبك، والاستمتاع بكرم الضيافة، لأطول فترة إذا ما أراد.

قدرة عقلي على الاستيعاب، والحفظ في الآن نفسه، قدرة مرعبة! كنتُ أقرأ الكتاب، فيجلس في العقل الجواني، ويقول لي: "أنا هنا! سأخدمك متى تشاء، أي معلومة أو سرد قصة، لا تردد يا بطل!" وهو ما ساعدني كثيرًا على امتهاني للتدقيق والتصحيح، قرأتُ معظم ما يخص اللغة، شروح السابقين في أمور اللغويين، والكثير في بحور الشعر، وعلم العروض، عرفتُ فروقًا عظيمةً بين أصغر الكلمات، وكيف تستخدم التعبير هذا ولا استخدم ذلك، مثال بسيط: قُل وزعت الجوائز بين الحاضرين وليسَت على الحاضرين، وذلك بسبب.. ما الذي أفعله؟ هل لمن عقلي؟ أنا أعرف هذه المعلومة، لمن أقولها؟

بعيدًا عن اللغة، وعن التصحيح والتدقيق، من أنا حقًا؟ ما إذا لا أعرف من أنا؟ ما الذي يُخفيه الله عني؟ هل كنتُ هاللاً مثلاً والله من عليّ بالتوبة فأفقدني ذاكرتي؟ هل كنتُ شاذًا فعالجني الله بضياع الهوية؟ هل كنتُ مُقامراً فحفظني الله من السجن، ومن ضياع أموال، بنسف ذكرياتي وذاكرتي؟ هل أنا

يسوع فعلاً؟ كما قالت لي بنتٌ صغيرة، كانت تمشي مع أمها في ميدان رمسيس، وقابلتني صدفةً وأنا ذاهبٌ إلى الكاتدرائية لتحصيل مقابل الكتب التي صحتّها، البنتُ صرخت حينها: "انظري يا أمي! يسوع!"

سأعود إلى المنزل، ربما تطلق طاهرة من غياب هكذا بالخارج. مسكينة طاهرة، لا تستحق ما يحدث لها والله.

ثلاثة أشهر من الدهشة الأولى

عامل الدوكو

لما نزل عبد القوي من الحافلة، ورجع إلى بيته بكتابه، بعدما كان في منزل منة، حين ذهب ليتقدم إليها، لم يتخيّل أنه سيعود بكل أفعاله، بدلاً من الموافقة عليه وقراءة الفاتحة وتحديد موعد الخطبة! قعدَ بمنصف شقته، لا يصدق ماهية الشيء الموضوع أمامه، ينظر إلى الكتاب بما لا يليق بالموقف، نظراتٍ كتلك تستحقها أنثى، أنثى تقف في حفلٍ، فستانها يُسكِر الناس، مع رائحة عطرٍ تمسح خطايا الروح!

الموقف صعبٌ عليه، أصعب مما يواجهه غيره، رجلٌ مثله لا يُرهق باله بالتفكير، ويعرف كل شيءٍ في الوقت ذاته، يتعرض لدهشةٍ تساوي -من وجهة نظره- دهشة رجلٍ عرفَ أنه صار

نبيا! فتح الكتاب ببطءٍ مُتعمّد، وجد الأيام بتواريخها، منذ ولادته وصولاً إلى يوم صفحته البيضاء، كل صفحة تسرد تفاصيل حياته، تفصيلاً تفصيلاً، كأن المُدوّن لم يفعل شيئاً سوى مراقبته، سخافاتهِ، ملل أيامهِ، كلامهِ مع نفسه ولغيرهِ، مواقفه النبيلة والحقيرة، تقاعسه عن بذل أي مجهودٍ، كل فرصة رفضها بدافع الكسل، عدمية تفكيرهِ، نظراتهِ إلى السيدات ومؤخراتهن، كل مرة مارس العادة السرية، حتى آخر يوم فعلها، كيف تصرف عامةً، وكيف سيتصرف في المواقف المُستقبلية.

تحدث إلى ذاته بصوتٍ عالٍ: "سأقرأ حياتي من اللحظة التي أجهلها، حتى تلك الصفحة البيضاء، لن أخرج إلى الدنيا إلا وأنا عليمٌ بكل سطرٍ في كتابي!" قام إلى المطبخ، أعد كوبَ شايٍ، ومع أي خطوة يخطوها يصاحبه الكتاب، يقرأ في كل لحظةٍ ومكانٍ، يقرأ وهو الذي لم يقرأ بصورةٍ مستمرة سوى الكتب الدراسية، يتعجب من معرفته للغيب، يعرف مثلاً أنه بعد يومين سيتعارك مع شخصٍ خطبه في أثناء ذهابهِ إلى المحل، والشخص سيضربه ضرباً لم يره (حرامي في مطلع). يضحك لتصرفهِ مع مواقف بعينها، يركز مع خناقةٍ أو مشكلةٍ، وكيف خرجَ منها، مع ضرورة التفكير في مخرجٍ آخر، وذلك لأنه رأى أن التصرف الصادر منه وقتها كان طبقاً لعدم معرفته بالأمر، والآن صار يعرف، ثم تراجع عن قرارهِ في لحظةٍ، معللاً بقوله: "ولم أشغل بالي بالتفكير؟ تكفيني معرفة المصائب وكيفية الخروج منها!"

ما لم يفهمه في بداية الأمر تلك الأرقام الصغيرة المكتوبة في
نهاية بعض الأحداث، لم يجد لها تذييلاً أو مرجعاً في صفحة
أخرى، ركز مع حديث من تلك الأحداث، قرأ المكتوب ليُفسر
لنفسه: "في أثناء قعوده على المرحاض، صباحاً، وعيناه تتناويمان،
سيفاجأ بفكرة، سيتعجب من التفكير، سيحاول إثباتها" توقف
المُدون عن التوضيح، كلام عام لا يفيد، دُهِشَ لكلمة (فكرة)
وجملة (سيتعجب من التفكير)، دهشته لم تكن لمعرفة المُدون
بطباعه، دهشته لأنه فكر بل وسيحاول إثبات تلك الفكرة،
التي لا يعلم عنها شيئاً!

يفر الصفحات، لا يتذكر طفولته، زملاء المدرسة، أفعاله
المشاغبة، شهقَ لما قرأ، عن تعمده إسقاط القلم في أثناء
الحصة لينزل أسفل التخته ويرى سيقان الفتيات، أو ما بين
فخذي المعلمة التي كانت تجلس بتنورة قصيرة، فيظهر لباسها
الداخلي الأحمر، وما يخفيه من وحشٍ، سيبتلع ما يقترب منه.
بلذة وأهات كاد يغلق الكتاب من شدة الإحراج حين قرأ عن
ولوفه خلف الفتيات وقت الفسحة، في أثناء شراء الحلوى من
مطعم المدرسة، ليضع قضيبه المنتصب المتدثر ببنتاله، الذي
كان في مراحل نضجه وقتها، في مؤخراتها المختفية خلف قماش
النانير، وكم كان يعجبه حين تقاومه إحداهن، وتدفعه بمؤخرتها
لبتعد، اعتراضاً على ما يفعله، فيزيد هو من تحرشه، ويدفع
لهيبه بقوة، مع غمرة من عينيه لزميله المُراقب للموقف،
المتعجب كيف لم تنهره أي بنتٍ منهن، وكيف كانت تصمت

الفتيات، بل وتتنظر إلى عضوه المنتصب، وتستفسر عما يفعله، مع ابتسامة ورفع حاجب.

تساءل بصوت مسموع: "أنا لا أذكر هذا! وإن حدث ذلك، لقد كنا أطفالاً! لماذا دَوَّكْتَ تلك الحشرات الصغيرة؟" قرأ صفحة يوم جديد، فعرف مثلاً أن غداً، حين يفتح محله، سيزوره صاحب مصنع ملابس، وسيطلب منه طلاءً مثالي من الجرائيت. تعجب من هذا الرجل المجنون، هذا فقط رزقه طوال اليوم! ثم شاهد العلامة نفسها التي يجهل معناها، فقال: "لن أنزل غداً من أجل زبون واحد!"

توالت الصفحات، مُحي الغيبُ من حياته، فرحَ لما تأكَّد من خطبته لمنة، المحل لن يغلق، الرزق موجود، لا يدرك معنى تقسيم الأيام، ما هو يوم اليتيم أو يوم المُسنن، ولماذا رفض في إحدى الصفحات مبلغاً ضخماً مقابل ضمانه لدخول الجنة، وأن في صفحة أخرى فوَّت عليه فرصة يتمناها غيره! أيقن أن التنقل السريع بين سطور كتابه لن يفيد إطلاقاً، ولا مفر من قراءة الكتاب صفحةً صفحةً.

-1-

العامّة

تأويل الواقعة لا يُنسب إلى العامّة في المطلق، ولم يحدث في أي عصر، مع أن الفكرة عظيمة، أن تسرد حكايةً من وجهة نظر العامّة، والبُعد عن أبطال الحكاية! ومع ذلك، نكرانُ قدرهم جحدً، والسارد لا يعترف بنقصان التفاصيل، ولا يهول من مكانة، أو يسيء إلى ذكرٍ بالتجاهل، لذا وجب التطرق إلى صيانتهم.

وليل العامّة لا يختلف عن نهارهم، ووجوب تفكيرهم أو لهاية لا يضر، العامّة المطعونون في السعي خلف الرزق، في محاولات البحث عن بنت الحلال أو ابن الحلال، في إرضاء المدير أو النوم معه، أيهما أسرع للحصول على ترقية أو مكافأة.

في التحايل على الحكومة، والهروب من الضرائب، وإتقان فن
الفهلوة، فالعامة إذا ما حصلوا على شيء، بنصف الثمن أو أقل،
نظراً إلى مهاراتهم -هكذا يحسبون- في الفِصال، شعروا بنشوة
لعدة أيام، وقد تمتد إلى شهور، ولا يمل أحدهم من تكرار سرد
تجربته على مسامع الجالسين، وكيف خدعَ البائعَ المُتمرس!
انتصار عظيم يُحسب لهم، نظراً إلى بساطة مساحة وجودهم،
في بؤر الأحداث على نحو عام، ولبساطة مساحة دورهم، في
سير الحياة على نحو خاص، حتى في الأفلام تجدهم دومًا هم
الفئة الأدنى، والتركيز كله مع الشخصيات الرئيسة، إلا أفلام
الأبطال الخارقين، يحاربون من أجلهم، ويهمهم جداً اعتراف
العامة بقدراتهم، أو الثناء على مجهوداتهم في الحد من مصيبة.

في حكايتنا، واجه الناس مصيبتهم، بالهروب إلى الفقر،
والتقرب من الخالق الأعظم، بمختلف الديانات، لم يغيّر شخص
ديانته، على سبيل الاعتقاد بصحة دين بعينه! المشهد العام
صار عبثياً، يصحو الفردُ على مكالمية، من قريب غني أو صاحب
عمل، يرجوه ضرورةً التوجه إلى أقرب بنكٍ للحصول على نصيبه
من "وديعة الخير"، الاسم الذي أطلقه أحد القساوسة في أثناء
لقاء بقناة فضائية، ووافق الجميع عليه، إلا أن العبثية تغلغلت
ببطء محسوب، فجعلت الفقير المحتاج يرفض المال!

المحال خفضت الأسعار، تعطل سوق السيارات، المشي مع
التسبيح وذكر الله، وفضل المسيح ونعمه، أفضل من رفاهية
تدخلنا النار! ولما وجدَ الناس صعوبةً في الوصول، خاصةً مع
المسافات الطويلة، زهدوا فكرةً سيارة لكل شخص، واجتمعوا

على شراء سيارة لكل جماعة مكان عملهم واحد، أو طريقهم واحد، مع المشاركة في المصاريف على نحو عادل.

خلت السجون من مقيميها، حتى المقبوض عليه بتهمة واضحة خرج إلى العالم، ومع معرفة الأمر الجلل، صارت المدينة حقاً مدينة فاضلة، الرجل يعتذر لأخيه إذا أخطأ، والمرأة رفضت ترك البيوت، وخرجت الإعلاميات على الشاشات يحذرن النساء من الملابس غير المحتشمة، وتدعوهن لإقامة حلقة نارية، في مختلف الشوارع والميادين، لحرق كل فتن القماش! اختفت الموضة، الكل سواء في طريقة اللبس والتفكير، المساجد والكنائس والمعابد يومياً تكتظ بروادها، الإعلام كلف كل موظفيه بتوجيه الناس إلى الأخلاق، ورفض أي رشوة، والتصويت في الانتخابات لمن هو أجدر، مع الوعد -ببكاءٍ يفطر القلب- بعدم التلاعب في النتائج.

أصحاب العقارات طرّقوا أبواب المستأجرين، خفضوا الإيجارات لملاييم لا تُذكر، وإذا تعذرت في الدفع، لا يهم فكلّ لوابه! أصحاب الملايين مشوا في الشوارع يطلبون من الناس الكرم بقبول عطاياهم، فيردهم المواطن صارخاً: "مال! أعوذ بالله من الشيطان الرجيم!" ولما تمكن منهم اليأس، وضعوا أموالهم في حساب، وأعلنوا في كل صوب، عن وديعة خير تقدر المليارات، لن يسالك موظف البنك عن أي شيء، فقط خذ ما ارهد وارحل في صمت!

ثارت إدارات البنوك، الأموال في تزايد مستمر، الاستثمارات قليلة ومحددة، في الخير فقط، لبناء الجوامع والكنائس، لإعمار القرى، ترميم المباني، توسيع مقرات دار المسنين والأيتام، إنشاء المدارس المجانية بالكامل، وعلى أحدث الأساليب، وكانت المفاجأة هي رفض المدرسين لأي رواتب عالية، ما يكفي فقط للحاجة، وإذا ما تبقى من راتب الشهر، يتم التبرع به لصندوق المدرسة -غير المحتاجة إطلاقاً- فوراً! تم إلغاء الدروس الخصوصية، مجانية التعليم بالكامل، الطلاب حاضرون، الذمة الخالصة لوجه الخالق في كل شيء. كانت حاضرة، بدايةً من أصغر عاقل ومُلم بما يحدث، وصولاً إلى أكبر وأعقل وأكثر الناس علماً!

اقترح أحد الشيوخ، في برنامج يتحدث عن السحاحة وقتل الفتنة بين الطوائف، ضرورة تخصيص ساعتين يوميًا لفعل الخير، فالأحد من كل أسبوع هو يوم اليتيم، والاثنين يوم المسنين، الثلاثاء يوم البحث عن الغارمات وتخليصهن من جمل الدفع، الأربعاء يوم تمجيد أصحاب الاحتياجات الخاصة، الخميس يوم زيارة المريض، سواء في المشفى أو البيوت، الجمعة يوم الحديث مع أخيك في الوطن، واستقبال سكان الأقاليم في العاصمة، أو الجلوس مع أخيك الذي على غير دينك، والاستماع إلى تعاليم دينه، دون خوض في جدالات عن الدين الصحيح، أو مقارنة بين الأديان، السبت يوم الزواج، فلا يرفض الأهل عرسًا، مع تسميته بسبت الفرحة، ولفترة ليست قصيرة، ظلت الزغاريد تطرب الناس كل سبت.

أما ما يخص الكتب والنشر، فقد وافقت الحكومة على طلب، جاء من كاتب غير مشهور، ولا يهدف للشهرة إطلاقاً، عن حتمية التخلص من الروايات والشعر والقصص، وكل كتاب.. مهما كان موضوعه- لا يشجع الناس على التقرب إلى الله، مع الاحتفاظ بأي عمل موضوعه يتناسب مع الطلب، وضرورة إعادة نشر الأعمال المناصرة للفقراء، وفتح باب النشر للكتب ذات الطبع الديني والتربوي، والابتعاد عن أي إسفاف يُعرضهم للمحاكمة يوم القيامة عن تفاهات لا تستحق، وذئبل الكاتب طلبه بأهمية مراجعة الأعمال الموافق عليها، لحذف كل المشاهد الخارجة، والألفاظ البذيئة، ورفض العمل -حتى لو كان مناسباً للطلب- إذا تعدى الخطوط الحمراء.

قررت الحكومة في أسرع وقت وقف النشر نهائياً، وإغلاق دور النشر المصرية، ووقف التعاملات الثقافية، وإعدام الكتب مثلما جاء في الاقتراح، مع تخصيص لجنة لتفنيذ الكتب، والتفرقة بين المناسب وغير المناسب، واقتصار مهمة النشر على المجلس الأعلى للثقافة، وأي شخص يرفض القرار ستقام عليه لهمة الخيانة، ذلك لأنه يريد للردائل الاستمرار، والناس في هذه الفترة ما زالوا متخبطين ما بين هل القيامة على الأبواب، أم أن الرب يعطيهم فرصة، للتعرف على ذنوبهم ومراجعة أنفسهم.

في كل مصيبةٍ دونها التاريخ، كان هجر الملذات دوماً حلاً، والتقشف الحقيقي المصاحب لنديم صادق! لم يدون التاريخ لظ، حتى وقتنا هذا، عن محاولة العامة معرفة السبب خلف المصيبة، عادةً ما ربط العامة مصيبتهم بسوء أفعالهم، عادةً

ما يسأل كل شخص نفسه: "هل نقص إيماني هو السبب؟" لم يفهم العامة يوماً معنى تفسير الظاهرة، لم يفكر أكثرهم حكمة في فرضية (ما السبب؟)، كل مصيبة فُسرَتْ: "سوء النهاية من سوء الأعمال!" كأن الحياة بندوقٌ يتحرك بين الأفعال والعقاب فقط، وكأن الحياة لا تعترف مثلاً، بكلمة عظيمة، اسمها (المعجزات).

-2-

العامّة: آدم

حدثنا ساردٌ عن أسطورةٍ واحدة، وهجرَ الحكي بعدها، ولم
اعرف لماذا اختفى، ولم يعطينا السارد الأول إجابةً قط!

عامّةً، حدثنا هذا السارد عن أسطورة تتناول قصة مجذوبٍ
من مجاذيب أرض الله الواسعة، صحا من نومه على صوت
النداء، ولما شاف امرأةً أمامه، عاريةً تمامًا، قبل أن يسألها عن
سبب وجودها، قالت له بصوتٍ ناعمٍ يذيب الجليد ويطفئ
النار: "بمجرد خروجك من هذه الغرفة، كلما رأتك أنثى
صغيري خلفك لتقبلها، ومنهن من ستسجد لك، ومنهن من

ستدّلب منك الذهابَ معها إلى مكانٍ لتنهّل منك حتى تشبع، وتعاود تقبّل الحياة مع زوجٍ تقليدي تكرهه".

اختفت صاحبةُ النبوءة، النبوءة التي ظهرت فجأةً لرجلٍ باهلٍ، لا يعمل ولا يجد قوتَ يومه، يسكن غرفةً قذرةً في أفقر مدن الرب. قام الرجل يبحث عنها، صورةً جسديها الفاتن لا تفارقه، خرج إلى الناس ليتأكد من كلامها، ولم تتركه امرأةً في المنطقة إلا وضاعته، للدرجة التي أجبرته على الهروب منهم، لم يتخيل أن كل امرأةٍ مرت من أمامه يومًا، وحسد رَجُلُها أو من سيصبح رَجُلُها، على جسد أنثاه، ستترجاه ليمنحها رضاه.

ظلتِ النسوة يتهاמשن في ما بينهن عن وسامة الرجل الذي ظهر كنبي في منطقتهن، وينام في غرفةٍ مجذوب المنطقة، لم تهتم ولو كلبهً لاختفاء المجذوب، كلهن ينتظرن خروج الوسيم من الغرفة، وإذا تأخر أرسلن ولدًا صغيرًا ليعرف لهن سبب غياب شروقه، والمجذوب يحادث نفسه كل يومٍ عن سر ما جرى له، ولماذا لم يطرق شخصٌ بابَه ليستفسر عن اختفائه، كل الطريق يتبعه السؤال اللينيم: "هل الرجل الوسيم بالداخل؟" تختلف الأصوات بين أطفال ونساءٍ، والسؤال واحد.

لذا قرر الرجل البقاء في غرفته، وهدهد تفكيره إلى فكرةٍ ستعيد سيرة المجذوب إلى الناس، لن يخرج إلى العالم، لن يأكل ولن يشرب، إلى أن يقفَ ملاك الموت أمام غرفته، وحين يموت بالتأكيد سيعود إلى هيئته المعروفة، فيخرج الناس على الأقل في جنازته. ظل على حاله لأسبوعٍ كاملٍ، ثم أسبوعين، حتى

مات الرجل، وبينما الروح تخرج، رأى صاحبة النبوءة ثانية، قالت له بصوت تدفعه الحسرة والألم: "تلك الهبة كانت لك، لتقبلوك بالخارج، ولكنك رجلٌ عظيمٌ، استمتعتُ قليلاً، قبل أن ترفضَ وتبحثَ عن أصلِك، نادرون من فعلوا مثلك، لذلك أشركَ بنهايةٍ تليقَ برجلٍ، لم ينسَ جوهره".

مات الرجل وصعد جسده كاملاً إلى السماء، وليست الروح هالط، ثم انفجر وتفتت، وطارَتْ كل فتفتةٍ إلى أرحام النساء، في مدن مختلفة، فصار في كل منطقةٍ مجذوب، وعرفنا من السارد بعدها أن هذا الرجل كان المجذوب الأوحَد بينهم، الذي رفضه الناس لاختلافه عنهم، فترك المجاذيب بعده يخلدون دُهره، ذلك لأن اسمَ الرجل كان "مَجذوب" أصلاً، فبات اسمه وسفهم، بعدما تذكر الناس مجذوبتهم، ولما ظهر رجلٌ آخر، قالوا عنه: "مَجذوب جديد!" وتناقل الناس في ما بينهم الاسم، فخلدت سيرته أبد الأبدين، وسافر الاسم إلى كل البلدان، حتى صار الوصف الأمثل والحاضر دوماً.

أسطورة كتلك، تليق كتقديم، وتفرش الطريقَ لي، فأحكي سيرةً أخرى لا تقل في عَظَمَتِها عن أي حكايةٍ مجيدةٍ، تنتمي إلى عالم المجاذيب، حكاية الأوحَد والأول بين أبناء مدينته، آدم، الرجل الذي غلبَ كل أسباب المنطقي بحجةٍ واحدةٍ لا غير، محبة "آدم لم يفهم اللعبة"، والمقصود بمقولته هو آدم أبو البشر، وقصته المعروفة في تاريخهم، إذ يرى أن آدم أخطأ حين أكل التفاحة، ذلك لأنه يعلم أن الرب يعرف ما سيحدث، وكل شيء مكتوب ومُدوّن، فما كان عليه إلا أن يجلسَ وينام، ولا

يفكر في شيء إطلاقاً، وستأتيه التفاحة متى أراد، ولكن الكلام عن الوسوسة، وعن مختلف التأويل، فتارة إبليس هو السبب، وتارة أخرى حواء، كل هذا محض هراء، المسألة محسومة من البداية، الرب لم يعجبه حال آدم، وكيف أنه يجلس بجانبه دون شقاء أو عمل، أو دون الحاجة إلى السعي والنجاح، والرب شعر بأن الجميع هكذا سواسية، سيرى الكل النعيم، الذكي والماكر والماهر والداهية والفيلسوف والغبي، فكرة التحدي عامة تعجب الرب، وإلا لماذا لم ينجح إبليس في لحظة تمرده؟

هكذا كانت حياة عم آدم، الرجل الذي يُفكر قليلاً، ومع ذلك يُخرج أفكاراً عظيمة، الرجل الذي سحر عبد القوي، وصار مثله الأعلى، الرجل الذي يترك الأمر لصاحب الأمر، لا يشغل باله بشيء، ولا يعنيه كلام الناس، وجود المال من عدمه لا يهمه، هذا غني وذلك فقير، أرزاق، هذه عاهرة والجميع يراها شريفة، ستر، هذه شريفة والكل يُقسم إنها عاهرة، غيره وعجز عن الوصول إليها!

كان فيلسوفاً بالفطرة، معجزة تتحرك بين الناس في حي السيدة، مع أنه لا يؤمن بالمعجزات ولا الكرامات، تفرده الواضح جعل اسمه فقط، دون القاب أو تلميح، هو الذي يساعد الناس على تذكره، فلا يقول الفرد لصاحبه مثلاً عم آدم العجلاتي أو الحكواتي أو القرداتي، عم آدم فقط، فيعرف المستمع عن الحديث، حتى إن قابله المخاطب مرةً عابرة، سيتذكره كأنه معرفة سنين.

حين حدث ما حدث، كان عم آدم جالسًا في دكانه الضيق الذي لا يعرف المار بالمنطقة، منطقة الناصرية بالسيدة زينب، ماذا يبيع هذا الدكان؟ والسائل الفضولي سيعرف أنه عجلاقي، على الرغم من عدم وجود ما يدل على مزاوله المهنة، إلا أن عم آدم يبرر دائماً: "ولماذا أحتاج إلى لافتة أو شيء يخبر الناس بوجودي؟ أنا رجلٌ لي زبوني، يعرفني ويأتي إليّ حينما يريدني، (هونٌ واحدٌ في الشهر رضا!) عرفنا أن أهل المنطقة تبرعوا لدفع إيجار الدكان، وأن الزبائن ما هم إلا أصحاب وأقارب أهل المنطقة، ومع ذلك لم يهتم عم آدم بالآتي ولا الراحل، كوب الشاي وصوت الست، ومشاهدة مؤخرات البنات، والتنبؤ بمن ستصبح امرأة كما يقول الكتاب لما تكبر، ومن ستكون مشاكسة في السرير، ومن سترفض الإتيان من الخلف، ثم الضحك وطلب المغفرة من الله، فهو رجلٌ يُسلي وقته بالملذات والتخيل لا أكثر.

وقع كتابه أمامه مباشرة، سمع من الناس بأمر الكتب، واقترب يوم القيامة، وشكوكهم بأن ما يحدث الآن هي العلامات، كل ذلك وكتابه واقع على مقربة منه، ينظر إليه مهتسماً، يحسب الناظر إلى المشهد أنه خائفٌ من فتحه، يركض الناس في دُعرٍ، النسوة يصرخن، الرجال مذهولون، الأطفال يبكون، وعم آدم يراقب كتابه، وهو جالسٌ على كرسيه الهشبي الصغير، المقترب من الأرض أكثر من اللازم، تشعر كأنه يجلس القرفصاء أرضاً، وليس مستنداً إلى شيء، لا يتحرك، يراقب في صمت.

سَمِعْنَا عَمَّ آدَمَ يَقُولُ، بِصَوْتٍ وَاضِحٍ جَلِيٍّ، يَسْمَعُهُ الْبَعِيدُ قَبْلَ الْقَرِيبِ: "أَتَعَاقِبُهُمْ لَمَّا فَعَلْتُهُ بِتِلْكَ الْفَتَاةِ الصَّغِيرَةِ؟ أَذْكَرَ اسْمَهَا جَيِّدًا، نَعْمَةً، تِلْكَ الْبِنْتُ الَّتِي تَكْرَهُكَ لِأَنَّكَ خَلَقْتَهَا مَعْيُوبَةً، أَعْلَمُ أَنَّنِي إِذَا فَتَحْتُ هَذَا الْكِتَابَ، سَأُجِدُ تَفَاصِيلَ اللَّيْلَةِ كُلِّهَا، أَنَا لَسْتُ فَضُولِيًّا لِأَعْرِفَ مُسْتَقْبَلِي، أَنَا شَخْصٌ فَاهِمٌ جَدًّا لِكُلِّ شَيْءٍ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ، إِذَا كَانَ مَا قُمْتُ بِهِ يَسْتَحِقُّ أَنْ تَقُومَ الْقِيَامَةُ، فَامْنَحْنِي مِيتَةً تَلِيْقُ بِرَجُلٍ عَرَفَ حَقِيقَةَ اللَّعْبَةِ مِنَ الْبَدَايَةِ، رَجُلٌ مِثْلِي يَجِبُ أَنْ يَمُوتَ فِي سَرِيرِهِ، بِلَا قَلْقٍ أَوْ خَوْفٍ، وَعَقْلُهُ خَالٍ مِنْ أَيِّ مَوْضُوعٍ".

ظَلَّ آدَمُ يَرَاقِبُ النَّاسَ وَكِتَابَهُ، الدُّنْيَا تَغْيَرُ، الْمَدِينَةُ أُمُوسُ فَاضِلَةٌ، وَآدَمُ لَمْ يَقْرُبْ كِتَابَهُ مِنْ وَقْتِهَا، كُلُّ النَّاسِ عَرَفُوا مُسْتَقْبَلَهُمْ، وَآدَمُ يَفْتَحُ دُكَّانَهُ وَيَعْمَلُ، يَذْهَبُ إِلَى بَيْتِهِ وَيَجِيءُ، زَوْجَتُهُ تَقْرَأُ كِتَابَهَا وَهُوَ يَضْحَكُ، كُلَّمَا تَكَلَّمَ مَعَهُ أَحَدُهُمْ، تَمَسَّكَ بِمَوْقِفِهِ، وَقَالَهَا بِكُلِّ جَرَأَةٍ: "سَأُعِيشُ حَيَاتِي كَابْنِ آدَمَ الْمَطْرُودِ مِنَ الْجَنَّةِ، وَسَيَفَاجِنُنِي الْقَدَرُ، بِتَغْيِيرِ الْحَالِ أَوْ الْمَوْتِ، أَيُّهُمَا أَقْرَبُ؟"

-3-

العامّة

في البدء كان الخوف، ثم القلق، بعدها التستر، لم يتحدث العامة عما تحويه كتبهم، تصرفُ الناس العام صدرَ طبقاً لما سمحوا له بالظهور، فلم تجد أي منهم يخبر الآخر -حتى أقرب الناس إليه- بتفاصيل حياته، كلُّ يعيش وفقاً لما حددته الحكومة، والقنوات والشيوخ والقساوسة، الأمر العام المعروف المثل، لا مشكلة في خوض النقاش عنه، أما ما يخص الفرد، والذي لم يُسمَح بمعرفته، فبات مخفياً بصورة مؤقتة، حتى يعلم المواطن إلى إظهاره، إذا ما أظهره المواطنون بالمثل!

وهو ما حدث سريعاً، ببساطة الكتب جعلت الناس يعرفون ما سيحدث لهم لمدة عام واحد فقط! ثم تفاجأ الجميع بهذا اليوم، الثالث من أبريل، صفحته بيضاء تماماً، لا وجود للكلمة واحدة، وصار الأمر عاماً، عن طريق مصادفة، أكدت شكوك الكل.

في البداية، قبل تلك المصادفة، ظن قارئ كتابه، المتوجس وكاتم أسرار حياته، أنه سيموت يوم الثالث من أبريل، فالكتاب وضح كل شيء بتفصيل صريح، ليتجه السلوك النفسي للفرد الواحد إلى فرض طريق تعاملاته بناءً على استنتاجه وفهمه، ليبدأ الأحباء في الاعتراف، والتعليل واحد: "ساموت قريباً"، جملة ساموت قريباً جعلت القائل والسامع في حيرة من أمرهما، فالقائل توقع رد فعل بعينه من السامع، فيفاجأ برد فعل مُغاير ونظرة حيرة، كأن السامع يقول له، بنظراته وقلقه الواضحين: "وأنا أيضاً!" ثم تحولت النظرات إلى ردود مباشرة صريحة، فما عاد السامع يقول بنظراته: "أنا أيضاً"، بل صار يقولها بكل شجاعة: "أنا أيضاً ساموت قريباً!"

تحرك الشك من مكانه، بمعنى أدق، من الفرد الواحد إلى فردين، ثم إلى ثلثة من الأفراد، فمجموعة قوائمها في تزايد، إل مجموعات كبيرة، إلى سؤال مباشر يتردد: "هل ستموت قريباً؟" لم يجرؤ أحدهم على تحديد التاريخ، لم يجرؤ شخص على قول "هل ستموت الثالث من أبريل؟"

أما بخصوص المصادفة، فما جرى يُفصح عن مهارة، في صياغة القدر، وتوجيه الوعي العام، إلى فكرة واحدة، فكرة أجبرت الواحد على التخلي عن حذره، والتكلم مع شخص آخر، قد يزيح عن صدره حَجَرَ الخوف، وهذا ما جرى، لما صارت جملة: "أريده قبل الثالث من أبريل" الجملة الأكثر انتشاراً بين الناس، فتجد مثلاً الباحث عن تسديد ديونه، في كل مرة يدفع ما عليه، يقول لدائنه: "أعدك بدفع كل شيء، قبل الثالث من أبريل"، وفي أمر الديون كانت الحيرة، فبسبب فضيلة المدينة، كان الدائن يتنازل عن المبلغ، والمستدين يرفض ويصر على الدفع، والنتيجة الحتمية هي الوصول إلى وضع المبلغ تحت بند وديعة الخير، فيرتاح كلاهما، وتزداد البنوك مالاً لا يتحرك إلا في الخير.

ثم بدأ صوت السؤال يُسمع، فيسأل الواحد عامّة بصيغة مازحة: "تعال نلعب لعبة بدافع قتل الملل، فأقول لك مثلاً شيئاً من كتابي لا تعرفه، وأنت أيضاً، وهكذا!" اللعبة في البداية لم تجذب أحداً إليها، ثم فكر الناس في اليوم الملعون، فظهرت الاستجابة للسائل بدافع قتل الملل والمعرفة!

الأحاديث الجانبية بين الأفراد، الزوج وزوجته، الأب وعائلته، الدوائر الضيقة، الرفض لإعلان الأمر حتى يصبح عامّاً، ثم عمل الأطباء في الدائرة، فيسأل الطبيب مريضه عن اليوم الأخير في كتابه، مُعللاً ذلك بتحديد فترة الدواء والشفاء، فهذا هو -على سبيل المثال- يوجب عامّاً من المتابعة، فهل كتابك يُهيك بأنّ في حياتك عامّاً؟ والجواب بالطبع من المريض -مهما

كان ذكاؤه- التسوييف الشهير: "إن شاء الله" ولا غيره، فلا يرتاح السائل، ولا تهدأ شكوك المُجيب!

انتقل الشك إلى الموظفين، فيخترع الموظف حجةً ليسأل الشؤون الإدارية عن إمكانية حجز إجازة في العام المقبل، فيجيبه موظف الشؤون في ريبة: "أي مدة قبل شهر أبريل متاحة، أما أبريل نفسه فلا نعرف!" وعندما يستفسر طالبُ الإجازة عن السبب، مع استخدام حيلة مأكرة، ألا وهي أن الإجازة المطلوبة ستكون في أبريل، فينتفض موظف الشؤون من مكانه: "إذًا كل شيء طبيعي في كتابك، في شهر أبريل ومايو أو أبريل ومارس؟"

لن تتغير طبيعة الإنسان، لن يتغلى عن المراوغة، كيف يترك المرء الحذر، ويذهب بكل بساطةٍ إلى الصراحة، كيف يقول لصديقه: "الثالث من أبريل هو يوم القيامة كما فهمتُ!" التصرف الدائم المعروف، كما عرفنا عن الإنسان، فهو مثلاً لن يطلب ببساطة مبلغًا من المال، لأنه يحتاج إليه، بعد نفاد ما يملكه، بل سيبتكر حكايةً كاملةً، من شخوص وأزمنة وأزمات، ليطلب من أخيه المبلغ، تاركًا لديه الشعور بأن الدنيا تؤذيه، وهو يدافع عن وجوده!

البساطة والطبيعة البشرية، شأنهما شأن الجنة والنار، أما التعقيد والطبيعة البشرية، شأن الجسد والروح.

أيام الدهشة الثانية

ابن طاهرة

عام ونصف مع وحدتي، أشاهدهم ضعفاء مقهورين، أعيش «باتي ملكًا، ملكًا يخدم نفسه، أقرأ في هدوء، أنام في راحة، أدخل البيوت كما أريد، آخذ ما يساعدني على المعيشة التي بدأت تزداد سوءًا، لتوقف الحياة والعمل، المخزون لا يساعد، أطعمة ومشروبات كثيرة فسدت، الأكل المحفوظ هو النجاة، المن تاريخ الصلاحية لا يرحم، وبالطبع ليس هناك من ينتج أو يصنع، الخيارات تتضاءل، مع السؤال الذي بدأ يظهر منذ فترة، أين الحيوانات والطيور؟ هل ركضت مثلما ركض الأطفال بسرعة البرق؟ ولماذا كنت نائمًا في الشارع؟ ولماذا كان الصليب هلفي؟ ستقتلني الأسئلة!

منذ محو ملامحهم، وأنا أبحث عن كلبٍ يرافقني، أو قطعة
تؤنس وحدتي، في بعض الأيام تمنيتُ العثورَ على فأرٍ، حتى
الحشرات لم يعد لها وجود، ومع ذلك، أنا أتعاش مع كل
المُعطيات، وكل الكتب، وكل محاولات البقاء المُتاحة، إلى أن
أعرفَ نهايةَ الحكاية.

ظننتُ في بداية الأمر أن الواقعين في كل مكانٍ، هؤلاء
الممسوحة عنهم ملامحهم، سيموتون من الجوع، تفكيرٌ منطقي
طبعًا، لكن الفكرة الوحيدة الواضحة هي بقاؤهم على قيد
الحياة، مع نحالة أجسادهم، صاروا عظامًا يكسوها لحمٌ، بنيةٌ
ضعيفة، تقسم لك بقُرب الموت، فينفي الموتُ ذلك، ويُقسم
إن الإنسانَ عبيدٌ مُتمسكٌ بالبقاء.

قررت اليوم التوجه إلى منطقة جديدة، قريبًا لم أترك
بيتًا في رمسيس إلا ودخلته، وبكلمة رمسيس أنا أقصد كل ما
يحاط بالمنطقة. منذ اليوم الأول للمحو، وحتى تلك اللحظة،
مسحتُ المرافق مسحةً، مترو الأنفاق والبيوت والمحال والجامع
وقسم الشرطة، المطافي والإسعاف وأي مشفى، عربات الكبدية
ومحطة القطار والأكشاك، مقرات الجرائد والشركات وفرشات
الكتب والبضائع، وصولاً إلى الحمامات العامة، التي وجدتُ
بداخلها أشخاصًا قاعدين على الأرض، وسط الروائح النتنة،
وبرازهم وبولهم، سحبتُ خرطومًا من الحمام وحممتهم،
بعدها أمسكتُ بكل شخصٍ منهم وأخرجته إلى الشارع العام،
كإنسانٍ لا يفرق معه تمامًا فعلتي، ولكنني فعلتُ ذلك لأنهم
في النهاية، وهذه حقيقة ثابتة إلى أن يتغير الأمر، بشرٌ من لحم

ودم، ولكم يؤلمني أن يحدث شخص نفسه، فيقول: "نهايتي بين خراء البشر، يا رب هب لي بصري لأقوم من هنا وخذه مجدداً".

السير على القدمين مع كتاب، دون أي خوف من سيارة أبلية، أو شخص قد يصدك، شعورٌ يهون كثيراً عليّ، ولأنني تعودتُ اختيار الكتاب بطريقة الحظ والغمضة، وذلك عن طريق وقوفي أمام أي مكان به كتب، سواء بيتي أو مكتبة أو فرشة كتب في الشارع، ثم أغمض عيني، وأسحب كتاباً، والصدفة اليوم جعلتني أسحب كتاباً، ضحكك كثيراً بسبب اسمه، (بشرٌ نسيهم الله) لكاتب مصري، عاش في فرنسا طوال عمره، اسمه ألبير قصيري، ولأن الكتاب يتحدث عن الفقراء، وما يفعله بهم الفقر والعوز، فمشيتُ مع نفسي وصفحات الكتاب إلى السيدة زينب.

وفي طريقي إلى السيدة زينب، شعرتُ بشيء يشدني، التعبير الأدق هو رائحة، رائحة دهان سيارات، رائحةٌ تخبرني بأن شخصاً ما زال هنا، يعمل في صمت، شخصاً يحاول أن يرشدني إلى شيء، ربما يحاول إخباري من أنا؟ خاصة أنني الوحيد الذي أفتح كتابه، فوجد تفاصيل حياته منذ ظهر فجأة! كأن الكتاب مجرد تسجيل لحياتي، من اللحظة التي ظهرتُ فيها لطاهرة الناس، وعرفتُ طبعاً عن الأحداث التي ستتم في خلال العام، على يوم الثالث من أبريل، اليوم الذي حدث فيه ما حدث.

أحداث عامي المقبلة في الكتاب كانت مكررةً على نحوٍ فج،
تصحيح وتدقيق الكتب، مقابلات بولس الرسول، هكذا أطلقتُ
على الشخص الذي يجيء إليّ كل أسبوعٍ، من طرف الكنيسة،
ليتحدث معي عن طبيعة الأعمال الجديدة المُرسلة، وتذكيري
بعدم تصحيح أي معلومةٍ مغلوطة، ودفع مقابل التصحيح، مع
أنني طالبُهم بتسديد المبلغ دفعةً واحدة، ولكن بولس كان
يرفض دومًا، ويقول لي: "وهل تحرميني رؤيتك يا محيي؟" وكان
بولس كلما صافحني قبل الرحيل، رأيْتُ في عينيه سعادةً، تزداد
مع كل مرة يزورني.

لم أخبر أحدًا بخييتي تجاه كتابي، طاهرة شعرتُ بمدى
فتوري، وأنا على يقين بأنها تعرف كل شيء. مسكينة طاهرة، لا
تستحق مصيرهم نفسَه.

فيليب

يا واهبَ النعم يا يسوع، هبني بمحبتك ومعيتك، لن تجد.
مني إلا الشكر والحمد، يا صانع المعجزات، يا مجد الأمجاد، يا
يسوع المحبوب، دعني أتوجه إليك، معبرًا عن شكري وعرفاني،
على كل النعم، وعلى تكريس ذاتي لأُلك القديسة، عن طريق
التعبد الطوعي لها، لكي تكون محاميةً عني أمام عظمتك،
وعوني الدائم في شقائي، فأنا دونها -العطوف الجوادة- إنسانٌ،
حقير مُعرض للضياع، يا يسوع، أشكرُكَ لأنك كنتَ معي، خلا،
الأوقات الصعبة، من حوادث سير وأمراض، أشكرُكَ لأنَّ،

نشفيني من كل جراحي، تخفف جِملِي، تبعد أحزاني، تعطيني
فرحَكَ وسلامَكَ، أشكرك لأنك معي الآن هنا، تسير معي، عبر
كل لحظة من حياتي، وحتى هذه الثانية بالذات، التي أحتاج
إليك فيها، ببركة يديك، وطهر قلبك، يا يسوع المجيد.

بقاؤنا هنا سيطول يا مينا، لذلك كي نقتل الوقت إلى أن
يقتلنا هو، سأظل أحكي لك، مع أنك لا تسمعي ولا صوت
لي، ولكن دعنا نتسلى، سأحكي عن اليوم الذي ظننتك تحارب
الظلام، داخل رحم أمك، لتخرج إلى نور الدنيا وبز أمك. كانت
سهرة زوجتي تشعر بقرب المخاض، تركتها تنام صباحًا، لم
أرجعها بالصّحيان معي، وطلبتُ من يسوع بركته في الفطور،
برفقة زملائي في الأفران، يكفيني رغيف، أو نصفه، حتى لو دون
أي حشو، المهم نأكل وبركة يسوع تغمرنا، جاءني الخبر، عن
ماريق ابن الداية، وأنا أتأكد من جفاف الطمي الذي تركته
عشرة أيام، لأننا في الشتاء، أو ثلاثة أيام إذا كنا في الصيف كما
اعلم، بعدما جرفته من الأراضي الزراعية، وخلطته بتبن البرسيم
والقمح، ونهار هذا اليوم، كان دوره ليحترق بالفرن، فنشكله
أما لريد.

ركضتُ بجنون وفرحة، الهواء البارد يخبطني، أرى يسوع
يسيرني في الجري والضحك، شعره الناعم يتطاير إلى الخلف،
يهرع في خفة طفل، نسي أنه مُخلصنا، يجري مثل الصغار،
يربح عنه همنا ولو لثوانٍ، يتسم ويتأكد من أنني بخير،
يهر إلي، فأعرف أن حجرًا ربما يعرقلني، أشكره، ألمحه بطرف
مبني بجانبه تمامًا، جلبابه الأبيض الصوف يلمسني، يظهرني

مع كل لمسة، من حزنٍ أو فزعٍ أو قلقٍ، يقول: "مينا يا فيليب، أنا أحب اسمَ مينا"، وريثي ولدٌ، بشرني بالخير يسوع، ما أجمل الركض مع سيد النعم، لا يفهم أهل القرية لماذا أضحك وأجري، مساكين، لو شاهد أحدهم ما أنعمَ به عليّ، لظل يشكره إلى نهاية الأيام.

وصلنا إلى البيت، مسحُ عن وجهي العرق، يلمسه بحنانٍ، يهمسُ في أذني: "أنا هنا يا فيليب"، أسمع صوتَ بكاءٍ متقطعاً، صرخةَ حياةٍ، المولود يعلن قدومه، الزغاريد، الدعاء من الداية أم عفاف بدوام الحال والذرية، يُفَتِّح الباب، أدخل غرفتي، سهرة على السرير، تبتسم لي، يسوع يدخل معي، يبحث مثلي عنك بترقبٍ ولهفةٍ، ينظر إليّ مبتسماً، يرفع حاجبيه ويهز رأسه، كأنه يسألني أين هو، يتظاهر بعدم المعرفة، لذلك تحبك يا يسوع المتأنسن، نمشي -أنا ويسوع- على أطراف أصابعنا، حتى لا تستيقظ، نقترّب من السرير، كائنٌ صغيرٌ للغاية، بجانب سهرة، تضع يمينها عليه، تقاوم تعب الولادة، أشير إليها ألا ترهق نفسك بالحركة، أنزل على ركبتيّ، ويسوع يستند إلى كتفي لينزل هو الآخر، نتأملك، تضع إبهامك في فمك، ملامحك غير واضحة، "يشبهك يا فيليب"، شكرته على حسن المجامله، ما أعظم أن يجاملك الرب.

دخلتِ الداية، بعدما غسلت يديها، تطلبني بحق الولاد والإكرامية، يضع يسوع يمينه في جيبه، رفضتُ أن يدفعَ، كرمه ونعمته في كل مكانٍ، لحم أكتافنا من خيره، قالتُ أم عفاف، وانا أبحث عن المال في جيبي: "البنت ما شاء الله، بدرٌ في السماء.

اسم مريم هو ما يناسبها!" من الصدمة لم أرد عليها، توجهت إلى يسوع، فتح ذراعيه وقال: "أنا أحب اسم مينا، هذه معلومة لك، أراك صديقاً رائعاً، اسمعني ويحبني، فقلتُ لك عما أحبه من الأسماء، لماذا ظننتُ أن ولدًا جاء من رحمتي؟" ما أعظم أن يتخذك الرب صديقاً يا مينا!

حكيتُ لك كل ما سبق، ليس لقتل الوقت، الوقت لا يُقتل بها مينا، بل لأنني سمعتُك كثيراً تسألني، في أثناء غيوبتي، بعدما انقلب القطار، عن اسم مريم الذي كنتُ أردده، أنت عوض الرب، عن البتول مريم التي ماتت، حاول أن تهدأ، يا مينا كفاك خوفاً، أنا أثق بعون يسوع القادم، وأتمنى أن تقوم هريتا، لأنني بدأتُ أرى خرافاتٍ حولي، كاشكال بناتٍ، لم أرهن من قبل!

لعمة

نزلَ مني دم الدورة، بعد نصف ساعة بالظبط، من قراري الخروج، والسعي خلف تلك الرائحة، رائحة الوقود، وقررتُ ألا أعود إلا والرائحة مختفية! أو على الأقل أعرف مكانها، نهضتُ بدمي يسيل على مقعد العجلة - التي لقيتها في طريق هروجي - بعدما وجدتُ نصفني الأسفل، المرتكز فوق المقعد، في ثابت وعلى وشك الانزلاق. توقفتُ عن الحركة، نزلتُ عن العجلة، لأفاجأ بالسائل الأبيض اللزج الغريب، الذي يخرج مني، رائحته نتنة، عرفتُ منذ صغري، وقتما جاءتنني للمرة

الأولى، وأنا في بيت العم سند، بمساكن السناجرة، بالقرب من قرية العباسة بالشرقية، عرفتُ أن هذه هي الدورة، وأنني حالة غريبة، لأن المعروفَ عن الدورة أنها دمٌ فاسد، لوئه أحمر يميل إلى اللون البني، ومع ذلك كان دمي باللون الأبيض، لا أذكر اللون الإضافي الذي وصفه به الطبيب، ولكنه لونٌ يعني أبيض غامقاً.

يومها ساعدني عم سند، الرجل الطيب، الذي وجدني بالصدفة على الطريق العام المظلم، بين بليس ومركز "أبو حماد" بالشرقية، حين طردني أبي من بيتنا الفقير بأنشاص الرمل، القرية التابعة لمركز بليس، وبعدما اغتصبني الرجل ابن الوسخة الذي هربَ من لون دمي، الواقع من فتحة شرجي. مشيتُ وقتها حتى الطريق العام، أبكي من الوجع أحياناً، وأسكتُ أحياناً، لأجد رجلاً طيباً، يقف أمام سيارة، يحاول تصليحها، وبمجرد أن لمحني، طلبَ مني الاقتراب، وأخرج من جيبه حلوى، قال لي في صوتٍ حنون: "يا صغيرتي تعالي، هذه الحلوى كانت لابني أحمد، ولكنكِ تستحقينها، لشجاعتك ولوجودكِ بمفردكِ، في هذا الوقت من الليل!" خطفتُ منه الحلوى، وصممتُ على معرفة الذي حدث، كان يريدت على كتفي، ويتسمم مع كل قطعة تذوب في فمي، ويضحك على تعابير وجهي، إذا ما بصقتُ شيئاً، لأن طعمه مرا!

ذهبتُ مع عم سند حينها إلى بيته بمساكن السناجرة، وهي عبارة عن ثلاث بنايات ضخمة، في منطقة جانبية، تبعد عن الطريق العام، وشكلها يوحي بالأمان والطمأنينة، وكانت

مفاجأةً لزوجته وأطفاله، لم ترفضني زوجته، خصوصًا بعدما حكى لها، سمعُها تقول: "يا سند جزاك الله خيرًا، لكن هل تعتقد، وسامحني في ما أقوله، أن هذه البقع غير مؤذية أو مُعدية؟ أحمد من سنّها تقريبًا، وعندنا عروس ستتزوج في أي وقت، أنا على أتم الاستعداد أن أرفعها، ورحمة أمي سأفعل ذلك، لكن دون المبيت هنا، والكلمة كلمتك في النهاية يا سند".

توصل عم سند إلى فكرة، لأنه يملك ورشةً لتصليح السيارات، فعرض عليّ المبيت هناك، ويمكنني في أي وقتٍ المجيء إلى بيته، سواء للأكل أو للمذاكرة، أو حتى للجلوس واللعب. شكرتهم وطلبتُ منه الذهاب إلى الورشة لأنام، ومن وقتها ولمدة خمسة أعوام وأنا مع عائلة العم سند، يرعاني ولم يبخل بشيءٍ عليّ، حاول كثيرًا إقناعي بالتعليم، وفصول محو الأمية أو الجلوس بالقرب من أم أحمد في أثناء استذكار أحمد لدروسه، فربما لِنقُط سمعي معلومةً أو معلومتين، ولكنني قلْتُها يومًا: "يا عم سند، العالم لا يحبني، ولو صرْتُ أستاذةً في الجامعة!"

جاءتني الدورة للمرة الأولى وأنا بنتُ الثانية عشرة.. كنتُ في الورشة مع عم سند، أساعده في عمله بطريقةٍ بسيطة، أناوله مفتاحًا أو مفكًا، وأوقات أمسك له مصباحًا، من الآخر كانت مهماتي بسيطة، حتى وجدته في مرةٍ يطلع من تحت السيارة ويقول: "يا نعمة! هناك سائل أبيض يسيل على ساقك اليمنى!" لمسَّه وشمَّمته، رائحةٌ لا تُطاق، بكيتُ لما عجزتُ عن تفسير ما هو، وضعني في سيارته، وطار بي إلى أقرب وحدة صحية، بعد الكشف والأسئلة عن البقع، وهل هذه المرة الأولى التي

يخرج منها سائل، شرح الطبيب كل شيء، في هدوء وتعجب: "يا عم سند، لقد بلغت، هذا دم دورتها الشهرية، السائل يشبه كل شيء، له علاقة بدم الدورة، لكنه ليس مثله تمامًا، الرائحة، مستوى اللزوجة، التخثر، هذه حالة غريبة، أرجح أن السبب هي تلك البُقْع، قد تكون غيرت اللون، الله أعلم، لكن لا تقلق، هذه بداية مرحلة سن البلوغ، لا أكثر"، رحمك الله يا عم سند، كنتَ الإنسان الوحيد الذي بأفعاله، وبطيبة قلبه، منعني من قتل البشر جميعًا!

ألم الدورة مُستفز، وأنا لن أترجع عن مُلاحقة الرائحة، ولو كانت في آخر الدنيا! لما مسحْتُ عني الدم، فتحتُ الكيس الأزرق البلاستيكي، السكين موجودة، وبعض المعلبات والخضراوات، وطبعًا لأني نجسة فلا وجود للفوط الصحية، وهذا يعني ألمًا وقرحًا في الوقت نفسه، ولأنني لا يغلبني ألم كهذا، سحبْتُ الفوطة الصغيرة التي وضعتها فوق رأسي لتحميني من الشمس، دسستها بين فخذي، وتأكدتُ من وضعها بصورة لا تسمح بأي تسرب، وسأتعهد نسيان الرائحة، حتى تمسك أنفي بالرائحة المطلوبة! كل ما أتمناه أن تكون لشيء ضخم يحترق منذ فترة، وليست للإنسان في مكانٍ ما!

مهد القوي

منذ فترة، وحركة سرياني في النهر تتجه إلى بطءٍ غير مفهوم، فقدتُ الأملَ عامةً، لن أبشر نفسي بالوصول، لأنني إذا وصلتُ، فماذا بعد؟ إلى ماذا وصلتُ؟ هل سأقوم مثلاً وأمشي؟ هل سأرى أحدهم، فأحكي له عما صار في أثناء رحلتي النهرية؟ سأظل كما أنا، وإذا حسبْتُ وجودي، على يابسةٍ بدلاً من نهرٍ، التصاراً عظيمًا يستحق الاحتفال، فهذه أقصى درجات اليأس، وأنا في غنى عنه تمامًا، في أثناء تلك النكبة التي أجهل متى ستنتهي.

رحلتي عبر النهر قوتني، المياه التي توغلتُ داخل كل شيءٍ في جسمي الذي لا يذوب، ويزداد جسارةً وتحملًا، جعلتُ مني رجلًا يطلب المزيد، البُكاء كان حاضرًا في أيامي الأولى، تلاه اليأس، ثم الحيرة الحاضرة حتى الآن، بعدها التفكير الذي قادني إلى تحويل مسارات وضعي، وتفسيره بصورةٍ تليق بالموقف، ماذا بُعث مني؟ الملامح والإحساس عامة بكل شيءٍ، بالزمن وبالوجع والمكان والطقس، إلى آخره.. ماذا أيضًا؟ الخوف والأماكن، البشر والأحباب، مسار حياتي، كل شيءٍ يستحق الحياة لأجله، وعلى الرغم من كل ذلك، الروح مُصممة على خوض المغامرة، حتى النهاية، روعي لم تُبتر مني، الشيء الوحيد المبتور من البداية، وليس مع تدافع الأيام خلال التجربة، هو اليأس!

علمتني رحلتي الكذب، التظاهر باللاشيء، ادعاء القوة، التركيز على هدفٍ محدد، الوصول إلى نقطة النهاية مهما

كانت، فالعزيمة للوصول إليها هي المطلوبة، نقطة النهاية قد تكون خروج الروح، أو خروج علامات الساعة، وربما خروجي من الموقف، وقد يكون خروج الله عن صمته، وإعادة الأمور إلى ما هو متعارف عليه، لأن -بصراحة وقحة- الحياة صارت معمولةً من الغرائبية والعبثية، ولا يجوز وجود مثلهما في كون خلقه ويحكمه رب كالذي نعرفه ونعبده.

ولأنني إنسانٌ مصنوعٌ من طين، ومن الصَّدَفِ السيئة، شعرتُ بحركة غريبة، حركة غير مستقرة، كأني سفينةٌ دخلتُ دوامة، أو أن أحدهم استخدم صندوقَ الطرد، فكسّخني إلى عمقٍ قذر، أتحرك في دوائر، بسرعةٍ غير محسوبة، بحركةٍ عشوائية، كعشوائية الموقف من البداية، وبعد التطويح الذي تتعرض له، للمرة الأولى في حياتك، مع ما تبقى من شعورٍ لما يدور حولك، أيقنْتُ أنني أغرق، وهنا السؤال، أي غرقٍ سأعرض له؟ خاصةً مع عدم تأثر الجسد بشيء، وتقريبًا الروح محبوسة بالداخل، فالغرق هنا يعني النزول إلى القاع، مع الاستمرار -إن أمكن- في السريان، أو الاستقرار.

وبعد الاستقرار في القاع، يُهاجمني السؤال الأبشع، من أنت؟ إذا كان كلام العم آدم صحيحًا، فمن أنت؟ ولماذا لا تتذكر شيئًا من طفولتك؟

سنة أشهر من الدهشة الأولى

العامة

صارَتِ المدينةُ حلمًا جميلًا، ترك الغني ماله وما له، وسار
بخطواتٍ ثابتة، نحو الجنة ومتاعها، ليجاور أخيه الفقير، ولأن
الفقرَ يَدْخُلُ الجنةَ بلا شك، ولأن الشكَّ يَدْخُلُ القلوبَ دومًا،
فحررت الحكومةُ، بعد التشاور والتداول، إلغاء كلمتي (غني
والفقير)، والكُل سواسية، أنت مواطن صالح، أو مواطنٌ فقط، لا
جهود لأي طبقيةٍ أو عنصرية، ثم تراجعَتْ عن نصف قرارها،
وافقتْ على نفي كلمة (غني)، وأن الناس جميعهم فقراء،
إليك أصبحت جملة (أنا مواطن فقير) مدحًا عظيمًا، يتسابق
الغني أو من له أملاك للحصول عليه، فتجد المال في البنوك،
وفي أفعال الخير، وعلى الأرض!

لم تقرأ في صحيفة واحدة عن جريمة حدثت، ولو مصادفةً أو دون قصد. المدينة الفاضلة في أبهى صورها! الرجل يشكر أخاه شكرًا وافراً إذا ما قال له صباح الخير، فيرد عليه تحية الصباح، مع الشكر على كرم فعلته، النساء كرهن النميمة تمامًا، كل مجالسهن عن الخير والسير الطيبة، الأزواج في ما بينهم، إذا ما أراد الزوج حقّه الشرعي في ممارسة الجنس مع زوجته، يسألها في ود إذا كان مزاجها يسمح لمجاسدة بريئة، تزيد من مقدار الحب بينهما، ولا ترنو إلى أي شهوة، فالشهوة للحيوانات فقط!

تخللت الفضيحة مجالات عدة، فتجد الرياضة تغيرت تغييرًا عجيبيًا، فكان لرياضة كرة القدم النصيب الأكبر، يرفض اللاعب التوقيع على أي عقد، وأي مبالغ خرافية، ويطلب من إدارة النادي التعاقد معه لأطول فترة ممكنة، بثمن بخس، ولا مانع لديه إطلاقًا، إذا كانت الصفقة مجانية، فهو يلعب ليفيد جسده، وناديه الذي وثق به، ويمتّع الجماهير الحاضرة، التي تكرمته وسمحت بساعتين من وقتها لمشاهدته، سواء بحضورها في الملعب، أو بالجلوس أمام التلفاز، أو لسماع المباراة في المذياع! الأندية ذاتها، في كل الألعاب والمجالات، أصدرت بيانًا واضحًا قويًا، ينص على عدم وجود نجم للفريق، الفريق كتلة واحدة، لكل لاعب شخصية مميزة، والخسارة ليست بفعل فاعل، الفوز للجميع والخسارة للكل.

عيّنت الحكومة سُفراء للأعمال الحسنة، كل سفير واجب، التحقق من عموم الجمال والسلام، وضرورة التنبيه على البُعد عن أي كلمة مُسيئة لأخيك الإنسان، فلا تصفه بالبخل أو

الكثيب أو السمين، أو الأسمر أو القصير أو الماكر أو النمام وهكذا، مع عرض إمكانية التغيُّر إذا شاء، والتغيُّر هنا يجب أن يكونَ نابغاً من الشخص نفسه ولنفسه، لا لأنه سئمَ سماع كلماتٍ موبقاتٍ، ولا لأن تلك الصفات غير حميدة.

وبعيداً عن الفضائل، لم تعرف الراحة مكاناً بالمدينة، بسبب الشك المتزايد بين الناس، وذلك اليوم الذي يقتل فرحتهم، فتجد الواحدٍ يمشي في الشارع، ينظر إلى المارة، يود أن يسألهم بصراحةٍ مباشرة: "متى آخر يوم في كتابك؟ أهو الثالث من أبريل؟" وفقاً للمدن المختلفة، والثقافات المختلفة، لم يفعلها أحدهم، الشيء الوحيد المشترك، بين سكان المحافظات، هو المكر البشري، الصَّدر الساري في عروقهم، الأسلوب الطفولي المعروف بـ "قُلْ وسأقول"، فظل المواطن الفقير الصالح، كما كان من قبل، يؤدي رسالته المعهودة له دائماً، يعمل بإخلاص وأمانة، يذهب إلى عمله مبكراً، ويغادر بعدما يشعر بتمام فعله، يضاجع زوجته باستئذان، يعيش حياته على أقل القليل، وذلك لأن الفقرَ سيُدخله الجنة، ولأن الفقرَ الآن حالٌ عامة، وليس بسبب الحكومة ولا غلاء الأسعار، فالأسعار صارت في منناول الجميع، ومن يرى غلو سعر، فعليه الذهاب إلى جهاز حلوّق المُستهلك، ولن يرجع مخذولاً أبداً.

الأوراق الحكومية الرسمية لم تعد جحيماً، في اليوم ذاته ستحصل على ما تريده، يذهب المواطن فلا يجد طابوراً، يطلب الموظفون منك الجلوس في صالةٍ واسعة، وعند سماعك السلام تعالَ، وخلال محادثتك مع الموظف سيتم الأمر، لن

تنتظر طويلاً، الإجراءات كلها صارت فورية، مع مبالغ رمزية،
تعين الحكومة على دفع مرتبات العاملين، القليلة طبعاً، مع
عدم تدمير أي موظفٍ من قلة ما يتقاضاه.

سحبَت الحكومة من الوزراء ألقابهم، من بقي معهم
صار سفيراً، مع السُّفراء المُعينين من قبل، فتجد سفيرَ المالية
وسفيرَ الداخلية، سفيرَ التجارة وسفيرَ البترول، وذلك بعدما
أحس المواطنون بقلقٍ من أي مفرداتٍ رسمية كانت تُستخدم
في الماضي، وطلبوا من المواطنين التريث في تحويل الاسم من
الحكومة إلى السفارة العامة، وذلك حتى لا يختلط الأمر على
الأجانب.

خصصَت الحكومة أرقاماً تليفونية للاستفسار عن أي شيء،
من فتاوى دينية، نصائح للعلاقات الزوجية، بلاغات لتركيب
الغاز، طلبات صيانة للأجهزة الكهربائية، استشارات طبية
ونفسية، التعرف على مختلف أنواع العلاجات، حتى العلاج
بالفن له خط، في البداية تعجب الناس منه، وبمرور الوقت
صار معروفاً وشيئاً عادياً، مثله مثل جلسات الكيماوي لمريض
السرطان.

كانت تلك الخطوط هي السبب الرئيس وراء التحقق من
القلق العام، فكل يوم، في مختلف المحافظات، يتصل مواطنٌ،
يتعمد إخفاء هويته، ويسأل سؤالاً واحداً، وإذا لم يحصل على
إجابة يغلق الخط فوراً، ثم صار المواطن مواطنين، وصارا
السائلان سائلين، إلى الحد الذي استغنى فيه الموظفون عن

أدبهم في الرد على المكالمات، والسؤال صار جوابه سؤالاً، فيسأل المتصل ليُجيب المتصل عليه: "لِمَ تسأل؟ أتعرف شيئاً؟" ما أجبر الحكومة على تعيين موظفين كل مهمتهم مهاqqفة أشخاص بعشوائية، والقيام باستطلاع آراء عن أداء الحكومة، ومحاولة التودد على نحو مستمر، فيرتاح الشخص لمن يهانقه، ويسأله في نهاية المكالمة: "قبل نهاية حديثنا، أتود أن تستفسر عن أي شيء أو الحديث عامة؟ مثلاً، وأقول مثلاً، هل هناك ما تجهل تفسيره في كتابك، وتريد منا الإجابة؟"

لم يكن الأمر سهلاً، أن تطلب من إنسان، طبيعته تسوقه إلى المكر، إلى اعتناق الذكاء وحسن التصرف -من وجهة نظره- تجاه ما يعرض سير حياته للخطر، أن يعرض حياته بنفسه للخطر! وإن كانت الراحة في الكلام والبوح، فلا راحة للإنسان بقتل الكلام والبوح ليحافظ على سره حياً، إلى أن يحدث غير ذلك، فيعترف إذا ما اعترف الجميع.

ابن طاهرة

من مهازل الحكاية التي نسردها، والتي تجعل المرء يضحك، والتي حاولنا مع السارد الأعظم في تغييرها ولكنه أجبرنا على تلاوتها، أن ابن طاهرة، شبيه المسيح، الذي يجده كل من سار أمامه، يخاف من السباحة عموماً، ومن وجوده في مكان يحاطه الماء خصوصاً! فلما وجهت الكنيسة دعوةً إليه لحضور اجتماع مع ممثلي الحكومة بخصوص موضوع النشر، وترجمة

وتدقيق ومعالجة النصوص لتتوافق مع المدينة الفاضلة، رفض لأمرين، أولهما لوجود الحدث على مركبٍ بالنهر، وثانيهما لقلقه الدائم من ملاقاته الناس.

ثم توصل بولس، الذي يحبه محيي وسماه بولس الرسول، إلى حل يرضي جميع الأطراف، فقال لهم: "نجلس أنا ومحيي مع اثنين من سُفراء الحكومة، بمكان قريبٍ من المركب، وسأقول لهما إنني السبب وراء ذلك، الأمر بسيط!" وهو ما تم، وأكد بولس على زملائه ضرورة اختيار السفراء المسيحيين، ما قد يُسهل إقناعهم، والسبب معروف! ولما جلس السفيران مع بولس ومحيي، لم تتحرك أعينهما بعيدًا عن محيي، كلما قال شيئًا وافقاه، كلما ابتسم في خجل، أو سألهما عن سبب الجلسة، قالوا في صوتٍ واحد: "لنراك!" أغضبتِ الإجابة بولس، إلى الدرجة التي جعلته يسألهما: "لماذا نحن هنا أصلًا؟ كفاكما تحديدًا إليه! من فضلكما، هذا أكل عيش!"

في البداية احتد الحديث بين السفيرين، أيهما يقرأ قراراتِ الحكومة، وقائمة الإعدامات، لم يفهم بولس ومحيي، ثم استقرا في النهاية، وتكلم السفير الأكبر سنًا بعدما عرض محيي الفكرة عليهما، فأخرج كلاهما البطاقات الشخصية، ليثبتا أيهما الأحق بالكلام، تعجب بولس من قدرة محيي على قيادة دفة الحديث، مع أنه خجولٌ صموتٌ خائفٌ.

قال السفير بصوتٍ جهوري: "قررتِ الحكومة إعدام كل نص يخالف فضائل مدينتنا، وذلك بعدما وجدنا أن مجهودًا

عظيمًا سيَبْذَل لتدقيق وتصحيح كل روايةٍ أو قصةٍ أو قصيدةٍ،
لنتأكد من خلوها من أي مشاهدٍ خارجية، أو ما هو ضد القيم
والأخلاق، وخصوصًا هؤلاء الكتّاب، عاشقو هدم المحذورات،
لذلك طلبنا من كل دور النشر، التي صارت فروغًا للمجلس
الأعلى للثقافة، تجهيز قائمة بالنصوص المخالفة، وإعادة نشر
الأعمال الأخلاقية، ونشر أعمال جديدة تُفيد، بل وإعادة
التركيز مع المسرح مجددًا، لعدم احتواء معظم أعماله على
مشاهدٍ خارجية"، ثم أخرج إضبارةً، وأعطاها لمحيي، المتعجب
من القرارات التعسفية، فتحها ليجد أوراقًا تحمل أسماء كتبٍ
فقط، وعنوان كل صفحة: "كتب يجب إعدامها"، وفقًا لخبرة
محيي بالكتب، لم تحزنه الأسماء المرفقة، بل أحزنه مبدأ
التخلص منها عامةً.

ذُبِلَتْ كل صفحةٍ برقم هاتفٍ للتواصل، والسؤال عن سبب
إعدام النص، وذلك لأن الحكومة لن تقبل أي إتهامٍ بعشوائية
أفعالها، والاتصال متاحٌ للكاتِب والناشر والمُترجم، سواء كان
العمل من الكلاسيكيات، أو الأدب الحديث، الكل سواء! غادر
السفيران بعد وقتٍ ممل، لم يتحدثا فيه عن التقارير أو
القائمة، قالوا ما عندهما، ثم طلبا من محيي الحديث، أو رأيه
في ما ورد عن الحكومة.. لم يُعلق، قال لهما: "سنفعل ما تطلبه
الحكومة، الرأي الصواب دومًا منكم". قبل أن يرحل محيي
أبْطًا، سأله بولس في ود حقيقي: "اجلس يا محيي، دعك من
لهاياتهم. اسمعني يا محيي، منذ عرفتُك يا صديقي وأنت
حزين، ولكن بعد واقعة سقوط الكتب، أراك حزينًا أكثر من

ذي قبل. إذا كنتَ تعتبرني صديقًا، أو على الأقل زميلًا يستحق الثقة، فهل تحكي لي عما يحزنك ويقلقك هكذا؟" سؤال بولس كان بمثابة مسحة من الرب على رأس محيي.. التشبيه عجيب على المستمع المسيحي، أن يربّت الرب على نفسه!

بعد بلع ريقٍ وشهيق تفكيرٍ وزفيرٍ يأسٍ، خرج الكلام من محيي، خروجَ الروح من الجسد: "كتابي يا بولس لم يخبرني بشيءٍ عن ماضي، عرفتُ الآتي فقط، أشعر كأن الرب يعاقبني عقابين، الأول هو الشبه الذي بيني وبين المسيح، والثاني للشبه الذي بيني وبينه! كأنه يعاقبني على شيءٍ، من فعله هو! ما ذنبي يا بولس في كل هذا؟ ما ذنبي في تلك الحياة؟ لماذا عليّ التخفي من الناس؟ أشعر أنني قتلتُ وأهرب من ثارا! ظهرتُ فجأةً، كأنني ابن اللحظة الخاطفة، وكأنني وُلدتُ من رحم السموات، لُفِظْتُ في السماء السابعة، وفي كل سماءٍ عشتُ فترةً. حتى كبرتُ ورمتني السماء الأولى إلى عالمكم!

سامحني في ما أقوله يا بولس، فهو طبقًا للكلام المسلمين، الذين اعتبرْتُ نفسي منهم. أحيانًا يا بولس يهاجمني هاجسٌ أنني تصحيح خطأ الرب تجاه البشر، حين جعل عيسى نبيًا، ومن دون أب، وكل معجزاته من إحياء الموتى والكلام في المهد، وإعادة البصر وعلاج الأبرص، فعبدته البشر! الحكاية غريبة من البداية يا بولس. أنا آسف يا صديقي لما أقوله، أعلم جيدًا أنه إلهك، وأنه في ديانتني نبي، ولكن هذا تفكيرِي، شكولٍ كلها، لا أشك في كونه إلهًا أم نبيًا، أنا أقول فقط لماذا؟ البشر تفكيرهم محدود يا بولس، حتى العباقرة منهم، عبقريتهم م

محدودة، فلماذا إذاً فكرة نبي، ثم يصبح ابن الله، فالإله نفسه! بعدها تخلق بشرياً كنسخة منه، يعيش بين الناس، يمجّدونه أو يسخرون منه، الحياة بين التمجيد والسخرية فظة يا بولس! أعلم جيداً أنك تقول داخلك إنني في نعمة لأنني أشبهه، ولكن يا بولس فكّر في جملتي هذه، لم يمجّدني شخص أو يسخر مني شخص لنفسي أنا، لم يشكرني شخص أو يسبني، لم يمازحني أو يطلب مني مغفرة، لم يعاملني شخص لأنني محيي، كلهم بلا استثناء يعاملون على أنني عيسى المسيح ابن مريم، أنت لا تعلم يا بولس جحيم الحياة في كنف شخص آخر، وليس أي شخص، إنه الرجل الذي تتصارع الديانات كلها لتثبت رأيها تجاهه، وأنا أعني كلمة الديانات كلها، ليست المسيحية واليهودية والإسلام فقط.. هل تعلم يا بولس بوجود النظرية التي تعتقد أن هناك مسيحاً في كل ديانة؟ وملاح هذا المسيح يختلف تمامًا في كل عقيدة، فتجد مسيحاً آسيوياً، ومسيحاً أسود، ومسيحاً من الهنود، إلى آخره".

كانت تلك أطول مدة يتحدث فيها محيي إلى شخص، ردوده كما عرفه الناس، قصيرة مباشرة مقتضبة، لا يتحدث كثيراً ولا يريد، وقبل أن يكمل حديثه، سمع شخصاً يقول: "اللهم صل على النبي! عيسى نبي وموسى نبي!" ولما نظر تجاهه، أبهر أنه يمازحه، فقأ محيي من مكانه، ذهب إليه ولم يتفوه باللمة، لكفه ثم ركله، الشاب يصرخ من شدة انفعال وعنف محيي معه، كل من حاول أن يبعد محيي عنه فشل، كأنه يرداد غضباً مع أي محاولة لتهديته، لم تفلح مقولات مثل صل

على النبي أو شيطان ودخل بينكما.. ولما جاء رجلٌ عجوزٌ لا يفهم الموقفَ ولا يفهم مدى الشبه بين محيي والمسيح، قال مبتسمًا: "من ضربك على خدك فاعرض له الآخر أيضًا، ومن أخذ رداءك فلا تمنعه ثوبك أيضًا"، اللحظة التي دخلت أذن محيي هذه الآية، كانت هي اللحظة ذاتها التي قام فيها من فوق الشاب، وجرى ناحية خوانٍ رفعه بكل قوته ورماه تجاه العجوز صارخًا: "أنا لسْتُ المسيح لأفعل ذلك، أسمعني يا بن القحبة؟"

ابنة الشوارع

اقتعدتُ نعمة مجموعةً من الكتب، تمسك عجيئةً الحلوة، تفركها بيمينها فركًا، تقول لصاحبة البيت: "تنف الشعر له سعرٌ آخر، بعيدًا عن التنظيف"، لا تجادلها الست اعتدال، الأربعينية ذات الجسد الملين، ورائحة العطر التي لا تغيّرها. الشعر المصبوغ بالأصفر، الظاهر من تحت قماشٍ تضعه على رأسها، كأنها قديسة لا تريد لأحدٍ أن يرى كاملَ جمالها، الوجه الأبيض الناعم، المُستدير كطبقي من ذهب، نُحِثْ بدقةٍ وممزاج. صف الأسنان اللولي، الجمال الفلاحي الذي لا يُقاوم، تحرك فخذيهما في عصبيةٍ خوفًا من وجع التنف، لحمُ الفخذين يرقص. أسفل العباءة الزرقاء الخفيفة، في إغراءٍ لذيذ.. تفرج الست اعتدال عما بين فخذيهما، وتحبسه بسرعةٍ في حركةٍ مُعاده، إذ تفتح رجليها وتغلّقهما. لاحظتُ نعمة أن الست اعتدال ٧

لستر ما يجب ستره، ولأن نعمة لا تعرف كثيرًا، أو مطلقًا، عن قواعد تمهيد الحديث، سألتها: "هل سننتف شعَرَ ذلك أيضًا؟" وأشارت بكل وقاحةٍ إلى فرج الست اعتدال، لتجيبها في غنج واضح: "كلِّكَ نظري يا نعمة هانم".

كلمة "هانم" التي مرثُ وسارثُ فوق كل الجُمْل التي سمعتها وقالتها، والسباب والشخر والشخير، والتأوهات وكلمات المدح في براعتها حين تداعب بفمها، حتى وصلت إلى أذن نعمة، جعلتها وللمرة الأولى في حياتها تحرك جزءًا من شفيتها، كتعبير غير مباشرٍ عن ابتسامةٍ كانت تفكر في الظهور، ثم سحبتها في لعظةٍ، قامت من مكانها، ولما سألتها الست اعتدال إلى أين لذهب، وضحت لها أن العجينة تحتاج إلى ليمون، الليمون ناقصٌ فلا يُكسبها طابع الميوعة المطلوب، عجينة ناشفة لن تساعد على التفت نهائيًا. حين قامت الست اعتدال وراءها، ورفعتِ العباءة عن فخذيها، نظرتُ نعمة إلى البياض المُبهر، وإلى اكتناز الفخذين باللحم، وإلى نعومة الأرض الظاهرة، حتى لما بالغتِ الست اعتدال وكشفت أكثر، لم تجد نعمة أي وجودٍ للشعر، المكان كله لاعم، كيوم ولدتها أمها.

اقتربت الست اعتدال من نعمة، ودون أي مبرراتٍ قبلتها! لم اهتم نعمة ما الذي يجري، دفعْتُها إلى الخلف، لتسقط الست امدال على الكنبه، وترتكز على مؤخرتها، وترفع قدميها مع فشخةٍ تليق بعاهرةٍ محترفة.. لما رأت نعمة كل هذا اقتربت منها وسألتها: "أنتِ منهم يا ست اعتدال؟" ضحكت اعتدال ضحكةً رقيقةً قد تُنزل الإله إلى الأرض، الجواب كان غريبًا،

لم تتفوه اعتدال، بل أخرجت لسانها المبتل تماماً، ووضعت البنصر والوسطى عليه لتبلهما، ثم نزلت بهما على الواسع الأبيض المليء باللحم وبعض من الاحمرار، وبهدوء تداعبه متأوهة، تغلق عينيها في نشوة، تحرك صدرها ببطء مع كل لمسة، ثم تقول لنعمة في دلال: "تعالى يا نعمة، سأذيقك عسلاً كالخمر"، تقترب نعمة بتردد، حركتها أبطأ من المعتاد، كأنها تفكر في حيلة، للخروج من هذا المأزق، ثم قالت لها، قبل أن تركع أمامها: "ست اعتدال، اللبس له ثمنٌ غير التنظيف والتنف، اتفقنا؟"

ولم تكذب اعتدال حين ذكرت العسل والخمر. في البداية حركت نعمة لسانها فوق فرج اعتدال، بخوفٍ من المجهول، من غير المعروف في عالم المثلية، ثم وجدت طعمًا طيبًا، ورائحةً أقرب إلى العطر، تعجبت نعمة إلى الدرجة التي جعلتها تحك يدها بفرجها، وتشم الرائحة الصادرة منه، فتنفر منها. لتضحك اعتدال على فعلتها، وتقول لها: حين ننتهي سأخبرك بالطريقة يا نعمة. تحمسَتْ نعمة للفكرة، ومارست ما تتقنه، من مداعبة، إلا أن الست اعتدال طلبت منها التوقف، وقامت بسرعة، يهتز لحمها مع حركتها وركضها، ثم رجعت وهي تحمل بين يديها ما يشبه أداة الفحول الذكورية، لونها أسود ويرتج، حجمه ضخيم غير عادي، وقالت لها: "يا نعمة، مع مداعبتك أدخلني هذا كله، أريدها ليلة لا تنسى!"

قراءة الساعة، ونعمة تدك اعتدال، بالمداعبة والأداة، بالق. حين تريد، بالضغط على صدرها، بإدخال الأداة في كل الفتحة،

الممكنة، ولما شبت اعتدال، وعرفت الراحة، نامت في سريرها، نامت نومًا لم تعهده من قبل. جلست نعمة بجانبها تتأمل هذا الجسد البض، طريقة رسمه، جسدها الذي يصرخ أنوثه، المرتفعات والمنخفضات، اللحم المشدود، الفتحة البيضاء لحمًا والحمراء متعة، حتى الفتحة الأخرى، التي تراها بشكل مقرف عند بعضهن، كانت عندها كقطعة فراولة، تشتهيها.

وبعد فترة، قالت اعتدال بصوت هادئ: "لا يا نعمة، أنا لست منهم، أنا مغلصة لزوجي جدًا، ولكنه ليس مُخلصًا لي، وعرفت بالصدفة يا نعمة أنه يركبك ويضاجعك وقتما شاء، والغبي قال لي إنه يريد راحتي، وسيُحضر نعمة البنت المسكينة بالمنطقة لتنظف الشقة.. طبعًا كان يعتقد أنه سيجلس اليوم هنا، ولكنني أقسمت عليه أن يذهب إلى عمله، ثم فكرت يا نعمة، أنا ساموت خلال سبعة أشهر، هذا ما يرصده كتابي، تلك الصفحة البيضاء التي لا تخبرني شيئًا، لذلك قررت تحقيق كل ما رأيته محذورًا، ومن ضمن تلك المحذورات كان النوم مع أنثى.. الموضوع ليس بسيطًا، وكتابي وضع لي ذاك، لما لقيت اسمك في أحداث اليوم من حياتي، المفروض أنك كنت آتية لتنظيف البيت، كما قلت لك، وعبد السلام الوسخ، يقول لي هناك مئات الخادومات، لكن نعمة تنظيفها رائع، وأضمنها لك، الشهادة كل من رشحوها! لذلك ضاجعتُ أنا أيضًا من يخونني معها.. لا ذنب لك يا نعمة في ما حدث، الرجال كلهم أوساخ، وبها نعمة سأجيبك عن سؤالك قبل أن تسأليه، نعم يا نعمة، إن من الممكن أن أقول لا لرغباتي، ولكن الكتاب يسرد أن

الأمرَ تم بالفعل، ما يعني أنه سيحدث يعني سيحدث، فلماذا أخالف ما هو مكتوب؟"

ضحكت نعمة حد السعال، فسرت لاعتدال ما رآته في كتابها اليوم من صور، وكيف أنها عرفت ما سيحدث، مع وجود صور في الكتاب، لبداية الزيارة، وكل صورة تأخذها إلى موقف مختلف، فمثلاً إذا رفضت، كانت اعتدال ستتهمها بالسرقة، وإذا حاولت الوصول إلى حلي آخر، فلن تعطيها اعتدال ثمن التنظيف، أما إذا حاولت قتلها دفاعاً عن النفس، لن يصدقها أحد، لأن اعتدال متزوجة ومنتقبة، والشارع البساطي كله، خلف المحكمة في أبي حماد، يشهد لها بخسن أدبها وسيرتها. ضحكت نعمة وقالت لاعتدال: "حتى ونحن نعرف المستخفي، لن نختار ما نريد يا ست اعتدال".

لم تحنث اعتدال بوعدھا، دفعت لها ثمن مختلف ما فعلته، التنظيف والمداخلة بل وحاسبتها على النتف، ثم أخرجت لها كيساً به عبوتان صغيرتان: "اسمعي يا نعمة، سبب احمرار فرجي هو هذا الكريم، كريم كعب الغزال، المفروض أنه لكعب القدم وتوريده، لكنني استخدمته في فرجي، وأما الرائحة والنعومة فبسبب المخمرية، وهي لتعطير وتنعيم جسد البنات، خاصة ليلة الدخلة، وبالمناسبة الرائحة الحلوة موجودة في كليهما، لذلك إذا وضعت فقط كريم الاحمرار سيعطيك احمراراً ورائحة حلوة، أما إذا طلب مزاجك رائحة حلوة ونعومة وفرجاً أحمر، فضعي الاثنين يا نعمة".

لم تسمع نعمة الكلمات التالية لكلمة "الدخلة"، ظلت واقفةً عندها، تنظر إلى عبوة المخمرية، تخيل ذاتها بفستان العروس، وعم سند الرجل الوحيد الذي عاملها كإنسانة يتأبطها لبسملها إلى عريسها، الذي تخيلته لاعب كرة قدم معروفًا، تراه كثيرًا في شاشات المقاهي، خيالها في هذه اللحظة كان صافيًا، كانت جميلةً جدًّا، ورائقة ورائعة ورقيقة، اختفت البقع تمامًا، نتسم في خجلٍ كما تُشاهد العرائس في المسلسلات أو الأفلام.. نعمة تخيلت ليلة الفرح بكاملها، وصولاً إلى لحظة رمي باقة الورد، لم يمنعها خيالها من جلب صديقاتٍ وهمياتٍ، ليقفن خلفها وينتظرن بشوقي.

طردت نعمة كل الجمال من مخيلتها، نزلت إلى الشارع، ولم تشكر الست اعتدال، قبل أن تتذكر أنها لن تعرف الفرق بين المخمرية وكريم التوريد، جلست أمام بائع الفول، وفتحت قلبها، لتجد الصور التي تشرح الفرق بينهما، قالت نعمة لهما وبين نفسها: "ربما يساعدني الله على المعيشة، كنوعٍ من انواع الاعتذار عما حدث".

عامل الدوكو

لما مشت منة كما أمرها عبد القوي، وجلس وحيداً مع تمثيله في المحل، تذكر تلك الفكرة التي داعبته صباحاً، فكرة العمر الذي يجب أن يُحسب منذ بداية نفخ الروح، وليس بعد الخروج من ظلمة الرحم إلى ظلمات الدنيا.. حدث نفسه بصوتٍ مسموع عن ضرورة السعي خلف الأمر مهما كانت صعوبته. لم يفكر كثيراً، ترك مُسدس الماء، فتح كتابه ليعرف كيف سينصرف، خاصة أن الفكرة جديدة، وفي حالة عبد القوي، الحداثة هنا ليست في الفكرة ذاتها، بل في ممارسة عبد القوي لفعل التفكير عامة!

ما وجده كان كفيلاً بإغلاق الصفحة، فيجب عليه -وهو ما يكرهه- الذهاب إلى مشاوير رسمية، ما بين مكتب الملكية الفكرية، ثم التوجه إلى السجل المدني لمناقشة الأمر مع مسؤول، بعدها إرسال صيغة رسمية إلى سفارة الأفكار، ليقوم سفراء الأفكار بعقد جلسة مع السفارة العامة.

صعوبة الإجراءات بالنسبة إليه ليست في الوقت تماماً، الأمور الحكومية في الوقت الحالي تنتهي في غمضة عين، لذلك، تتمثل الصعوبة في هم التحرك بين أكثر من مكان، وهو ما يرفضه عبد القوي مثل رفضه لشرب الخمر أو السرقة، ولعب القوي في رفض أو تقبل الأمور غرائب المقاييس وازدواجيتها. فيرفض -مثلاً- مضاجعة النساء في بيوت الدعارة، ولكنه لا يمانع تماماً النظر، عبر فتحة باب أو نافذة مواربة، إلى أنثى في بيدها

لمشي وتبختر بما لا يستر، وقد يتعمد لمس جزء من أنسة
في مواصلا، ويعتذر في الحال، كنوع من أنواع نفي فعل
التعرش عنه، وربما يشاهد كل أفلام الجنس، مع نفسه، وإذا
ذكر في جلسة مع صديق أو زبون، أي مقطع من تلك المقاطع،
يستغفر ويحوقل، فيعرف الغائب قبل الحاضر مدى حسن
الألق عبد القوي.

وضع كتابه جانباً عندما رأى زبوناً يدخل.. تعجب من
لدومه، فالكتاب لم يخض في شيء بخصوص الرزق. اقترب منه
شاب أسمر البشرة، رفيع قصير، عطره فواح جميل، حليق
الشعر والذقن، يحمل حقيبة ضخمة، ينظر المرء ويحتاج إلى
وقت ليفسر سهولة حركته بها. بعدما رد السلام والتحية،
هرّف الشاب بنفسه، اسمه بكار وصانع عرائس خشبية تتحرك
،الخيوط والأحبال تُعرف بين الناس باسم "عرائس الماريونت"،
أخرج من الحقيبة مروحة يد إلكترونية، حديثة الصنع، وشغلها
على أعلى سرعة، ثم شرح له سبب المجيء: "بعد أقل من
سهر ستُعرض لي مسرحية، وهناك فصل كامل عن عروس
شعبية تشبه المانيكان في لونها الزهري، العرائس تكرهها لأنها
ليست من خشب مثلها، ويحاربونها. حاولت مراراً صنع اللون
والشكل، عرفت من صاحب مصنع أنك الأمهر في مزج الألوان،
اسدج لنا لحم الهوانم، وها هي المطلوب تغيير لونها، اسمها
سارة"، سأل عبد القوي عن المروحة، قال له: "مرض غريب،
الله يبعده عنك".

ناولته بكار سارة، وعبد القوي يفكر في المرض الغريب الذي يعاني منه بكار، ثم تأمل سارة في إعجاب ودهشة، وفي زهو وفخر، فهي المرة الأولى التي يمدح فيها أحدهم عمله، الكل يجيء لمهمته ويرحل، في روتينية يعرض مطلبه، وفي روتينية أكثر يحاسبه ويُعادر. وافق عبد القوي وقال له: الاستلام بعد يومين. رفض بكار بذوقٍ وعرض عليه المساعدة إذا أراد، أو الدفع ليتم الأمر الآن، فلما سأله عبد القوي عن ماذا يعني بالمساعدة، قال على الفور: "أي شيء يا أسطى عبد القوي! عاملني كأنني صبيك! لا بد أن أرجع بسارة اليوم!"

حرك عبد القوي سارة بين يديه، قطعة من خشب، لم تلمسها الأحبال بعد، تميل وتتحرك في ليونة مع كل هزة من يد عبد القوي، شعرها سين الصنع من ألياف بلاستيكية، يظهر كيف تم تثبيته في عدم دقة وبلا أي لمسة فنية، مساحار، صغيرة ونتؤات بارزة، فهم عبد القوي أن صانعها لم يتمهل في تركيبه، وأنه أراد بهذا الشكل أن يقتنع الناظر إليها أنها مـ لحم ودم، وتحمل مسامات وفروة رأس. عبد القوي لم يكن من محترفي صيد الأخطاء، ولكنه أمين في مهنته، يعرف الكثير عن الدقة عمومًا، حتى لو لم يكن اختصاصه. سأله: "اسمها سارة؟" فرد بكار: "من التي اسمها سارة؟" فأشار عبد القوي إلى العروس الخشب باستغراب، فقال بكار في تلعثم واضح: "نعم.. نعم.. سامحني.. الاسم وليد اللحظة فنسيته!"

حدث عبد القوي نفسه بغرابة بكار، وقال إنه من الواضح عليه علامات فقدان الذاكرة، وعامةً وافق عبد القوي، وبأ

لعضير كل ما يلزم، وشرح لبيكار الأدوات، بطريقة عامة، تفيده
فيها بعدد، دون التوضيح المفصل، طبقاً للمقولة المتوارثة: "سر
المهنة"، ولأن المادة المطلوبة لتغيير لونها من الخشب وليست
مثل المانيكان، وعرف من بكار أنه استخدم في صنع سارة
خشب "الكونتر" الطبيعي، فبحث في الورشة عن معجون أساس،
واستقر على اختيار ورنيش فرنسي، بعدما تأكد من نعومة
السطح، فهي دون ملامح تماماً كما المانيكان، طلب من بكار أن
يبتاع كيس قطن من أقرب صيدلية ليساعده في عملية العزل،
من طريق استخدام "السير الناري" بالرش، وهي تعتبر أولى
عمليات الدهان، قبل عملية العزل، أخرج ورقة سنفرة لتنعيم
معجون الأساس، يشرح له عبد القوي كل خطوة، ليقاطعه
، صار: "آسف يا أسطى عبد القوي، أنا أعرف خطوات رش
الخشب جيداً، كل ما أحتاج إليه فقط هو رش سارة باللون،
وفر طاقتك ومزاجك لتلوين سارة، يا نجم الألوان وعمها".

لم يقتل عبد القوي غيظه من قلة ذوق بكار، بل استمر
في النلخ والاستغفار بصوت مسموع، مع التعامل بشيء من
القسوة في كل مرة يحرك سارة ليدهنها، حتى كاد يخلع ذراعاً
فيها، لاحظ بكار طريقة تعامل عبد القوي، فقال بذكاء
لحسب له: "لا تقلق يا أسطى عبد القوي، أنا صانع ماهر،
وما عاملتها بقسوة لن تكسرهما، عرائسي تشبه الزمن، في قوته
وسموده وبقائه". ابتسم عبد القوي لذكاء بكار في اعتذاره عما
فعل منه، بخفة دم ومجيد شخصي، ولم يسمح لكلمة أن تغادر
فم شفتيه.

غاب عبد القوي بتفكيره في ما يفعله، نقدر أن نقول سافر إلى عالم آخر، حيث يرى نفسه واقفاً على مسرح ضخم، خلفه عددٌ مهولٌ من المانيكان، والمقاعد أمامه شاغرة، يجلس شخص واحد، لا تظهر ملامحه، يصفق لهم، فيحنى عبد القوي ومماثله احتراماً لجمهور، نقصد شخصاً واحداً حضر. وعبد القوي ينهج بشدة، كأنه سعد جبلاً ونزله عشرات المرات. خطفه بكار من خياله، وسأله عن إمكانية التعامل معه مجدداً، في دهان عدد أكبر، وهل سيكرمه في الثمن وقتها أم لا.. جاوبه عبد القوي بالموافقة. صُفّر بكار إعجاباً لما صارت سارة عليه، شكره جداً، أعطاه أكثر من الثمن المطلوب تحت بند عربون لما هو آت، مع الوعد بتكرار الزيارة، وعلى فتراتٍ متقاربة.

دفع بكار ثمن الشغل، وأعطى لعبد القوي الكارت الخاص به، وقال له: "بالمناسبة يا أسطى عبد القوي، أنا أبحث عن عمال، لأنني سأصنع عدداً مهولاً من العرائس، إذا أعجبك الموضوع، ستجد عنوان مسرحي في الكارت، أنت تعرفه، كان اسمه تاون هاوس، في شارع جانبي بوسط البلد، اسمه شارع النبراوي، الجميع يعرف هذا المخزن، وفقني الله واشتريته، وصار الآن مسرحاً ومخزناً للعرائس الخشب، تعال وأعدك إذا، ستفرح جداً".

مشى بكار، وأثر العرائس الخشبية يمشي هو الآخر داخل ممرات فكر عبد القوي، بيني أعمدة كبدية لمعبد، يقيم شعائر عبادة جديدة، أو يمارس عقائده بحرابه، عقائد الاكتفاء

بالخيال، وعدم التحرك خطوةً تجاه حلم أو تحقيق فكرة أو رسم طريق لمستقبل.

منذ الصغر وعبد القوي يلاحظ مدى تكاسله وتقاعسه عن أي فعلٍ أو أمرٍ يساعده ويؤهله لما يبحث عنه. كثيراً ما تحدث عبد القوي إلى شيوخ، يسألهم عن تراخيه الدائم، وعن معرفته لكثير دون أي جهدٍ أو دراسة، وكيف أنه كلما همّ بتحقيق شيء، لمعزٍ بأيادٍ تثبته أرضاً، تسحبه وتخنقه، تلصقه كورقة إعلانات رخيصة، لونها أصفر ولا يهتم لأمرها أحدٌ، والده يوبخه إلى أن مات، والدته تدعو له حتى ماتت، كان عبد القوي وحيداً، وفي وجود منة لم يتغير الوضع، كل يوم، منذ بدايات فهم عبد القوي لطبيعة الحياة، وهو يسأل نفسه سؤالاً واحداً، بعد أساؤلات واستفسارات عدة بلا إجابة: "هل أنا ملبوس بجنٍ؟" "سول؟ جن يكره الحركة والتفكير، جن يغذي بالملومات منى لا أفعل أي شيء؟ جن يجعلني شخصاً تمر حياته مروراً الهرب بجانبك؟" ولا يشغل باله بعدها بشيء، كأنه لم يكن بهكر منذ لحظات.

سردية بكار

ما ميّز فعل الحكي، في كل العصور، هو اختلاف صورته وطرق عرضه، ما بين الحكي في الجلسات، والحكي في الطرقات، السير الشعبية والأراجوز، الحكايات المعزوفة على ألحان الربابة، الحكايات المتخيّلة بعقول الأطفال، حكايات الجدود والجدات، حكايات الأمهات الجميلة، حكايات الآباء السيئة المهرتلة، وحكايات العرائس الخشبية، ولنا في المثال الأخير سردية تتشعب من الحكاية الرئيسة، وتستحق تناوّلها بما يليق بصاحبها، بكار.. الحكاء الموهوب وصانع العرائس الخشبية.

وحياة بكار عبارة عن سردية ألم مُبهرة، فهو لا يتعرق ولا يتألم، جسده كريّم جدّاً، يرفض طرد السموم، ويحافظ على أوجاعه بالداخل، جلس مع عشرات الأطباء، في سعيه الدائم لمحاولة العلاج من مرض عدم التعرق، المرض الذي يؤذيه على نحو متكرر، كل طبيب يُعيد عليه التحذيرات المعتادة ضرورة الابتعاد عن فعلٍ خطير، قد يسبب جرحاً، بسبب طوالة مدة الالتئام في حالته، وتجنب الحركة السريعة، قد يُكسر الوعاء، يشعر، ناهيك بالمضاعفات، درجة الحرارة المنخفضة هي ما أوست وعشرون درجة مئوية بالتحديد، أعلى من ذلك، سيتسبب الموت، وبالتالي لن يعجبه.

سردية ألم مُبهرة فعلاً، شاب بالخامسة والعشرين، منذ أن لا يبذل مجهوداً مراعاةً لفخامة العرق، لا يلعب، لا يركض، ..

الصعب التفكير في الزواج، من ستتحمل زوجًا يتحرك على مهل؟ العلاج موجود لكن غير فعال، الوقاية علاجه، ولأنه فنان حكا، خرج بكار للدنيا بروح مُسالمة، كثيرًا ما ينظر إلى المرأة ويسب وجوده، يقتله يوميًا الشعور بأنه هم ثقيل على كل الذين حوله، أهله والأصدقاء، لن يخرج إلى مكان عام إلا في فصل الشتاء، وليس الفصل بكامله حتى، لأن ليست كل أيامه باردة، غرفته هي عالمه الصغير، أما عالمه الكبير فهو ورشة العرائس، التي ساعدته أمه في بنائها، بعدما نجحت في الحصول على مكان رائع، مخزن كبير بوسط البلد، في شارع جانبي اسمه شارع النبراوي، وحوّله إلى مسرح ومخزن، وذلك بعدما أحيلت إلى المعاش، فوقفت بجانب ابنها المريض ليستطيع تصنيع وبيع العرائس، ثم تطور الأمر ليصير مسرحًا، يعرض عليه بكار أعمالاً هائلة، أو لمن يريد مكانًا ليخرج عمله إلى النور.

سردية ألم مُبهرة حقًا، أبوه الملول يكرهه، ويعرف بكار ذلك جيدًا، يفهمه من نظراته، تكاسله في مساعدته إذا ما كانت مشغولة، وأبوه لم يكن المشكلة الأكبر، بل ذاكرته السافلة التي تهزمه دومًا في لعبة التذكر، تتلذذ بركل الأشياء بعيدًا عنه، مثلًا بين عرائسه للحظات، يسأل المشهد المهيّب أمامه، عرائس كاملة وغير كاملة، من خشب على الأرض وفوقها، من ألوان وزيت ومياه، من مطرقة وأحبال مفصلات، من مبدع وجوده بينهم؟ ليفتح دفترًا صغيرًا، يدون به مهامه وأدبيته، المكالمات الهامة واليومية، العروض المسرحية الهائلة به أو بالآخرين، مع تكرار كلمتي "صنع" و"تلوين"،

فيكتب رقمًا جانبهما، ليذكر نفسه في اليوم التالي ماذا سيفعل بورشته، وكم مخلوقًا خشبيًا جديدًا سيخلقه.

سردية ألم مُبهرة بلا شك، فكل مرة يستفسر من طبيبه: "هل هناك علاج لحالتي؟ أو حتى علاج لضعف ذاكرتي؟" فيجد الإجابة الواحدة عامة، تخرج بعدما يتلعثم الطبيب، يجفف عرقه، ينظر إلى الورق، ربما يخرج سيجارة ويشعلها، يخبره بأن حالته هي الأصعب، وذلك لأنه مصاب بالمرض في كل غدد جسمه، ينصحه فقط بالوقاية، والمقولة الشهيرة: "الطب في تقدم كل يوم".

مدح الزائرون والممثلون مسرح بكار، خاصة الديكور وجوّه العام، رائحة الياسمين تحتل المكان، الخشب الذي اختاره ليتسيّد الموقف، الأرض خشب، الحائط خشب، كأننا في كوخ داخل غابة، المساحة الهائلة، الارتفاع الرائع، فيمرح صوت المؤدين، غرفته الصغيرة، التي يجلس فيها مع مكتبته وعرائسها، ومنها يخرج إلى مكان خلفي يطلق عليه "المخبأ"، وهي ورشته الصغيرة لصناعة العرائس، عبارة عن أرفف خشبية مُعلقة في جميع الأرجاء، فوق كل رفٍ ما يحتاج إليه من أدوات، ولوح خشبي كبير تُبثّ إلى الحائط، يستخدمه كمسندٍ أو منضادٍ، ليخلق فوقه عرائسه، يمزج في كل مرة مع قطعة خشبٍ خام لم تتحول إلى عملٍ فني بعد، يقول بصوتٍ رخيم مثل الممثل القدامى فوق خشبة المسرح: "تعال أيها الخشب إلى المذبح! ستقدم حياتك قربانًا للفن ولآلهته!"

في يوم من الأيام التي كان بكار قد انتهى فيها من عمله، أمسك بإحدى عرائسه، وبدأ في ارتجال نصي، لم يفهم بعدها من أين جاءت تلك القصة، فقد قال على لسان القطعة الخشبية: "هل إذا كنت ضاجعت السافل، في أثناء دوري الشهرية، ضاربة بكل المرفوضات عرض وطول وارتفاع الحوائط، ووافقت على سخافة هذا الغريب، ووقعت له الرواية، وتركك الفوط الصحية دوماً في الحمام، وسألت والدي إلى أين يذهب يوميًا، وهجرت الكتابة، وعملت كعاهرة أو راقصة، ربما مقدمة برامج طبخ، بجمالي وعلاقاتي أو بما يحمله حسدي من مفاتن، أو باحثة في النسوية، أو أي شيء يلتحفه الهراء، بعيداً عن الوسط الثقافي والكتابة والكتب، وقلق النشر ووجع الدماغ والتدقيق، والبحث عن دار نشر وهل سيبيع كتابي أم لا، هل إذا كنت كلبة، تشم مؤخرتها كل كلاب الشوارع، ولا تقول لا مطلقاً لأي كلب، هل إذا كنت فوطه صحية، في ملية واحدة، تستخدمني -أنا وإخوتي- امرأة عجوز، شارفت على انقطاع الطمث، فأضمن وجودي نظيفة بلا دماء، هل إذا كنت منضدة في مطعم غال، ينظفني كل يوم نادل بمقتطع هليفتنه، وفي الليل، بعدما يرحل الجميع، تضع عاملة النظافة يدها علي لأن مدير المكان يتحشر بها، فلا تتحدث، وأنا لا أحدث، هل إذا كنت بلا فائدة يا ربي، تافهة، يومي يمر بين الأسواق والبرامج والأفلام، أو ربة منزل، حياتي ما بين العيال وأههم، ما بين سرير أطفالي للنوم، وسريري للنوم مع زوجي، هل إذا كنت قطعة خراء، يكرهها الجميع لسوء رائحتها، هل

إذا كنت ورقة تغلف منتجاً رخيصاً، يفتحها طفلٌ سمج، يلعقها ويرميها، هل إذا كنت كل ما سبق، ولم أكن المقصودة في هذه اللحظة، أو المقصودة في هذا اليوم، أو المقصودة في هذه الحياة، أو المقصودة في خلقي منذ البداية، هل ستصير لحظتي أفضل؟ يومي أفضل؟ حياتي أفضل؟"

منذ تلك اللحظة، آمنَ بكار بأن تلك العرائس لها حياةٌ أخرى، بعيداً عن استخدامها في العروض، بعيداً عن كونها مخلوقة من خشب، حاول كثيراً شرحَ الفكرة لأهله وأصدقائه، وكالعادة اتهموه بالجنون لكثرة مجالسته للعرائس والوحدة، فكفَّ عن تفسير أي ظاهرة غريبة، وتعامل مع الأمر على نحو عادي، واستمر انبهاره فقط في كل مرة يقول كلاماً على لسان عرائسه، ولا يفهم من أين جاء هذا الحوار.

لذا عاش بكار، الحكاء الموهوب، المنفي بإرادته داخل ورشته، المجهزة خصوصاً لحالته المرّضية، الذي ينسى دائماً، مع مهنته، كصانع ولالعِب العرائس الخشبية، مهنة لا تحتاج إلى مجهودٍ خارق، ولا إلى قوةٍ وحمل أثقال تنهكه، عاش بكار في حياته من أجل هدفٍ واحد، صنّع العرائس والاستماع إلى حكاياتها، وما سقطتِ الكتُبُ، عرفَ من كتابه أن مهمته الباقية، خلال العام الساري، هي صنّع الآلاف من تلك العرائس، دون سببٍ واضح، ما أجبره على استخدام نجارين وفنانين لمساعدته، مقابل رات، رمزي أو تخزين بضاعةٍ للنجارين، أو عروض خاصة للفنانين، لم يبخل بكار بشيء على العرائس وعالمهم، ولم يهتم تماماً لاراء مساعديه تجاهه، بكار عرفَ من اليوم الأول لسقوط الكتُب .

ومن اليوم الأول لسماعه لهم، أنه في مهمة تحت رعاية السماء،
في وقتٍ لاحق سيعرفها، بعدما يخبره كتابه بمعلومة مختلفة،
غير صنع العرائس يومياً!

الوحيد في بلدٍ كامل، الذي يقرأ من كتابين، كتابه السماوي،
وكتابه اليومي الذي يُذكره بصنع العرائس، وبمواعيد خروجه،
وبأعياد ميلاد من يهتم لأمرهم، وبقراءة كتابه السماوي، الذي
سقط عليه من حيث لا يحتسب. فتح الكتاب اليومي فتذكر
موعد المُقابلات مع العمال الذين جاؤوا من أجل مساعدته
لصنع العرائس.

خرج بكار من مكتبه ليُقابل العمال الموجودين، بعد
ترشيحاتٍ من نجارين، ومن ناس أخرى، وشرح لهم ما هم
مقبلون عليه، وقالها واضحة: "سنصنع الكثير من العرائس يا
جدعان، وأنا أعنيها فعلاً، الكثير والكثير من العرائس الخشبية،
ولا داعي للقلق، من يجهل فن صناعتها سيتعلم!"

عامل الفخار

منذ حادثة القطار وفيليب في عالم آخر، هذا العالم كاد
بصبيه بالجنون، ذلك لأنه يسمع أصوات العالمين، عالمه
الداخلي وصوت يهوذا المُصاحب له في أثناء الغيبوبة، عالمه
الخارجي وصوت المجتمعين حوله داخل غرفة بمشفى حكومي،
دائرة يعرف أن المُتحدث هو مينا، وتارةً أخرى أم مينا، ومرةً

وحيدة كان الباشا حاضراً، في تأقي واضح، كأنه يلعن اليوم الذي سقطت فيه الكتب، ونظام الدولة الحديث، والفضائل التي جعلت الجميع متساوياً، فقد تغير كل شخص ليضمن مكانه في الجنة، إلا الباشا مينا، قالها صراحة لحاشيته وموظفيه والفقراء ورجال الدولة والسفراء: "اتركوني في حالي، من يريد العمل لدي بالأفران فأهلاً وسهلاً، أما من يرفض فهو حر في أمره، أما ما يخص مالي أو سوء سلوكي -وفقاً لما تقولونه- فلا يشغل بالكم".

وفي غيبوبة فيليب أمورٌ عجيبة، كخطب يهوذا وإنجيله الذي ظل يتكلم عنه كثيراً، وعرفه أنه لا مهرب من عالمه إلا وهو مُلم بحكايته، ومدى الظلم الذي تعرض له.

فحكى يهوذا لفيليب عن موضوع واحد، يعيده عليه كل يوم كأنه عرضٌ مسرحي يُعاد في حفلاتٍ يومية: "يا فيليب، لم ترحمني السماء من ظلم بين، ولم يهمني الرب وقتاً للتوبة. تركني لشيطانٍ لثيم، جعلني أنهي حياتي بعدما حدث ما حدث، بل وزاد الأمر وصرتُ أنا المصلوب، في ديانةٍ أخرى، وفي كل ديانة تعرض قصتي، كنتُ الخائن الذي يستحق كل هذا. تخيل يا فيليب، دياناتٌ تطالب بالتسامح والغفران والمحبة والعفو، نسوا ذلك، وذكروني كعبرة في القصص، أنا -يهودا سمعان الإسخريوطي- الذي كنتُ يوماً من الحواريين، كلما دُكر اسمي مجدوا في مسيحتهم ولعنوني في أي مناسبة، حتى إنجيلي المكتوب، المذكورة فيه كل تعاليم المسيح لي، نفوه بعيداً، ولم يعترفوا به.

لا تصدقني؟ نعم يا فيليب أنا كتبتُ إنجيلًا! كنتُ أراه أمامي يوميًا، وهو مدفون في منطقة مغارة بشمال المنيا، حاولتُ كثيرًا رفعه واحتضانه، ولكن كيف ترفع الروح شيئًا؟ هذا الإنجيل يا فيليب هو إنجيل غنوصي، كتبتُه عام مئة وخمسين ميلاديًا، كتبتُه عن علاقتي بالمسيح، وكيف أنه كان مُعلمي، يحبني ويحترمني، بل ويعرّفني على كل أسرار الكون، اصطفاني من بين كل حواريينه، لأنه يعرف أنني من ساجدله، ومن سيتحدث ويفهم ما يقوله، كانتُ رحلتي مُدونةً فيه، كل حرفٍ وكل كلمةٍ، كانتُ صادقةً وخارجةً من فم يسوع، إلى فليبي أولاً، ثم إلى الكتابة في النهاية.

كل كارهي يهوذا ألقوا بإنجيلي بعد موتي، ومسحوا الخير من سيرتي، لتفوح الكراهية والشر فقط من اسم يهوذا ولا يبره، كأنني بالأصل نبي، وليس إنسانًا ضعيفًا!

أتعرف يا فيليب، لقد تحدث الناس جميعًا عن الضعف في كل المخلوقات، حتى الأنبياء، هل تذكر قصة الشاب الغني يا فيليب؟ الشاب الذي طلب من يسوع أن يدلّه على سر الحياة الأبدية؟ فنظر إليه يسوع وأحبه وقاله له يعوزك شيء واحد، اذهب بِع كل مالك وأعطِ الفقراء فيكون لك كنز من السماء، وتعالَ اتبعني حاملاً الصليب.. رحل الشاب حزينًا يا فيليب، ذلك لأنه كان ذا ثروة، هنا يا فيليب ما أريد الوصول إليه! فكرة الضعف، القصص كلها تتحدث عن مدى صعوبة الاختبار، وتحمل الشاب لفكرة الاستغناء، مع ذلك لم يذكر

أحدهم نقطة ضعفه وقتها، حبه للمال، الكل صُفّق للحكمة وترك العنصرَ الإنساني الموجود، الضعف!

أشعرُ من نظراتك الباهتة عدم فهمك لما أقصده.. سأشرح لك وجهة نظري في نقاطٍ بسيطة.. بطرس تلميذ الرب يا فيليب، نقطة ضعفه كانت الاندفاع، وتوما الرسول عرفنا عنه الشك، ويعقوب أبو الآباء كانت نقطة ضعفه الاعتماد على الحيل البشرية، وقاين يا فيليب نقطة ضعفه كانت الحسد! حتى صارَتْ خطيئته وقتل أخيه هابيل! كل قصة لهؤلاء، هناك دافع وراء أفعالهم، فسرها الناس وعذروهم، إلا أنا! صار اسمي بينهم يهوذا التلميذ الخائن الذي أضاع نفسه! لم يفكر ولو شخص واحد أن نقطة ضعفي حينها كانت حبي للمال؟ مثلي مثل قصة الشاب الغني؟

هل لاحظتَ يومًا يا فيليب مثلاً ذَكَرَ يهوذا بن حلفى في بعض آيات الإنجيل، وكان من الممكن أن يُكتَبَ تَدَاوَسَ ليعرف القارئ من المقصود، ومع ذلك لكرههم ليهوذا، لشخصي، تعمّدوا ترك اسم يهوذا بن حلفى، كأنهم يقولون للناس هذا يهوذا الآخر، وليس الخائن الذي نكرهه! الخائن الذي باع المسيح بثلاثين من الفضة.

ماذا تقول يا فيليب؟ لماذا شنقْتُ نفسي؟ هذا سؤال، يضحكني، يقولون إنني فعلتها كي أقابل المسيح في العالم الآخر وأطلب منه العفو! تخيّل يا فيليب، إنسان يتخلص من حياته، ليعتذر لمعلمه عن خطيئته الخالدة إلى يوم النهاية! أنا لم أشنو،

نفسى يا فيليب! وإجابة سؤالك التالي، سأخبرك فيما بعد كيف انتهت حياتي.

منذ موتى وأنا روحٌ مُعذبة، مغضوب عليها، هائمة لا تعرف طريقاً إلى الخلاص، حاولتُ كثيراً الوصول إلى المسيح، للتحديث معه، لطلب عفوه أولاً، ولتذكره بعهدنا معاً، وكيف كنا أصدقاء، لقد أنهكني وأنهك روحي السفرُ يا فيليب، التيهُ يزاملني منذ النقطة السوداء في تاريخي، يوم خنتُ المسيح، يوم قالها لي: أتبيع ابن الإنسان بِقُبلةٍ؟"

ولكن يا فيليب، لماذا لم يغفر لي المسيح وغفر لبطرس الرسول؟ وللص اليمين؟ لماذا تغنى الناس بتوبة بطرس؟ ولماذا رفض كل شخصٍ توبتي وندمي؟ لقد أنكره بطرس ثلاث مرات يا فيليب! ومع ذلك من نظرة واحدة تاب عليه يسوع!

وهنا يا فيليب السؤال، لماذا تاب على من أنكره ثلاث مرات، ولم يثب على شخصٍ ضعيفٍ يحب المال؟ لماذا يا فيليب تعامل يسوع معي بقلبٍ إنسانٍ يرفض العفو؟ لماذا تعامل معي ومع بطرس بمبدأ أنا أحب بطرس ولا أحب يهوذا؟ يا فيليب، لماذا من البداية اختارني وهو يعرف مدى ضعفي وحبى للمال؟ هل ظن أنني سأتغير؟ نظراً إلى تعاليمه؟ ولم تلك المعاملة، حتى وهو يغسل أقدامنا جميعاً، قال لنا كلكم طاهر ولكن ليس جميعكم!

لماذا لم يتحدث المسيح معي، وينبهني لخطورة أمري، وضعف إيمان قلبي وحبى للمال، لماذا يا فيليب قال لبطرس

عن خطيئته وعرفه قبلها وأنا تركني هكذا حتى أقع بنفسي في شر أعمالي! سمعتُ كل شخص على وجه البسيطة يبرر لبطرس خطيئته، يقول بنعمة المُسامحة إن خطيئة بطرس عارضة، وليدة اللحظة، لم يكن يعرفها قلبه، لكن خطيئتي كان قلبي عارفاً بها، بل ويحكون عني كيف أنني قضيتُ أياماً أفكر كيف سأسلمه لهم.

أضحكني جداً يا فيليب هذا القس الذي دافع عن بطرس مرةً، حين كان درس الكنيسة يومها عن الخطايا، وقال للباحثين: "مثلاً يا أحبائي المسيح، خطيئة يهوذا الخائن كانت مولودةً في قلبه كشهوةٍ، وظل جنينها ينمو في قلبه، حتى جاء الوقت ليلد رحمٌ شره، كقول الكتاب (ثم الشهوة إذا حبلت تلد خطيئةً، والخطية إذا كملت تنتج موتاً)، لم يجرؤ ولو طفلٌ على تنبيه الناس كيف تعامل المسيح مع بطرس على أنه حبيب، وتعامل معي على أنني عدوه اللدود! العدو الذي يقربه منا، ليعرف شروعه وشروء أعماله.

يا فيليب، طوال فترة وجودنا معاً، ستسمعي فقط، هذه فرصتي الوحيدة، سأتكلم معك عن كل ما يخصني، لن تعارضني في شيء، لن تعرض حججاً كما علموك في الكنائس، والكتب الرخيصة، لن تُسمِعي كلاماً غيباً عن الفرق بين توبيي المرفوضة وتوبة بطرس المقبولة، وسأريك كواييسي يا فيليب، سأجعلك تعيش معي الكواييس التي تهاجمني منذ صرْتُ روماً، مطرودةً، باختصار، أنت ملكوتي المؤقت يا فيليب".

أيام الدهشة الثانية

لعمرة

بعد مسيرة يوم، من محافظةٍ إلى محافظةٍ، من الشرقية إلى القاهرة، والعجلة التي تساعدني في رحلتي، لم تتحمل حرارة الأسفلت، لتنفجر الطارة الأمامية، ووجع الدورة الشهرية، وألمها المستفز، ورائحتها المقرفة، المصممة على الاختلاط مع رائحة الوقود التي أتبعها، وقلّة الموارد الموجودة، الماء هو الشيء الوحيد الذي أجده، فقد ملأْتُ زجاجتين من النيل في أثناء رحلتي.. كم حذرني عم سند رحمه الله من خطورة الشرب مباشرةً منه، وكنتُ أقول له: "يا رجل يا عجوز، النيل يعرف أنني طيبة ومظلومة، فيعطيني ماءً نقيًا أشربه، ويزيد من لوث جرعاتهم، فيؤذيهم كما يفعلون بي!"

مشيتُ غالبَ الطريق، الحرارة بنبت الكلب تضربني، البقع تتحرك بطريقة غريبة، الرحلة جعلتني أكره الحياة أكثر، وأقسمتُ بتعبي لو أن الرائحة مصدرها إنسان، سأقتله في الحال! فبماذا سيفيدني وهو بلا ملامح؟ وهو ضعيفٌ عديم الحيلة؟ الشك بدأ يلعب في عبي، كل خوفي أن يكون رجلاً أو طفلاً، وحياة بقعي التي أكرهها إذا حصل، لن أرحمه! الغريب في الحكاية أن الرائحة لشيء يحترق، وهذا معناه مثلاً قرنٌ للعيش، أو مصنعٌ ما زال يعمل، أو رائحةٌ وقود كما هي، دون أي تفسير.

مشيتُ على طرقٍ لا تصلح للسير، عبرتُ أسفل كبار، رأيتُ مصانع إنتاج وتعبئة، عرباتٍ واقفةً بمنتصف الطرق، فتشتُ كل سيارة، تركتُ الناس بداخلها يرتجفون في خوفٍ أحبه، يا سلام يا نعمة، خوف الظالم عبادة وليس النوم.. حالفني الحظ بوجود مُعلبات، طبقاً واحدة جاهلة مثلي، لا تعرف القراءة ولا الكتابة كما ينبغي، كنتُ أعتمد على الرائحة، إذا كانت طبيعية، فهو شيءٌ صالحٌ للأكل، معظم ما وجدته فسدتُ صلاحيته، وكان أملِي كبيراً أن أصادفَ محلاتٍ بقاله، حيث الثلاثيات قد تعطيني شيئاً يساعدي في رحلتي. أعترف أن الموضوع صار أصعب من البداية، الأشياء تتناقص فقط، لا وجود لأي شيء جديد، صارتُ حياقي عبارة عن النجاة، بأقل القليل، ومحاولة العيش حتى تحدث معجزة.

خلال رحلتي قعدتُ أكثر من أربعين مرة، قلتُ إنني سأسير كل مسافةٍ إلى أن يتمكن مني التعب، فأجلس لأرتاح. وأرى الموجودات حولي، ربما أعثر على شيء مفيد، ثم أقوم

لأحصل عليه وأكمل طريقي، جلستُ بداخل سيارات، وحافلات ومقطورتين، وهناك مرة لم أجد شيئاً إلا رجلين، فتمتُّ فوق واحد ليحميني من حرارة الأسفلت، ووضعتُ الآخر فوقي ليحميني من الشمس، كلاهما حاول فهمَ ما يحدث، لكنني ضربتهما بحجرٍ أفقدهما الوعي.. شعور جميل، يا سلام، أن نضربَ شخصاً، لا يرى ولا يسمع، يتحرك بجنونٍ، يجهل أين يجري أو يختبئ.. إنساناً مكشوقاً، ككلبٍ لا يعتقد أن صاحبه يراه، مع أن ذيله يرقص من الفرحة، فيفضحه.

وصلتُ إلى مكانٍ واسع، أعتقد من هيئته أنه موقف، كنتُ أسمعهم يقولون عنه: "موقف السلام"، لهؤلاء الذين يسافرون من وإلى المحافظتين. عرباتٌ كثيرة وناسٌ أكثر، كلهم على الأرض، يرتجفون فقط، فتحتُ كل حقيبة وشنطة وكيس وبؤجة، لقيتُ ملبةً فوقَ صخرة بحقيبة امرأة، زجاجات ماء، منها ما يصلح للشرب، ولم أنرك مليماً واحداً في جيب أي شخص، معلبات، معلوى، المعظم فسد ولا يمكن تناوله.. فوق إحدى العربات لمحتُ شوالَ بصل، لما فحصته وجدته ما زال جيداً، سحبتُ بهلتين، وركلتُ رجلاً، من الواضح أنه يعمل بالزراعة، لأنه حين أحس بي فزع وضربني بقدمه كي أبتعد، فركلته في وجهه وخصيتيه، بعدما رفعتُ جلبابه، وسحبتُ كل ما تحته إلى أسفل، لأجد قضيباً جائعاً، وخصيتين كبيرتين بهما لبنٌ وافر، قلتُ لن يضر أن أشرب شيئاً غير الماء، نظفته ثم حلبتُ الرجل، على خرج ماؤه ثلاث مرات، وكلما حاول الهرب، ضربته بين خصيتيه، فجلس مكانه، يتألم في صمتٍ.

قررتُ أن أسحبَه معي، وأن أشربَ من خير قضيبه، ولما انتهي ما تحمله خصيتاه، سأرميه إلى الشارع، وأستخدم غيره، ما أكثر الرجال النائمين على الأرض بخصيات عامرة. حلبتُ رجلاً ثانياً، لأتأكد من معلومة برودة اللبن الخارج منهم، الصراحة طعم لبنهم غريب وبارد، وأنا نادراً ما أجد مشروباً بارداً، غير الماء، أنا في حالةٍ خطيرة، الموارد قليلة لذلك يجب التفكير في حلولٍ تفيد، وشرب لبن الرجال حل جميل ومفيد.

الرائحة تقترب على نحو مُبشِّر، مشيتُ فوق جثث، وأسقف سيارات واقفة، مشيتُ فوق أجساد نساء، كشفتُ عنها لأرى ما تستر الواحدة منهن، ثم وقفتُ أمام سيدة، صدرها كبير بدرجة مستفزة، سألتُها: "هل بصدرك لبن يا أم بزاز كبيرة؟" ضحكْتُ طبعاً لأنها لن تجيب، كشفتُ عن صدرها، ومع محاولاتها لدفعي بعيداً، ضربتها هي الأخرى بحجرٍ، سكنتُ في لحظة، ثم وضعتُ قضيب رجلٍ من الرجلين بفمها، ضحكْتُ لما تذكرتُ أن ليس لها أي ملامح، وضحكْتُ أكثر لما وجدَ الرجل يحك قضيبه وخصيتيه بوجهها، أي نعم الرجل يتحرك بلا روح، ولكن لا يهم، المتعة للجميع مهما كان الوضع! وضعتُ صدرها الأيمن بفمي، ضغطتُ عليه كثيراً، لا يُخرجُ شيئاً، صفعتها وتركْتُها دون ستر، سحبْتُ الرجلين معي، ربطتهما بقطعة قماشٍ. يتحركان في خوفٍ عظيم، يا سلام يا نعمة يا سلام، يخاف منا، الناس، يا صاحبة الهيبة العظيمة يا نعمة.

مشينا خلف الرائحة، وصلنا إلى طريقٍ طويل، سياراته عددها مهول، ربما هو طريق رئيس في القاهرة، لافتات إعلاناته

كثيرة، يتوسطه رصيف ضخم، به مساحات خضراء وورود، ومبانٍ أنيقة على الجانبين وقصور، دخلتُ قصرًا يذكّرني شكله بالقصور القديمة التي عرفنا عنها أنها منذ الدول القديمة، التي أجهل اسمها أو متى بدأت.

بوابة ضخمة، حارس الأمن يجلس بمكانه، مسكين! تقريبًا هذا الحارس يظن أنه هو وعدد قليل فقط المُصابون والبقية بخير، فيقوم بعمله كي لا يفصله صاحب العمل، مسكين وضعيف وغبي! بالداخل مساحات خضراء شاسعة، الرائحة هنا مقبولة إلى حد ما، القصر نفسه ضخم، الباب الرئيس مفتوح، أرى شخصين على الأرض، من ملابسهما عرفتُ أنهما من الخدم، دخلتُ بكل سلاسة وسهولة، سقف عالٍ، طابقان طبعًا، سلمٌ ضخم من الناحيتين للطلوع والنزول، الأثاث كله مطلي بالذهب، هل هذا منزل أم متحف؟ ناسٌ على الأرض، عجوزٌ بجانبها صندوق مجوهرات، رجلٌ عاري قضيبه صغير، شابةٌ مرفوعة فستانها جسدها مثير، سجاد فاخر، ألوانٌ زاهية، باسلام، حتى الأغنياء حين تصيبهم مصيبة لا بد أن تكون على نحو يليق بهم، غير معقول أن يجيء ضيفٌ، فيجد السجاد هذرًا أو رائحته نتنة!

خلعتُ عن الشابة فستانها، مقاسي بالضبط، مسحّت دم دوري في وجه الرجل، لبستُ فوطَةً صحية جديدة، جولتُ بالقصر، لوحات كبيرة مرسوم عليها العائلة التي قابلتها منذ دهلوي، نمّت في سرير من حرير، لبستُ ملابس الشابة ورأيتُ أم أنا جميلة في المرأة، هذا الزوج -الذي مسحّت دم دوري

بوجهه- كان ليتزوجني إذا رأي قبلها، نزلتُ إلى الأسفل، بحثتُ
عن المطبخ وملأتُ زجاجات ماءً، وضعتُها في الثلاجة، بحثتُ عن
أي شيء يصلح للأكل، حبوب لوبيا ويسلة مجمدة، الخضراوات
هنا معظمها بحالة جيدة، قررتُ البقاء هنا وتكملة رحلتي
حين يرتاح جسدي تمامًا، ملعونة الرائحة وصاحبها! سأجلس
هنا للاستمتاع، قد أجد فاكهةً أو مشروبات غير الماء ولبن
الرجال.

يا سلام يا نعمة، اخلعي ملابسك الآن، وخذي الرجلين
إلى أعلى، واحتفلي معهما، وخذي أيضًا الشابة المثيرة، أحببتُ
موضوع الجنس مع النساء من باب التغيير، الله يمسيك بالخير
يا ست اعتدال، يا صاحبة الفرج الأكثر احمرارًا في تاريخ كل
واسع.

تعالِ يا حلوة، اسمحي لي أن أرى إذا كان فرجك أحمر،
أم أضع لك من الكريم الذي حصلتُ عليه من ست الكل
والحمّار، الست الملبن اعتدال.

محيي ابن طاهرة

صار لي وقت وأنا هنا، في السيدة زينب، عثرتُ على خيارات
تكفيني فترةً لا بأس بها، أغذية محفوظة، وحبوبًا صالحة عند
عطار، أستطيع الجزم بأنه من أشهر عطاري المنطقة، نظرًا إلى
كبر مساحة المحل، وهندسته المعمارية القديمة، المحل معظمه

من الخشب، والأسلوب الإسلامي وخشب الأرابيسك، بالمشربيات والأشكال المتداخلة، محل فاخر بصراحة.

يعجبني تنوع الصنوف الموجودة، غير المقتصرة على الحبوب فقط، فقد وجدتُ لوازمَ استحمامٍ مختلف أنوعها، وما يفيد في العلاج والطبخ، وعطوراتٍ رائحتها زكية، ضحكْتُ لما نثرْتُ منها عليّ، وسألتُ نفسي من سيقابلني؟ أراهم حولي، في كل مكان، لا يتحركون، ملامحهم ممسوحة، فهل من الضروري التعطر؟ ومع ذلك، النظافة من أجل النظافة.

منذ الفاجعة، قررتُ أن المكوث في مكانٍ واحدٍ سيصيبني بالجنون، لذلك كلما نزلتُ إلى منطقةٍ أو شارعٍ، إذا تمكن منّي التعب، أتوجه إلى أقرب منزلٍ، وأنام فيه. الحقيقة هذا الفكر منحني حرية التحرك، دون الكثير من الحقايب، فما عثرتُ عليه في مكانٍ، سأنتهي منه في المكان ذاته، مع الاحتفاظ بما يساعدي على البقاء حيًّا، حتى الوصول إلى مقصدٍ جديد، وتكرار الأمر نفسه، إلى أن تتغير الحال.

تعقُب رائحة الدهان كان لغزًا، الوصول إلى الوجهة المطلوبة، جعلني أسب وألعن مئات المرات، حتى لاحت في الأفق معجزة، وقفتُ أمامها صامتًا، لا أتحرك ولا يسعفني الكلام، كانت المرة الأولى منذ لا أذكر متى، التي أرى فيها شخصًا، بكامل ملامحه، يتحرك بثباتٍ، يبحث عن شيءٍ، شخصًا عاديًا، يرى ويسمع ويتكلم!

في البداية لم يلمحني، اقتربتُ منه أكثر، لأعرف أن الشخص أنثى وليس ذكرًا، تنحنحتُ فانتفضتُ، لم أفهم المغزى من الرجل المكبل بجانيها، رفعتُ حجرًا وسألتني بعدوانية: "من أنت؟ وكيف تتحرك هكذا؟ تكلم وإلا قتلُك حالاً!"

الدهشة الغالصة في أثناء مواجهتها هي تفرد ملامحها وغرابتها في آنٍ واحد! أنثى، كاملة النضج، مُغرية جدًا، تحرك بداخلك كل الغرائز التي تعتمد نسيانها الواحد لما يمر به من وحدة، فتجد أنثى قصيرة، جسدها حلو تشتهيهِ، ومع ذلك، تجهل البقع الموجودة على جلدها! هل هو مرض أصابها أم عيب خلقي، أم حيلة ابتدعتها لتضمن عدم الاقتراب منها؟ رفعتُ يدي، رميتُ كل ما أحمله من كتبٍ وزجاجة ماء، وحقيبة الحبوب والعطور والصابون، قلتُ لها: "أنا محيي ابن طاهرة، لم يصبني ما أصابهم، ولا أريد أي أذى لك، وأقسم لك على ذلك يا أستاذة، عفوًا أنا لا أعرف هل أنتِ آنسة أم متزوجة، لذلك قلتُ يا أستاذة".

رمتُ الحجر بعيدًا، وأمرتني بالمشي إليها، ولكن بالعكس! فوليتُ لها ظهري ثم مشيتُ إلى الخلف، بخطواتٍ بطيئة، خوفًا من أي عائقٍ قد يُسقطني، حتى قالت: "توقف"، ففعلتُ. طلبته، ثم سألتني عن سبب وجودي.. "أنا هنا يا أستاذة لعدة أسباب، أولها أنني أبحث عن أي مواردٍ تساعدني على البقاء حيًا، ثانيها التعرف على أماكن جديدة، لعل الجحيم يتركني لحالي، وثالثها وهو تتبع رائحة، والآن عرفتُ مصدرها من الواضح أنكِ تعملين في هذا المجال"، قاطعتني بساكنة

واحد صادم: "عن أي رائحة تتحدث؟ أنا لا أعمل هنا وأتيت من محافظة أخرى للسبب نفسه! من أنت؟ قل الحقيقة وإلا سأقطع عضوك وأشويه!"

البنْتُ على أتم الاستعداد لقتلي في أي لحظة بلا أدنى تردد. تحركت دون قصد كي أواجهها ونتكلم، فرمتني بحجر صغير، وسبّنتني لأنني تحركت بلا استئذان أو أمر منها. اعتذرتُ عن سوء فعلي، وشرحتُ لها بحلو الكلام -الذي وضع لي كيف أنها تتأثر به- أنني لم أقصد نهائياً، وأنني لن أفعل شيئاً إلا بأمرها، لم طلبتُ منها في ود حقيقي أن تعطيني الفرصة لتتحدث، وكم هو أمر مبهج العثور على شخص آخر يشاركني هذه الحياة البائسة، خصوصاً -وهذا قلته لنفسِي- أنها لم تتعرف على ملامحي، ولم يصدر عنها مزاح سخيف من شاكلة المسيح والإسلام وخفة الدم التي تصيبك بالعقم.

سألني عن الرائحة، فشرحتُ لها الأمر كله، سألتني من أنا، فجاوبتُ في حدود ما أريد أن تعرفه، سألتني عن ديانتي، فامتنعتُ عن الإجابة، بحجة أن الأمر بيني وبين الله، سألتني عن ممارستي للجنس، فسألتها أين المتعة في شعورٍ من طرفٍ واحد؟ لا وجود لأهاتٍ، أو حث على المزيد، أو حدوثه مرة ثانية، لأن الأولى كان الفعل عظيمًا بها، وليس من اللائق النوم مع أنثى لا تعرف من أنا، ولا تخبرني عن أدائي، هل هو رائع أم مثلي مثل أي رجل. تعجبتُ من صراحتي مع بنتٍ أراها امرأة الأولى، وعللتُ ذلك بسبب جرأتها هي، فكيف تكون هي هكذا، وأتحدث أنا بأدبٍ أو بتعقل؟

الكلام يتبعه كلام، وسؤال يجبر سؤالاً، وأقسمتُ لها إنني لن أسألها عن أي شيء يخصها، إلا إذا أرادت هي الإفصاح، ثم سألتها -بعدما استأذنتُ منها- عن مصدر الرائحة، فأشارت إلى شارع ضيق، لم أره على الرغم من مروري هنا كثيراً، وقالت إن المحلّ مُغلق، وحاولتُ فتحه لكنها فشلت، فعرضتُ عليها المساعدة، لعننا نصل إلى أمرٍ يساعدنا، أو اكتشافي جديد، فرمينا نجد شخصاً بالداخل! تحركنا -أنا وهي والرجل المكبل- تجاه المحل، بعدما مررنا بمكتب بريد، ومحل ملابس، دخلنا الشارع الضيق الذي لم ألمحه نهائياً، وصلنا إلى وجهتنا فعرفت أين المشكلة، لم يكن كبقية المحلات قفله في الأرض فتفتحه وترفع الباب، بل كان قفله في الباب نفسه، ما يصعب على أي سارق فتحه أو لخلخته حتى.

ركلتُ الباب كثيراً، كنوع من أنواع التعرف على مدى صلادته، لم يتحرك الباب ولم يهتز، سألتها هل تحمل مطرقة أو سكيناً؟ فنفت ما طلبته، ثم عرضتُ عليّ أمراً بشعاً، قالت في منتهى البساطة: "رأس هذا الرجل ممكن نستخدمها كمطرقة. فهو لايفيدني في شيء"، ظننتُها تمزح، لكنها لم تبترسم، رفضتُ الفكرة في أدبٍ لا يضايقها، وقلتُ لها إنني سأبحث عن أي ورشة في محيط المنطقة، فالموضوع غير مقتصر على مطرقة، فقط.. هذه كذبة طبعاً، لأن كل ما نحتاج إليه فعلاً هو مطرقة، لنكسر القفل الذاتي، ولكن ليس رأس هذا الرجل! طلبتُ منها مرافقتي، فرفضتُ لسبب غريب، وعدتني أن تفصحَ عنه إذا ما ساعدتها في دخول ذلك المحل وفهم الموجود بداخله.

نظراتها لم تغادر بابَ المحل، تراقبه في خوفٍ غريب، كأن حل
 لغزٍ ما يمر به خلفه، أو خلاص روحها من أي عذاب. ذهبَتْ
 إل محل العطارة، أذكر أنني لمحتُ هناك ما قد يساعدا،
 وجدتُ سلماً خشبياً وصندوقاً معدنياً يشبه الحقيبة، كُتبَ
 عليه بخط يدوي عشوائي "صندوق العدة"، ومطفأة حريق،
 عطفتُ ما لقيته وركضتُ، لم أفكر في فتحه للتأكد من جدواه،
 قلتُ لنفسي حتى لو الصندوق لا يحمل شيئاً، سأستخدمه
 كمطرقة، رجعتُ إليها مهرولاً، كان من الواضح عليّ احتياجي
 إل مساعدة نظراً إلى تعدد وثقل الأشياء المحمولة، ومع ذلك
 لم تتحرك خطوةً تجاهي لما لمحتني في أثناء سرياني إلى المحل..
 وقفْتُ أمام بابه، وطلبتُ منها التراجع إلى الخلف قليلاً، فتحتُ
 الصندوق لأجد مثقاباً كهربائياً، ومطرقة صغيرة وغيره، بالطبع
 أن الأمر سيكون أسهل إذا ما توافر مصدر للكهرباء، لذلك
 ملعتُ من المثقاب السن الثاقب، وربطتُ حجراً بشريط
 لاصق كنتُ قد عثرتُ عليه في قُرْشة مستلزمات، في الطريق بين
 المسيس والتحرير، لأصنع مطرقةً يدوية.

صار الآن سن المثقاب رأس المطرقة، والجسد عبارة عن حجر
 قوي صلد، استخدمتُ المطرقةَ الأخرى بعدها للدق فوقه، في
 أماكن محسوبة تصنع دائرة كبيرة فوق سطح الباب، تُسهّل
 الدخول. لم تفهم البنت ما أفعله، لكنها فرحت كثيراً حين
 سمعتُ السن جانباً، ثم رفعتُ مطفأة الحريق بكل عزمي
 ورميتها تجاه الدائرة المصنوعة عدة مرات، فسقط الجزء
 المالحود من الباب، فدخلنا من خلاله.

المحل محل دهانات، لا يوجد أي شيء مفيد، زيوت وآلات، لا أفهم ما سبب وجودنا هنا!

لمحُ البنت تركع لجهاز، سألها ما الذي تفعله، فأجابتنني: "يا محبي، منذ جئتُ إلى هنا قبلك، وكلما حاولتُ الرحيل، شعرتُ بالبقع الموجودة فوق جسدي تؤلمني، كأنها ترفض الرحيل بعيدًا عن هذا المكان، ثم الآن عرفتُ أنه ليس المكان، بل هذه الآلة، حين دخلنا شدتني البقع تجاهها، حاولتُ المشي رفض جسدي، يا محبي، أنا أجهل السبب، لكننا لن نرحل من هنا دون هذه الآلة، ولا تسألني كيف، حتى لو سأموت هنا، لن أرحل دونها". يبدو أن الألم حقيقي، أو يبدو أنها مجنونة، هل كانت غلطتي منذ البداية أنني أطعتُ كل أوامرها؟

قلتُ لها كي تطمئن ولا تفزع، أو يقتلها ألم الفراق عن آله، "اتفقنا، إلى أين سننتجه الآن؟"

فيليب

كل يوم يا مينا، منذ ما حدث، وأنا أنظر إليك، أحكي لك عما أعانيه، أعرف أنك لا تسمعني، ولكن هذا الأمر هو ما يدفعني للبقاء، أنني أراك أمامي، وأشكر يسوع على وجود البصر، وأطلب زواله في الآن نفسه، فكيف لأب ضعيف مثلي يستمد قوته من وجود ابنه في الدنيا، من صوته ومن شقاوته، من غضبه وحزنه، من خطاياهم وسذاجته، من أخطاء شاكاه

أن يجلس ابنه هزلاً خاضعاً هكذا؟ يا مينا، يا دم الفؤاد وسر الروح، خذ نظري وأنقذنا، ولا تُرجعه إليّ، يكفيني يا حبيبي أن تكون بخير، وليذهب فيليب إلى نهرٍ من مصائبٍ، لا يعرف أوله من آخره.

كل يوم يا مينا وأنا أعيد كلماتي، ويسوع المجيد لن أزهد، ولن تزهق روحي، وإن سألتني لماذا يا فيليب تُعيد حزنك وبأسك، سأقول لك لديّ أمل يحدثني بأنك قد تكون سامعاً، أو شاعراً بما أعانيه، وتهوّن عليّ بحركاتك تلك، يا حبيبي يا مينا، لا تستأهل ما يحدث لك، كنت نعم الابن الذي دعوتُ له يومياً بمباركتك في الأرض والسماء، لأنك لم تُغضبني لحظة.. يا يسوع، خفف عنه آلامه، وأنا مُستعد لأضعاف ما عُمر به، المهم أن يكون مينا بخير.

أتمنى يا مينا ألا تمنع أن أعيدَ حكايةَ أختك مريم، الجميلة السول مريم، التي ذهبت إلى السماء، بفعل الإنسان الشرير الذي يكره الجمال، فيجبر أخاه الإنسان على فعل ما يبغضه، القتل يا مينا! قتلُ مريم بيديّ، وحتى تلك الثانية، وكل من هرف الموضوع يعتقد أنه متحرش مجهول، قتلها وهرب، قتلُها يا مينا، لأنها كانت فتنةً تمشي بين الناس!

مريم كانت جميلةً خالصة، ورثته عن جدتك، أم أمك، المعر المائل إلى الأحمر الغامق، الوجه المُستدير الأبيض، المهين الملونتين، تارة تشعر أنهما خضراوان، وتارة ترى لونهما أحمر يسبح في بحرٍ من الصفار، جسدها كان سريع النضج،

فيرى الناس بوضوح مفاتنَ الجسم، ومهما حاولنا في إخفاء الظاهر، زادها جمالاً وإغراء، إلى الدرجة التي جعلت كل بنات العائلة يكرهن اليومَ الذي شرفت فيه العذراء مريم، ويعلم يسوع كم سمعتُ من مر الكلام، حتى ذلك الوقت التي قالت فيه أمك: "يا فيليب، مريم صارت مشكلةً كبيرة! ابنة العاشرة يريدوها كل من يلمحها! هل نزوجها من الآن، ونخلص من المضايقات، ورائحة العفن التي تحوم حولنا، سواء من نظرات الناس وكلامهم الذي لا يرحم؟" تخيل يا مينا؟ بنت جميلة، تعيش وسط مجتمع من الفقر والجهل، من الكراهية والشهوة، مجتمع كان يقتلني مع كل نظرة لها، فقد منعتهُا من جلب الأكل بسبب نظرات العاملين في الأفران، وكلامهم المعسول الخادع للبنت ومشيتها وجمالها، مع أنها با مينا كانت محترمة جداً، ولم تعتمد قط أي غنج، في مشيتها أو طريقة كلامها.

حتى جاء اليوم المشؤوم، وعرفتُ بخبر زيارة الباشا للأفران، حين وصل إلينا خبر حزين تناقله الحاضر والغائب عن إمكانية بيع الأفران لرجل خليجي، جاء الباشا والخليجي وحاشيتهما، وبسبب البخت الأسود، ولأنني تأخرتُ يومه عن موعد رجوعي، أرسلتُ أمك مريم، ليطمئن قلبها، شاء، الخليجي جمال مريم، وقال للباشا إنه سيوافق على أي سعر، مقابل زواجه بمريم، ابنة العاشرة يا مينا، تخيل!

تحدث الباشا معي، وطلب مني ضرورة القبول، وسيشملني الباشا بمبالغ ورعاية لا تخطر على بال!

استسمحته في مدة تفكير، ومخاطبة البنت وأمها، وقبل
 أن يغضب قلْتُ له: "للعلم بالأمر فقط يا باشا، الأمر أمر
 طبعاً!" مشيتُ إلى بيتنا حزيناً، مع ابنتي التي كانت ترنم،
 بحمال صوتٍ وحكمة شهيدة سماء، عرفتُ من ملامحي كل
 الحزن الذي يقتلني، فسألتني: "يا أبي يا جميل، هل ضايقت
 هذا الرجل العجوز؟ هو وزميله السمين؟" كنتُ على وشك
 الهوح لها يا مينا، كنتُ سأقول لها هذا السمين سيصبح
 روجك يا مريم. طبعاً تسألني لماذا رفضتُ الصفقة؟ رفضتها
 يا مينا لأن الخليجي اسمه محمد، هل سأبيع ابنتي، العذراء
 المدول، لمسلم يا مينا؟ كيف سأنام وهو يغتصبها كل يوم؟
 البنت صغيرة لا تعرف شيئاً عن الحياة الزوجية، ولا حتى
 سدها الذي نضج قبل أوانه يعرف شيئاً عن الجنس والنوم
 مع رجل.

لا يا مينا، لا تسألني هذا السؤال، لا تقل لي كلاماً كهذا، نعم
 متى إذا طلبَ الباشا الزواج بها، كنتُ سأرفض، وكنتُ سأبحث
 عن أي حجة، لكن طالبَ القُرب لم يكن الباشا، كان الخليجي
 الفذر، شوال المال، الذي يريد أن يقسم ابنتي نصفين بقضيه
 المعنوي، فمن المؤكد أن رجلاً مثله، لا يملك قضياً حقيقياً، وإلا
 لما يطلب الزواج بطفلة؟ فعلة كهذه لا تخرج إلا من مريض
 نفسي، مريض يريد النوم مع طفلة! ولا تُلَم عليّ، أنني لم
 أهبط وأتعارك معهم، إذا صفعني الباشا أو الخليجي سأسقط
 صريعاً، جسدي الواهن لن يتحمل، والمنطق في هذا اللحظة

هو الصمت، من سِرعى حريم بيتي إذا صعدتُ إلى الملكوت
مع يسوع؟

هدائي عقلي إلى خطية تنقذ الجميع من فتنة مريم، ماذا
لو ماتتِ البنت؟ نقول مثلاً ذهباً لشراء حلوى، فلم ترجع،
خاصةً أن الباشا كان كريماً، وترك لي أسبوعاً كاملاً لأخبر أهل
بيتني بما سيجري، وكيف ستقيم الخيرات في بيتنا، لأن الخليجي
وعدني بالمال والهدايا والملابس كل شهر إكراماً لأهل عروسه،
فقلتُ لنفسي إن أسبوعاً مدة عظيمة تتيح لي كل الفرص
للتخلص من مريم، وإقناع الجميع بأنها حادثة فعلاً، ذلك لأن
كل الحلول التي حاولتُ التوصل إليها توصلتُ هي بي إلى قتلها،
فنحن جميعاً منذ نشأتنا ونحن في قريتنا، لا قريب بالقاهرة،
ولا صديق بالإسكندرية، ومريم صغيرة فلا وجود لبعثة دراسية،
ولا يعرفني أحدٌ لأقول إنها سافرتُ معه وأهله، الباشا يعرفني
مثل معرفتي لنفسي تماماً، بل وأكثر ويسوع المجيد.

قررْتُ قتلها قبل انتهاء المدة بيومين، وذلك حين جاء،
البنت، بعدما مشى جميع العمال، لتراني وتطمئن عليّ، انتهرتُ،
الفرصة، وتأكدتُ من خلو المكان تماماً، كلهم غادروا، وقف،
البنت خارج القرن، تنادي اسمي، تنادي كثيراً بصوتٍ ناعم
رقيق، تقول في لهفة: "يا أبي العظيم، هل أنت بالداخل؟" هـ،
قلتُ لها بصوتٍ مسموع: "سأخرج إليك يا مريم، أترين الله،
المقابل لهذا القرن؟ ستجدين زيراً حديث العهد، اذهبي تعال،
وأخبريني هل ماؤه حلوى، أم طعام الفخار واضح فيه؟ ص... هـ،
يقول هناك عيبٌ في الصناعة، ونريد التأكد من ذلك."

تحركت البنت بطيب خاطر يا مينا، خرجت بسرعة عجيبة،
 لأن جسدي تحفز للأمر، وارتديت قفازاً من المطاط لضمان
 عدم ثبوت البصمات، وفي أثناء شرب البنت للماء، لتفعل كما
 قلت لها، عاجلتها بضربة من مطرقة، على رأسها، سقطت مرة
 واحدة، سقطت يا مينا وهي تنظر إلي، وقالت جملة تأتيني في
 ثوابسي كل يوم، قالت بصعوبة، بكلمات متقطعة وروح تنازع:
 'لم تقتلني.. الضربة.. يا.. أبي، قتلني أنها.. منك، يا أبي.. العظيم،
 لماذا يا أبي؟' هزنتي الجملة، صفعتني في لحظة ألف مرة، ثم
 رعت عنها ملبسها، أبكي وأقطع لباسها الداخلي، لأرى فرجها
 الصغير، أدخلت جسد المطرقة الخشبي به، ليتأكد من يراها
 من أنها حادثة اغتصاب، سال الدم على جسد المطرقة، قبلت
 ابنتي، الملقاة أمامي عارية، الجميلة حتى وهي مقتولة، قلت
 لها أنا آسف يا مريم آلاف المرات، أنا آسف يا مريم على
 مدعفي، على فقري، على وهن جسدي، على قتلي لك، على
 هراك لنا، على وجود الباشا في دنيانا، على دفعك لثمن وضاعة
 أمك، على جمالك الممنوح من يسوع، على خلق يسوع لك،
 على دخول نطفة مني إلى رحم أمك، على كوني أسفل الآباء،
 على أنني عامل فخار قذر، على أنني لم أفكر في أي حل آخر،
 على أنني اخترت مصيرك، على أنني أرسلتك إلى السماء مبكراً،
 على أنني خطفت روحك وعذريتك، على تركك هكذا في العراء
 لكشف الجريمة ماژ أو كلب، وربما يغتصبك رجل آخر ثم
 يهرب، أنا آسف يا مريم، لن أبيعك يا ابنتي إلى مال الباشا،

وإلى خليجي من ديانةٍ لا أعترف بها، أنا آسف يا مريم، هذا أفضل لكِ ولنا.

آه يا مريم.. يا ليتكِ كنتِ مثلهن، جمالكِ عادي، جسّدكِ ينضج على مهلٍ، ثقيلة الدم، روحكِ ثقيلة، ملامحكِ غير فاتنة، يا ليتكِ يا مريم كنتِ بنتًا قبيحة في صغرها، وتصير أجمل لما تبلغ وتكبر، يا ليت أمكِ لم تلدكِ يا مريم.. قرأتُ ما تذكرُهُ وقتها لأبارك روحها، ذهبتُ إلى أبعد مكان، وواريتُ المطرقة تحت التراب، ذهبتُ إلى القهوة، جلستُ بين الناس بوجهٍ مبتسم، ملامحي المعروفة، السلامات والكلام الطيب، الشيشة فقط دون شاي، عمك نجيب شعر بشيءٍ عجيب، ولكنني أنكرتُ كل مخاوفه، لم أسمع النكات السخيفة، الكلام عن الصفة، أين سنذهب إذا حدث، تعمدتُ الاشتراك في كل الأحاديث، حتى لا يتهمني أحدهم بأنني لستُ على طبيعتي. ثم غادرتُ في هدوءٍ، ولما رجعتُ إلى بيتنا، سألتُ سهرة أمنا، أين مريم؟ فقالت أمكِ: ذهبت إليك! كنتُ إله التمثيل في هذا الوقت، ملامح وجهي صادقة، أسب الجميع، أصفع أمنا، وأقول لها: "أين ابنتكِ؟ لم تجئي إليّ، أنا تركتُ القرن وذهبتُ إلى القهوة، أين مريم يا أم مريم؟ هل تركتها تذهب في هذا الوقت المتأخر؟ ماذا سيحدث لي إذا تأخرتُ؟ هل سيأكلني العفريت؟ أين مريم يا بنت الوسخة!"

مبد القوي

من الواضح أنني سأدقّن هنا، في قاع النهر، ولو الدنيا بالأعلى رجعت إلى طبيعتها، لن يعثر أحدهم عليّ، وربما تطفو هتتي على السطح، منتفخة وزرقاء، ملامحي طبعًا ممسوحة، ولا يتعرف أي شخص على هذه الجيفة، فيرميني من عثر عليّ، في سيارة تخص مدافن الصدقة، ثم يرميني آخر في مدافن الصدقة، وأموت وأرتاح من كل هذا.

أو يحدث أمر آخر، فينشق النهر كانشقاق بحر موسى، وأغرق إلى مستوى أعمق، ومن الممكن أن أطيّر إلى الفضاء، أو النصف الآخر من الكرة الأرضية، وقد تكون مسألة موتي أبسط من كل ما سبق، تمر سمكة تثقب جسدي، فيدخل الماء ويزيد عن الحد، فأنفجر وتكنس ماء النهر الأشلاء.

هل أصبح إلى أعلى؟ أم أترك الوضع كما هو؟ هل سيغير قرارى شيئًا؟ والله العظيم أنا لو مصنوع من حديد سيصيني الصدأ، لكن أن أظل هكذا في الماء، بلا خدوش أو ذوبان، كلما حاولتُ حك جلدي لا أشعر بشيء، تحسستُ القاع هنا، لمستُ حجرًا كبيرًا، ضربتُ به رأسي، لا شيء، أمسكتُ برقبتي وضغطتُ عليها، الموت بالخنق، ولا شيء، كيف يعيش جسدي عامة؟ لا أكل ولا شرب، لا تنفس ولا أي عمليات حيوية، كيف أعيش كل هذا؟ يا رب ساموت من الجنون!

لماذا يا رب تفعل هذا بي؟ لا يهمني ما يمر به الآخرون، لماذا يا رب تعذبني هكذا؟ هل تتلذذ مثلاً؟ هل رأيتني دمية

كسولاً فتعاقبني؟ كم شخصاً وقع مثلي في النهر؟ كم شخصاً يعاني مثلي؟ أين منة خطيبي؟ هل هي حبة أم صعدت إليك؟ لماذا تجعل روحنا تتمسك بالحياة؟ يا رب أنا لا أنام، لا أعرف الفرق بين الواقع والخيال، لا أتخيل، سحبت مني كل عناصر إنسانيتي، الحواس والتنفس والأكل والشرب والإخراج والأحلام والنوم، أنا هنا هكذا، في قاع نهر، منذ وقتٍ نسبته من طول مدته، إذا كنتُ على صواب، فقد مرت سنوات وأنا في النهر، وسنوات وأنا في قاعه، إلى متى يا رب؟ حرام! أقسم بالله العظيم حرام!

لا الموت يريدني، ولا الجنون يريدني، أنا مجرد مساحة موجودة، لا تفعل أي شيء، مساحة نكرة، بلا فائدة في حياتي، وأنا على وشك الموت، إذا كنتُ ساموت أساساً! صليْتُ لك كثيراً يا رب في حياتي، طلبتُ منك علاجي من مرض الكسل، طلبتُ منك كثيراً أي إشارة أو تفسير، عن سبب تقاعسي، كلما هممتُ بالتحرك تجاه غرض، عطلني شخصٌ أو شيء، كأنك تتعمد أن أبقى بمكاني، لا أنتحرك، حتى بعدما عثرتُ على قضيتي مهمة، كلما حاولتُ السعي، شدتني قيود واهية.

كل الناس حولي، حولتُ حياتهم إلى الأفضل، رواتب ممتازة، عائلة مُشرفة، سيارة فارهة، وظيفة مناسبة، إلا عبد القوي. يصعد الجميع إلى برج، ويبقى هو بالأسفل، يراقب هـ ا، سيصعد آخر؟ أم يغلق الباب خلف الذين صعدوا، وينتظـ ا، الفرج القريب.

ألا يكفيك أنني لا أسمع كلامي، بيني وبين نفسي، وكل ما
يصدر عني هو شعورٌ بأنني أقول هذا الكلام، لقد سحبتُ
منِّي خاصية الفضفضة، أنا مجرد طين على هيئة إنسانٍ،
ينتظر معجزةً، قد تحدث وقد لا تحدث، ربما يُنفخ في روحٍ
من جديد، ربما تصعد روحُه إلى السماء، وربما يظل هكذا إلى
أن تقوم القيامة، وحينها لا أعرف إلى من سأشكو حالي، هل
ستسمعني يا رب وأنا أقول لك أنت من فعلتَ هكذا بي، فخذ
هلي بنفسك من نفسك؟

خمسة أشهر من الدهشة الأولى

العامّة

ثورة الأدباء

"نَسَبُ الأدبِ إلى القيمِ تَلْفِيقُ فج، ونَسَبُ الأخلاقِ إلى الكتابةِ الإبداعية قتلٌ صريح!"

إن كتابًا مُحدد أركانَه، وما يناقشه ويعرضه، هو كتابٌ صاحبه صادقُ الحائِط، ومشى معه لا بجانبه! وفي تكليف الكاتب بقضايا مُعينة إعدام وقح لموهبة مُستَفِزة، لا تعترف بالقيود، تُحطم القواعدَ يوميًا، مذكِّرة الإنسان، ومميزته عن سائر الكائنات، فنرى نحن، معشر الكُتاب والمُبدعين وأهل النشر والترجمة، أن العقلَ أول ما أنعمَ الله به على البشر، ثم الكتابة! ومن يرى غير ذلك، فله الحق في عرض أمره بعيدًا

عن مظاهرتنا، خاصةً إذا خاض في حديثٍ مطول، كما فعل شخصٌ قابلناه في أثناء سيرنا إليكم، عن ثبوت أن الأنثى هي النعمة الثانية!"

كان هذا نص رسالةٍ أعطاهها موظفٌ لسفيرٍ من سفراء الثقافة والأدب، وقال له في قلبي واضح بوجود مجموعة من الكتاب والناشرين والمترجمين أسفل مقر الهيئة العامة للكتاب، يرفع أحدهم ما لا يقل عن لافتتين، تنديدًا بقرار سفارة الثقافة حرق الكتب التي تخالف القيم الأخلاقية، واختلاط الحابل بالنابل، ورفضهم أي محاولاتٍ للتسوية، أو عرض مطالبهم على ورقٍ رسمي، وأن قرارًا كهذا كان يوجب وجودهم أو وجود ممثلهم، ولا يصح تمامًا إبلاغهم بما سيحدث ورقياً، نظراً إلى كونه مصيبةً ستقتل كل ما بناه الآخرون، وستجعل البشرية - في عصرنا الحالي- مثلاً للسخرية، من الأجيال القادمة.

عرف سفراء الثقافة بالتظاهرة، وقرروا في نفسٍ واحد خروج أكبرهم سنًا، واستدعاء الكاتب صاحب الفكرة، وانتظار النتيجة النهائية، ومهاتفة سفير الثقافة -وزير الثقافة في المُسم- القديم- لسماع قراره، في حالة عدم التوصل إلى حل يناسب الأطراف.

خرج كبير السفراء، الأستاذ عبد السميع فاهم، البالغ من العمر قرناً من الزمان، يتكى على عكازه، وبمساعدة الكاتب صاحب الفكرة، وموظفٍ من موظفي سفارة الثقافة، نذاً ،

الحشدُ إليه، سُمِعَ صوتٌ من بينهم يقول: "خرج كبيرهم ليخرجنا، والله لو خرج نبي لن نراجع!"

قال الأستاذ عبد السميع، في هدوءٍ يُحَسِّدُ عليه، وبعدد اهتمامٍ للجملة التي قِيلَتْ من جبانٍ، كما وصفه بينه وبين نفسه: "واحدٌ فقط من سيعرض الأمر"، اقترب رئيس اتحاد الناشرين العرب، وتحدث بصوتٍ عالٍ ليسمعه القريب والبعيد: "خُصَّ النشْرُ في بلدنا، وصارتِ الحكومة هي من تنشر، ومُنِعَ النشْرُ الخاص، وجميع دور النشر تعمل لصالحكم، بعدما اختار كبيركم ثلاثين دار نشر فقط، وأغْلِقَتْ المنبوذة، لتقوم بنشر وطباعة ما تختاره لجنتكم، بعد موافقات مكتوبة على الكتب غير المخالفة لشروطكم، وطبعًا لا داعي لذكر الشروط، فهي معروفة لمن لا يمت للكتب بصلة، قبل الذي يعمل بالكتب من سنين!"

ولما صارت مدينتنا فاضلة، بزغ أملٌ بداخلنا، يقول على استحياء ربما يطلب شخصٌ منكم أن نكتبَ عن معجزة الكتب، وهذه الكتب لن تكون قصصًا خيالية، لأن الأمر أمام الجميع، وبالتالي ستعرف الأجيال القادمة الكثير عما مررنا به، فيكتب كل من لديه موهبة، ويعبّر عن أفكاره، ويجد القارئ مختلفًا سيوف الأدب، المعارض والمُحايِد، التجاري والجاد، ولكن ساءت الأمور أكثر، ولقينا قرارًا لا يصح وصفه إلا بالجريمة البشعة في على الأدب، ماذا فعل لكم الأدب لتقتلوه هكذا؟

أستاذ عبد السميع، نحن أهل حق، ونعرف كيف نطالب بحقنا، وسنعلن عن مطالبنا بكل احترام، لكن اسمح لي، هل أنت مقتنع تمام الاقتناع بما أتى في هذا القرار؟ سأعيد عليك سؤالاً بشرح مفصل، وأرجو أن يتسع صدرك لسماعه.

هل حقًا وافقت أنت ومن معك، في سفارة الثقافة، على إحراق كل هذه الكتب؟ على إعدام هذه الكتب؟ أستاذ عبد السميع، من منا لديه الجرأة أو الشجاعة ليسلمكم نسخ الكتب الممنوعة؟ أو يساعدكم على حرقها؟ حرق الكوميديا الإلهية؟ وما السبب؟ سخرية الشاعر من بعض الديانات؟ أستاذ عبد السميع، من منا سيحرق ثلاثية نجيب محفوظ؟ أو مدار السرطان لهزري ميللر؟ أو الجوع لكنوت هامسون؟ الخبز الحافي لمحمد شكري؟ والسبب هو المحتوى الفاضح؟ الشتائم والألفاظ غير الراقية؟ من منا سيحرق الإلياذة والأوديسة والإنيادة؟ والمكتوب هنا لأنها تدعو إلى ألوهية بشر غير الله الواحد القهار؟ وحكايات أبطال أسطورية؟ وأين أنبياء الأديان من تلك القصص؟ من الذي أدخل الدين في الإبداع يا أستاذ عبد السميع؟ أنا واثق بأنك لم ترَ أسماء الكتب، وهذا ليس عيبًا منك، ولكن القرار لم يكن نزيهاً، يا أستاذ عبد السميع، مكتوب في القائمة هنا، إحراق كتاب "بشرٌ نسيهم الله" لفجاجة، الاسم! لم يُقرأ المحتوى أساساً! وهناك أيضاً الاسم الذي جعلنا نضحك جميعاً، سقف الغواية! تخيل يا أستاذ عبد السميع، مكتوب في قرار اللجنة، أن السبب هو والعياذ بالله عن أي غواية نتحدث؟ لن أطيل عليك يا أستاذ عبد السميع، سأقول،

للمطة الأخيرة، وسنسمع منكم في النهاية تفسيراً يليق بقراركم، هل يعرف أي شخص، بسفارة الثقافة، أن صاحب الفكرة هو ناشر، كان كل عمله في الكتب الدينية الإسلامية؟ كتب التفسير وعذاب القبر والحجاب والمعاصي، ماذا يعرف هو عن الأدب وثقافة الأدب؟ ماذا يعرف صاحب الفكرة عن مجازات الكتابة ورسالتها؟ عن الإسقاطات والحروب؟ عن الجوع والفقر؟ عن الخيال والإبداع؟ عن الكاتب الذي يسهر ليكتب جملة؟ عن الناشر المغامر؟

أستاذ عبد السميع، إذا تم حرق كل هذه الكتب، فهذا يعني حرق تاريخ البشرية، لن يكتب شخص آخر ما تمت كتابته من قبل، ستصير لدينا نسخ مشوهة من أعمال كُتِبَتْ من ذي قبل، بحبر صادق وشغف كاتبها، بفكره وما جمعه من أفكار، تخيل يا أستاذ عبد السميع أن يقول أحدهم في يوم لصديقه أو حبيبه أو مسافر في قطار: "لقد سمعتُ عن رواية، كانت موجودة في زمن، اسمها إله الأشياء الصغيرة، وقد تم حرقها لجهل الناس وقتها، ولتشددهم، عصر جاهل، لشكر الله أننا لم نُخلق بينهم!" كل ما نريده هو عدول اللجنة من قرارها، ورفع الحظر عن النشر الخاص، ونعدكم إذا ما لم هذا، سنتوصل إلى حل وسط، لا يُقَيَّد المبدع، ولا يُغضب سيادتكم مما يُكْتَب ويُنَشَر."

صفق الحشد كما يليق بخطبة قالها رجل يحب الكتاب بعددق، ومع ذلك لم تتغير ملامح الأستاذ عبد السميع، الرجل المنجهم ضئيل الحجم شبيه غاندي، أشار إلى الموظف الذي

خرج بصحبته، فركض الموظف إلى داخل السفارة، وقال الأستاذ عبد السميع: "ما سأقوله الآن لن أكرره ثانية، لا تراجع في قرارنا، ولن نسمح بالنشر إلا من خلال منافذنا ومراقبتنا، والحقيقة في أثناء اجتماعاتنا وضعنا خطة واحدة في حال غضبكم، إلقاء القبض عليكم وسجنكم، بتهمة زعزعة استقرار البلد، والعمل على نشر الفوضى والرذيلة، نحن نريد الجنة ورضا الخالق، وأنتم تبحثون عن جهنم وبئس المصير، لذلك القرار لكم، إما نسيان الأمر أو نسيان ضوء الشمس تمامًا!"

ما حدث في تنمة الأمر كان يدعو للتساؤل، كساردةٍ عرفت عالم البشر، من خلال حكايتي، تعجبت من سوء قرار سفارة الثقافة، وطلب من السارد الأول نسخًا من الكتب التي تحدثوا عنها، والمفاجأة الأكبر كانت رفضه! رفض السارد الأول طلبي، وقال إن في معرفتي لما هو أكثر مما كلفني به خروجًا عن طاعة صاحب الأمر، وهذا ما يجعل أي عقل يفكر، في أي عالم عامة، هل محاربة المعرفة كانت السمة الثابتة في كل العصور والأكوان؟ أنا ساردةٌ تبحث عن معرفة أكبر، فلماذا يرفض صانعي هذا؟ ولأنني عرفت كثيرًا منهم، فهل لخالقي خالق؟ وهل هناك مسيحٌ حقيقي -ليس محيي ابن طاهرة في عالم السرد؟ وإبليسٌ يوسوس للساردين كما يحدث معي الآن؟ أنا أريد الخروج عن حدود سردي لحكاية، أريد أن أسرد ما يحلو لي، فلماذا تُقايل حرية الإبداع دومًا بالرفض؟

العامة

بكار والخشب

فوق خشبة مسرحه الخاص، داخل عالمه الذي يقبله ولا يلفظه، بين عرائسه الخشب، ووحى الحكايات الآتي من المجهول، ولف بكار يتحدث بأصواتٍ مختلفة، تارةً بصوت عجوز، وتارةً أخرى لشابٍ منفعل، يحرك العرائس في تظاهرة، يقول السائر فيها: "لا لحرق الكتب، لا لقتل التاريخ"، يراقبه العاملون من داخل الورشة بخوفي وقلق، حين سمعوا أصواتًا متعددة تخرج في الآن ذاته من بكار فقط، ولا يوجد من يرافقه في عرضه، إلى الدرجة التي جعلت واحدًا منهم يترك ما يفعله ويركض تجاه خشبة المسرح متلصصًا، ليعرف هل هناك مثلاً مذياع، أو أصواتٌ مُسجلة، ليعود بعدها والفرع يلهث خلفه، ويقول لهم: "والمسيح الحي، بكار بمفرده، وكل الأصوات تخرج منه، سواء مختلف الطبقات، أو صوت حشد التظاهرة!"

ولأن المعجزة لا تُدهش إلا العاديين، خرج من بينهم معجزةً أخرى، بعدما ترك خشبةً، كان على وشك دهنها، بلون لحم الهوانم، خرج من بينهم وهو ينظر إلى الأمر، بعين التحقق لا التعجب، كلهم تراجعوا إلى الخلف، لما وقف -العم آدم- يتابع بكار، من وراء دخان سيجارته، سألهم: "هل حدث هذا من قبل يا أولاد الكلب؟" نفوا جميعًا حدوث الأمر سابقًا، ليواصل العم آدم عمله، بهدوء رجلٍ لا تهمه خوارق الأمور، اقترب منه عاملٌ خائفٌ، حاله كحال العامة، الذين يؤمنون بالسحر

والدجل والشعوذة: "يا عم آدم، تبدو عليك معالم الحكمة، أنا أعرف أنه يومك الأول هنا، لكن هل شاهدت شيئاً مشابهاً من قبل؟ هل الأستاذ بكار ممسوس؟" ضحك آدم حد السعال، وطلب من السائل كوب شاي، وسيخبره بكل ما يريد، وهو ما فعله العامل البسيط، بمساعدة كل السامعين، فأصبح كوب الشاي جاهزاً، في أقل من دقيقة، لم ينتظر السخونة لتهداً، ورشف منه رشفة حكيم يستعد لقول حكمة تضرب أساسيات الخلق في مقتل.

قال العم آدم، بعد استطعام لكوب شاي، معمول بلمسة خوف وفضول: "الموضوع ببساطة، يا أولاد الطبقة الدانية، أن صاحب المسرح ممسوس من قبل أرواح العرائس، وقبل أن يتهمني أحدكم بالجنون، وإذا ما حدث هذا سأدفنه مكانه، سأحكي لكم حكاية، عرفتها عن جدي آدم، الذي كان من المعمرين في الأرض، عن العرائس الخشب عامة، لا يعرفها جهال الناس أمثالكم، وهي أن الله خلق جنساً كاملاً من الخشب، عاش قبلنا بآلاف السنين، ويمكن القول إنه كان على سبيل التجربة، أو الترفيه إذا ما شاء أحدكم في معرفة لفظة أكثر دقة، ومع ذلك، عرف الله مدى بؤس هذا الجنس، خاصة أن النار قد تمحوه في لحظة، وهبهم كل ما يحتاجون إليه، ولم يتحرك واحد منهم ليحقق شيئاً، فتجدهم طوال اليوم جالساً بجانب الأشجار، ثم بدأت جماعات في ترسيخ فكرة واحد عباداً الأشجار واجبة! لأننا خلقنا منها!

الفكرة يا ناس يا جاهلة، أن الله لم يرسل شيطاناً بينهم، وفكرة الدين نفسه لم تكن مطروحة من الأساس، بل والنوع! نوع واحد، لا ذكر ولا أنثى، مخلوقات من خشب، كان الله يأمر الخشب بالقيام، فتقوم الخشبة على هيئة تُشبهنا، صغيرة وتكبر مع الأيام، تتحرك في غباء محكم، تتحرك في غباء مستفز، لا تتكلم وكل ما تفعله هو الجلوس بجانب الأشجار، تنظر إليها فقط، ثم بدأت في عبادتها، وكانت تنفر من الطين، على نحو جعل الله يخلق مخلوقه الأحدث من الطين، نكايّة في هذا الجنس المقزز، ولما نزل آدم إلى الأرض، ورأى هذا الجنس العجيب، ملكة الغيرة منه، وهذا أعجب الرب، فمن الواضح أن الجنس البشري لديه مشاعر بداخله، على عكس الكائن المخلوق من خشب، فخاض آدم حرباً ضدهم، بمساعدة الملائكة، وطلبث حواء من آدم الاحتفاظ بصغير تعجبها ملامحه، فوافق آدم بشرط واحد، ألا وهو ربطه بأحبال، فيصير تحت أمرها، تحركه إما تشاء، فلا يقلق عليها من حركة غدير أو نية شر.

ظل هذا الصغير، مع حواء، لعبتها المفضلة، تتحكم فيه، لا يرفض ولا يتمرد، يراقب حياة البشر وكل ما فيها من مشاعر وأفكار وتمرد، يرى أبناء آدم وحواء، يرى الصراعات والموت والكرهية، ينتظر الأمر من مالكته، فيتحرك تجاهها، تمسكه ووجهه أينما وكيفما تشاء، حتى ماتت حواء، وكانت قد أوصت آدم بإطلاق سراحه عند موتها، فقال له آدم وقتها: "اذهب إلى مالكك الجديد، لن أقطع تلك الأحبال، ستبقى مُلبداً إلى أن تقوم القيامة، أو يحدث غير ذلك"، لم يتأقلم

المخلوق الخشبي مع مبدأ الحرية بعدها كثيراً، فقرر بوحى من خالقه ألا يتحرك تماماً، فيظن من يجده أنه قطعة خشب بلا روح، وهو ما حدث، بعدما عثر عليه نجارٌ ماهر، يعرف كيف يُشكل الخشب، أعجبتَه الفكرة جدًّا، فصنع منه أشكالاً تشبهه، وأشكالاً مختلفة، ودرس آلية الحركة والتحكم فيه، وبعدها توارثت الأجيال هذه العرائس، في مختلف البلدان والحضارات، مع فكرة واحدة فقط، لا يعرفها إلا من يعرف الحكاية كاملةً، ألا وهي أن هذا المخلوق حتى الآن موجود، لم يمت، وعده الله في يوم بالعودة، لأن الله كره البشر وأفعالهم، وما ترونه الآن يا ضعفاء الحيلة والفكر، هو رجوع الجنس الخشبي إلى عالمنا. هذه هي الحكاية ببساطة، دون تعقيد أو أي تفاصيل.. سيعجز عقلكم الضعيف، الذي يفكر في الجنس والأكل والأحلام وكل هراء الحياة البشرية، عن فهم الأمر".

بعد لحظة صمت، انفجر الجميع ضاحكًا، ومنهم من دعا للعم آدم على مزاحه الرائع، وخياله الجامح، وأنهم تأكدوا بعد ما حكاه من أن لا صحة لما قيل عنه، من كسل وعدم سعي تجاه أحلامه، فإذا كان كسله يساعده على خلق كل تلك القصص، فالمجد للكسل يا عم آدم.

تفرقوا عنه، وذهب كل واحد لبيادر عمله، ونسوا أمر بكار والأصوات، مثنى العم آدم إلى بكار، الجالس بين عرائسه، القاء في أمان الله، الباحث عن سبب ما يمر به، لم يحرك بكار عينه عن عرائسه، يجلس في خضوع صوفي عجيب، بصره إلى الأرض، يبكي في خشوع، بصوت مسموع، يعيد جملة واحدة: "إلى م..

كل هذا يا رب؟ إلى متى كل هذا يا رب؟" ثم نام فوق خشبة المسرح، ودثر جسده بعرائسه التي تُطمئنه بوجودها حوله، والتي يخبرها كل ليلة أنه على أتم الاستعداد ليحكي للناس عنها، بلا أي خوفٍ أو تردد.

رجع العم آدم إلى مكانه، بين العمال، يدهن الخشب باللون المطلوب، يتذكر لما زاره بكار، وحكى له عن ورشة الحاج عبد الفتوي، وكم مرة رجع خائبًا لأن الورشة مغلقة، وكيف دله أهل الخير وقتها إلى دكان العم آدم العجلاقي، الذي كان يعمل بالدهان سابقًا، لخبرته بالدوكو عامةً، وبلون لحم الهوانم خاصةً، رجع العم آدم إلى مكانه، بين العمال وهو يبتسم، لما شاهد منذ قليل، ولغناء الموجودين معه، ولجهلهم بحكايات الخلق والخالق.

سمع العم آدم، في المذيع الذي يقتل الوقت والمثل، الموجود وسط العمال، عن إلقاء القبض على عددٍ من الأدباء، قاموا بثورةٍ ضد سياسة الدولة، لمنع كل ما يسيء إلى مدينتهم الفاضلة، ولا يمنعهم من دخول الجنة، وقد ندد المواطنون الشرفاء بضرورة التعامل بقسوة مع كل شخص يريد الأذى لغيره، وأضاف مواطنٌ آخر، كان حاضراً يشاهد التظاهرة، أن هؤلاء الذين يدعون أنفسهم أدباءً، كانوا -والعياذ بالله- يطلبون من الدولة عدم حرق الكتب المُفسدة، ومن الواضح أنهم يستاقون إلى الجحيم والعياذ بالله، أما عن مصيرهم، فقد أكدت مصادرٌ داخل سفارة الثقافة رقي التعامل مع المقبوض عليهم، فلا مزيد من العنف أو التعذيب.

ثم سمع الجملة التي تهز كيانه أي شخص مهما كانت ثقته أو هيئته: "السادة المواطنون، إليكم هذا الخبر العاجل.."

العامّة القيامة

شهرٌ كاملٌ، والناس في كل مكانٍ يسجدون ويصلون للإله، لا يفارق الرجل بيته إلا ليحضر ما يعين على الحياة، ثم يرجع إلى العبادة والصلاة، وإلى الكلمة الطيبة مع أهل بيته، وجاره وزملاء العمل وأخته وأخيه.. توقفت الحياة على نحو تام، بعدما عرفَ الناس خبراً، جعل الشاب كهلاً، والطفل شاباً، والبنات عجوزاً، فقد أذيعَ في كل وسائل الإعلام أن الثالث من أبريل هو اليوم الأخير في كتب الجميع، وهذا يعني -دون أي وجود لاحتمالاتٍ أخرى- أنه يوم القيامة، ولقد منَّ الله عليهم بفترة، ليرجع الجاحد والناقم إلى ظل الإيمان والدين، ولتصير المدينة مكاناً مقدساً، الكل يتعبد، الكل يقول نفسي نفسي، الرجل لا يعنيه هل يتعبد ابنه أم لا، الجار لا يهتم هل دينه هو الصحيح أم لا.

توقفت الحياة بشكلٍ غير معقول، فتجد الطبيب لا يخرج من داره، ولا يحركه صراخُ الطارقين على بابه، يقول لهم: "ابتعدوا عني! القيامة يا بشر! ماذا سيفيدني علاجكم!" يموت الطفل من الحسبة، والرجل من نزيفٍ إثر حادثة، والمرأة من آلام الولادة،

والعجوز من فشلها الكلوي، والأطباء في بيوتهم، كل واحدٍ قاعدٌ على المُصلية، يقوم من عليها في حالة دخوله الحمام، أو يلتقط لقيماتٍ تساعد على استمرار الحياة، فيسجد ويركع ويسبح ويستغفر، ويرنم ويطلب المباركة، ويقرأ القرآن والإنجيل، ويطلب من ربه العونَ، ولا يأبه لطالبي العون منه.

منذ عرف الناس بالأمر، وصار الشخص الذي يطالب بحقٍ من حقوقه مجنونًا كافرًا يستحق الموت، فكيف لرجلٍ عديم الذوق والفكر أن يذهبَ إلى مصلحةٍ حكومية لیسأل عن راتبه؟ أو كيف تذهب عجوزٌ ساذجة، أصابها الخرف وقلّة الحكمة، إلى صيدليةٍ طلبًا للدواء؟ الردود جاهزة في كل مكانٍ باختلاف مجاله: "ماذا سيفيدك ذلك؟ اذهب إلى بيتك، واطلب من الله الصّح والعُفْران ودخول الجنة!"

امتلات الجوامع والكنائس ودور العبادة عامّةً، لا مجال لتفويت الفرض، لا عذر إذا فاتك القداس، تسمع خناقات أمام صناديق الزكاة، سأ تبرع ولن يمنعني أحدٌ، أفعال الخير تضاعف عما سبق بأكثر من الكثير، رفضَ الناس الأموال القليلة، لن يدخل مليمٌ واحدٌ لجيوبهم، وهبوا كل شيءٍ لله، فلا يتعجب المار إذا ما رأى برجًا من الأموال ولا يقربه نفرٌ.

نسي الناس تقسيمة الأسبوع، قالوها صراحةً: لن نزور يتيماً ولا مُسنّاً، لن نزوِّج أحدًا، لن نستمع إلى الجار المسيحي أو المسلم، فلتذهب كل الأعمال الإنسانية إلى طاعونٍ يقتلها، المهم

هي العبادة وضمان دخول الجنة، وما غير ذلك فلا يهمنا ولا
يعنيننا!

حاولت مجموعة من الناس الذهاب إلى السعودية لتعتمر،
ويزيح الواحد منهم عن نفسه جبل الذنوب، أو إلى القدس
كمسيحيين، وذهبوا إلى شركات السياحة، فوجدوا كل الرحلات
ملغاة بأمر من الأراضي السعودية، نظرًا إلى أن الأمر صار مصيبةً
عامةً في كل الدول وليس في مصر فقط، وحين حاولوا تنظيم
مظاهرة، واللجوء إلى العنف، وقف لهم جنود الأمن والجيش،
وهددوا بقتلهم إذا لم يتراجعوا وحالاً، وذكروهم باعتناق الفقر،
هو الذي سيضمن لهم الجنة، ما دام باب الكعبة مغلقاً في
وجوههم حالياً.

صار الفقر دينهم، والرضا بالاشيء مذهبهم، ضرب المدينة
مرضٌ مُستحدثٌ اسمه "رهاب الذنب"، قد يقتل شخصٌ فاعل
الذنب، ويقول للناس علانيةً: "سندخل النار إذا ما سكتنا على
معصيته!" والغريب في أمرهم أنه قد يُقتل شخصٌ، ثم يسجد،
القائل بعدها ليكمل عبادته، ولو حاول واحدٌ تذكيرهم بمقول،
نفسي نفسي، قالوا في صيحةٍ واحدة: "نفسي نفسي مبدأ عام،
والقضاء على من يريدون الأذية لنا مبدأ خاص!"

وهو ما فعله سكان المدينة حين تناقلت وسائل الإعلام
والأخبار خبر إلقاء القبض على الأدباء، لنشرهم للرديل،
ولدفاعهم عن الذنوب وقلة الأدب والسفالة، وبعد معرفة
القيامة، تذكر شخصٌ هؤلاء الأدباء، فنزل إلى الشارع وصام

"أنا ذاهبٌ للقضاء على معصية كبيرة! من لها؟ من معي؟" وقتها نزل كل شخص سمع صوته، فصار الفرد جماعةً، مشوا في تظاهرة تُشبه الإعمار، كلما مرّت من أمام مبنى، قالوا في صوتٍ واحد: "نحن ذاهبون للقضاء على معصية كبيرة! من لها؟ من معنا؟" فيسمعهم الجالسون في أماكنهم، وينضمون إليهم في الحال، حتى صار العدد لا يُحصى، ولا يلمح الناظر إليهم نهايةً المسيرة.

وصلوا إلى قسم مدينة نصر، الموجود بداخل حجزه الأدباء، تعجبوا حين وجدوا حارسًا واحدًا فقط، يجلس أمام البناية أرضًا، بجانبه المصليّة وزجاجة ماء ورغيف خبز، دُهِشَ لمنظرهم، ووقف في الحال مُستفسرًا عن سبب زيارتهم، فقال له شابٌ: "ماذا تفعل هنا؟ لماذا تحرس المذنبين الداعين إلى الرذيلة؟" ليجيبهم بأنه منذ حدث ما حدث، وهو لم يستطع الرجوع إلى منزله ببلدته البعيدة، فلا وجود للمواصلات، ولا لأشخاص قد يساعدونه، وهو لا يعرف كيف يقود سيارة، أو دراجة بخارية، ففضّل البقاء، يأكل ما تيسر من خزين السجن، وينام في مكتبه، ويراقب المذنبين بالداخل، فلا يخرج أحدهم ويُكمل دعوته إلى الفساد! ولما بادلهم الحارس السؤال ذاته، قالوا له بصيحةٍ ترج الأرض عن سبب مجيئهم، فلم يمنعهم ولن يستطيع، ففتحَ لهم الزنزانة في رضا تام.

في موقفٍ، كالذي يتعرض له الأدباء الآن، الاستسلام التام هو الحل الأمثل، فالمقاومة لن تفلح نهائيًا، وفعل المقاومة ذاته سيستفز القادمين، ذلك لأنهم -طبقًا لما يؤمنون به في هذه

اللحظة- أصحاب الصواب، والداعون إلى الخير والفضيلة، مبدأ مسيرتهم: "الموت لمن يقاوم عموم الخير، والحياة لمن يوافق على قضيتهم"، وهو ما لم يفعله معظم الأدباء، لأن ببساطة بدأتِ المواجهة بسؤالٍ من الشخص الذي جمع الناس: "نحن هنا للقضاء عليكم، إذا ما لم يقوم سلوككم السجن، ولأننا لا نبحث عن إضاعة الوقت، فكل ثانية محسوبة، نريد إجابة واحدة صادقة، من منكم ما زال مؤمناً بعدم حرق الكتب الكافرة؟"

شخص واحد فقط رفع يديه بفطرة صادقة، وكرد فعل لسؤالٍ صدرَ من نفرٍ يراه جاهلاً، شخص واحد فقط، قالها بعلو صوته: "أنا! أنا لن أحرق كتاباً واحداً! فلتذهب قيمكم إلى مزبلة التاريخ! لن نجد هذا الجمال مجدداً يا مجانين! اسمعوني بالله عليكم!" وكانت كلمة "أنا" هي الشرارة التي لمسَتْ وقودَ حماسيتهم، وليتأكد السائل من العدد، نظرَ إلى بقية الأدباء، وسألهم عن موقفهم، فأجمعوا على رفضهم لبقاء الكتب، فأخبرتهم والعمل الصالح هما الباقيان، وأقسموا على ما يقولونه، لدرجة أن أحدهم أخرج صليبا، وقال: "والمسيح الحي، أنا كرهتُ الكتب والنشر، أريد أن أذهبَ إلى بيتي، أصلي بين عائلتي، وأموتَ بينهم، الله يلعن دانتلي والكوميديا الإلهية وأي كتابٍ مخالفٍ!"

وليتأكد الحشدُ من صدق نوايا الأدباء، طلبوا منهم ضرب الناشر المنبوذ، ورجمه حد الموت، بالخارج أمام الناس، ليكون عبرةً لهم، وليتعض من في نفسه ذرةً من كبرٍ، وبمجرد أن رفض

الناشر المنبوذ، لم يفهم ما الذي يحدث، ركلاتٌ من كل ناحية،
 سلعاتٌ عشوائية تُصيب بالدوار والألم، دم ينفجر من فمه،
 ملهنة عينه اليسرى أمامه على الأرض، يعجز عن الصراخ من
 كثرة الملتفين حوله، سيصرخ لمن؟ سيستنجد بمن؟ الموجودون
 لهم ضده، شعر بلكمة بين خصيتيه، وقع أرضاً، لم يتوقف
 الضرب، ركلاتٌ في وجهه وصدره وذراعه، مزق شخصٌ ملابسه،
 شعر برجلٍ يسحبه إلى الخارج، يصرخ فيهم: "دعوه لي!
 سأسحبه إلى الخارج، ثم أربطه في عمودٍ ليموت من حرارة
 الشمس وانعدام الأكل والشرب!" ضربه شخصٌ آخر بعصا فوق
 رأسه، ويصرخ أنه سيقتله وسيأخذ الثواب، سرق الناشر المنبوذ
 نظرةً بين الوجوه، يبحث عن صديق عمره في مهنة النشر،
 ربما ينقذه، فيجده بينهم، يضرب معهم، وينصحهم بالخروج
 إلى مساحةٍ أكبر، فتصبح المسألة أسرع وأسهل!

حدث الناشر نفسه: "هل كنتُ مخطئاً، حين قلتُ لا في
 وجه من قالوا نعم يا أمل يا دنقل؟ هل كنتُ شخصاً غيباً
 حين حاولتُ الدفاع عن شيءٍ أحبه، من جهلٍ عصبيةٍ تتحكم
 لنا يا ألبير يا قصيري؟ هل أنا الآن مُغفلٌ مُغلفٌ بمشاعر
 غبية يا عم خيرى يا شلبي؟ هل لأنني لا أملك سلاحاً، أستحق
 الموتُ بأفكاري يا غسان يا كنفاني؟ انظروا يا من سبقتمونا،
 انظروا إليّ، أنا تحت أقدام الناشرين والناس، الذين قال كل
 واحدٍ فيهم إنه يكتب للناس، وها أنا، يدوس الناشر على
 وجهي، يصفعني الناس ويصق عليّ قارئ، أقول لنفسي لو كان
 بهم قارئ على حق، لكان حاول خداعهم، ولكن ما فائدة

القراءة في زمنٍ يحكمه الخوف، ما فائدة القراءة في زمنٍ يقول لك شاب يملك سيارةً ومنزلين وأموالاً طائلة، دعك من القراءة وقُمْ صلِّ للرحمن ليهديك إلى طريقه المُستقيم، كأن الكتب هي الطريق المعوج! ما فائدة القراءة في زمنٍ، قد يدفع شخصٌ كل ما يملكه، في ملابسٍ وسياراتٍ وتفاهاتٍ، ولا يدفع جنيهاً في كتابٍ، ويضحك ويسخر ممن يؤسس مكتبةً بمنزله". وقبل أن يكمل حديثه مع ذاته، ضُربَ بعصا من الحديد، فيمشي دُمُه وسؤالُ مهمٍّ أمامه: "هل يخاف الدينُ من الكتاب؟"

العامّة رُسل الخير

منذ انتشار خبر القيامة، والناسُ في البلادِ عبَادَ صالحون، لا يخرج العيبُ منهم، ولن تجد فتنةً تسير مختالةً، الرجال يتعبدون، المرأة تطيع الرجل وتتعبد، الأبناء تحت أقدام أبويهم، يتعبدون ويطلبون منهم الصفحَ عن أي حماقةٍ أو طيشٍ شباب، التاجر يطرُق كل باب، ويرجو صاحب البيت، سواء ابتاع منه أم لا، أن يسامحه عن أي ظلمٍ أو جورٍ، في الحساب أو المعروضات، صاحبُ العمل يزور الموظفين يومياً، يقبل أياديهم طالباً المغفرة، عن كل يومٍ كان ظالماً، بسبب فتنة المال والتحكم والسلطة، كل شخصٍ في المدينة، كان يملك مقومات النجاح، بالسلامة غير المشروعة، والحصول على ما ليس من حقه، وقتل أعلام

الأخرين، السخرية من أيام الناس الصعبة، الخوض في أعراض النساء، واستخدامهن لأغراض دينية، في مختلف الأعمار، بدايةً من المرحلة الطفولية الظاهرة، وصولاً إلى أكثر النساء إثارةً، في الشكل والجسد وفنون المداعبة، والتميز الحقيقي في السرير، كل شخص منهم، وكل أنثى لم ترفض، كلهم بكوا دماءً، وذاب السجاد أسفلهم من فرط العويل والسجود، كل شخص في المدينة جاءته الفرصة ليصبح إنساناً أفضل، إلا الفصيل المكروه بين الناس، وفي كل الأزمنة، وعلى مر العصور، الشرطة!

ولتفسير الغامض في الجملة السابقة، الخاصة بالكراهية تجاه الشرطة، سنعرض اجتماعاً طارئاً، من داخل غرفة العمليات بالقصر الرئاسي، فمنذ إعلام الشعب بالموقف، والتأكد من أنه يوم القيامة، وليس منة من الله على الناس لمعرفة الغيب فقط، شغل بال صاحب الأمر ورئيس البلاد أمران بالتمام والكمال، كيف يحقق العدل في الفترة المتبقية؟ ومن الذي أجبر الجميع على الاعتراف بأنه يوم القيامة! طلب صاحب الأمر اجتماعاً فورياً مع قيادات الدولة، ورجال الدين، والسفراء - الوزراء سابقاً - لمعرفة الخطوات التالية، وكانت الكلمة الأولى له، حين وصل الجميع واستقروا في أماكنهم: "القيامة!" ثم أمر كل رجل أن يختار أهله بغيبه لمدة، مع ضرورة تحضير ما يحتاج إليه، لإقامته في القصر الرئاسي، قد تطول وقد تنتهي في غضون ساعات، المهم هو الوصول لما يُفقد في المرحلة المقبلة، فلا مغادرة لمُحيط القصر دون ترك صك خروجهم منه، مع

الاستفادة من كل الاقتراحات المقدمة، عن طريق خطوط المواطنين.

البداية كانت لرجال الدين، بعدما قالها لهم صراحة: "مشكلاتكم لا علاقة لي بها، أي دين أحق بالاتباع، من على صواب، ومن يحبه الله، كل هذا آخر همي! ما أريده منكم حل واضح قاطع لا رجعة فيه!" ولأن أكثرهم مُشتتون، عرض أقلهم قلقًا ما أجبر الجميع على التصفيق له، فقد قال المتحدث باسم الأزهر: "كحاكم للبلاد ما تريده حاليًا هو وجود أشخاص، يقف الواحد منهم في كل منطقة، يُراقب الناس، ويتأكد من إيمانهم الخالص، وعدم قيامهم بأي معصية، فكما تعلم يا سيدي، كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، ولأن الشعب طفل والرئيس أبوه، فهؤلاء الرجال ستكون مهمتهم هي الأصعب، الحفاظ على الخير في كل مكان، وسأترك أمرَ تسميتهم لك يا سيدي طبعًا"، ليقوم قسٌ من مكانه في الحال: "رُسل الخير يا صاحب الأمر! الرجل قال كلمة الخير، ولنتأكد من أن الناس لن يرفضوا أي مُسمى، مثل الشرطة أو النجدة أو الطوارئ، فالاسم الأمثل هو رُسل الخير! واسمح لي يا صاحب الأمر أن أضيف شيئًا قد يفيد، لن يقدر رُسل الخير لوحدهم على القيام بهذه الوظيفة، لذلك على عساكر الأمن المركزي تحويل اسمهم إل حُرّاس الخير، ويكونوا رهن إشارة الأكثر خبرة في تعميم الخير والقضاء على الشر والذنوب! ينتشر الرسل والحُرّاس في مختلف المحافظات طبعًا! إلا إذا كان لسيادتكم رأي مختلف، في وجوب الرسل داخل القاهرة فقط!"

بمكالمة واحدة من سفير الداخلية لرجاله في السفارة، بإيصال الأمر حالاً إلى أقدم الرجال خبرةً، وضرورة مجيئهم في الحال إلى القصر الرئاسي، ثم مكالمة أخرى لكل وسائل الإعلام الموجودة تحت رهن إشارة الدولة، بأنه من اليوم سيرى الناس في الشوارع، وفي مختلف المحافظات، رُسل الخير، مع عرض كل مهامهم، وضرورة الانصياع لأوامرهم، فهم رجالٌ مُباركون، يقومون بعملٍ مُبارك، فيضمن الناس دخول الجنة أو الملكوت. ثم توالى الاقتراحات كلها، مع التأكيد على حرق الكتب المخالفة، توقف دور النشر الخاصة، تغيير لقب الوزير إلى سفير، تغيير لقب الرئيس إلى "صاحب الأمر"، فكلمة "صاحب" ستعجب الناس، وسيشعر كل شخص منهم بأن الرئيس صديقه وصاحبه، وإضافة كلمة "الأمر" ستجعل العلاقة رسميةً إلى حد ما، فلا ينسى شخصٌ مقام الرئيس!

وقف سفير الثقافة، بعدما شعر بغيرةٍ من اقتراح الشيخ، ومدى رضا صاحب الأمر عنه: "اسمح لي يا صاحب الأمر بعرض اقتراحٍ قد يكون جريئاً، ولكنه إضافة هائلة إلى سجل سيادتكم في نشر العدل! مع حرق الكتب في مختلف المكتبات، لا مفر من حرق ما تحويه مكتبة الإسكندرية! كما تعلم يا صاحب الأمر، كل الرذائل والصور والموبقات، كل الأمور التي تُغضب الرب، موجودة بهذه المكتبة، وحتى لا يظن أحدكم بأن الناشرين مثلاً أو المهتمين بالثقافة قد يثوروا، وصلتني أخبارٌ لفيد بقتل ناشر على يد الناشرين أنفسهم! العمل الصالح يا صاحب الأمر هو المطلوب حالياً وليس الكتب أو الثقافة!"

لما وصل الرجال الأكثر خبرة، وبعد معرفتهم بأمر توليهم وظيفة الخير، وأن أقدمهم جميعًا صار لقبه "الرسول الأكبر"، وهو المسؤول أمام صاحب الأمر، والسفير العام، وقبل مغادرتهم، كلف سفير الثقافة، بأمر من الرئيس، الرسول الأكبر بمهمة حرق كل ما تحويه مكتبة الإسكندرية من كتب تحت على الرذيلة والفجور، ويمكنه استخدام أي عدد من الحُرّاس، المهم أن تختفي تمامًا محتويات مكتبة الإسكندرية وحالاً!

ولم ينتظر الرسول المكلف كثيرًا، خرج إلى سيارته، وفي أثناء قيادته من القاهرة إلى الإسكندرية، وبقليل من الاتصالات لشبكة علاقاته اللانهائية، كان قد جهز ما يلزمه ليقوم الحرب على بلدة صغيرة وليس لحرق كتب! ولأن الناس في بيوتهم للعبادة، ولطلب المغفرة والصفح من الرب، لم يعترض طريقه إلى دخول المكتبة إلا حارسٌ عجوزٌ، جالسٌ بمكانه وأقسم على عدم المغادرة، وأنه بحفاظه على العمل سيعرف الرب كيف كان مُخلصًا، فيحاسبه حسابًا يسيرًا، ولكنه لما رأى أعداد الحُرّاس، وجركن الجاز مع كل رجل منهم، وقف مُدافعًا عن الصرح العظيم، وقال لهم: "إلى أين؟" وكان آخر ما قاله، بعدما ضربوه وسحلوه معهم، بأمر من الرسول الأكبر، إلى أن وصلوا إلى منتصف المكتبة، ما بين الأدوار العلوية والسفلية، فأمر الحُرّاس بإحضار كل الكتب هنا، مهما كانت لغتها، مهما كان ما تحويه، مهما كان شكلها، وإحراقها بصحبة هذا العجوز، الذي وقف حائلًا بينهم وبين تحقيق الخير.

جاء حارس مسكين إلى الرسول الأكبر، وقال له مرتجفاً: "هذه كتب تتناول حياة الصحابة والرسول، والشخصيات الدينية عامة، قد تحوي بداخلها مثلاً.." لم يكمل الجملة بعدما صفعه الرسول الأكبر، وقالها بصوتٍ جليجل داخل صرح المكتبة العظيمة: "كل الكتب تُحرق! وقبلها ابن الوسخة هذا! لماذا يجب أن أعيد كلامي يا أولاد الشرموطة؟"

المنظر كان مهيباً، النار في المنتصف، تأكل المجلدات والمخطوطات النادرة، والكتب المترجمة، كتب الفن والموسيقى، روائع الأدب، رسائل أصلية بخط كاتبها، الكتب المطبوعة بطريقة برايل، كتب الطب والهندسة والعمارة والزخرفة، كتب اللغات، كل الكتب والتماثيل الصغيرة، واللوحات والأسطوانات، شعر الحُرّاس بوجود أرواح المؤلفين والفلاسفة داخل ألهبه النار، خُيِّل إليهم أن الإسكندر الأكبر يبكي بحرقه على ما بناه، كل كاتب كان يحاول اللحاق بكتبه، يحاول إطفاء النار ولكن بلا فائدة، كل ملحن يركض ليلحق أعماله، كل رسام يتأمل ألوانه وهي تحترق، رأوا العلماء الذين تعبوا لسنين طوال، وكيف ضاع مجهودهم سدى بسبب اقتراح ضعيف يدل على غباء الإنسان وضيق حدود فكره للوصول إلى مبتغاه، سمعوا هيباتيا وهي تعزف على قيثارة باسم الحُب، وتطلب من النجوم أن تصنع لها جسراً، فتعبره هي وأصدقاء المحنة إلى عالم لا يعرف جهل الإنسان.

ومع آخر ورقة غادرت روحها حرقاً، ومع آخر دمعة لكاتبٍ لسيه التاريخ البشري بهذه الفعلة، تحدث الرسول الأكبر في

الاسلكي، وأمر بفعل المثل مع المكتبات الصغيرة والكبيرة والعامّة، ولما سأله الشخص على الجانب الآخر عن المكتبات الخاصّة بالمجلس الأعلى للثقافة، خاصّةً أنّها تابعة للحكومة، قال الرسول الأكبر: "كل مكتبة على وجه الأرض في بلدنا العظيم لا أريد رؤيتها! أريدها محرقة عظيمة!"

أما ما يخصّ العثور على المتسبب في معرفة الناس بالأمر، وكيف أن الإذاعة والإعلام أذاعا خبراً كهذا دون الرجوع إلى صاحب الأمر، فبات الأمر مجهولاً إلى الآن، وإلى التحقيقات التي تولّاها صاحب الأمر بنفسه بعدما قتل كل من مرر القرار دون اللجوء إلى الجهات المختصة، ولم يراعِ حتى تبرير المذيع حين قال: "إنّها القيامة! أحسب أحدكم أننا سننتظر أوامرهم لنعلنها للناس! إنه شعورٌ أكبر وأقدس من الخوف منكم!"

ولأنّ الناس في وإدٍ آخر، مشى حُرّاسٌ في مختلف محافظات البلد يأمرّون الناس بفتح التلفاز، والتوقف عن العبادة قليلاً، لأنّ خبراً مهماً ستمّ إذاعته، وتجب عليهم معرفته، وبعدها يعودون إلى ما يفعلونه!

تمّ الإعلان في كل الوسائل عن رسل الخير، وعن حُرّاسهم، وعن وجوب طاعتهم، وعن إعطاء كل الصلاحيات لرسول الخير، فهو الوحيد الذي قد يعدم شخصاً في الحال إذا ما خالف، الأوامر، أو رآه وهو يقدّم على ذنب، وله مطلق الحرية في إعدامه أو سجنه إذا أراد، المهم هو التبجيل العظيم لرسا.

الخير، ومُساعدتهم في أداء دورهم على أكمل وجه، والبُعد عن الملذات والمعاصي، وحب الخير والعمل الصالح.

عامل الفخار

في غيبوبته، في عدم إدراكه لما يحدث بالخارج، في تفاصيل عالم مُبهم، بدقات قلبٍ متردد، وبإيمانٍ قوي يحارب غواية أقوى، عاش فيليب مع يهوذا، كلاهما يعرض وجهة نظره، بما هو متاحٌ لهما، فالكلام عقيدة يهوذا، والرفض مع الصمت إيمان فيليب، خاصةً أن يهوذا بدأ في عرض شروء أفكاره، بحججٍ راسخة، قد تضع نبياً في حيرة، فيصدقّه وينكر نبوته، وهذا ما كرهه دومًا المسيح في يهوذا الإسخريوطي، الرجل الذي حارب ابن الإنسان في لحظةٍ ضعيفٍ، واستمر في حربه ضده حتى وهو رَوْحٌ هائمة، لا تعرف مكانها أو مصيرها.

في غيبوبته، وفي عدم إدراكه لما يحدث بالخارج، عرض يهوذا على فيليب أن يُريه بنفسه كيف صار العالم في أثناء غيابه، وبعدها سيناقشه في ما يختاره، وافق فيليب، الذي يتحكم يهوذا في ما يراه، من اليوم الأول لتعارفهما.

مشى فيليب بصحبة يهوذا في ممرٍ طويلٍ من جثامين، على مينه ويساره، كلها لأطفالٍ بمختلف أعمارهم، فتح يهوذا بابًا من العدم، ليجد فيليب مساحةً يعرفها وتعرفه، الصحراء التي نكره الحياة، وفي المنتصف رجلٌ وحيد يصرخ، يركض في كل

الاتجاهات، يتحول إلى أشكالٍ غريبة، ثم يعود إلى هيئته، ركض فيليب تجاهه لينقذه، ليتفاجأ بالمسيح، يمشي تارةً على يديه، وقدماه مكان رأسه تارةً أخرى.

لم يُصدق فيليب لما صار المسيح رأسًا فقط يخرج منه جناحان، ثم صار جسدًا دون أطرافٍ ورأسه من زجاج، فثعبان برأس المسيح، ثم جسد إنسانٍ ورأس دجاجة يُشبه المسيح. عجز فيليب عن تفسير الموقف، يبكي لمدى معاناة المسيح وآلامه، قال له يهوذا: "هذا ما حدث بالخارج يا فيليب، لقد صعد كل البشر إلى السماء كآلهة، وصار المسيح هو البشري الوحيد، تخيل يا فيليب؟ ثمانية مليارات إله! البشر كلهم صاروا آلهة! يتحكمون في المسيح، كل واحدٍ يُشكله كما يشاء، كل واحدٍ يُهيئته ويُحييه، أمرٌ عجيبٌ يا فيليب! المسيح الآن في قبضة البشر؟ الخالق يتحكم فيه المخلوق؟ ما رأيك يا فيليب؟ مسيحك ضعيفٌ، صُلب من أجلهم، وها هو مجددًا يُقتل ويُصلب، أي مجدٍ تراه فيه يا فيليب؟ إلهٌ ضعيفٌ؟"

حاول فيليب ضربَ يهوذا، الصوتُ لا يسعفه ليسبهه، فركض ناحيته ليركله وفشل، أو ليلكمه وفشل، لا يبذل يهوذا أي مجهودٍ، يتابع غضب فيليب بهرج، يضحك عليه، ثم يلتفت إلى المسيح الذي يُعذبه البشر، فيضحك أكثر، ليشاهد فيليب المسكين، المؤمن المُخلص، عاشق إلهه، كلما حاول مُساعدة المسيح، فيطير إلى الخلف، تحت قدمي يهوذا بالضبط، ليقوم فيليب بمحاولة ضربه من جديد، ويفشل بكل بساطة، ويُعدّ الأمر في خفية ولطافة، إلهٌ يُعذّب، مسيحي ضعيف، يطير

الهواء، يركل، يحاول، يفشل، يبكي، يطير في الهواء، يركل، يفشل، يبكي، وهكذا.

رمى فيليب حجراً صغيراً، أصاب يهوذا بضحكةٍ رنانة، فقال له في وداعةٍ بالغة اللطف: "تعال يا فيليب، سأفسر لك أكاذيبَ المسيح، فقد كنتُ مثلك تماماً، أحبه وأراه مُعلّمي وأستاذي، أنا أعرف شعورك هذا، ولكن ما قولك يا فيليب في هدم بعض معتقداتِكَ؟ كمثالٍ بسيط، ما قولك في أن الثالوث المُقدس، الأب والابن والروح القدس، تعرفهم بالطبع؟ أم تريدني أن أحدثك بآيات الإنجيل؟ فليكن، فإن الذين يشهدون في السماء هم ثلاثة: الأب والابن والروح القدس، وهؤلاء الثلاثة هم واحد، هذا المبدأ، أساس الإيمان المسيحي العظيم يا فيليب، عن طريق معرفتي التي بنيتها منذ موتي، عرفتُ أنها كانت موجودةً في دياناتٍ أخرى، مثلاً الديانة الهندوسية، تضمن الثالوث فيها: براهما "الخالق"، فيشنو "الحافظ"، شيفا "المُدمر"، وتقول المعتقدات الهندوسية إن العالم متوازن بتناسق تصرفاتهم في الآن ذاته! تخيل يا فيليب؟ سأقول لك الأقدم من ذلك، الثالوث مثلاً كان في الديانة الفرعونية القديمة؟ الموضوع متكرر بشكلٍ وقح يا فيليب! ودياناتٌ أخرى تحمل المبدأ ذاته، إذًا لماذا التكرار؟ وتعدد الديانات؟ إذا كانت المعجزات والمعتقدات والقصص متشابهة؟

من تعبيرات وجهك أشعرُ أنك لا تصدقني، سأثبتُ لك ما أهوله، طبعاً أنت تعرف قصة ميلاد المسيح من العذراء المباركة، هل فكرتَ مرةً في مدى تشابهها وقصة ميلاد النبي زرادشت؟

النبي الذي وُلد لأُم عذراء تُدعى دوغودوفا، بعدما رأت شعاعاً من الضوء يقترب منها ثم ضربها، وهو الشعاع الذي أرسله الإله أهورا مازدا! يا فيليب تكرر القصاص والمعجزات، ألا يصيبك هذا بنوع من الحيرة؟ حيرة تجعلك تبحث عن الأصل؟ وإذا كان المسيح هو الشخص نفسه باختلاف اسمه في كل ديانة، لماذا يكرر نفسه هكذا؟ أين التجديد؟ أين المعجزات غير المحصورة؟ المعجزات اللانهائية؟

آخر ما سأقوله لك في هذا الأمر، يا فيليب يا صديقي المسكين، هذا المسيح، كتب مُتبعوه أشياء تصمه بالسرقه لا بالالوهية والحكمة! إني بما أقوله أقصد قصة الشهيد الإغريقي أسيلبيوس الشافي، كانت ملهمة على نحو لا يُصدق، ليسوع يا فيليب، ما عُرِفَ عن أسيلبيوس أنه كان قادراً على شفاء أي مرض، بل وكان يقيم الموتى، تخيل! ولكثرة معجزاته وما فعله من خير وشفاء للبشر الضعفاء، ارتقى إلى مرتبة الألوهية، ولكن زيوس قتله حتى لا يتمكن البشر من الحصول على الخلود! فكر في القصة معي، معتقدات قديمة، قصص مكتوبة خيالية، من وعي مفكرين وحالمين وعاشقين لحضارتهم، فنجد أن المسيح يغبطه تلك القدرة، ثم يقوم بها! أي طريقة تفكير تلك؟

فيليب المسكين، عامل الفخار المُخلص الأمين، حاول تشغل دماغك يا صديقي، هذا الرجل الذي تحبه، ثبت في الخطوة يخطوها أنه وصل إلى ما وصل إليه، إما بالصدفة، إما بشراء كاتب التاريخ لي جعلوه هكذا! وقبل أن تتهمني بالعم

وهمدى كراهيتي ليسوع، أنا كنتُ من ضمن حواريه في يوم
يا فيليب، وتعلمتُ على يديه، ولم أَسرق مجدداً من صندوق
المال، منذ ضمني إليه.

بالمناسبة يا فيليب، لقد نسيْتُ أن أقولَ لك إنك متى
فكرتُ في شيء، بزغ في عقلي أنا أيضاً، وذلك لأنه عالمُكَ للأسف،
إذا لأجيبك على ما تفكر فيه، "هل حقاً هكذا تفكر في الأمر؟"
تريدني أن أوجه كراهيتي تجاه كاتبِ الأناجيل؟ هم من فعلوا
هذا كله؟ والمسيح ليست له علاقة؟ هم من محووني من
فصص الإنجيل؟ هم من أوصوا بقتل إنجيلي الخاص؟ هَتَم من
كتبوا قصصاً زوراً كاذبةً تُشبه القصص والأساطير المعروفة؟ كل
ما حكيته لك عن ظلم المسيح لي، تخبرني الآن بتصحيح مسار
كراهيتي؟ يا فيليب، أنت لا تستحق شرفَ الحديث معي!

أنت لا تستحق شرفَ الاستماع إلى معلومات تعرفها للمرة
الأولى! أنت لا تستحق شرفَ التعلم من أستاذٍ مثلي، أنا يهوذا
الإسخریوطي، الرجل الذي ظلمه التاريخ ولكنه سينصف
نفسه بنفسه! يوماً ما يا فيليب الكلب، يا براز ضفدعة
مُطلقة، سأخرج إلى العالم، سأحكي عن تعمد رجال تشوية
سمعتي، ومحو تاريخي كاملاً، لأنهم لم يجتهدوا مثل يهوذا
الإسخریوطي، لأنهم كانوا مجرد تابعين، لأنهم ضعفاء من
جنس البشر، الجنس الذي يعشق السوطَ والضربَ، ويخاف
من النار والجحيم، ويصبر نفسه الضعيفة بمكانة مميزة
في الملكوت! مع المسيح ذلك أفضل جداً، أليس كذلك؟
من اليوم يا فيليب، وحين تعود إلى عالمك، ستقول لكل شخصٍ

تُقابله، مع يهوذا الإسخريوطي ذلك أفضل جداً! أنا حقيقي يا فيليب، أنا واحدٌ منكم، بينما هو لا نعرف من أين جاء، ولا نعرف كيف جعل الناس كلهم يحبونه هكذا! يا فيليب فكر معي، هذا الرجل مُخادعٌ! ومعجزاته كلها بفعل السحر! ألا تؤمن بالسحر يا فيليب! هذا الرجل ساحرٌ ومخادعٌ! لا يمكن بعد كل ما حكيته أن تظل معتقداً بأنه رجلٌ طيبٌ مؤمنٌ، يحب الخيرَ للجميع!"

ابن طاهرة

تتغير ذائقة الناس تجاه شيء بعينه وفقاً لما يمرون به، من معطيات، فنجد مثلاً أنه إذا كانتِ السمة العامة للبلا هي الثورات والسياسة، سيتهافت القراء على كل كتاب يُشبع جوعهم للمعرفة، فلا تتعجب من الرجل العادي، الذي يسر في الشوارع، ويفكر كيف سيقضي هذا الشهر، دون اللجوء إل الاقتراض، حين صار مفكراً ومُحلاً عظيماً، يتهم الجميع حول، بالغباء، لعجزهم عن تفسير المشهد السياسي كما يراه هو، وذلك بفضل صفحات كتابٍ قضى معه فترة، سربت بداخله فكرةً الأولوية لكل ما ينطق به، لأنه القارئ المثقف، لأ، مصدر الوعي الآن، وسط مجموعة لا تقرأ، تلك هي خدعة الكتب الكبرى، خدعة الارتقاء فوق الفكر العام، خدعة الشعور بالتمايز والتميز، بين جهلاء محيط القارئ، وذلك لأنه قرأ ما، كتاب، ومن حوله قرأ عشرين مثلاً.

في كل مرة صحح وحرر محيي كتابًا، رأى بين كلمات صاحبه العزة والشموخ، التفاخر بالثقافة، النظرة الدونية إلى القارئ، رأى كيف يقتعد الكاتب رأس القراء، يوجههم بفجاجة لفكر بخصه، ويضع كل النظريات المعارضة، كدرج يسلكه الأغبياء! وكم حاول محيي تبسيط الأفكار، وإثراء محتوى الكاتب بما يفيده، ولكن دائمًا ما قوبلت مُباردته بالرفض، وفي بعض الأحيان بمقولةٍ سخيفة، يلوكها كل كاتب متغطرس ضعيف: "وما شأنك يا محيي؟ أنت مُهمُّك مراجعة الأخطاء فقط!" وكان كلما أضاف كلمة "محرر" أيضًا في الحوار، رفض السامع مبدأ وظيفته، وطلب منه إكمال الأمر كمصحح فقط.

تقافزت حياة محيي بين الكتب منذ ظهوره المفاجئ لطاهرة، وحصوله على الوظيفة التي تمنّاها، بعد كل مُضايقةٍ تعرض لها، وبعد حياته المجهولة، التي لم تكن من ضمن أولويات الرب، لعرضه عليه في كتابٍ كما فعل مع الآخرين، ولكنه قاوم بفضل قدرته العجيبة على استنباط مواضع الخطأ في كتابٍ أو قصيدة، على الرغم من إلمامه بكثير من قواعد اللغة، فإنه كان يشعر بالخطأ حتى لو نسي قاعدته اللغوية.. معجزةً ربانيةً طبعًا، ولكنه لم يُفسر الأمر كثيرًا للكتاب المتغطرسين الضعفاء، كانبِ النتيجة هي المطلوبة، فلا يهتم كاتبٌ لمعجزات مصححه، المهم أن يخرج الكتاب من تحت يد محيي بلا أخطاء أو ذنوب.

لم تشغل الأحداث بالخارج بال محيي، لم يشغله اهتمام الناس بالعبادة فقط، ونسي وطلب من بولس، الرجل الذي بدأ محيي في معاملته كصديقه الوحيد، تحديد ميعاد جلسة

مع الأنبا، ليعرض عليه فكرةً ستفيد المسيحية، بصورة ستجعل كل مسيحي، إذا نفذوها، يمدح مجهودَ محيي في ما فعله. وصمم محيي ألا يخبر بولس عن ماهية الدور الذي سيقدم به دينهم، ما عجل بموافقة الأنبا على المقابلة، خاصة أن الطالب بإفادة الديانة المسيحية رجلٌ مُسلم، كما قال محيي عن نفسه.

حدّد المكان والزمان، وجاء الأنبا ورجالٌ يهتمهم الدير وكلمة الرب، وبكلمتين بدأ محيي عرضه: "سأترجم الإنجيل!" كلمتان فقط، جعلتا الأنبا ينظر إلى محيي بعين الغضب، ولما لمَح محيي تلك النظرة، قال كل كلامه مرةً واحدة: "الترجمة العربية مُربكة، غير مُريحة، يجد القارئ صعوبةً في فهم بعض الآيات، عرفتُ من أشخاص مسيحيين أنهم في هذا الموقف، يقرؤون الإنجيل باللغة القبطية، أو الإنجليزية، وذلك لسهولة الألفاظ ووضوح المعنى، الإنجيل أصلاً يا سادة كُتِبَ بالعبري. ومن ترجمه إلى العربية لم يكن ضليعاً بتبسيط الفكرة، اللغة صحيحة طبعاً بالتأكيد، ولكن المعنى؟ ما الذي ستفيده اللغة إذا كان المعنى غائباً؟ ولنتحرى الدقة، أعني إذا كان المعنى صعباً، لأن غائباً تعني عدم الفهم تمامًا، وأنا حين أتحدث عن الترجمة هنا، سأترجم الأناجيل الرسمية المُوافق عليها من قِبل الكنيسة، كل إنجيل بترتيب الآيات ذاته، بالمفهوم نفسه لا غير شيئاً، وأعتقد أن أمرًا كهذا سيحرك عددًا لا بأس به من المتدينين وراغبِي التعرف على الديانة على نحو أكبر، إلى قراءة الإنجيل باللغة الأم. الموضوع صعب، أعرف جيدًا مدى التعقيد،

والقرارات المطلوبة لإبداء الموافقة على التنفيذ، لكن تخيل
معي كيف سيذكرنا التاريخ! الأنبا بطرس ومحيي ابن طاهرة،
الرجلان اللذان محيا الغبار عن آيات الإنجيل!"

خرج بولس بمجرد أن أنهى محيي كلامه، لم يفهم محيي
لماذا تصرف بولس هكذا، ولكنه انتظر رد فعل الأنبا، ابتسم
الأنبا بطرس في وقار، وقال له: "لن أعدك بشيء، بمشيئة الرب
لفكر، وبمشيئة الرب يتم الأمر، سأعرض طلبك على مجلس
كُنسي مهم، وهو بدوره سينصحنا بما نفعل، ونقابل بعد
شهرين يا محيي، وأشكرك نيابةً عن كل مسيحي".

بعدما رجع محيي إلى بيته، وفي أثناء وجوده بين كتبه،
مسح الغبار عن مجموعة الكتب الجديدة التي استطاع
الحصول عليها، والفضل يرجع إلى قائمة الكتب الممنوعة التي
أعطاه إياها السفيران، بعد المُقابلة إياها بالقرب من النيل،
فطلب من بولس صديقه أن يُساعده في تجميع نسخ، من
معظم الكتب، ولن يخبر شخصًا.

بعدما خلع ملابسه، وجلس على سريره، سأل ذاته عن
مدى صعوبة الأمر؟ وهل من الممكن أن يتهمه أحدهم
بالخيانة؟ أو بالتآمر ضد الديانة المسيحية؟ أو بتأكيد إشاعات
لهريف الإنجيل؟ حين فكر في الأمر، كان بسبب صعوبة بعض
الآيات، في المحتوى الذي يدققه لبعض الكتب، ما يضطره إلى
الرجوع إلى النص الأصلي من كتاب العهد الجديد، وعانى كثيرًا
من صدمة عدم الفهم! ذات يوم رأى محيي المسيح في منامه،

يقف أمامه، وكلاهما على جبلٍ عظيم، العالم كله أسفل محيي، فشعر أنه على عرش الرب، تحدث المسيح إليه، بصوتٍ هادئٍ يهدد الروح من متاعبها وارتباكها: "يا شبيهي الطيب، يا ابن الإنسان الحالي، لقد وافقتَ على خوض التجربة، وأنا هو ابن الإنسان، أقولها لك، الحق في ما تعرض ظاهراً، والظلم في ما تريد آتٍ، قد كمل الزمان واقترب ملكوت الله، فمتى يتوب واحدكم ويؤمن بالإنجيل؟ يا ابن الإنسان الحالي، اقرأ عليهم الإنجيل بلسان عصرهم، وقُلْ لهم كيف تعذب ابن الإنسان من أجل خطاياهم!"

ومن وقتها ومحيي يفكر في تفسير لرؤياه، وهل هي رسالة من السماء أم وعيه الباطن يلاعبه، نظراً إلى اقتصار وقته على التدقيق والتصحيح بين الكتب والتعاليم المسيحية، وهو ما ساعد عقله على خلق هذه المقابلة مع المسيح، وكلماته التي لن تتركه لفترة.

ابنة الشوارع

بعد مسيرة ساعة، في شوارع خالية، كخلو حياتها من معظم الأشياء، توقفتُ نعمة، ابنة الشوارع والغضب، أمام المسحاة الجديدة، مسجد العسال بأبي حماد، في ثوقيت صلاة المغرب، تنتظر خروج رجل تظهر عليه علامات الحكمة والتدبير، فيفيدُها في أمرها، ولا ييخل عليها بنصيحةٍ، ربما تُحسن م...

علاقتها بربها والبشر، ولم تتجه نعمة لفعلتها هذه، إلا لما شافَتْ في كتابها أنها ستفعل ذلك.

الجامع لم يشهد منذ الصلاة الأولى له كل هذا الكم من المصلين، والتقوى والبُكاء، والدعوات المسموعة من فرط الخوف ورهبة الإيمان، رجال في كل ركعةٍ تنتحب قلوبهم، وريثُما انتهى الإمام، وبدأ المصلون في الخروج، حاولتُ نعمة التعرفَ على وجه الرجل المرسوم في كتابها، الذي لا تظهر عليه أمارات الإمامة، الحشد يتناقص، وربما يكون الرجل قد غادر في البداية ولم تلحظه.

سمعت اسمها، ينادي به شابٌ بسيط، يقف بجانب دراجته، يتأمل ملامحها من بعيد، متوسط الطول والوسامة، بشرته قمحية، شعره أسود قصير، لا شارب ولا لحية، تحسبه من الرفع مريضاً، طبقاً للوصف الدارج في المجتمع، هيكَل عظمي متحرك، لم تتعرف عليه نهائياً، لم تلمحه في أي مكان ذهبت إليه من قبل، أشار إلى آخر الشارع، وتحرك دون أن يركب الدراجة، فتحت الكيس البلاستيكي الأزرق، ومدت يمينها بحثاً عن السكين، تحسباً لأي أمرٍ قد يحدث، مشت خلفه، إلى أن رآته يسند الدراجة إلى جدار بناية، ويدخل في ثقةٍ وهدوء، تبعته إلى حيث اختفى، لتجده ينتظرها أمام بابٍ صغيرٍ لمساحةٍ أصغر، تُعرف بغرفة البواب، قالت في حدةٍ واضحة: "هل مزاجُك يسمح لهذا الآن؟ عامة كل شيءٍ بئس منه!" هحك الشاب وطلب منها الدخول، وسيقول لها ما يريد.

ولن يختلفا في الثمن أساسًا، وأن الحديث سيكون أكثر هدوءًا ولطفًا، إذا تكررمت وتركت السكين.

"أعتذر عن سوء حالة الغرفة، وعن وجود الزبالة في كل مكان، ما سأقوله قد يكون غريبًا، ولكن هذا المكتوب عندي، أنا أقابلُك، وأخبرُك بقصتي، ثم ما يخصك، ونفترق بعدها! عامَّةً، اسمي سفرائيل، رسولٌ من رسل الموت، وكنتُ خادمًا لملك الموت، أقبضُ معه الأرواح بأمر الله، كنتُ من المُقربين إلى الملائكة العظماء، ولكنني اقترفت ذنبن، فطُرِدْتُ بلا رجعة، الأول أنني سألتُ لماذا لا يضحك ميكائيل منذ خُلِقَت النار، والثاني أنني تعاطفتُ مع إبليس حين طُرِدَ من الجنة. وقفتُ أمام ملك الموت محاولاً تفسير شعوري، وبالطبع فشلتُ، فالملائكة لا تشعر ولا تأكل ولا تشرب، لا تسأل ولا تتعجب، تتعبد فقط وتسبح بحمد خالقها. إضافة إلى قبض الأرواح في حالتني.. حاول ملك الموت مع الله، وكل محاولاتِه باءت بالفشل. سمعْتُها تزلزل السماوات والأرض، سمعتُ صوتَ الله وهو يأمر بطردِي، وبوضع غضب الكون كله في قلبي، إلى يوم الدين، رماي بنفسه ملك الموت إلى الأرض، بعدما قطع جناحيّ، وجعلني على هيئة بشري ضعيف، لا يتناسب مع كم الغضب الموضوع في قلبه، ثم وضعني في هذا المكان، ومهما تواليت الأزمنة، فأنا هنا لن أبرح تلك الغرفة، ومهما حدث لن يراني مخلوقٌ.

حُيِّسْتُ في تلك الغرفة على مر العصور، رأيتُ بداخلها أنواع المشاعر شتى، وأقذر الأيام، عاصرتها حين كانت مقلب قماماء، وغرفة فحم، وغرفة إعدام، حتى صارت غرفة صغيرة في قاعة

بناية، يرفض أي حارس عقار المكوث فيها، كما ترين يا نعمة، الزبالة في كل مكان، ولا يُخرجها أحدٌ إلا والرائحة تفوق حد الاحتمال، لآلاف السنين يا نعمة وأنا أصلي من أجل العفو، ولكن لا تسمعني السماء، إلى أن وقعت الكتب، فعرفتُ أن القيامة تقترب، وطبعًا لا توجد في كتابي أي معلومات، سوى اسمك وهذا اليوم الذي ستتقابل فيه، ولا وجود لأي شيء بعدها.

تسألين نفسك عن سبب لقاء ملاك مطرود بنسل حواء؟ ولماذا أنبتٍ بالتحديد التي ترينني؟ كُتبت في صفحة اليوم هنا أن ملاك الموتِ أمرَ بعدم قبض روعي إلا بعد أن تقتلني امرأةً مباركة، تكره البشرَ، والغضب يحتل قلبها بسبب ما فعله بها الرب، فلا تجد أي رحمةٍ أو تراجعٍ عن قرارها، ومن الواضح أنك تكرهين البشرَ وحكمةَ الرب في أمرِك، لذلك أنبتِ هنا اليوم لقتلي يا نعمة، وحتى لا تضربك الحيرة، بنصل سكينك البارد، مرريه فوق عنقي، بقوة كراهيتك لهذا العالم".

من خلال نظرات نعمة، فهمَ سفرائيل أنها لا تفهم ما يقوله، أو أنها تراه مجنونًا، وفي الحقيقة هي تملك كل الحق، فكيف تُقنع فتاةً، جاءت إلى الدنيا بمرضٍ، وتعذبت بسببه، أن الواقف أمامها حاليًا هو ملاكٌ من السماء، يطالبها بإنهاء مأساة حياته؟ وقف سفرائيل فجأةً، خلع عنه قميصه، ثم سحب منها نصل السكين، وجرح صدره، فلم يخرج دمٌ منه، بل ظهر نورٌ لمدة قصيرة، ثم اختفى!

تراجعت إلى الوراء، وقامت كي تخرج من الغرفة، وما إن بدأت في الصراخ شل حركتها تمامًا، واضعًا يمينه على فمها، ويساره خلف ظهرها، بنصل السكين التي تخصها، مهددًا إياها بالقتل إن تحركت أو صرخت: "اسمعيني يا بنت الطين، مشاعر البشر الضعيفة لا نحتاج إليها الآن، حاولتُ كثيرًا قتل نفسي ولم أفجح، لذلك إن لم تفعلها أنتِ، سأقتلكِ وسأنتظر مجددًا، الانتظار لم يعد مملًا، أتعرفين يا نعمة ما هو الممل حقًا؟ الطاعة العمياء، كلهم بالأعلى يعيشون في مللٍ أنا واثق، كلهم يسبحون بنعمه ومعجزاته، وبدخلهم شعورٌ بالملل، يقاومونه في كل ثانية كي لا يظهر عليهم، وهو يعني ذلك جيدًا، ولكنه فخور بمدى ضعفهم، ومدى خوفهم من الطرد أو اللعنة والعقاب، إن خالف أحدُهم مشيئته! إلى يومنا هذا، وأنا أعرف أن إبليس لا يستحق ما حدث له، شعورٌ طبيعي، الغيرة شعورٌ طبيعي، السؤال شعورٌ طبيعي، الإنكار شعورٌ طبيعي، الرفض في حالة الظلم شعورٌ طبيعي، لم يكن إبليس مخطئًا يا نعمة، ولا أنا! ما ذنبي؟ هل لأنني سألتُ! فقط! السؤال جريمة! هل لأنني استفسرتُ عن شيءٍ غير واضح، ينتهي بي وأنا مرمي بين القمامة، والروث وفضلات الكائن المنحط المخلوق من الطين!

تخيلي يا نعمة، الكائن البشري كل يوم يُلحد به، يكفر ويُذنب، يكذب ويقتل، يسرق وينهب، يظلم ويُعذب، ومع ذلك يتركهم بحجة أن العبرة بالنهاية، والنار والجنة والثواب والعقاب، ولكن! معنا نحن، الذين ظلوا منذ مجيئهم يطلبون منه العفو والغفران، يسبحون له ليلاً ونهارًا، يفعلون ما يشاء.

وقتما شاء وأينما شاء، حتى لما حذرناه من خلق المخلوق الطيني الوسخ، كان سعيدًا للأخاية، هذا الرب يا نعمة، يحب المقاتلين، يحب المعاندين وكارهي الطاعة العمياء، يحب كل ما يثبت له أن البشر جنسٌ متمرد، فيشعر بنشوة وإثارة، بعيدًا عن الجو العام الممل، الذي يحاوطه منذ الخليقة.

خلاصة الكلام يا نعمة، بهذه السكين افصلي رأسي عن جسدي، وأخرجي قلبي، العضو الوحيد الموجود بهذا الجسد، وتغذي عليه، سيزيدك غضبًا وكراهيةً ضد البشر وخالفهم.

يا نعمة.. أنا أعرف عنك كثيرًا، كلنا في السماء يعرفك، حكايتك معروفة للجميع بالأعلى، أنبياءٌ كثر سألوا عنك، وحتى وقتنا هذا لا نعلم الحكمة في أمرك، ولكن سأقول لك جملةً، سمعناها عنك، حين تحدث آدم إلى ربه في يوم، قبل أن ينفييني ملك الموت، وسأله عن اسم نعمة، المكتوب على عرشه، فقال له الرب: "مبارك اسمها في الدنيا والآخرة".

دون أدنى إحساس بالذنب، ذبحته ثم مثلت بجسده، وخصوصًا منطقة الصدر، إلى أن خرج القلب، الذي كان عبارة عن لحمٍ لونه أبيض، يصف ما تحته من نورٍ، أكلته ومضت إلى حال سبيلها، لم تنظر إلى الخلف، فتحت الكيس الأزرق، وضعت السكين بداخله، وراحت تجلس أمام مسجد العسال، تتحدث إلى ربها وتقول: "هل المجنون هذا كلامه صح؟ هل أنا فعلاً مُباركة؟"

عامل الدوكو

الرهان على تفسير رد فعل الإنسان، في وقت الشدائد، خاسرٌ بلا أدنى شك، والخسارة العظمى -أو الفادحة- طبقاً لامرأة، هي أن يهجرها رجلٌ، وحقته في ذلك -وفقاً له- قوية، والموقف الأمثل لتوضيح السابق، هو ما حدث بين منة وعبد القوي، عامل الدوكو وخطيبته بائعة الملابس، لما قابلها في بيتها، لشرح لها أسباب ابتعاده عنها مؤخراً، وبعد شرب القهوة وسيجارة، والجلسة التي يكون ظاهرها الود، ذبح عبد القوي الصمت، وبسكين باردة أعلنها صراحةً، وبأسبابه كان متمسكاً.

نقص المال والحال العام، عدم الإيمان بصدق العلاقة، الناس في وادٍ وهما في وادٍ، كل شخص يبحث عن حسن الخاتمة، لا وقت للفرح، ماذا سيحدث إذا قامت القيامة وهو أعزب، والبنات إذا ماتت دون زواج لها منزلةٌ في الجنة أعلى منهن، وكلامٌ كثير مكرر، يخرج بصورةٍ مُنظمة، من شخصٍ يجهل دوره في الحياة، ولا يرهق باله بالتفكير، ولكنه يعرف الكثير من حيث لا يدري، ويريد الانفصال عن بنتٍ تحبه، وفي مقولتهِ أخرى: "أنتِ تستحقين من هو أفضل مني".

وآلية الدفاع عند الأنثى، في تلك المواقف، أعلى من سور الصين العظيم، وأكثر استعداداً من خطط نابليون، وتفوق، فصاحة تشرشل في خطبه، ودهاء روميل ثعلب الصحراء، وإدراك الباحث عن الرحيل عاقلاً، فالتمسك بالبقاء أنثى! وهي -بالتأكيد- بعيدة كل البعد عن العقل.

اجتهد عبد القوي في فرض رأيه، استناداً إلى ما يحدث بالخارج، فالناس كلهم إما ساجدون وإما باكون، الواحد منهم يبحث عن عملٍ صالحٍ يقدمه إلى ربه ليغفر له، وإذا كان الزواج سبباً، فهو في هذا التوقيت ليس الأنسب، الحالة النفسية غير مستقرة، الحالة المادية منعدمة، غياب الاستمتاع بما تبقى من الحياة لقرب يوم القيامة، وهو أمرٌ جلل، فكيف لإنسان أن ينظرَ إلى مباحج الدنيا، وهو يعلم وكله يقين، وليس فرضياتٍ كما في حالة المريض، أنه سيموت في يومٍ بعينه، مع ضرورة الوضع في الاعتبار أن صُنِعَ الذكريات أمرٌ رئيس في كل علاقة، فأَيَ ذكرياتٍ قد يصنعها خلال أشهرٍ؟ ولمن سيصنعها إذا كان الموت قريباً إلى هذا الحد!

كل كلمةٍ خرجت من عبد القوي، كانت مكتوبةً في كتابه، وهو ما جعله يبتهج، بسبب ما وفره الكتاب عليه من مجهودٍ جبار هو في غنى عنه، فإذا جلس عبد القوي مع ذاته، لسنين لا حصر لها، يرتب أفكاره، ليقول ما قاله، لطلعت الشمس من المغرب وهو لا يزال في مرحلة التقديم! عبد القوي يعرف كل شيءٍ بتدبير رباني، ولكنه يكره إرهاق عقله بمقدمات الكلام وطرائق تقديمه!

وكتاب عبد القوي يعتمد على المنطق، فيمنطق ردوده في حالة الاعتراض، ويحيط أسبابه بدوائر تعدد التفسير، فإذا فهمتُ منة كلامه على نحو خاطئ، أعاد شرح النقطة، بطريقةٍ أخرى، تغزوها الأدلة من كل مكان، فيصعب على منة رفض

ما طرحه، أو التشكيك فيه، ولو على سبيل الاعتراض، من أجل لا شيء.

أما كتاب منة، فالعاطفة منهاجه، وحلو الكلام مصحوب بدلال أنثوي، فيذيب حديد المنطق، وتلين قسوته، فتجد الإنسانية حاضرة، ولكل سؤال إجابة واضحة تُبكي الحجز، وتُربك مسارَ اليقين، واليقين هنا هو اليقين الفردي وليس العام، وكلما تمسك عبد القوي بحججه، وفسر أساس الفعل، وقفت منة وفي يدها كتاب دين إنساني، تجادله بالنبي هي أرقى، يهرب من نظرات عينها، فيصطدم بصوتها الناعم المبحوح من الحزن، وإذا راوغ الحزن براءة، أسقطت عنها قطرة من الدلع، بلمسات يد أو غنج النداء، فتقول له: "يا عبده، لماذا تعاملني هكذا يا عبده؟" وفي كلمة عبده هذه من الدلال والغنج والإغراء ما يحفز عبده على صعود الجبال، ليلاً نهاراً، بلا هدف واضح، ولكن المهم أن ترضى منة!

وفي حالة فشل كل ما سبق، تلجأ إلى سلاحها المحرم دولياً، فهي تعرف كم يعشق عبد القوي فخذيها، فتتعمد أن تلبس ما يجسدهما، فلا يحيد عبد القوي عنهما بنظراته، فتضرب عليهما برفق وهي تتحدث، أو تحركهما في عصبية، فيرتج الواحد منهما بما يحمل من خيرات لحم، فيفقد عبده التركيز في حربه، وتبدأ مراحل الانحسار، فيكتشف عبده أن مجهود ساعات ذهب هباءً في أقل من نصف ساعة، وهو ما تبرع فيه الأنثى، وأنا أعني هذه الكلمة جيداً، أي أنثى -مهما كانت درجة جمالها- قادرة على تفكيك قلاع منطقك، ورسم شفاة

همراء كبيرة على جدران ذكورتك، وهو المعروف من قديم الأزل، نقطة ضعف الرجل، وفتنته الأولى هي الأنثى، واسألني أنا، الساردة الوحيدة بين جيل الساردين.

الجلسة تطول، وعائلة منة لا تتدخل، الحوار لم يتطرق إلى العنف نهائياً، لم يتحدث أحدهما بصوت عالٍ، كلاهما ينصاع إلى كتابه، وصولاً إلى السطر الأخير، المكتوب في كتابيهما لهذا الموقف: "القدر حتمي، الثبات مبدأ، الدهاء ملجأ، الخلاص لمن أراد، والبقاء لمن تمناه"، بعدها تكلمت منة: "إذا كان الفراق ما تبحث عنه يا عبد القوي، فهو لك، ولكن اسمعني جيداً، أهلي يحبونك، يحبونك للدرجة التي سيغفرونها لك إذا واجهتهم بحقيقة شعورك الآن، ومن الممكن أن يطلب منك أبي الرحيل، وسيتحدث إليك لاحقاً لمعالجة الأمر، وأمي قالتها لي من قبل يا عبد القوي، أنك لن تتركني مهما حصل، لأنك تحبني ولأنك رجلٌ يحترم كلمته، والحل الوحيد لفسخ خطوبتنا يا عبد القوي هي فضيحة، ولكن فضيحة في نطاق هذا المنزل، لأننا إذا تجاوزنا إلى الخارج، قُتلنا في الحال! عائلتي ترفض هذه الأمور، وتراها غير مناسبة للمخطوبين، وسمعتُ والدي يقولها يوماً إنه إذا اكتشف أننا نفعلها، سيفسخ علاقتنا فوراً! هذا غير حوار رسل الخير، وإمكانية القتل المباشر حالاً!"

اقترب منها وقبلها طويلاً، قبله وداع، انتشث، طلبت منه إخراج الذي هو أطول، تتعالى تأوهات شبق كلما لمستته، دخلت أمها عليهما، ومنة تداعب فرجه وتقربه من فمها، صرخت الست وجاء أبو منة، وهنا كانت التفصيلة الصغيرة

التي لعبت عليها منة، وكان عبد القوي غيبًا، وقع في شرك منة ببراعة، من البديهيّات في الخطبة والزواج عامّة، في بعض البيوت وليس كلها، إذا أحبك أهل البيت، لن يضايقكما منهم أحدٌ، ستجلس بمفردك معها، مع العلم أن أباهما وأماها وأختها والجيران يعلمون بما يدور داخل الغرفة، من مداعباتٍ وقبالاتٍ مخطوفة وشهواتٍ متبادلة، وفي حال انكشاف الأمر، لن يرضى أبدًا أي رب عائلة أن يُخرج السافل الذي فعل ذلك مع حريمه، بحجة الشرف والدفاع عنه، بل سيهدده أنه إذا ما لم يُصحح فعلته حالاً، سيقوم بقتله أو فضحه أيهما أقرب!

وفي موقف عبد القوي ومنة، الموقف الذي تركه كلاهما لحتمية القدر وفقًا للكتاب، فقد طلبَ أبو منة من عبد القوي غلقَ سحاب بنطاله حالاً، والتوجه إلى منزله، وعدم التحدث إلى منة نهائيًا، وفي خلال أسبوعٍ من الآن، إذا لم يكتب كتابه على ابنته، سيفضحه لدى رسل الخير، وفي مكالمته لهم هلاكٌ فوريٌّ. أسرع عبد القوي إلى الخارج، وهو يكرر كلمات الكتاب الأخيرة، بصوتٍ مهزوز خائف: "القدر حتمي، الثبات مبدأ، الدهاء ملجأ، الخلاص لمن أرادته، والبقاء لمن تمناه".

أيام الدهشة الثانية

فيليب

النعمة الحقيقية يا مينا، في وسط كل ما يمر به، أن حاسة الشم اختفت! مجرد التفكير يا ولدي في مدى القذارة التي نحاولنا، تُجبرني على خطيئة الحقد، والمسيح الحي يا مينا، أبوك يحقد على الخنازير، لأنها بالطبع في وضع أفضل مما نحن عليه!

سامحني يا مينا على ارتبائي، حكيتُ لك كثيرًا عن أشياء في حياتي السابقة، وعن أشياء حدثت لي في أثناء غيبوبتي، عن يهوذا الذي أراد قتل إيماني، وعن مريم البتول التي قتلتها، ولم أحكِ لك حتى وقتنا هذا عن السر الأكبر المدفون بداخلي، كم نبيتُ يا مينا أن تسمع، كل كلمة قلُّتها، خلال سنين وجودنا

داخل القرن، أحدث نفسي وأتخيل أنك تسمعي، هذا هو الجنون الخالص يا مينا، وأعتقد أنني إذا فعلت شيئاً آخر، غير الحكي، لكنني ميتاً، من الوحدة والوضع غير المفهوم.

هل حسبتَ فعلاً أن قتلي لأختك هو سري الأكبر؟ لا يا مينا، أنا فعلتُ ما هو أقدر من ذلك، انظر حولك، هذا القرن الذي سيدفنتنا الضعف بين فخاره، كم حرقته بداخله رجالاً وسيدات وأطفالاً، لصالح الباشا الكبير، هل تتخيل أنه يحبني هكذا دون سبب؟ لقد قتلته له كل شخص كان يراه قلقاً ولا مفر من اغتياله، أبوك يا مينا كان قاتلاً مُحترفاً، يشهد الناس له بالإيمان، وبأنه رجلٌ مسيحي مُخلص، وهو بينه وبين نفسه قاتلٌ من الدرجة الأولى.

تسألني كيف كنتُ أقتل؟ سأجيبك، الحيلة ذاتها في كل مرة، الباشا يُحضر المطلوب قتلَه في عز الليل، مع الحجة الأشهر له، حين يسأله الضيف عن سبب وجودهما في هذا التوقيت، فيرد عليه الباشا: "أنت تعرف أنني ملكٌ في هذه البلدة، سيأتي الناس من كل مكان، يطلبون شيئاً أو خدمةً، لذلك هذا التوقيت هو الأفضل، الوجود في مكانٍ كشبحٍ يمر"، الباشا صاحب الأفران، كان يطلب من العمال ضرورة المغادرة يومياً قبل الساعة مساءً، لا يهتمه انتهى العمل أم لا، المهم أن يصير المكان في تمام الساعة، معبداً للصمت، فيستطيع الباشا المجيء، ولا يراه أحدٌهم، أو يُسمع صراخ الضحية.

كل الذين قتلتهم يا مينا، جاؤوا في مناماتي، يسألونني عن السبب، وكنت أقول لهم الأمر له، إلا مريم أختك، وصديقي نجيب، نعم يا مينا، قتلت ابنتي وصديق عمري، لأنه غبي، طلبت منه يومها الرحيل، ولكنه صمم على البقاء، ورفض المغادرة دوني، كي نذهب إلى المقهى ونلعب دور الطاولة، مع أنني وعدته بما يريد، ولكن بعد رحيله، وبالطبع لم يقتنع بشيء، وظن أنني ألعبه وأنسي لن أذهب، حتى جاء الباشا برفقة بنت، لم تتم العشرين من عمرها، تمشي خائفة مرتبكة، تنظر إلى الباشا كل ثانية ليخبرها عن سبب القدوم هنا، ولما لمح نجيب الباشا، ركض ناحيته ليستقبله، فيقابله الباشا بصفعة، ما زال صوته حاضراً في أذني، يسبه ويسأله عن سبب وجوده في المكان بعد انتهاء ساعات العمل، لم يعطه فرصة للجواب، نهره وأمره بالرحيل فوراً، ثم طلب مني قتل البنت وبعدها نجيب! أما ما يخص قتل البنت، أو التخلص من ضحاياه عامة، فالأمر كان بسيطاً كبساطة كلمة صباح الخير، نقتع الشخص بأننا في جولة، نريه الأفران وطريقة صنع الفخار، ثم نصعد السلم الخشبي، ليرى الضيف بنفسه القرن من الداخل، ومن هذا اللحظة نفصح للارتجال مجالاً، فتارة نضرب الضحية على رأسها، بعدها نمسكها ونلقيناها داخل القرن، أو نخدرها مثلاً ونرميها بالفرن، وفي أكثر الأوقات قسوة كان الباشا يحمل سلاحاً، ويطلب من الضحية بنفسها أن تنزل إلى القرن، في صمت تام، في خضوع تام، دون أي تصرف تندم عليه، لأن موتها حتمي، فإذا حاولت الهرب مثلاً لن تفلح.

هذه البنت يا مينا، طلب منها الباشا أن تقفز بنفسها، وقال لي وهي تبكي وتترجاه: "تخيل يا فيليب! الوسخة تقول لي إنها حُبلى مني! بنت القعبة تظن أنني سأزوجها مثلاً، أو سأقول لها ولا يهمك يا حبيبتي، دعيه يأتي إلى الدنيا، كل طفل يشرفنا برزقه، بنت الوسخة التي لم تعرف التربية!" والبنت يا مينا كانت تُقسم له إنها ستخلص منه، ولن يعرف أي شخص، ولا أقرب الناس إليها، ومع ذلك، ودون أي رحمةٍ قالها لها: "إما القفز بإرادتك، وإما القفز عنوةً، ولكن بعدما يكون فيليب اغتصبك. ما قولك يا شرموطة؟" كثيرٌ من الفخار الذي صنعته يا مينا خرج إلى الناس بطمي حقيقي، وبرفات جثامين، كل بيتٍ في قريتنا أو خارجها، عرفت أن بضاعتي معروضةٌ بداخله، يحمل قطعةً من الفخار، ومن عذاب إنسانٍ وصراخه، كل قطعةٍ تحتوي على بكاءٍ أنثى بسبب ظلم، أو قهر رجل لأنه ظهر في الوقت الخطأ، وكم رأيتُ في أحلامي الفخار يركض خلفي، ويتحول إلى ضحيةٍ من ضحاياي، يحاول قتلي أو شي جسدي بالنار.

لا تسألني يا مينا كيف قتلْتُ صديقي، يا مينا أرجوك لا تسألني، يعجبني فيك أنك لا تمل، سأخبرك يا ولدي، بعدما تخلصنا من البنت، أمرني الباشا بالتخلص من نجيب، لساعةٍ كاملة أقنع الباشا بأن نجيب حمارٌ، شخصٌ ساذجٌ كل ما يهمه هو الجنس، والحديث عن المقويات، وعن بطولاته في كل سربٍ مع أنثى من البلدة أو خارجها، لم يخجل نجيب بحكم صداقتنا، من الاعتراف لي بكثيرٍ من وساخاته، وكان يقول لي دائماً: "أنت

أكثر من صديقي يا فيليب، كل أسراراي معك لأنني أثق بك، أنت الوحيد الذي أعترف له، فلا أحمل خطاياي بمفردي!" والباشا بعد أي نقاش، ينهيه بالجملة نفسها: "لا يهمني كل هذا يا فيليب، إذا لم تقتله هنا في القرن، ابحث عن طريقة وافعلها!"

ولأن نجيب تحدث كثيراً عن امرأة في قريتنا تجعل قضيب المييت ينتصب من اكتناز جسدها ومفاتنتها، وكيف أنه الوحيد الذي عرف كيف يضاجعها، وذلك راجع لحركته الوسخة التي يتعمد فعلها أمام الحريم، فكما تعلم يا مينا، نجيب كان يبيع الفخار على عربة يجرها حمأه الأذكي منه، وكان لا يرتدي شيئاً تحت جلبابه، فكان كلما رفع جلبابه أو جلس فوق العربة، ظهر للجميع فرجه، وهو -للأسف يا مينا- قد أنعم الرب عليه بنعمة القضيب الذي تعشقه النساء، وتحتة خصيتان، كل خصية في حجم التفاحة البلدي، فتنتشي الست منهن، وتتخيل مدى حجم المدفع إذا انتصب، ومدى انتشار ناره إذا ضرب!

عرفتُ منه بعد واقعة البنت أن الست طلبته، لأن الدم كان عليها واليوم هي نظيفة، والست يا مينا بعد انتهاء الدورة الشهرية تكون شهوتها أعلى من السماء السابعة، فقال لي أن أعطيه أي بضاعة، بحجة أنها تريد الشراء منه، فلا يشك أي مار في وجوده أمام بيتها، وهو ما حدث، وبعدما دخل العاشق الولهان إلى بيت ست الحسن والجمال ليلاً والناس معظمهم نيام، ركضتُ إلى بيتها، وصرختُ بعلو صوتي: "يا ناس! حرامي دخل إلى بيت الست نادية، يا ناس! حرامي!"

الأزمة الحقيقية يا مينا لم تكن في منظر صديقي، وهو مسحوبٌ على الأرض عاريًا، ودماؤه على وجهه، الأزمة الحقيقية كانت في حُكم الناس عليه، بعدما فضحوه وفضحوها، كل الواقفين وقتها قالوا: "اقتلوا الزانية التي تغوي الناس، واقطعوا قضيب الزاني!" الرجال قتلوها لأنها كانت صعبة المنال عليهم، وقطعوا عضو نجيب حتى يكف عن التفاخر، ولأن صديقي كان يرى الرجولة والفحولة فقط في عضوه الذي بُترَ بعد الفضيحة، شنق نفسه داخل بيته، ولم ييغل علينا بحركة من حركاته، التي جعلت القرية كلها في قلبي لأسابيع، فقد كتب الفاجر قبل موته، كل أنثى ضاجعها في قريتنا، واصفًا كل واحدة، بعلامة مميزة، وكيف تتأوه، وكيف تطلب المزيد، وكيف تشخر أو تسب، وهل تقول مع كل وطنية: "آه أم أحوه"، ومن من الإناث كانت لا تكتفي بمرة واحدة، ومن منهن تعشق العنف والضرب، وكم واحدة أنجبت منه وقالت للمُغفل زوجها إنه ابنه أو ابنته. لقد انتقم نجيب من قرية بكاملها، بعضوه!

تخيل يا مينا، قضيبٌ يدخل كل بيت، يدك أهله ويخرج ضاحكًا، هذا ما فعله نجيب، ولكن حين وصل الكلام إلى الباشا، وعرف أنه مات، توقع الباشا أنه أنا من كتب هذه الجوابات، نظرًا إلى أنه حكى لي عن كل شيء، والحقيقة يا مينا أنا لم أفعلها، ولكي أكسب ود الباشا أكثر قُلْتُ له إنني الفاعل، لأنه لا يتحدث إلى أحد في القرية سواي. ضحك الباشا من مدى شر الفكرة، ومنحني مكافأةً، وقرر أن أرباح القرن الخاص بي ستكون لي وحدي! قتلْتُ صديقي وكذبتُ بشأن فعلته العظيمة مُقابل

أرباح القرن، وكسب رضا رب العمل، وفي ما فعلته لستُ نادماً
يا مينا، أنا مسيحي مُخلص، والإخلاص عندي يعني وجوب
فعل كل شيء.

نعمة

يا سلام يا نعمة، لو تقدرين على جلب هذا الرجل، كل
يوم إلى سريرٍ مختلف، وتذكرين معه طعم المتعة المتبادلة،
ثم تقتلينه في الحال، فأنتِ تكرهين الرجال عامةً، لكن نُحبين
القضيبة خاصةً، لا لأنه نوعٌ من أنواع الإغراء، بل لأنه سببٌ
من أسباب إشباع الرغبة.

حكى لي محيي عن مأساة حياته، بصراحة، النوم مع رجلٍ
يُشبهه المسيح، بعدما عرفتُ من هو المسيح، وكل هذا الأمور،
شيء ممتع! وسألتُ نفسي منذ قابلته، هل بسبب ذلك أنا
مباركة؟ كما قال لي هذا الملاك المجنون الذي قتلته؟ لأنني بعد
فترةٍ طويلة، من الذل والظلم، من القهر والخراء، سيضاجعني
رجلٌ محترم، ويعاملني بكل احترام كما يفعل طاهر معي؟
شعرتُ معه منذ اليوم الأول أنني حقاً ست بيت، يخرج إلى
الاماكن ليُجلب أي طعام، يطلب مني رعاية والدته طاهرة،
عرض عليّ الزواج، وقال لي إنه سيبحث عن طريقة ليكون
زواجنا حلالاً، لم يعترض حتى الآن على أي شيءٍ بشكلي، لم يتحدث
معي عن البقع، لم يطلب معرفة تفاصيل حياتي، يطيعني في كل
ما أريد، عرفَ هذا الرجل كيف يصالحني على الحياة بنت

الوسخة، على نحو مؤقت، وعليه هو فقط، وليس على كل الرجال أو البشر عامة!

إغواؤه لم يكن سهلاً، كدتُ أفقاً عيني من شدة أدبه، ولكن أي رجلٍ على كوكب الأرض يستطيع أن يقاوم امرأة، ارتدت جلباباً ضيقاً، يجسد تفاصيلها! لو أن المسيح نفسه كان هنا، لفعل ما فعله محيي بالضبط! بعدما لبستُ الجلباب، جلستُ على سرير، وتعمدتُ أن تكون مؤخرتي، على طرف السرير، الحيلة التي علمها لي رجلٌ مهندس، قال لي مرة وهو فوقِي، داخل موقع كان رئيساً عليه، أن كلما جلستِ الست، ذات الإمكانات الرائعة، فوق شيءٍ صلد أو له طرفٌ، ستبرز مفاتها السفلى، وذلك بسبب رد فعل الشيء المسنود إليه، تجاه الشيء الطري الذي سندَ فوقه!

رجلٌ هو من لفت انتباهي إلى نوع من الإغراء، وهو ما قُمتُ به ليستسلم محيي، الذي جاء من الخارج يوماً، ليجدي بهذا الشكل، أمسك كتاباً وأتظاهر بأنني أقرأ، تابعتُ نظراته إلى نصفي الأسفل، المفرد بسبب ضغطي على طرف السرير، فيكسب الفخذين حجماً إضافياً فوق حجمهما.

نظرات عينيه تجاهي جعلتني في أقل من ثانية أرمي الكتاب أرضاً، ومحیی بجانبه، وأعتليه في رضا تام، لم يعترض ولم يقاوم، مثلما فعل في كل مرةٍ حاولتُ التحرش به، وكان يبتعد متحججاً بالمهام، أو مُتغافلاً عما فعلته كأنه لم يفهم الأمر، ومع إغراء الجسد، بالملابس الضيقة، والجلسة التي لا تُخيب ظن

امرأة، استسلم محيي للمين نعمة، ومن هذا الذي يرفض نعمة مثلي؟

بعد ممارسة رائعة، وكلام يضبط الدماغ عن جمالي وجمال إمكانياتي، وعدني محيي أن نتجه إلى مصدر الرائحة الثانية، بعد جمعه لكل المؤن التي ستساعدنا في رحلتي، وهذا لما حكيت أنني جنث من محافظة بعيدة للبحث عن رائحة، ووجدته في النهاية، ما يعني أن الرائحتين سيبلان لأشخاص آخرين، وربما قد نجد طريقاً مثلاً لقرية عامرة بالناس. لم يرفض محيي فكرة سحب هذا الجهاز معنا، ولم يجدها جنوناً، قال لي ما دام الألم حاضراً بسبب عدم وجود الجهاز الذي حصلنا عليه من ورشة الدوكو، فيجب سحبه معنا ولو لآخر الدنيا!

حكيت كثيراً لمحيي عن حلمي المتكرر، عن البقع التي تركض خلفي، وعن الرجلين، حكيت له عن أثر كل رائحة لي، وعن مدى سعادتي لوصولي إلى رائحته أولاً، ولما قلْتُ له عما كان يحدث لي، تغيرت ملامحه، ولم يُعلق، واكتفى بمقولة، تُعجبني منه الصراحة: "مباركة أنت يا نعمة النعم".

أشعر بأن قريباً سينتهي كل هذا، وأنتني سأصبح حبل، وسأزوج بمحيي، وستصير حياتي أفضل، وسأعوض كل ما فاتني، وربما -وأقول ربما- قد تتحسن علاقتي بالجالس فوق العرش، هذا إذا لم يحدث أمر آخر!

عبد القوي

طوال هذه المدة سألتُ نفسي هذا السؤال لأكثر من مليون مرة: لماذا تركتُ منة؟ لماذا ابتعدتُ عنها؟ الكتاب شرح كثيراً كل شيءٍ يخص علاقتنا، مع وجود بعض الهوامش التي تُفيد وجود خطط أخرى، أو بمعنى أصح، حياة أخرى، إذا ما رفضتُ المكتوب، وفكرتُ في ما أريده أنا، فمثلاً المكتوب كان زواجنا، ولكن نظراً إلى ما نمر به وقتها، كان الهروب هو الدافع الأكبر.

شخصٌ مثلي، لا يوجع دماغه بالتفكير، ولكنه يعرف الكثير، من الطبيعي مع اقتراب خطوة مهمة، كخطوة الزواج طبعاً، سيري كل شيء ابن كلب، ولن يترك أمراً إلا وفصص أباه، وهذا هو الأمر الوحيد تقريباً الذي طرقتُ فيه باب التفكير، مبتعداً عن معرفتي الربانية بالأمور كافة، وقعدتُ مع دماغي نشرب خمسينة شاي، ونتحدث عن المُصيبة المُقتربة على نحو مُفزع، والحمد لله لم أرهق رأسي طويلاً، الحوار كان قصيراً مختصراً، لا يخرج إلا من محمد عبد القوي، قُلْتُ: "لن نتزوج منة، ويحدث ما يحدث!" فأجابَتِ النفس اللوامة: "ومنذ متى وأنت يا صاحب العادة السرية، يا من تفعلها في اليوم بالمرات، حتى كاد سائلك المنوي يتحول إلى لبن بودرة من كثرة استمنائك، (كلمة ناقصة) على من تستحق، وعلى من لا تستحق، والمُصيبة، يا عبد القوي، أنك مُقتنع تمام الاقتناع أن أي مخلوقة تملك تدين وتحتين بالأسفل، تستحق ولا نقاش في ذلك!"

في الفترة الأخيرة، بعد خواء رأسي من التفكير، في أسئلة معينة، كمن أنا وأين ذكريات طفولتي، بدأ يحدثني شعورٌ غريب، يطلب مني مثلاً بدء عملية التقييم مجدداً، أو الحديث عن شخصية أثرت في تكويني الفلسفي، شعورٌ يتكلم معي، كأني خبيرٌ استراتيجي، أو كاتبٌ من العيار الثقيل، يكرهه زملاؤه مثلاً، لأنه موهوب وأعلى منهم بمراحل، في كل ما يقدمه إلى جماهير القراء، وهذا ما يدهشني، لأنني لم أقرأ كتاباً واحداً منذ تخرجت في كليتي التي أخبرني أبي أنها كلية التجارة، ومع أنني لا أتذكر هذا أيضاً، ولكن من الواضح أنني من وقتها وأنا والقراءة أعداء، وفي كل مرة تتقابل، تظل العداوة بيننا، حتى لو في صداقتنا منفعة لي، ألعن المنفعة التي تحتاج إلى القراءة، المهم أن يظل دماغي صافياً، لا يحرك موضوعُ تروسه، ولا تزيح الصدا عنه فكرة، خاصةً أنني أعرف كل شيء!

طوال وجودي في النهر، وبعدها في قاع النهر، أشعر أنني يتم تجهيزي لشيء ما، عن طريق التأمل مع الذات، وإطلاق مُسميات أجهلها وتجلهنني، كأن النهر صار جامعةً خاصة، تُعلمني ما فاتني، لأكون مُستعداً لما أنا مُقبلٌ عليه، وهو ما جعلني أردد كثيراً ما يدور في رأسي من أفكارٍ غير مرئية، مجرد كلمات ومصطلحات، نتيجة اختفاء الخيال، والقدرة على النوم والأحلام، وفقداني للأمل في خيالي، كي يساعدني على استحضار صورة، أو ذكرى، أو أشخاص كانوا في حياتي السابقة.

لم يخطر على بالي نهائياً أن تُسلب مني القدرة على الخيال، على بناء ممرات وهمية، على النظر إلى امرأة أمامي، وبعدها

بشوان، أراها في سريري، نتجاسد ونسُكر، وذلك بفضل خيالي المريض، أو الموهوب، أو العاشق للسفالة على نحو عام، ولجلب السيدات إلى سريري على نحو خاص.

لا أذكر متى كانت آخر مرة استحضرتُ فيها صورةً شيء، وأنا بكامل ملامحي وقدراتي، وأعتقد أنها منة، التي نسيْتُ ملامحها تمامًا، التي كنتُ أضاجعها في خيالي آلاف المرات يوميًا، وفي كل الأوضاع، وها أنا، وحيدٌ في قاع النهر، دون ملامح، دون قدرة على التخيل، دون نوم لسنوات، دون حديثٍ واحد مع أي مخلوق، كنتُ شيئًا نكرةً، تحركه مياه النهر فوق سطحها، وتقريبًا عرضٌ عليها الملل طردي من السطح، ورميي كحجرٍ صغيرٍ إلى قاعها، فلا يُجهدُها حملي، ولا أعكر صفو سطحها الرائق.

وقد تزايد هذا الشعور في الفترة الأخيرة، الشعور بنزول شيء كالوحي مثلاً، يُعيد ترتيب أولويات، لم أعدها من قبل، وحيُّ يُطالبُني بصفاء ذهني، بالاستعداد لمرحلة مُرهقة، بضرورة الإيمان بأهمية دوري، بمسح فكري الشخصية عن نفسي، والتأهب لاكتساب دور يليق بما سأعاشه طبقًا للوحي، فلا أحقر من ذاتي، يطالبني الوحي بالكثير من الأشياء العجيب، وبالامتناع عن البكاء، لأن رجلاً مثلي، البكاء ليس نديماً. إطلاقاً! حذرني مرارًا من دوافع الشك، مع أن الحقيقة المُنطق الواضحة، للمُتأمل في موقفِي، هي الشك في هذا الصوت، السماوي! والاعتقاد بالخليل الأكبر، الجنون!

شخص قضى عمره هباءً، لا يفعل شيئاً سوى الاستمنا، ومهنته الحقيرة، لا يعجبه التفكير، ولا يؤمن بالتمييز، ويرى سباق الحياة كذبة كبيرة، والموت هو الحقيقة الثانية الثابتة، بعد وجود الرب، وكل ما سيفعله في حياته عامة، سينتهي مع انتهاء وقته، وسينزل معه -وربما لا- إلى قبره، ثم مع الوقت تُنسى، كأنك لم تكن، قد تظهر سيرتك فجأة في أثناء دور لعبة طاولة، أو خناقة بين زبونين على خطبة في شطرنج، فيقول واحدٌ منهما: "الله يرحم أيام محمد عبد القوي، كان يضحك على غباء تفكيرك، ويتعجب أنك لاعب شطرنج أساساً!"

الخط الفاصل بين ارتباك شعوري تجاه التصديق أو التكذيب، هو أن ذلك الوحي يُعلمني الحياة من جديد، من خلال دروس ومواقف، وأسماء لفلاسفة وأنبياء، وكيف تتعامل مع الأمور الشائكة، والحكم والمواعظ، والطبيعة التأملية لساعات بل ولشهور، وكيفية إدراك الخطأ، ومتى اللجوء إلى أحكام من سبقونا، وهو ما يجبرني على التساؤل، في حياتي كلها، لم يمر عليّ اسم من الأسماء تلك، ولم أسمعها في المذياع، فمن أين لعقلي -الذي تتهمه نوازعي بالجنون- بكل هذا العلم؟ تكوين شخصيتي الجديدة يُعجبني الحقيقة، ينسف موروثات الحياة الفائتة، ويُعدني لحياة أكثر متعة وحكمة، ويزرع بداخلي فكرة رائعة، فكرة قتل الانبهار!

أن تكون مُستعداً في أي وقتٍ لظهور معجزة، لنزول الإله إلى الأرض، لصعودك أنت إلى السماء، لتتصيبك من ضمن الملائكة، وقد تكون أنت نائب الإله، لأن الإله الأصلي أصابه الملل من

تكرار دوائر البشر، مع بعض التجديدات في حدود ضيقة،
فتُشرف أنت على الحياة، إلى أن يشقّاق الإله إلى عالمه، فيرجع
مرة أخرى، وتعود أنت إلى صفوف المخلوقات الضعيفة، مع
ميزة في كتاب حياتك، مكتوبة بأحرف من ذهب، هذا الرجل
كان إلهاً من قبل.

كل ما قاله الوحي عامةً يُطمئنني، ويزيد من ثقتي بأن
شيئاً ما سيحدث، وسأخرج من قاع النهر إلى الأرض مجدداً، أو
إلى السماء كأنني بوذا، وأقف في السماء مثله، بوضع جلوسه
نفسه، وابتسامته، ويده المرفوعة، التي تُعلن للناس في بساطة:
أنا موجود، سلمي وسأعطيك كل ما تطلبه!

وربما تُفتَح حفرةٌ تحتي، فأسقط إلى قاع القاع، وأكشف
حياةً جديدةً كلياً، وأنواع أسماك لم نرها من قبل، ومخلوقاتٍ
نهرية، قد تكون لها لغة مثل الإنسان، أو تتحدث مثلنا على
نحو واضح، فأسال السمكة عن التوقيت، لتُجيبني بحسها
المصري الفكاهي: "أي توقيت تريده؟" أو "الساعة واحدة
ورافعة عيل" أو لتُضحكني أكثر: "الساعة الآن!" وقد تشخر لي
السمكة ذاتها، معللةً فعلتها: "نازل إلى قاع القاع، لتسألني عن
الساعة؟ لم يعد للساعة وجود في عالمك؟ صحيح، الإنسان ابن
قحبة في العموم!"

في النهاية، ومهما كانتِ النهاية عامةً، سواء أكانت سعيدة،
أم مأساوية، وبلغتِ أهل الثقافة: نهاية تراجيدية، لن يقتلني.

شيء في المطلق، ومهما حاولت قتل نفسي، لن أفلح، لذلك نترك الأمر لصاحب الأمر، ولتكن نهايتي كما هو مُقرر لي.

هل كل ما قلته الآن، ولسنواتٍ قاتت، منذ المصيبة التي حلت بنا، أمر حقيقي؟ أم هو الجنون فعلاً؟ وهل فعلاً هناك فيلسوفٌ يدعى جيل تولوز؟ أم أن عقلي يضربني بأي أسماءٍ، فأقبل فكرةً الوحي؟

من أنا. وأين ذكريات طفولتي. ومن الطفل الذي أقتله في أحلامي؟ ولماذا أقتله؟

يا رب.. كفاني عذاباً يا رب.

محيي ابن طاهرة

كل ما يخص نعمة غريب، ملامحها غريبة، جسدها مثير وغريب، أحلامها غريبة، الارتباط العجيب بينها وبين ما كينة الدهان، طريقة تحليلها للأمور، نظراتها لي حين تريدني، تأوهاتُها وتلذذُها بالممارسة، الروائح التي تجذبها إليها وتسعى خلفها بلا أي خوفٍ، شجاعتهُا المطلقة، نعمة قد تنام بين شواهد القبور، في حين أن الخوف ذاته يقشعر بدنه إذا ما فعلها.

قررتُ التحرك معها خلف تلك الرائحة التي تُزعجها، ولم أسألها عن كنهها، ولا عن سر البقع، باختصار، علاقتي بنعمة هي مُضَيّ الأيام، بلا أي تعقيداتٍ، بلا أي دوافعٍ لمعرفة ما فات، وهو ما حوّلها إلى كائنٍ هادئٍ، بالطبع لن أستطيع إخعاد

ثورتها، ولكن الابتسامة التي تخرج منها، بشديد من القلق، وكثير من الحذر، كأنها إذا ابتسمت ستسقط السماء، ومع ذلك، ابتسامتها غير المُتقنة، الملفوفة في ورقٍ من حزن، جميلةٌ إلى حد ما، وصادقة بالنسبة إلى ابتسامات كانت مصطنعةً في عالم الزيف ذاك.

قبل التحرك حاولنا مراتٍ التخلي عن فكرة سحب الجهاز، ولكن الألم الناجم عن ابتعاده عنها جعلها في كل مرة تسقط أرضاً وتبكي بشدة.. عجزتُ عن تفسير الظاهرة، وطلبتُ مني عدم تكرار المحاولة، وكانتِ المرة الأولى -منذ قابلتها- التي تتوسل إليّ، وتُقسم إنها مستعدة لسحب الجهاز بنفسها، ولو إلى آخر الدنيا، المهم أن يتوقف الألم، وهو ما رفضته، وعرضتُ عليها سحبَ الجهاز طوال الرحلة، مقابل اهتمامها هي بالمُتعلقات، وهو ما أحبته جداً، ووعدتني بمضاجعةٍ لن أنساها حين نصل إلى المكان المنشود.

مسيرتنا كانتُ مُعقدة، نعمة تُقسم إن مصدرَ الرائحة يقودها إلى رحلةٍ قد تضطربنا إلى عبور نهر النيل، للوصول إلى أرض خصبة تحمل فوقها مصدر الرائحة الممزوج برائحة الطمي والقاذورات، وهو ما جعلني أمام اختيارين، أن أفصحَ لها عن خوفي من أي مياهٍ تسير في مساحةٍ أعجز عن حصرها، سواء كان المقصود بحرًا أم نهرًا أم بحيرةً حتى، أو أن أكمل مسيري معها، وليحدث ما يحدث، والحقيقة لن أهز صورةَ البطل، المرسومة في عينيها، الرجل الذي يفعل كل شيء، وأي شيء.

سألْتُها عن بُعد المسافة، فقالت: "بعيدةٌ يا محيي"، نصحتُها بتعزيز غريزة البقاء، وضرورة الاكتفاء بما نَحْمِلُه، وتناول ما يبقينا على قيد الحياة، مع الوضع في الاعتبار إمكانية العثور على مؤنٍ في أثناء سيرنا، فكانتِ المفاجأة الأكبر، لما صفعتنِي بها، وقالَتْها صريحةً واضحة: "دعنا نبحث عن مكانٍ نجد فيه قاربًا أو مركبًا نسير به وسط النيل، حتى نصل إلى وجهتنا، الأمر سيكون مُستحيلًا إذا ما قررنا السعي سيرًا على الأقدام"، التفكير في ما أنا مُقبلٌ عليه يتجاوز فكرة الخوف أو الرهبة من الموقف، الفكرة تتمحور حول الفراق، الواضح لنعمة أنني أحبها، الواضح لنفسِي أنني أبحث عن رفقة، أجهدتني الوحدة، ولن أعود إليها بمحض إرادتي لمجرد أنني أخاف من الماء السائر.

أقرب الأماكن للنهر من شقتي برمسيْس هو الكورنيش الموجود ناحية التحرير، وهذه المنطقة بكل ما فيها، من طرِيق وكوبري أكتوبر، ومبنى الإذاعة والتليفزيون، وكثرة المراكب الواقفة هناك، الشاهدة على كل شيء منذ البداية، المنتظرة لشخص يُحركها، فترجع لفتنتها التي خُلقت من أجلها، أن تمخُر لي دلالٍ وفي ثقةٍ.

مشيئًا كثيرًا، سبَّغتني نعمة لأنني جاهل بأصول القيادة، وقالت: "يا ليتك تعرف ركوب السيارة! لكنك تعرف ركوب نعمة ومؤخرة نعمة فقط!" عند وصولنا إلى مرسى المراكب، قالت نعمة: "محيي، في أحلامي الكثيرة، رأيتُ تلك اللحظة، أهبرتني في الحلم أنك تخاف الماء، وحذرتُك أنا من وجودك

على اليابسة، لأنني أرى الأرض تتشقق، وتختفي الطرق، ستصير
المدينة بلا طرق يا محيي، البنايات والبيوت ستصبح أشكالا
متجاورة، لن يقدر الشخص على المشي إلا فوق البنايات عامة،
لأن لا وجود لأي طريق على الأرض، وستبتلع الأرض كل الجالسين
أو الواقفين عليها، محيي، مجرد أن تسير بنا المركب، لن نصعد
إلى اليابسة مجددًا!"

حلم غريب من أحلامها، كدت أضحك لولا ذكرها لمسألة
خوفي، خصوصًا أنني لم أخبرها، عصرت ذاكرتي لأسترجع متى
أخبرتها بالأمر، ولكنني أيقنت بعدم بوحى لها! وفي أثناء
صمتي بعد حديثها الغريب هزت رأسها، أمسكت بيدي،
وعدتني ألا تتركني، مهما حدث في النهر ستكون هي القشة
التي تنقذني، يد الله الممدودة في كل وقت. نظرت إلى النهر،
إلى الخوف الذي يناديني، إلى الموت الذي يغني فوق رأسي،
إلى كل مرة رفضت فيها الاقتراب، إلى كل متعة فأتنتي، لمحتني
في الماء، أغرق ونعمة تضحك على منظري، تتلاعب بي، تضحك
على غباي وأناني صدقتها، تقول لي: "وهل من الممكن أن أنقذ
رجلاً؟ يا جدع! قل كلامًا غير هذا!"

في حالتي، ولأن خوفي مجهول، مثلما أنا مجهول، وأجهل،
كيف زارني هذا الرهاب، قلْتُ لها بكل ثقة: "أنا آسف يا
نعمة، مسيرتنا واحدة، وطريقنا اثنان"، لم تزد عن كلمة واحدة
"جبان!" نزلت إلى المرسى، واختارت أصغر المراكب حجمًا، فك
الجبيل، وجدت مجدافًا واحدًا فقط، بدأت رحلتها، أراقبها
من فوق، من السور المعدني، من موضع الأمان بالنسبة إلى

أشاهدها وهي تبتعد، لم تنظر إلى الخلف مرةً واحدةً، ابتعدتُ أنا الآخر، وليت ظهري للنهر وللخوف، للموت وللقلق، مشيتُ تجاه اللاشيء، أحاول استرجاع أيامي معها.

ولأن نعمة كانت تقول دومًا: "مباركةً أنا يا محيي، كما أخبرني الملاك"، ولأنني صراحةً لم أصدق تلك القصة، أعرف أن البنث فيها شيءٌ لله، وهذا واضح من طريقة عثورها عليّ، ومن سعيها الآن خلف مخلوقٍ آخر، ومن الممكن أن يكون رجلًا، يبدو أن أنفها يجتذب روائح الرجال، أو أنثى مثلاً، وفي كلتا الحالتين لا مانع لديها، فقد أخبرتني عن ممارسة الجنس مع جارية لها في المنطقة، لذلك نعمة هي المُستفيدة في كل الأحوال!

رغم كل ما قلته، وكل مبادئ حياتي، فإنه من الواضح صدق نعمة في نبوءة انشقاق الأرض، ولا أعتقد أنها كانت تُبالغ لتجبرني على الركوب مثلاً، لذلك قررتُ البقاء في منزلي، إلى أن يحدث الأمر، أو لا يحدث نهائياً، وقتها ستعثر نعمة عليّ من جديد، وسأقول لها بصوت الواثق، وبنبرة المؤمن الذي لا يهاف: "كذبك غرقت في النهر معك يا نعمة، مُباركةً أنتِ إلا لي ما يخص الناس، كل ما يتعلق بكِ ترينه، وكل ما لا يتعلق بكِ لا عهد لكِ به".

سمعتُ صوتها من بعيد، تصرخ، تبكي، تنادي عليّ، تجدف بسرعة، تشير إلى الجهاز الواقف بجانبني، تستعطفني أكثر كلما التريث، تكررهما في الصمت المحاوط لنا: "الجهاز يا محيي، الألم يهتلني، حاولتُ تجاهل الأمر، لا أستطيع، ابن القحبة هذا

سيقتلني، يا محيي، خيّرُك في البداية ولم تخترنِي، والآن لا وجود للاختيارات، ستسير خلفي بمركب أكبر وبحوزتك الجهاز، وإلا صعدتُ وقتلتُك حالاً!" ابتسمتُ لها، تمامًا كما أفعل في كل مرة تراني، وقلْتُ لنفسي إن الحياةَ عامَّةٌ لم تعطيني فضيلةَ الاختيار على نحو عام، إنسانٌ مُسيّر، تخبره امرأةٌ بحنقٍ بالغٍ بوجوب سيره معها، دون أي رفض، دون أي تفكير، دون أي تعليق، رجلٌ مثلي لم ينعم بحياةٍ يريدُها، هل سيعترض على تهديدٍ خرجَ من أنثى يقتلُها الأُم؟

تسعة أشهر من الدهشة الأولى

العامّة

إعادة تدوير الحياة

اجتماع اليوم، الذي طالب به عددٌ من السُفراء، أولهم السفير العام، ووافق صاحب الأمر على مضيّ، كان لسببٍ لا يحتمل التأخير، وأمن كل العارضين بما فيه من خير، ليقفوا خلف السفير العام داعمين، الذي بدوره تشجع وعرض الأمر في أقل عدد من الجمل، فلا يُزعج صاحب الأمر: "سيدي الرئيس، منذ معرفة الناس بخبر القيامة والكل في منازلهم يتعبدون، يرفض الموظف الذهاب إلى عمله، والفلاح إلى أرضه، الطبيب يترك المرضى يموتون، الحياة بالخارج توقفت تمامًا، وهناك

انخفاض مُرعب في الموارد، الناس من الصدمة نسوا أهمية الأكل والشرب، اللقمة تكفيهم، وشربة ماءٍ ترويههم.

إذا ما انقطعت الكهرباء ليس هناك من يُصلح الأمر، وإذا اختفى كل شيءٍ قد نحتاج إلى فتراتٍ طويلة من العمل لإعادة تدوير الحياة، لا زراعة ولا فلاحه، لا تجارة ولا صناعة، يجب تنبيه الناس لما نحن مقبلون عليه، ويمكننا أن نقسم العمل عليهم، فنحن لا نحتاج إلى قوتنا العمالية كافة، بل نحتاج إلى ما يساعد على الحياة، بمنتهى البساطة، نحن نريد الأكل والشرب والعلاج، وبعض المحال لمستلزمات البيوت من بضائع عامة، ومستحضرات تجميل وأدوات للنظافة الشخصية والشخصية جداً كما تعلم، سنتعب ونستعد ليوم القيامة، ولكن هذا لا يعني أن نموت جوعاً، أو يبكي طفلي مثلاً لأنه يريد حلوى، وأنا أعجز عن تلبية طلبه، هذا ليس عدلاً يا سيدي الرئيس، وقد جننا اليوم لمعرفة رأيك، وإذا وافقت سنعرض عليك خطة توزيع العمل، وعرض الأمر على الناس!"

ولأن صاحب الأمر رأى في كلامه نسبة من الصدق، ولأنه -بينه وبين نفسه- تذكر المعاناة التي شهدها بنفسه، حين طلب من خدم القصر كوبَ شاي، فعرفوه أنه لا وجود للشاي في القصر أو في مكانٍ قريب. طلب صاحب الأمر من السفير العام توضيحَ خطئه، مع التصويت في نهاية الاجتماع على مدى فعالية المطروح، وهل سيرضى الشعب أم لا، وما الخطط البديلة لمكافحة شغب الرفض.

ابتسم السفير العام، وعرف من متطلبات الرئيس أن موافقةً حتميةً واضحةً في كلامه، ما جعله يُسرّع في عرض الخطة: "سنعيد الحياةً على نحو معقول، قنوات محددة في التلفاز تعرض الأخبار والتواشيح الدينية، وكل ما يخص ديانات الدولة المختلفة، وستعمل المسارح من جديد لتقديم العروض الدينية والحكم والمواعظ، كما اتفقنا من قبل على عودة المسارح، ولكننا توقفنا بسبب القيامة وتأكد الناس من اقترابها، وستعمل المسارح على تقديم المفيد فقط، القصص والحكايات والموعظة، كنوعٍ من أنواع الراحة للناس، سواء نفسية وذلك لأن المعروض غير مخالف، أو جسدية، لتوقفهم عن العبادة قليلاً، فيشحنون طاقتهم!

وفي مجال العمل، سترسل في كل شارع حارساً مجدداً، كما فعلنا في أمر الإعلان عن وجود رسل الخير، يطلب من الناس فتح التلفاز لأمرٍ ضروري، فكما تعلم الجميع الآن في خانة التعبد فقط، ولنُحركهم نحتاج إلى وسيلةٍ تجمعهم كلهم، لسهولة توصيل الرسالة، فلا نجد صعوبةً في عرض الأمر.

سنوجه الكلام بشيءٍ من الحُزن العام، بلمسةٍ درامية نصيب القلب، فلا يرفض السامع ولو كان عاجزاً عن السمع! سنناشد الفلاحين والتجار وأصحاب المحال والخبازين، وسنخصص أماكن بعينها يستطيع الناس التوجه إليها لشراء ما يحتاجون إليه من عرباتٍ بها ما تم إنتاجه، وسنعلن للناس طبعاً عن أماكن العربات الواقفة، وعن تشغيل سلسلة محلات

كُبرى في كل محافظةٍ للشيء نفسه، الأكل والشرب والبضائع الحيوية، البضائع التي يحتاج إليها الناس، ومن يريد الذهاب والشراء، فأهلاً به، ومن يريد المكوث في البيت متعبداً، هو حُر! في النهاية، لا يصح سيدي الرئيس أن أدخل حمامي فأجده بلا صابون، وأزيل عني العرق بالماء فقط!

وطبعاً سيدي الرئيس، نحتاج إلى رجال الدين، صوئهم دوماً مسموع، سيكون الإعلان عن طريقهم، سنختار شيخاً وقشاً، كلاهما على قناةٍ مُختلفة، كلاهما يعرض الأمر من ناحية دينية، كما فعلنا من قبل، وجعلنا الناس يؤمنون بفضيلة الفقر ويرمون الأموال في الشوارع، ويرفضون روايتهم مقابل دخول الجنة، وحجة الفقراء يدخلون الجنة كانت ناجحة، وشالت من فوق رؤوسنا حملاً نحن في غنى عنه! ما رأيك يا صاحب الأمر؟

تدخل الرسول الأكبر لما لاحظ صمتَ صاحب الأمر، وقال له: "بعد إذن سيادتكم سيدي الرئيس، الخطبة هائلة، لكن إذا وضعنا في الخطبتين جزءاً خاصاً بحرق الكتب الموجودة في البيوت، سيصدق الناس أننا فعلاً نبحث عن فعل الخير ونربها لهم دخول الجنة!"

وَقَّع صاحبُ الأمر الموافقةَ على القرارات، وقبل رحيله سأل سؤالي، أولهما: "ماذا لو رفضوا؟" وكانتِ الإجابة واضحة تماماً كوضوح سؤاله: "سي تدخل رُسُل الخير في الأمر، كلمتهم مسموعة"، وثانيهما: "ومن المُتسبب في اقتضاح الأمر؟" فلم يجب أحدٌ.

ابن طاهرة

في إضعاف معتقدات الناس مسببة لهم ولمن سبقوهم، وفي محاربة فلسفة رجال الدين جرمة، تقتل صاحبها ولو كان على حق! وقد يختلف الأمر إذا ما وقف رجل، يظنه الناظر إليه المسيح، وما نعينه باختلاف الأمر هنا هو التريث في الاستماع إلى كلمات يكرها المتلقي، ومع ذلك يقبل بدقائق إضافية، بسبب حكمة الناطق بها.

بعد توقف الحياة، واقتصار دور البشر على العبادة والصلاة لرب البشر من أجل دخول الجنة والملكوت، ولطرد الشيطان بعيداً عنهم، الشرير الذي لا يفهم ما حل بهم، ولا يدرك ما حدث للمدينة وللعالَم الذي يعرفه جيداً، نزل محيي ابن طاهرة إلى مقر عمله في الكاتدرائية، ليتحدث إلى أي شخص، ويستفسر عن سبب تزايد الكتب المُرسلة، وعن سبب إرسال الكتب الدينية وكتب الوعظ فقط، ولكنه فوجئ بخلو المقر من الناس! لم يجد إلا رجلاً يحرس المكان نظرياً، لأنه عملياً يتعبد ويطلب من الله الغفران والصفح، ولما اقترب منه محيي، لم يتحدث إليه، وقبل أن يتحول إلى بركانٍ ثائر ليحرق جسد القاعد بنار سباب لا تُخمد، لمح بولس الرسول يركض تجاهه، يسأله بصوتٍ مبجوح إذا ما انتهى من الكتب المُرسلة، لأنه سيرسل أكثر من ذلك يومياً، ويعتذر له عن هذا الضغط المُفاجئ، فالتاس الآن أقرب إلى الرب، ولا يريد أحد قراءة أي

سخافاتٍ، إلا الكتب الدينية والوعظ والعبر، ومعرفة مصائر السابقين.

مشى بولس برفقة محيي، يرافقه إلى بيته، يخبره عن تغير الأحوال تمامًا، وعن المدينة التي صارت المدينة الفاضلة الساكنة، وكيف نسي الناس الوظائف والأكل والشرب، كلهم دخلوا في حالة من التقشف، دخلوا في خلوة روحانية مع الرب، كأنهم المسيح حين ذهب إلى البرية، وصام أربعين يومًا، قبل عودته إلى مدينة الجليل لنشر دعوته!

"اسمعني يا محيي، أنت تجهل الحرب التي نواجهها، حرب الكينونة، كلما تحدثنا إلى كاتبٍ أو واعظٍ رفض طلبنا، والحجة واحدة يا محيي: القيامة تقترب، دعوني أعمل شيئًا لليوم الأخير! رجال الكنيسة كلهم اجتمعوا، وقالوا إنها فرصة ذهبية لإعلاء شأن الدين المسيحي، والحقيقة يا محيي، أنا أحمد الله على مجيئك اليوم، ذلك لأنني كنتُ سأزورك عاجلاً أم آجلاً، ولكن قبل أي شيء، لدي سؤال وأرجوك جاوبه بكل صراحة، هل أنا صديقٌ مقرب إليك؟ هل أتعشم فيك خيرًا، وأحدثك عن الأمر؟ أم أننا مجرد زملاء؟"

لم يفكر محيي كثيرًا في إجابته، فبولس وطاره هما أقرب شخصين إليه، طاهرة التي يعاملها كأمه، وبولس السعيد دومًا بقربه وبوجوده، كما أنه لم ينسَ اليوم الذي وقف بجانبه حين طلب من سفراء الحكومة الجلوس في مكانٍ بعيدًا عن النهر الذي يخشاه محيي، وكيف ساعده في اقتناء الكتب الممنوعة.

بجسارة وشجاعة، كل ما هممه هو مساعدة المسيح، ولم يهتم
تهديدات الحكومة!

ربت على كتف صديقه، ليخبره بولس بمصيبة حياته:
"اسمعي يا محبي، مجلس كنسي كان على وشك الجلوس
معك، طلب رجلٌ عزيزٌ يحبك وتحبه أن أتكفل أنا بالأمر،
الحقيقة هو طلبٌ مني تمهيد لأمر لك، وأنه سيتحدث بنفسه
إليك، ولكنني طلبتُ منه القيام بكل شيء، لأن أحدنا يعرف
الآخر منذ مدة، وهذا شرفٌ لي والمسيح الحي، ولأنني رجلٌ
يحبك ويحترمك كثيرًا، سأخبرك بطلب المجلس الكنسي، دون
مقدمات، أنت تعرف جيدًا، أن هذه الفترة حرجة، صعبةٌ على
الجميع، الناس يعبدون في هذه اللحظة ما قد يدخلهم الجنة
وليس الله، لذلك وجد المجلس الكنسي أنها أعظم فرصة لنا، أن
نثبت مدى صحة وقوامة ديننا، ونحارب ضلالة الآخرين، عن
طريق ظهورك كمعجزة، معجزة ظهور المسيح الحي!

وقبل أن تُقاطعي أو تسبني أو تحسني، أنت لن
تفعل شيئًا سوى الظهور فوق سطح بيت، ثم سنقوم نحن
بالبقية، سنجعل رجالنا بالأسفل يصرخون باسمك فينظر الناس
جميعًا إلى أعلى مُهللين، ثم تختفي داخل شقة، لن يقدر على
فتحها أي مخلوق، بالطبع لأن الحشد سيصعد فوق السطح،
ليروك حيًا أمامهم، بعدها سينتشر الخبر، سيسمع كل شخص،
سيصدق الناس الأمر، لأن القائل بحدوثه ليس شخصًا واحدًا،
أو شخصين قريبين، الأمر ظهر للكثير، وفي اجتماع الكل على رأي
قوةٍ وصدق، فلا يشك أحدٌ في ما قيل! ثم إننا سمعنا خبرًا عن

احتمالية رجوع الإذاعة والتلفاز إلى العمل، وهذا معناه مساعدة أسهل وأسرع لانتشار الذي نرجوه! لن أطلب منك الرد على ما عرضته عليك، ولكن أتمنى أن ينتهي الأمر معي، لأن المجلس إذا تدخل -وأتمنى ألا يحدث ذلك- ستغضبك طريقتهم جداً يا محيي".

وصلا إلى بيت محيي برمسيس، انسحب بولس قبل أن يخبر محيي بوجود ضيف غير مرغوب فيه بمنزله، صعد محيي إلى الشقة مهرولاً، فتحت له طاهرة، أخبرته بوجود شخص ينتظره بغرفته، وهو ما تعجب منه محيي، محيي الذي لا يعرفه شخص ولا يزوره، دخل محيي ليجد الأنبا بطرس، يقرأ كتاباً من مكتبة محيي، ولما رآه ترك الكتاب مبتسماً، وقال له إن طاهرة هي التي طلبت منه الجلوس بغرفته، وذلك لأنها كانت تنظف بالخارج. لم يكن تركيز محيي متابعاً لما يقوله الأنبا، بل للكتاب الذي تركه، ثم ارتكاز الأنبا على صف الكتب المخصوصة أرضاً.

لم ينطق محيي بكلمة طوال وجود الأنبا بغرفته، لم يسأله الأنبا عن حديث بولس إليه، أو عن رأيه في المعروض، تطرق الأنبا إلى الأمر من زاوية مختلفة تماماً، فقالها له صريحة: "قبل مجيئي إلى هنا، ترددت كثيراً، كنت في حيرة من أمري، كيف سأفنعك إذا ما رفضت، لكنني تذكرت حين جئت أنت أولاً، وعرضت علينا ما سيفيد الديانة المسيحية، ولصدق نواياك يا محيي، ودون أي زعل، رُفِضَ طلبك لمدى حساسية الأمر، ولكن

دائمًا ما يباركنا الرب بعطاياه، فقد فكر المجلس في الاستفادة منك، وأعتقد أن بولس صديقك قد عرض عليك الأمر.

صدقني يا محيي، منذ معرفتي بطلب المجلس الكنسي، وأنا من يومها أفكر في منطقي يساعدي على إقناعك، ولكن يبدو أن الرب يساعدي في مهمتي، وها أنا، أقف أمام نسخة من ابن الإنسان، أقول له بنبرة ودود، يتخللها شيء من الجدية بضرورة تقبل المهمة، وإلا ستكون العواقب وخيمة".

رفع الأنبا كتابًا إلى وجه محيي، فتحه أمامه وبدأ في قراءة العنوان: "وليمة لأعشاب البحر، الرواية التي على رأس قائمة الإعدام، تخيل معي يا محيي، الموقف كالتالي، رسالة صغيرة إلى الحكومة، أقصد إلى السفارة العامة، أو إلى رسول من رسل الخير، مع دليل قاطع، عن وجود خائن، جلس مع سفراء الثقافة، وعرف الكتب المطلوب حرقها، ومع ذلك يحتفظ بالقائمة كلها في بيته، الحقيقة يا محيي هذا الموقف سيجعلني أطلب منهم ضرورة تفتيش بيوت العاملين بالنشر، قد نجد عاشقًا للكتب المحرمة مثلك، وفي وقتنا هذا، العقوبة صارت الإعدام حرقًا، نحرق المذنب بنار خطيته، وأنت هنا تملك كل الخطايا، كأنك يا محيي، يا شبيه ابن الإنسان، تريد أن تحمل عنهم الخطايا مجددًا، لكن هذه المرة، لن تُصلب، بل ستُحرق.. ولأنني رجل لا يعترف بقيمة الوقت، أعني قيمة الوقت للتفكير في أمور هامة، أطلب منك إخباري والآن بقرارك تجاه ما عرضناه عليك، هل ستصير معجزتنا؟ أم مسيحًا محروقًا في عالمنا؟"

من القصص غير المعروفة عن المسيح، ويمكن مناقشة الأمر بأنها قصصٌ معروفة، ولكن لا ينشرها الجميع، هو أنه في بعض الأحيان كان يتصرف كالבشر، ابن الإنسان المقدس في السماء والأرض، كان مثلاً يُظهرُ التأففَ ونفاذَ الصبر تجاه تلاميذه، الذين يجدون صعوبةً في فهم تعاليمه مباشرةً، وقد يسألون مرارًا وتكرارًا عن كنه الحكمة مما قاله، وهذا ما يجعلنا هنا نعرض موقفًا مشابهًا لمشادة حدثت بين المسيح وتلميذه الحوارى بطرس، حينما كان يتحدث المسيح عن عذابه وعن وجوب رفضه من قبل الشيوخ والكتبة ورؤساء الكهنة، وعن قتله بعدها، ولكن لم يكن بطرس راضيًا عن حتمية حدوث هذا، وطلب من المسيح الابتعاد عن تلك الفكرة تمامًا، فما كان من المسيح إلا أن صرخ به: "اذهب عني يا شيطان، أنت معثرة لي! لأنك لا تهتم بما لله ولكن بما للناس!"

ما فعله محيى بعدها أنه سحبَه من ياقة قميصه، وطرده خارج البيت، وصرخ هو الآخر من خلف الباب: "اذهب عني يا شيطان! إنك تهتم بصورة الدين وليس بخالقه!"

المشادة التي وقعت بين المسيح وبطرس، صُلبَ المسيح بعدها بثلاثة أشهر، ومع تشابه الموقف والأسماء، ومع تشابه محيى والمسيح، وخطايا العالم ثابتة، تختلف أشكالها، سأل محيى نفسه بصوت عالٍ: "إذا حُرق المسيح حيًا ولم يُصلب، هل كان سيظل موقفه ثابتًا؟ إلهي.. إلهي لا تتركني كما تركته!"

العامّة

أذان الخبز

بعد سماع الناس لنداءات الحُرّاس في مختلف المحافظات، وأمام كل تلفاز جلسوا سكوتًا، يريدون معرفة الأمر الهام، وبين كل ثانيةٍ وأخرى تظهر ابتسامةٌ خفيفة على وجه أم أو طفل، كعلامة شكر على تجمع العائلة، بعيدًا عن العبادة طوال الوقت، وبعيدًا عن قلق الموت، وعن جمع أكبر قدر من الحسنات، وفي الوقت ذاته، رب الأسرة يتابع في صمتٍ، يطالب أفراد المنزل بالهدوء، والبُعد عن الملذات والترفيه ولو مؤقتًا، فالوقت لم يعد في صالحهم، وكل ما تبقى من أشهرٍ، هي المهلة الحقيقية لكل محاولة غرضها الفوز بالجنة أو غفران، وفي أسوأ الأحوال، بأقل قسط من العذاب.

التنبية كان واضحًا، القناة الأولى للمُسلمين، والثانية للمسيحيين، والثالثة لما هم غير ذلك، وغير ذلك تعني اليهودي والملحد والربوبي، وأي ديانةٍ أخرى، حتى لو كنتَ عابِدًا للخبز، وهو الأمر الذي كان يرفضه صاحب الأمر في البداية، ثم أقنعه المُتحدث باسم الأزهر أن حرية الديانات أمرٌ سيزيد من رصيد محبته في قلوب السامعين.

ولإقناع الشعب برجعهم إلى العمل، وتقسيم اليوم ما بين خدمة الناس وخدمة الرب، كان لا مفر من خطبةٍ تجبر الملائكة على النزول من السماء للعمل مع البشر على الأرض من فرط الحماسة وصدق ما قيل فيها، ولأن الدينَ سلاحٌ، لا

تحيد رصاصاته عن الهدف، كانت كل خطبة، خرجت إلى طائفة مُحددة، كقيلة -وهذا وفقًا لرأي صاحب الأمر والسفراء- بإرجاع الناس إلى حقل العمل من جديد.

فوجد الأنبا بطرس، الذي خرج على القناة الموجهة للمسيحيين، بدأ كلامه بشكر الرب على كل النعم، ثم جذب الناس بسؤاله: "ومن العامل الأول يا أحباب الرب؟ نعم، الرب! اسمحوا لي يا أحباب يسوع بالكلام عنه بأبسط العبارات، وهو ليس ثقيلًا، بل أريد أن يفهم الناس كلامي، الرب هو أول من عمل، وقال عن عمله بنفسه حسن جدًا، بعدما خلق الأرض في ستة أيام، الرب كان عاملاً، يُفكر ليلاً نهارًا في كل شيء لينتج لنا الجوهرة المكنونة التي تُعرف بالدينا، وكيف أنه زرع لنا قبل مجيئنا، فجننا لنجد الفاكهة والخضراوات، الصناعة والهندسة، فهل يا أحبابي ويا أحبابه نجحد كل ما فعله لنا، ولا نشكره على نعمه، ولا على نعمة سماحه لنا بمعرفة الغيب، ولا على نعمة إعطاء الفرصة لتكفر عن خطايانا، ونبقى في بيوتنا؟ نترك الأرض التي عمرها الرب من قبلنا؟ نترك الإنسان الذي فضله على سائر المخلوقات يموت جوعًا؟ نترك الطبيعة القديمة (الجسد) بلا قوت؟ ونترك الطبيعة الجديدة (الروح) بلا فرح؟ من نحن من الأب، وعظمة الأب، كي نتوقف عن العمل؟ أيعقل أن يعمل الأب، من أجلكم، وفي النهاية تنكرون كل هذا؟ وتعبدون فقط ليرضى عنكم؟ وأين العمل؟ وماذا لو مات أحدكم جوعًا؟ وماذا لو عاز شخص الدواء؟ وماذا

لو سقطت عجزاً مغشيةً عليها، لأن الكلى تحتاج إلى غسيل؟
الأسئلة كثيرة يا أحبائي، ولكن العمل الذي ينتظرنا أكثر."

فيغيرُ المسيحي المُخلص القناة كي يرى ما يقوله الشيخ لأخيه المسلم، وكيف تم ربط كل شيء بالدين، فيجد الكلام نفسه، بآياتٍ وذكرٍ من الدين الإسلامي، والكلام عن الجوع والجسد والروح، وخلق الله للدين، فيسد أذنه، حتى يصل إلى المطلوب في النهاية: "نتنظركم يا أحباب الله ورسوله، بدءاً من الغد، بالنسبة إلى محافظة القاهرة، في ميدان التحرير، وبالنسبة إلى محافظة الإسكندرية في ميدان محطة الرمل، وبقيّة المحافظات حتى لا أطيل عليكم، بعد الخطبة ستظهر على الشاشة أحبابي الكرام، نتنظركم في الميادين العامة، للحصول على استمارة التعيين، وكما قلّ في بداية حديثي، لا نحتاج إلى خبراتٍ، الخبرة نحتاج إليها في المجال فقط، وأصحاب الخبرات لهم رقم هاتف، سيتواصلون معنا من خلاله، نريدكم أن تساعدونا على تشغيل الحياة من جديد، وحتى لا يغضب أحدكم، أو يقول ممنعه عن ذكر الله، ستعملون يوماً وترتاحون يوماً، وهذا يعني لصف الشهر للعبادة الخالصة، ونصفه الآخر للعمل، ولإنقاذ البشر من كارثةٍ محققة، وهذا في ميزان حسناتكم، ولا تنسونا من فضل دعائكم يا أهل الخير، وقبل أن تُنهي حديثنا الرائع معكم، نذكركم بأن رُسلَ وحُرّاس الخير سيدخلون بيوتكم -بعد إذنكم طبعاً- للتخلص من كل الكتب التي تدعو إلى الرذيلة، نحن نريد ضمان الجنة لكم! والسلام عليكم جميعاً يا أهل

الجنة بإذن الله ورضاه! ولا تنس أخى المواطن انتظار الشاشة الخاصة بأماكن التعيين".

وفي طباع البشر مكر، يعرف الإنسان متى يستخدمه، وخاصةً لحث أخيه الإنسان على الطاعة، فمتى سمعت أن الله يعمل، سيصيبك الحرج، وستفكر في طرق تُساعدك على الرجوع إلى العمل لأن الله يعمل، وفي الوقت ذاته، ستبحث عن طرق، تقيك النار وعذاب النار لأن الله يرى، وطوال الوقت، ستدرك أن قدر الإنسان الشقاء، وقدر الفقير الشقاء والفقير، لأن الله يُحب الكل عمومًا، والفقراء خصوصًا.

بعد إذاعة البيانات، وبعدما تأكدَ الرئيس من مدى فصاحة وبيان الخطب، راجع الأوراق التي تركها له السفير العام، تقسيم المناطق والمحافظات، أعداد المطلوبين للعمل، عدد عربات البضائع، وكل الأوراق الروتينية، المُشجعة بأيام قليلات رائعة قبل مواجهة الرب، وهي الكلمة التي هزت الرئيس، وأجبرته على بلع ريقه بصعوبة، الرئيس الذي لطالما سأل نفسه، كيف سيكون يوم الحشر، ومتى سنقوم من مدافننا، لم يخطر بباله نهائيًا أن تقوم القيامة في عهده، وأن يكون آخر الرؤساء لهذا البلد، سؤال غلب الأرق بنفسه من كثرة تردده، على حياة الرئيس، وكان كلما فاتح زوجته في هذه المسألة، تقول له: "يوم القيامة ستنادى بآخر رؤساء هذا البلد، وهـ، شرفٌ عظيم بين الناس"، لم تشغل المواجهة ذاتها باله، هـ، يعرف كيف سيحاسب، وأنه له حسابٌ خاص، لأنه لم يكن،

رئيسًا لمصنع أو شركة، بل كان رئيسًا لبلد، شعبه بالملايين، فالخطأ واردٌ، حتى لو آلاف الأخطاء.

وقبل أن يضع الأوراق جانبًا، خطف انتباهه ورقةٌ، معنونة بكلماتٍ، كتبها شخصٌ واثق بوجهة نظره، قرأها كثيرًا: "قائمة مُتخَيَّلَة للفئات النازلة غدًا"، في البداية رفض النظريات المعروضة، ثم فكر لثوانٍ، وأقسم على إعطاء نصف ثروته، التي لم يتخلَّ عنها مثلما فعل الآخرون، إذا ما صدق المكتوب هنا، وهو أن طبقةَ الأثرياء، بمختلفِ شخوصها، ستكون الفئة الحاضرة غدًا، من الصباح الباكر، تليها الطبقة المتوسطة، وقد يحضر قليلٌ من الفقراء، الذين يطمعون في مزيدٍ من الحسنات، ليضمنوا دخول الجنة في مرتبةٍ أعلى، إذا كان للفقراء مرتبة أعلى -عند الله- من مرتبةِ "الفقراء يدخلون الجنة".

المُضحك في المكتوب هو الجملة الأخيرة، التي افترض فيها عارض الأمر عدم حدوث ما سبق، ونفي مجيء أي طبقةٍ، الجزء المُضحك ليس في عرضه، بل في التعليق الجاهز كرد فعلٍ لهذا الرفض: "حملات إعداد عشوائية لمختلف الطبقات كنوعٍ من أنواع التحذير للخارجين عن الطاعة والقانون، وستتم إذاعة للبطات موتهم، وذلك وفقًا للأحكام المعروفة في الخروج عن طاعة الحاكم، خاصةً أن الطاعة حاليًا واجبةٌ جدًا، بسبب قرب القيامة، وأنه لا مزيد من الوقت للتكفير فيما بعد".

ضحك الرئيس حد السعال، وأخرج كتابه ليقرأ المكتوب، أجد الجملة نفسها التي يجدها في كل موقفٍ: "الحاكم رب

مواقفه"، كل أمور حياته العادية مكتوبة، كل ذنوبه مدونة، كل خطاياها موثقة، إلا القرارات وسياسات البلد، كلما رجع إلى كتابه، وجد الجملة الباعثة على الحزن والكآبة، فينظر إلى السماء ويقول الجملة ذاتها كل مرة: "هذا ظلم يا رب الظلم والعدل!" ويرميه تفكيره إلى بئر عميقة، ماؤها أسئلة بلا أجوبة، فيغرق في قلقه، ويقتله قلقه ألف مرة في الدقيقة، ثم يتفاجأ ببحر من جُمَلٍ، كلها متشابهة: "الحاكم رب مواقفه"، فيتمسك بقشة تنقذه دائماً، قشة أنا، بشر غير معصوم من الخطأ.

رفع الرئيس سماعة الهاتف، وأمر السفير العام بالعثور على المتسبب في إعطاء الأمر للإذاعة، وكشف الخبر على أنها القيامة، وليس يوماً عادياً أو منة من الله لمعرفة الغيب ولو لفترة قصيرة، فعام كامل من كشف الغيب هو شيء عظيم، لطالما عناه الإنسان، بطرق مشروعة، بعيداً عن الدجل والشعوذة، ولكن الوصول إلى استنتاج أنها القيامة؟ أمر عظيم لا يُستهان به.

كانت اللحظة التي أغلق فيها سماعة الهاتف هي اللحظة نفسها، التي تُفتح فيها أبواب البيوت في كل الشوارع والمُحافظات لحُرّاس ورسَل الخير، فيدخلون البيوت في جدية وصرامة، ويطالبون أهل البيت بمساعدتهم وإخراج كل الكتب الموجودة ورميها أمام العمارة، ثم توقف رسل الخير عن إرهاب أنفسهم، وتركوا العمل لحُرّاس الخير، الذين بدورهم صرخوا بالناس كي يُسرِعوا ويخرجوا الكتب!

لم يعترض شخص واحد على أي محرقة ستحدث للكتب، لم تصب شخصاً الحسرة على كل ما دفعه في مجلداتٍ أو كتبٍ نادرة، أو لم يشعر بأي حزنٍ على الكنز الذي لطالما قال إنه سيتركه لابنه ولأحفاده، وفي كل الشوارع والمُحافظات تصاعدت الأدخنة، كأنها محرقة جماعية مُتفق عليها.

الناس ينظرون إلى الكتب، منهم من يودعها بفتور واضح، ومنهم من يبصق عليها، لقد جحدوا دور الكتب في تثقيفهم وفي بناء معرفتهم، في تسليتهم وضحكهم وحُزنهم، في كل الرحلات التي سافروها وهم بأماكنهم، لقد جحدوا بدور الكتاب وما فعلوه على مدار السنين، لقد بصقوا على ورقاتٍ كانت في يومٍ من الأيام تقول لهم: "أنا أشعر بك"، أو "هذه نهاية الظالم"، أو "هذه قصة ستجد نفسك فيها"، أو "هذه أبيات شعر لشاعرٍ وحيد حزين مثلك".

تخلص الناس من الكتب، ورموا عليها ذنوبهم، وقالوا إنها سببٌ من أسباب عذابنا، بما تحويه من ذنوبٍ وموبقاتٍ نحن في غنى عنها.

وضع الناس أخطاءهم على مشجب الكتب، كأن الكتب هي فتنتهم، التي رقصت لهم، فركضوا خلفها دون تفكير. بهذه الحركة، وبعد حرق الكتب في المكتبات والبيوت والمكتبات الكبيرة والصغيرة، وكتب دور النشر، والكتب الموجودة في المقاهي والسينمات، محا البشر بجدارة فضيلة الثقافة من

وجه الدولة، وابتسمت دواخلهم مؤقتاً لما تخلصوا من ذنوبٍ عظيمة، كما كانوا يرونها.

العامّة

صلاة المخبوزات الفرنسية

في كل القصص التي عرفناها، وكل الأساطير والحكايات التي سرّدها روائيٌّ، سواء كان كاتباً أو فناناً، منشد ربابةٍ أو ممثلاً مسرح عرائس، جميعهم بخّل الخيال عليهم بفكرة غرائبية، تتمحور حول رغبة الأغنياء في التنافس مع الفقراء معدومي الدخل للحصول على وظيفةٍ عادية، كالوقوف مثلاً في سلسلة مطاعم، كعامل تقطيع لحم، أو لركوب عربة لبيع المشروبات، وقد تتفاجأ مثلاً حين تجد نجماً مشهوراً، أو كان مشهوراً، يصفع فلاحاً، لأنه يريد أن يصير هو الفلاح الذي يزرع هذه الأرض! وقد تهاجمك نوبة ضحك حين تشاهد ممثلةً لامعةً، برعت في كل أدوارها، تقف الآن لتقديم المثلجات، وقتها لن يُدهشك مشهدُ اللاعب العبقرى، الذي صار يمسح الحمامات، في مركز تسوق ضخم، وتخيّل أن يُعطيك محرمةً بعد خروجك من الحمام!

فكرةٌ عجيبةٌ بجدارية، لم تخطر على بال أبرع الرواة، ومن ذا الذي قد يُفكر في حكي ملحمة عن عوز الأغنياء! متى كان

العوز مُصاحبًا للأغنياء؟ ما عرفناه منذ بداية الخلق، أن العوزَ ديانةُ الفقير، يقيم شعائرها يوميًا ليضمن دخول الجنة.

بعد الإعلان في القنوات عن الحاجة إلى إعادة تدوير الحياة، نزل معظم الأغنياء بمختلف طبقاتهم، وقفوا في الطوابير، لم يسأل شخصٌ واحدًا عن مهنته أو مكان الخدمة، نزلوا إلى ميدان التحرير، وقفوا للمرة الأولى في حياتهم لساعاتٍ، يتحدث الفنان الملياردير سابقًا إلى المُدرب المليونير الفاشل عن نعمة الفقر في الوقت الحالي، وعن فضيلة العمل، تُحدث الفنانة المُعتزلة زميلتها المُمتلئة الناحجة عن شرف الموت فقيرةً، وأن مهما كان العمل قاسيًا، لن تراجع أبدًا.

تعاونُ الموجودين مع الموقف سهّل على المُنظمين سرعة التعيين، لم يرفض شخصٌ واحدٌ وظيفته الجديدة، بل وسمعَ الناس بوضوح ما قاله البعض في رضا تام: "وظيفة أدنى الله يكرمك!" ولم يُصدق رجل التعيينات، حين لمَح ابنةَ ملياردير هارب تطلب من زميلته تسجيل اسمها مع عاملات الحمام، وأنها إن تقاعستُ عن أداء دورها، فليعدموها وفورًا!

وقف رجال الدين، في حماية رُسلٍ وحُرّاس الخير، يشكرون الناس على سرعة استجابتهم، القس يدعو لأحباب المسيح، الشيخُ يعدهم بدخول الجنة مع الحبيب المُصطفى، الطوابير تختفي، كل شخصٍ عرِغَ مكان خدمته، قررت الدولة في اللحظة الأخيرة أن تكون الملياديين العامة هي أماكن العمل والبيع، بدلًا من العربات التي تطوف المحافظات، وسيتم تأسيس كل

ما تحتاج إليه المهمة، من ثلاجات وأرفف لعرض المنتجات، وسحب الكهرباء من عواميد الإنارة، وسيدفع الجمهور مبلغًا رمزيًا عند الشراء، كنوع من تحفيز الموظفين، ووجود بعض من المال، لسد الحاجة من صيانة، وإعادة تزويد لمنتجات انتهت، أو قاربَتْ على الانتهاء.

حددت السفارة العامة عدد المطلوبين لإعادة تدوير الحياة، وفي بيانٍ صريح واضح عرفَ الناس أن المطلوب هو مئة ألف فقط، وفي حالة طلب المزيد سيتم الإعلان عن ذلك.

تابع الرئيس حركة التعيينات، وكافأ السفير العام على صدق حدسه، وبراعة قراءته للموقف، وطالبه بمتابعة أمر المُتسبب في الزوبعة، ثم أمرَ السفير الاقتصادي بتحديد المهلة المتوقعة لاستقرار الأمور من جديد في أسرع وقت، قبل أن يوقع له على ورق يُفيد بمواقفة الرئيس على قتل وسحل كل متكاسلٍ، وإعدام أي شخصٍ قد يطلب إجازةً، أو عدم التعاون، إذا ما تم استدعاؤه، لم يفكر الرئيس في فجاجة المطلوب، المُهم هو سرعة الاستمتاع بما تبقى من أيام، وقتل التخلي عن الأشياء أو نسيانها، لمجرد أن الناس تركوا العمل، وتفرغوا للعبادة.

وفي خلال شهر بالتمام والكمال ساهم المتطوعون مع الدولة في مختلف المحافظات في التجهيزات، وفي بناء وإعداد كل المطلوب، ثلاجات ضخمة، أرفف تدور مع دوران الميخان، بل وتُكمل إلى بدايات الشوارع المجاورة، الميادين باتت بقلات كبيرة الحجم.

والفكرة -إحقاقاً للحق- جاءت من رسمٍ لابنة سفير الداخلية، لما شاهدها ترسم ميداناً، وتضع به كل ما سبق، وعند سؤالها عن السبب، قالت براءة الأطفال: "شكل الميدان مبهج هكذا! أستطيع شراء كل الحلوى من الميدان!" اليوم التالي، عرض سفير الداخلية الأمر على السفير العام، مع وضع بعض التعديلات، وأهمها هو تقليل النفقات، وأكثرها أهمية هو سهولة الوصول إلى أي ميدان، بدلاً من عربات في أماكن محددة، لتعجب الفكرة السفير العام، ويعرضها بدوره على الرئيس، الذي وافق عليها، وشكر السفير العام على ذكاء بصيرته، وعلى جمال أفكاره غير التقليدية.

وبدأت حركة البيع بأسعار رمزية، المنتجات المعروضة كلها مؤقتاً هي عبارة عن معظم ما خزنه الناس سابقاً فترعوا به إلى أن يحين وقت الحصاد، وكان كل المعروض عبارة عن معلبات، وبعض المشروبات الغازية، أنواع من الشوكولاتة التي لم تفسد بعد، رقائق وذرة حلوة، ألبان طويلة الأجل، علب حلويات سريعة التحضير، كأم علي والمهلبيه، عدد لا بأس به من أكياس الأرز والمعكرونة، زجاجات شربات وعصائر، بصراحة، لم يبخل الأغنياء بشيء كي تزدان الأرفف بكل ما يبهج المعدة والقلب.

السلاسة تظهر رائحة، الكل متعاون، حركة البيع ممتازة، الناس يعملون يومًا ويتعبدون يومًا، يفرحون لأنهم يأكلون أم علي، ثم يحزنون لأنهم سيموتون هم وعلي وأمه! المدينة

أصبحت صورةً تمناها الإنسان كثيرًا، وتعالَتْ نغمة (الحمد لله نعيش في أفضل وأعدل عصور حياتنا).

والفقراء في بيوتهم ساجدون، يطلب الواحد منهم العفو، ويقول في سجده: "يا رب! كنتُ وما زلتُ فقيرًا، فهل الجنة جزائي؟ فهل حُسن الخاتمة يناديني؟ يا رب، أنا الفقير ابن الفقير، الذي ورث الفقر عن جدوده، ويحمدك الآن أنه لن يورثه ابنه، يتوسل إليك، ألا تضعنا مجددًا أمام فوهة الظلم والأغنياء والشقاء، لن نغادر السجادة إلا على قبورنا، أو على نفخة القيامة، يا رب، نحن جاهزون لحسابك، لا نخاف من أي ذنب، نحن الفقراء ذنبنا الوحيد هو أننا صدقنا رجالاً وعدونا دومًا بالرخاء، ولم نجد إلا الخراء".

عامل الدوكو

في مسرح كبير لعرائس خشبية، وحكايات تُروى بمعجزة إلهية، راقب عبد القوي حركات العم آدم وهو يدهنها بلون لحم الهوانم. دُهِشَ لما رأى العددَ الموجود، الذي يقف في تحدٍّ واضح كالأسود.. لم يفهم عبد القوي فن التأويل، ولم يُرهق دماغه لفهم القليل، لكنه وقف يساعد مع العاملين، يدهن بما برع فيه طوال السنين، ويناوِل السجائر والأرجيلة للمحتاجين. لم يُسأل عن حكايته أو ماضيه، واحدهم مشغول بما فيه، حتى ناداهم بكار لخطبة اليوم، التي يتحدث فيها بلا خبثٍ أو لوم

ولما هربَ عبد القوي من منزل منة، بعد حادثة الزنا المذبذبة، فتح كتابه ليجد حلولاً كثيرة، تُخرجه من الأزمة ببالٍ مرتاح، منها مثلاً مسرح العرائس الخاص ببيكار، أو العمل على مركبٍ في مرسى يبعد عن منطقة بولاق حيث منزل منة، أو السيدة زينب، حيث منزل عبد القوي، فيطمئن لصعوبة القبض عليه، وعدة حلولٍ أخرى، كان أسهلها على عبد القوي، وأكثرها توفيراً للطاقة وللُمغامرة، هو الذهاب إلى مسرح بكار، الذي لم يمانع وجوده نهائياً.

حدثهم بكار عن الشغف، وعن النعمة المُحاطين بها، وما يقصده هنا هو المسرح والعرائس، وعن جهل الدولة بمكانهم، لم صحح لهم المعلومة، وقال إن الدولة هي رسلُ الخير حاليًا، ثم ذكّرهم بنعمة الاختباء من رسل الخير، فلا تجد زائرًا منهم يحثك على ترك السيارة، أو عدم الضحك على نُكتةٍ سافلة، وربما يسألك لماذا لا تعمل في أسواقنا؟ لماذا لا تُعيد الحياة معنا؟ حدثهم عن سعادته، واليوم بالتحديد، واكتفى فقط بذكر أنه سعيد، ولم يقل لهم شيئًا.

حدثهم بكار عن ثبات المبدأ، وعن حتمية الحفاظ على الكينونة، فالإنسان هو الإنسان، مهما عرفَ من غيبٍ، ومهما استنبط من المُعطيات قربَ يوم القيامة، سيظل هو الإنسان، المخلوق الذي يفعل الخير والشر، ويرر لتلّسه كل ذنوبه، وسيتقبله الله بعبيه هكذا، ولن يُحاسبه على فضيلة تذبذب الثبات، فالثبات الدائم للبهائم، أما التقلب بين الحسنه والسيئة، التيه بين الصح والخطأ، التردد في تذوق الفتنة، في شرب

الخمر، في رفض غواية امرأة، ولو كانت ثلاثينية لَوُضِعَ في اختبارٍ صعب، عن مقاومة النظر إلى جسد بنتٍ قد يُجبر الجبال على السجود له، كل هذا التخبُّط هو الإنسان! والأمثلة لا حصر لها، وما غير ذلك هُم القديسون والأنبياء، الذين يرفضون الطبيعة البشرية، وهو ما يضخه بكار في قلوبهم، البشر هم الأخطاء، وأفعال الخير والتوبة والرجوع إلى الذنوب، والله خلق الإنسان، ويعرف عنه كل هذا.

صفق العم آدم بحرارة، صفق بمفرده، ليضحك بكار على المشهد العبثي، ويلوم نفسه على فعلٍ غبي كذلك، كيف يحدث فقراء -من وجهة نظره- كل همهم رغيْفُ العيش، عن فتنة التقبيل أو ترويض أنثى، كيف يحدثهم عن الإله، وهم يعبدونه فقط ليُدخلهم الجنة، ليس لأي اعتبارات أخرى، ككونه مثلاً الخالق، أو مُدبر الأمور، ويمكن لأنه واهب كل شيء، والعارف ببواطن الأمور وظاهرها، لم تشغل بالهم فكرة الله، بل استحوذت عليهم تمامًا فكرة إرضاء الجالس على العرش، فيدخلهم إلى جنات نعيم، بلا سابقة عذاب، أو بعذاب أقل، عكس الكُفار والملحدين وأصحاب الديانات الأخرى.

اقترب عبد القوي من بكار، وشكره على استضافته بمسرحه الساحر، الذي يُشعره بأنه في الدنيا العادية، بعيدًا عن المدينة الفاضلة، وعن التحكمات الغريبة، وعن منة وأهلها، الذين يجهلون تمامًا مكانه منذ تركها هاربًا بفعل الفضيحة المُفتعلة، والذي حكم أبوها عليه الزواج سريعًا، وإلا سيسلمه لرُسل الخير، فما كان من عبد القوي إلا اللجوء إليه.

تفاجأ عبد القوي بأن العرائس الخشبية تحتفظ بأشكالها المختلفة، فلا تجد شكلاً مُتشابهاً مع الآخر، فإذا كان عدد الموجود تخطى المليون، فهذا يعني أن مليونَ شكلٍ صُمم.. لعمد عبد القوي تجاهل السؤال عن السبب أو الكم، لكنه لاحظ الأرق، وقلة النوم أو انعدامه، في عيني بكار. لم يكن عبد القوي متمكناً في خلق الأحاديث، بالكاد يتابع الحياة من حوله في المسرح، ويُعبر عما يحتاج إليه في العمل، ويصافح ويلقي السلام على العاملين، وقد يقول نكتة أو اثنتين، ولا غير ذلك.

أما بكار، فقد لاحظ اهتمام عبد القوي بآدم، وكيف أنه قد يقف ساعة كاملة يراقبه في أثناء عمله فقط، ويحاكيه في ما يفعل، حتى لو عبد القوي يعرف أموراً تساعد على إنجاز المطلوب منه على نحو أسرع، سيتخلّى عنها، مُقابل أن يراه العم آدم، ويثنّي عليه لأنه يتعلم منه، مثلما كان يعلمه أشياء منذ الصغر، حين كان عاملاً لدى والده، فببتهج عبد القوي، ويطلب المزيد من زملائه، حتى جاء إلى بكار، وطلب منه أن يُعلمه كيف يُحرك العرائس، فهو يعلم كثيراً عن طريقة صناعتها، لكنه يجد صعوبة في تحريكها.

ابتسم بكار لعبد القوي، وأشار إليه ليتبعه إلى مكتبه، وبعد جلوس عبد القوي أمام بكار، فتح الأخير كتابه، وقرأ المكتوب بصوتٍ مسموع: "وطالبُ الأمرِ شخصٌ ذو مكانة عظيمة، يظن لنفسه نكرةً بلا قيمة، لم يُرهق بآله بالتفكير، وهو عليمٌ بأشياء تُجابه المسافة بين السماء والأرض، ولم يهتم بمتاهات الحياة، أو السعي الكاذب خلف السراب، طالبُ الأمرِ تَخلى عن فضيلة

التفكير، وعاش منتظرًا ليوم وفاته، فقريبًا يموت، وقريبًا يُبعث من جديد، بعقلية مُفكرٍ، وبروح إنسانٍ مُلهم لكل من حوله."

ولما انتهى بكار من قراءة هذا الجزء، شرَحَ لعبد القوي، القاعد بتعابير وجهٍ تخبر الكثير عن عدم الفهم: "منذ مجيئ الناس هنا يا عبده، لم يطلب أحدُهم مني هذا الطلب، كلهم هنا يساعدون فقط، إما في دهان العرائس، أو في سنفرة الخشب من أجلي، أنت الوحيد الذي فعل ذلك، وسأُخبرك شيئًا غريبًا، كتابي هذا، من اليوم الأول لسقوطه، وهو يأمرني بصنع المزيد من العرائس، لم يحدد عددًا، ولكن كلمةً المزيد كافية، حتى لمحتُ صباحًا وجود جملة جديدة في الصفحة، بعدما يؤس عقلي من وجود أي شيء غير الأمر بصنع المزيد من العرائس، والحقيقة يا عبد القوي، سعادتي بسبب هذا الموضوع تكمن في شيئين، تغَيَّر محتوى الصفحة أخيرًا، ووجود شخص مهم في مسرحي، حتى لو لم تكن مُقتنعًا يا عبده، فهذا المكتوب، وهو قادمٌ من الخالق الذي لن يكذب، ولن يكتب، عبثًا، أما بخصوص تحريك العرائس، فالأمر في غاية السهولة، عندما أنتهي من صناعة العدد المطلوب، أعدك أنني سأعلمك، حتى لو قبل اليوم الأخير!"

لم يزر النومُ سريرَ عبد القوي، ظل طوائِل الليل يفكر، وكانتِ المرة الأولى التي يشغل باله التفكير، لمدةٍ طويلة، يتقلب بين المكتوب في كتاب بكار، والمكتوب لديه، حين ركض به اجتماعه مع بكار إلى سريرهِ وفتح كتابه، ليجد جملةً واحدةً في التوقيت نفسه الذي يطالعه: "صدق الإيمان بعظمة القدر

ينبع من قوة الإيمان بجلال الروح، وأهم صفات العظماء،
لكران الذات حد التحقيق".

وفي حيرة عبد القوي أمرٌ جلل، هذا الرجل الذي فتنَ
المنطق حين مر أمامه في عدم اهتمام، الرجل الذي لم يهتم
بكل النظريات والأفكار، بكل الحوارات والمناظرات، الرجل الذي
مشى فوق جسرٍ من تفاهات، ووصل إلى مدينةٍ من ورقٍ،
همزها كيفما شاء، الرجل الذي يظن من يعرفه أنه جاء من
السماء بأمرٍ إلهيٍّ، وألا يفكر وأن يسعى في الأرض مرحًا، الرجل
الذي لا يُفكر، ومع ذلك يعرف الكثير، ولا يكثرث لحياةٍ تُعاش
أو لموتٍ آتٍ أو لفكرةٍ جاءت، وحتى لما حاولتُ فكرةً غوايته
ليذنب ويفكر فيها، حين فكر في حساب عمره من يوم ثبوت
وجوده داخل رحم أمه، لم يعطيها الكثير من وقته، ولم يسعَ
خلفها لتحقيقها!

عبد القوي هو نبي الفُرس الضائعة، نبي الحياة الفائتة بلا
هدف، نبي مرور العمر مرورَ الكرام.

ابنة الشوارع

"شبقٌ من نار" الجملة الأقرب إلى قلبها، كلما ضاجعتُ
أحدهم قالها، في متعةٍ ولذة، لم يقدر عليها ذكرٌ أكثر من ثلاث
دقائق، بعدها ينفجر نهره، هذه المرة مختلفة تمامًا، لأن الذي
بجاسدها رسولٌ من رسل الخير، شكله مقبول، عضوه فاخر

وفاجر، وهذه حقيقة تُحب دومًا أن تخفيها عن الزبون، فلا يرى نفسه قيصراً، ولا يُعاملها كجارية.

تُعجبها المعادلة الغريبة، رجل دين -أو فلنقل من حماة الدين- خلع عن نفسه ثوبَ القديس، وها هو بالأسفل، يلعب فرجها، ويسيل لعابه ككلب، وفي الوقت ذاته، بعدما يطردها من منزله، سينزل إلى الناس، ويأمر كل شخص بفعل الخير، ويعدم المذنب. قال لها: "هل يُعجبك إصبع بطني؟" لم تفهمها في البداية، ثم ضحكت كثيراً وامتنعت عن الإجابة لما عرفت أن ذكره هو المقصود، اسم غريب، سيعيش معها طويلاً، وبالتأكيد ستنسى صاحب الاسم.

كلما نظرَ إليها، وجدها تجلس صامتةً، فيزيد من محاوله إثارتها، ولا يحصل على نتيجة، وهو في عُرف الرجال فضيحاً! كيف تكون بين يديك أنثى، ولا تصرخ بمدى جبروتك، ولا تشكر الخالق على نعمة عضوك، أو تطالبك بإيلاجه في عنفٍ بالغ! كيف تكون أمامك أنثى، وأنت تعرف جيداً، من خبراتك معهن ومن حكايات النساء، أن الجنس بالنسبة إليهن مخدراتٌ. والآن تراك امرأة، التي تجتهد لتغريها، مجرد سيجارة عادية، تبغها مضروب، تأثيرها خفيف، سعرها رخيص، غير مرغوبة في السوق.

تمسك بأمله المتبقي، وأمرها بمداعبة عضوه، لتقول له في برود تام: "أداعب الضخم الذي يستحق فقط، وفي حالنا، يمكنك أنت أن تداعبه، لأنني لا أراه جيداً من صغر حجمه!"

رصاصه شرفٍ تقتل في الحال، خرجت من فمها، لتخترق فحولته فوراً، ليقوم من مكانه، فيصفعها ثم يركلها بعنفٍ، وحاولت نعمة الوصول إلى الكيس الأزرق، الذي تضع بداخله السكين، لكن رسول الخير كان أسرع منها، وسحب مسدسه من بنطاله الملقى على الأرض، ومعه رسالة الغفران، صوب سلاحه تجاهها، وبدأ بتلاوة نص الرسالة: "إلهي الذي خلق السماوات والأرض، وجزى الطيب من طيب فعله، وعاقب الشيرَ بخبث طبعه، هذه المرأة التي ضلّ طريقها، سدد أمانةً روجها إليك، لتطهرها أنت، من كل ذنوبها، بيدك المباركة الماسحة لكل الخطايا، فتقبل يا رب نُبلَ تصرفنا، وتقبل توبتها"، لم يسألها عن أمنية أخيرة، لم يعطيها الفرصة لتقول شيئاً، أطلق الرصاص في منتصف صدرها، ثم أتبعها بأخرى في بطنها، وهذا لما شاهد الثالثة تخترق كتفها اليسرى، قبل أن يركض تجاهها ويفرغ بقية الطلقات، في تنوع محسوب، تارةً في فخذها اليسرى، وتارةً أخرى بيدها اليمنى، ثم بعشوائية خلاقية، جرها خارج منزله، ورماها في الشارع العام، أمام الجميع، وظل يصرخ كي يتجمع الناس حولها، ويُخبرهم عما فعلته تلك الفاجرة.

تجمهر حشدٌ كبير، الكل يعرفها، نعمة البنت المجنونة، التي تكرههم، والتي تجلس دوماً بكيسها الأزرق البلاستيكي أمام مسجد العسال بأبي حماد الشرقية، والتي تكره كل ما يتعلق بهم. سألت طفلةً بصوتٍ مهزوز عن السبب، فقال الرسول: "يا صغيرتي، واسمعوني أنتم أيضاً، هذه الفاجرة، كانت تسرق من بيتي، ولحسن حظي، كنتُ عائداً لأحضر عدة كتب

دينية، لأوزعها بين الناس، تخيلي يا صغيرتي؟ سارقة في وضوح النهار، وتسرق من؟ الرجل الذي يسهر ليتأكد من خلوكم من الذنوب؟" لم يسأل أحدهم ماذا سرقَتْ، كادتِ البنْتُ الصغيرة تفعلها، لولا أن أباهَا أمرها بالسكوت، لسمع ما الذي سيقوله الرسول، قبل رحيله: "كما تعلمون يا أهل الخير، المُذنب يُترك في الهواء الطلق، إذا مات فهو ذاهبٌ إلى المولى، فيطهره من ذنوبه، أما إذا ظل على قيد الحياة، لأسبوعين متتاليين، نعرف وقتها أن الله يعطيه فرصةً ثانيةً، فنعالجه وندعمه، حتى يقف على رجليه من جديد، وفي ألمه تطهيرٌ من الذنوب، وربما يلحق ويُكفر عن ذنبه أيضًا بأفعاله، لذلك يا أهل الخير، إذا عرفتُ أن أحدكم ساعدها قبل انقضاء المدة، سينام بجانبها أرضًا، وأقولها مُجددًا، أي أحدٍ، مهما كان، رجلاً أو سيدة أو طفلاً، سينام بجانبها أرضًا إذا ساعدها! المُذنب له رب يساعده، ونحن على أعتاب يوم القيامة، ونريد كل فعلٍ يضمن لكم الجنة!"

تفرق المُجتمعون عنها، كانت وحيدةً تحت الشمس، الأم ينهش في جسدها وروحها، لم تفهم كلمةً مما قاله الرسول، تتأوه بصوتٍ خفيض، تشعر بكل رصاصةٍ تضحك عليها، نعمة التي كانت قويةً، بكرهها للبشر ولخالقهم، والتي أقسمت ألا تقبل أي اعتذارٍ، حتى لو أرسلها كنبيةٍ بدينٍ جديد، أو وضع اسمها في نص مُقدس، لن تسامحه على حياتها الفاتنة، بكل كوابيسها، لن تسامحه على أي يومٍ رماها واحدٌ بمسبةٍ أو بحجرٍ، لن تسامحه على ترك أهلها لها، على موت الخال سند، الرجل الوحيد الذي ساعدها بصدقٍ، لن تسامحه على البُقع

وخوف الناس منها، على الفترات التي قضتها في الشارع، على اللحظات التي شاهدت البنات في أحضان الرجال، سواء كان الرجل حبيباً أو أباً، عاشقاً أو زوجاً، لن تسامحه على وضع كل العثرات في طريقها، على ملء رحلتها بشوك يقتل لا يجرح، لن تسامحه على عبثية الطريقة المكتوب بها قدرها، على أي لحظة لمحها كلب أو قطّة أو فأر وسخ، وهربوا خوفاً من شكلها، لن تسامحه على خلقه لها، واختيار اسم "نعمة" لها، لن تسامحه على الحكمة من تعذيبه لها بهذا الشكل المُهين.

شعرت بأصابع صغيرة تمسح الدماء الوقعة الموجودة على وجهها بماء فاتر، ولمس قماش يخبرها بأنه فستان، وبصعوبة بشوبها قلقي وارتعاشية، عرفت أن الفاعل طفلة، لم تأبه لكلام الرسول، ولا لتحذيرات أهلها، كانت تبكي من منظر نعمة، أمسكت البنث الصغيرة يد نعمة اليسرى، وقالت: "لا تخافي، سأساعدك كل يوم، والمسيح الحي لن أتركك، أبونا يسوع لن يتركك هو أيضاً، سأصلي من أجلك أنا وفرحة ودميانة وفلة"، ركضت البنث قبل أن يلمحها الرسل.

لم تفقد نعمة الوعي، حاولت كثيراً أن تضغط على جروحها، فتنزف بشدة وتغيب عن هذا البؤس، وهو أفضل من الألم الذي تشعر به، في كل تفصيلة بجسدها، ومع ذلك فشلت، كان الألم سعيداً لانتشاره بصورة محسوسة. تأملت نعمة السماء الواقفة فوقها، في يأس وحزن مكثوم، دققت النظر، فرأت رجلاً تعرف ملامحه جيداً، إنه سفرائيل، الملاك الذي قتلته نعمة، يقف في السماء، يُشير إلى الأعلى، فتفهم مقصد كلامه وهو

الإله، ثم يشير إليها، فتعرف أنها المقصودة، ويشبك يديه بعدها وبهزهما، اجتهدت في تفسير الأمر كثيرًا، يعيد الفعل نفسه، أكثر من مرة، وبحركة بسيطة جدًا، ولكنها لم تفهم.

رأت ملاكين آخرين، سحبًا سفرائيل في جزء من الثانية، ليختفي تمامًا، تاركًا لها الحزن في وحدتها، وسريان الدم أسفل ملابسها، تحس بالزوجة الناتجة عن لمس الجسد لسائل، والناتجة أيضًا عن لمس الجسد للأسفلت، بالكاد تتنفس، قالت بصوت لا يسمعه غير خالقها وخالق الصوت: "أنا كافرة بكل كلمة قالها سفرائيل على أنني مُباركة، وإذا كنتُ مُباركة -مع أنني أشك- فأرجوك خذ حياتي، ولا تأخذني إليك، أنا رافضة الوجود في مكان واحد معك، حتى لو أنت الإله، وأنا المخلوقة الضعيفة التي لا حول ولا قوة لها، لا أريد الصعود إلى عرشك، ولا إلى جنتك أو نارك، أريد البقاء على الأرض، تائهة كما هي الحال دائمًا، اتركني هنا، لن تشعر بأي فارقي إذا غبتُ عن أعداد الموجودين، سواء حولك في الجنة، أو في القبور".

عامل الفخار

الخطايا في قلب المؤمنِ جمرَةً، وفي قلبِ يهوذا حجرٌ كبيرٌ،
وفي قلب فيليب كانتِ الحيرة كلها!

يهوذا يحارب الزمن وإيمانَ فيليب الغريب وخطاياهِ
الأغرب، يقتل مساءً، يطلب من المسيح المغفرة، يقول للجميع

الله محبة، ويقول للضحية يا بنت القحبة، يتوسل إلى يسوع أن يغفر له، وإلى الباشا أن يرضى عنه، وكلما أمعن يهوذا في البحث والتنقيب داخل بئر ذكريات فيليب، لم يجد ثغرة تُطلعه على سبب غرابة شخصيته.. قاتل مؤمن، عرف كثيرًا عن هؤلاء، عرف على نحو عام عن الجماعات القاتلة، عن الإرهاب، عن عقيدة الحشاشين، ولكن كانت هذه المرة الأولى التي يرى فيها قاتلاً، بمفرده، دون أي انتماء، يقتل من أجل القتل، ويقتل من أجل رغبة ماله.

مثلما وقف فيليب متفرجاً على كل ما يعرضه يهوذا من أمثلة ولقطات لحياة المسيح وعذابه، لمقتطفاتٍ من دياناتٍ أخرى، وقف يهوذا هو الآخر مندهشاً، كل ليلة يراقب حياة فيليب الغامضة في أحلامه، يرى ضحاياه وهم يركضون خلفه، يشاهدهم وهم يحترقون ضاحكين، يلمح بنتاً مقبورة داخل طبقٍ من الفخار، يسمع رجلاً يتعذب بين ثنايا زير، تعددت المشاهد، ويهوذا يعبر عن دهشته بكلمتين فقط: "عبقري شغوف!"

كلاهما سمع كلام الطبيب من العالم الخارجي عن إمكانية عودة فيليب إلى الحياة من جديد، وعن بشائر تحسن حالته، حتى لو الظاهر لهم أنه طفيف، المهم هو وجود ما يُطمئن قلوب الزائرين، مينا وأمه، وفي بعض الأحيان، يجيء الباشا، يسأل عن حالته، يتأكد كل مرة إذا قال فيليب شيئاً، وعند سؤاله عما يقصده، يجيب في عصبية: "أي شيء! هل قال أي شيء؟ عن نفسه أو عن حياته مثلاً؟" وكان يتسم لما يسمع

الإجابة المعتادة بالنفي، ويغادر المشفى دون أي وعودٍ عن قدومه قريبًا.

في غيابه عن العالم عرف يهوذا عن فيليب ما لم يعرفه بشرًا، واكتشف فيليب الجانبَ المُضيء في حياة يهوذا، وكل المؤمرات المُحاكة ضده، للتخلص منه، ومحو أثره عن تاريخ الديانة المسيحية.

تحدث فيليب أخيرًا، وقال ما لم يتوقعه يهوذا نهائيًا: "يهوذا الإسخريوطي، أيها المصلوب بيد التضحية، المظلوم من ابن الإنسان، والروح الهائمة المُعذبة، الذي لن يترك مكانًا إلا وبث سمومَ أخكاره بداخله، يهوذا فتنهُ الضعفاء، الجاهل بوجود من يحترمه، ومن حاول كثيرًا الدفاع عن سيرته، ومحاولة تحسين صورته، كما حدث مع من سبقه، ومع ذلك، تعمد الأب والابن والروح القدس إخفاء كل ما يُعينك على حريك ضد الحوارين، وضد كارهيك، وضد عاشقي يسوع بصفة عامة، وعاشقي التضحية الإلهية بصفة خاصة.

سمعتك طوال وجودي هنا، في عالم عجيب، منقسم بيني وبينك، ولم أستفسر حتى منذ البداية، لماذا أرى ذلك أو ما السبب وراء وجودك داخل غيبوبتي، كنت ضيقًا تستحق كرم الضيافة بحق، وكنت مُتحدثًا بارعًا، يعرف كيف يعرض حججه، على الرغم من عدم وجود أي أدلة لما سردته، ومع ذلك، سيصدقك عددٌ كبيرٌ إذا ما خرجت إليهم.

المُهم.. يا فيليب يا صديقي العزيز، نعم أنت صديقي في هذه الرحلة الغريبة، إذا لم تخبرني عن السبب الرئيس لزيارتك لي، بعيداً عن الظلم ويسوع قتلني وكل ما سبق، لن نتحدث معي مجدداً، وكلما حاولت تفعلها، سأغرقك معي في حلم من أحلامي، وكما ترى، في أي وقت أنت تتحدث، إذا ما قررتُ النظر إلى ذكرى أو موقف، تصمت أنت وتُرمى في زاوية مظلمة، حتى أهدأ أنا وأعطيك الإذن في الظهور والكلام.

الجميل في علاقتنا يا صديقي أنك ظننت طوال هذه الفترة أنك المتحكم، تجبرني على مشاهدة أي شيء، كيفما ووقتاً تشاء، ولكنك نسيت شيئاً في غاية الأهمية، أنت داخل رأسي يا يهوذا، وهذا يعني أن العالم هنا ملكي، في البداية كنتُ عاجزاً عن التصرف، وهذا أمر مقبول، شخص جديد في عالم الغيوبة، يرى أحلاماً، يسمع شخصاً مخبواً، يحاول إقناعه بأنه هو من يستحق التخليد والحب، بأنه هو من صُلب بدلاً من يسوع، يحاول الصراخ فيفضّل.

ولكن بنفسك أنت يا يهوذا علمتني كيف أستطيع فعل ما أريد، لما جعلتني أرى المسيح، وما يفعله به البشر، حين صاروا كلهم آلهة، لما ركضتُ ورميتُ الحجر، عرفتُ في هذه اللحظة أنني يمكنني التواصل مع حواسي، وفرض رغبتني في التفرد بعرض ما لم ترّه من قبل يا يهوذا، وهو ما حدث خلال كل تلك الفترة، عرفتُ عني، ما جعلته سراً بيني وبين الرب، وهو أمرٌ يجب أن تشكرني عليه، لقد وضعك في منزلة قريبة من منزلة الرب بالنسبة إليّ.

وهذه فرصتك الأخيرة، لأنني على وشك القيام إلى العالم الخارجي، ولن يسمعك شخصٌ مثلي، تعرف جيدًا كم سيفيدك في غرضك، الذي لن أجهد رأسي في التفكير بخصوصه، يمكنك أن تخبرني، وكفاك بكاءً على سيرتك الطيبة المظلومة، صدقني يا يهوذا، لو قرر الرب إخفاء الثالوث المقدس، وجعله أي عددٍ مهما كان، لن تتغير حقيقتك، ستظل مكروهاً ملعوناً، تقام المحاضرات على شرف حياتك، كلهم يسبون ويكرهون سيرتك، والمسيح الحي يا يهوذا، إن نزل يسوع إلى عالمنا، وقال للناس حبوا يهوذا وسامحوه فابن الإنسان قد سامحه، سيقضون جميعاً بحجة أنك الخائن الذي قتله، والصراحة هو لن يُمانع، ولن يُجبرهم على حبهم لك، ولن يختار عقاباً لمن رفض."

يهوذا الإسخريوطي، المحارب في زمنٍ يكرهه، والمقاتل لنصرة سيرته، وقف أمام فيليب مبتسماً، لم يغضب أو ينفجر بسبب كلامه، بل أخرج ورقةً وبدأ في القراءة: "أما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بها أحدٌ ولا الملائكة الذين في السماء، ولا الابن إلا الأب"، ثم سأله بالهدوء نفسه الذي قرأ فيه الورقة: "هل تعلم يا فيليب ماذا تعني هذا الآية؟ أن الابن لا يعلم شيئاً عن يوم القيامة، وأن ما يحدث بالخارج، الذي نسمعه يومياً أنا وأنت، من خلال كلام ابنك أو زوجتك معك، أو كلام الممرضات والتلفاز، أنه إذا لم يكن يوم القيامة هو المقبل، فالمسيح يخطط لشيءٍ، ليناقض ذاته المنقسمة، ذات الأب التي تعرف كل شيء، يا فيليب، إذا لم تكن نهاية الأيام هي المقبل، فابن الإنسان يلعب بكم! وآخر كلامي معك، قبل أن أتركك!"

مسكين، في يوم من الأيام، في أثناء جلوسنا معه، وهو يُعلمنا دروسه العظيمة، قالها في منتصف كلامه، دون أن يشعر، قالها بمنتهى الصراحة، قال: "لو يمكنني محو الأجيال القادمة، لن أفكر في الأمر مرتين، فلقد رأيتُ في مناماتي ما يُغضب إلهي، وأنا لستُ على درايةٍ كاملةٍ بوقت اليوم الأخير، ولا أعرف لماذا يمنعني إلهي من معرفة أمر كذلك، ابن الإنسان لا بد أن تجيء إليه المعرفة، كيف يمكنه فعل.. سامحوني يا أحباب ابن الإنسان، كنتُ أتكلم عن الأجيال القادمة".

كلنا تحدث وقتها عن مدى بشاعة الأجيال القادمة، كنتُ الوحيد الذي فكر في كلامه غير التام، حين ظهرَ عليه الغضب اللحظي المؤقت، في رفضه لحكمة الرب، لحكمة الأب كما يقول، وحين تحدثتُ إلى بولس، عن تلك اللحظة، أنكرها تمامًا، وقال لي إنه لم يسمع إلا كلامه فقط، وإنه لم يشهد أي علامات غضبٍ على وجهه!

فيليب.. أنت الوحيد في هذا الزمان الذي يشبهني، خنتُ صديقك من أجل غايتك، سرقَت أعمارَ ضحاياك، الشر والدين لي قلبك، منافقٌ بوجهٍ مؤمن، لقد سمعتك يومًا وأنتُ تتحدث عني، حين كنت برفقة زميلك في القهوة، ودافعت عني كثيرًا يا فيليب، هذا كان السبب الوحيد في وجودي، أنني شعرتُ بومها بمدى صدق كلامك عني، وأنتُ فعلاً تفكر مثلي، بحثتُ كثيرًا عنك، في كل مكانٍ تتجمع به الأرواح، ولما وجدتكُ روحًا وحيدة، في المحراب المقدس، المكان الذي يتعبدون فيه إلى الرب القدوس بعد مغادرتهم لجسم البشر في أثناء نومهم، وجدتكُ

روحًا قاسيةً، لا يُهمك هذا الرفض، لا يُهمك هل أنت معهم أم مطرود، روحًا شريرة تخاف الروح المؤمنة الاقتراب منها، أقسمتُ ألا أتركك، إلا وأنت عليمٌ بحكايتي كلها، والآن يا فيليب، أنت الوحيد الذي يعرف هذا السر، المسيح قد يحوكم، انتقامًا من تناقضات نفسه، من صراعه الذي يرفضه في بعض الأحيان بين الأب والابن، ولأنني كنتُ إنسانًا في المقام الأول، وقلبي يحمل الخير والشر معًا، شرعتُ في مساعدتكم، كأني شخصٌ عادي، عرفَ أن فعله سينقذ الملايين، فذهب بجسارةٍ وبلغ عن أمرٍ خطير! ولا أعرف كيف ستغيرهم بالأمر، وهل من الممكن أن يصدقك أحدهم أم لا!"

أيام الدهشة الثانية

فيليب

هل ستظل تحبني يا مينا إذا عرفتَ كل ما قلته؟ هل ستراني أباك العظيم؟ أم ستقتلني؟ هل ستقتنع أنني عبقرى شغوفٌ فعلاً، كما وصفني يهوذا الإسخريوطي؟ لعلك يا بني الحبيب تقول وقتها إنك لا تعرف شخصاً اسمه فيليب، وإنه كان يدعي الأبوة لك، وقد تذهب إلى الشرطة وتُبلغهم بوجود قاتل، يصدق الناس مدى قوة إيمانه، ويراه الغالب شخصاً عادياً، وهو في الحقيقة أذكاهم، واللوم نديمه المُخلص، والتفرد في إقناع من حوله بطيبة قلبه وسذاجة فكره سمةٌ أساسية في شخصيته، فاحذروا منه إذا ما لقيتموه في مقهى، أو منطقةٍ ما،

يشرب شايًا، فرمى فُتات أحدهم مخلوطة بما يشربه، كما برع في صنع الفخار من رماد ضحاياها.

ما واجهناه يا مينا لم يكن حادثًا بسبب تساقط الكتب، أنا واثقٌ يا أرضي التي أمشي عليها بما أقوله، كيف سينفجر قطار بفعل كتب؟ هل سيرتك السائق دفعة القيادة من أجل حصوله على كتاب؟ ما حدث يا دم قلبي هو تصفية حسابات بين الآلهة المُتحكمين في البلد، وهي عادةٌ متوارثة ومعروفة بينهم جميعًا، كل النكبات العظيمة التي ضربت بلادنا بلا رحمة أو شفقة، كانت مُدبرةً، وسأشرح لك كيف.

مثلًا حادثة القطار تلك، فعلها وزيرٌ أو رجلٌ أعمالٍ، حاول الحصول على صفقةٍ، ووقف له وزير النقل والمواصلات معترضًا، والاعتراض هنا ليس بمعناه المعروف، ليس اعتراضًا على عدم قانونية الأمر، وهل هو حلالٌ أم حرام! المعنى المقصود لما بينهم هو رفض قيمة عمولته، أو رفض قيمة الصفقة من الأساس، فيحاول الموجودون وقتها الوصول إلى حل مناسب، وإذا فشلوا قالوا للمُعترض في نبرةٍ وقحة: "الدماغ الناشف لن يفلح، المهم، التركيز مطلوب في ما هو آتٍ، وبالتأكيد ما هو آتٍ يخصك!" فتفاجأ في اليوم التالي بانفجار عربة أو سيارة مفخخة، سقوط كوبري، خروج قطار عن مساره، غرق عبارة، وطبعًا لتكون الكارثة كبرى، عنصر العدد لا مفر من توافره، جملة "سقوط عدد من الضحايا" تجعل أقارب المقتولين يكونون وتدغدغ صاحب الصفقة ورفاقه، فلا يفوت اليوم ذاته إلا والمُعترض إلى صفوف الشعب، والصفقة تزغرد في فرح إتمامها.

أذكر يا مينا لما كنتُ شابًا، سافرتُ إلى القاهرة، والصدفة وحدها، والمسيح الحي يا مينا لا أعرف، هل هي الصدفة فعلاً، أم تدابير الرب واختباراته، وقتها كنتُ مُسافرًا بأحلام الشباب وعنفوانه، وفي محطة القطار تعرفتُ إلى الباشا، كان يودع أقاربه الغلبة، القادمين من محافظةٍ ما للحصول على مساعداته، في هذا الوقت كان الباشا رحيماً إلى حد ما، قد يصاحب الناس في مشاويرهم، وفي أثناء انتظارهم للقطار، وأنا مارٌّ بجانبهم سمعني وأنا أتحدث إلى غريبٍ من غريباء الرحلات الذين لا نقابلهم إلا مرة واحدة في العمر، عن الفخار ومدى براعة قريتنا في كل ما يخص الصناعة، وأنني ورثتُ المهنة عن جدودي، وبقيّة الحكاية أنت تعرفها، لمحتُّه وهو يمشي قريباً مني، وكدتُ أضربه عندما لم يُعجبني مشيه خلفنا، إلا أنه بادبٍ بالغ طلب الاستماع إلى قصة الفخار، ومن يومها وأنا خادمٌ وعبْدٌ للباشا، وأقدم الموظفين لديه، في القرية التي اشترى معظم أقرانها، ثم بناها بطريقته.

نعم يا مينا، كلامك دائماً صحيح، كان من الممكن أن نستخدم الأفران العادية، أو نكف عن حرق الخشب والمطاط وإطارات السيارات، ونرتاح بفضل الغاز الطبيعي، وفي أقل الحالات ضرراً، كان يمكننا الحصول على فرنٍ ليس عاليًا كما في أفران الباشا، الذي أشرفَ على بناء كل فرنٍ بنفسه، وتأكد من علو فوهته، وأن الواقعَ في القرن لن يقدر على الطلوع، ولكن كيف سيخفي الباشا قتلاه؟ الباشا أراد طريقةً للتخلص من ضحاياه تجعل العثور على بقاياهم مُستحيلاً، كما لو أنك

تسأل عن إمكانية رؤية الرب، وللأسف يا مينا، أنا من عرضت عليه هذه الفكرة، الحقيقة عروضه المالىه كانت مغرية جداً، مبالغ تجعلني باشا وسط فقراء القرية، ولما أتى إلينا ليُعلن عن شراء الأقران، أخبر العاملين أنني الكُل في الكل، وكبيرهم في المهنة، وتجب استشارتي في أي أمر له علاقة بالمهنة، مُختصر الكلام، الباشا نصبني نبياً بينهم، كلهم فقراء أغبياء، يخطنون ولا يعرفون شيئاً عن الثواب والعقاب، وأنا المؤمن الذي لا يخطئ.

كل جمعة من كل أسبوع كنتُ أسافر إلى القاهرة لأقابل المعلمين، التعليم رقم واحد بالنسبة إلى الباشا، علمني ما يحتاج إليه عالم وليس عامل فخار، وكانت القاعدة الأهم المشي بين الناس كرجلٍ طيبٍ غبي، حظه من العلم قليل، ينتظر اليوم الذي سيموت فيه، ويترك الفرن لابنه، كعادة الرجال في القرى. هذا ما كان يراه في أي شخص، لم يكن من قاطني العاصمة، شخص ساذج، يبحث عن لقمة العيش فقط، وفي آخر اليوم يضاجع زوجته بأوسخ الأوضاع غير الآدمية، لأنه طبعاً من القرى، والقروي -من وجهة نظره- غشيمٌ، قد يقسم زوجته نصفين بسبب هياجه، أو بسبب بياض جسدها ومفاته، وهو ما أمرني أن أكونه، الإنسان القروي الساذج، المؤمن الخائف من ربه، غير المتعلم بدرجة كافية، فيصدق الناس بل والإله بالأعلى، أنني فعلاً مُتخلف.

والمسيح الحي يا مينا، أبوك قرأ الأعمال الكاملة لحنا مينا. ومن كثرة تعلقي وحبتي له، سميتك على اسمه، وقلتُ للباشا

إن اسم مينا ابني نسبةً إليه هو، وهذا بعدما استأذنته في ذلك، ليفرح أكثر من عبده المخلص، عبده الضعيف الذي كان يقويه بالإيمان وحب المسيح، وحفظ الآيات وفهم الإنجيل، والبُعد عن أي تشكيك خبيث في معجزاته وإدارته لحياتنا، ولأنني عبدٌ مُخلص لم أسأل ولو صدفَةً عن التناقض الرهيب بين إيمان الباشا وظلمه الكافر الواضح، ما دمت أتعلم وأجني المال، ما دمت أنا المُفضل لديه، وطلابي البسيطة كلها مُجابهة، ما الذي يجبرني على تعكير صفوه تجاهي؟ بل إنني تعلمت منه هذا التناقض، في كل الأوقات أنا مؤمن، لديه معرفةٌ قويةٌ بالإنجيل، وفي أوقات حضور الباشا، أنا قاتلٌ يضع الإنجيل جانبًا، ويتلو على ضحاياه كلماتٍ من كتاب الموتى.

الراحة عامةٌ عرفتُ طريقها إليّ، بطريقةٍ ما، بعدما تحدثتُ أمامك، عن تاريخي غير المُشرف نهائيًا، أعرف جيدًا أنك لا تسمعي، وأنني أستحق الموتَ وكل ما يمر به، وقد أكون أنا السببُ في ما يحدث للجميع حاليًا، القاتل المؤمن غير الرحيم، الذي أخفى رماد ضحاياه بين ثنایا ما يصنع، ولكنني معذورٌ يا مينا، شخصٌ مثلي لم يكمل تعليمه كأصدقائه، الفقر حاضِرٌ دومًا، وهو السد المانع بينه وبين أي متعةٍ يتمناها، كلهم عاشوا طفولتهم، وأنا حرقني الحرمان أكثر من نار الفُرن، حرقني الحرمان من الحياة، ومن أُمي بعد مقتلها، أقصد موتها، أقصد موت.. أقصد موتها يا بني يا حبيبي.

كلمةٌ (لا) كانتُ حاضرةً بقوة، لا ذهابٌ إلى فلان، لا نملك مالاً، لا ملابس جديدة، لا ترقيع للثقوب، لا حياة كريمة، لا

يعلم مصيرنا إلا المسيح، صناعة الفخار لا تدر مآلاً، وبعدها اكتشفتُ أن الأموال موجودة، ولكن أبي كان يحب النساء، أكثر من زوجته وابنه الوحيد، يدفع للعاهرات والراقصات أكثر من نصف ربحه، والمتبقي يقسمه إلى ربعين، ربعٌ للبيت ومصاريفه الكاملة، وربعٌ لجيبه الخاص، فتخيل يا مينا أن تعيش أنت ووالدتك ومتطلبات البيت على قليل القليل، وعندما أجد الفرصة لأعيش حياتي، وأضمن لك حياةً كريمةً، ولزوجتي ولنفسي، وللبتول مريم، التي أتمنى أن تسامحني على جرمي في حقها، أنا واثقٌ بأنها تربتُ على كتفي وأنا أتحدث إليك، وتقول لي سامحتك يا أبي.

والمسيح الحي يا مينا، وقعتِ الملامح عن الكل، وبقيتُ أنا هكذا، بعيني فقط، في القرن الجامع لكل خطايا عمري، كي أرى سندي في الدنيا ضعيفاً، كي أتعذب كأبَاء وأمهات الفتيات اللاتي قتلتهن من أجل متعة الباشا، وغلاوتك يا مينا، حاولتُ كثيراً قتل نفسي، بخرط رأسي في الجدار، أو كسر المنتجات الموجودة هنا على دماغِي، أو فقع عيني، وكان ملاكاً حارساً يحرس جسدي وعيني من أي أذى، ليتأكد من تعرضي لأقصى درجات العذاب.

المُهم.. هل تعتقد يا مينا أن أختك مريم قد سامحتني فعلاً؟

عبد القوي

حدثتني نفسي، بشيء من الغرابة، عن أمرٍ عجيب، توسوس لي بكلام غير مفهوم: "ما زلتَ حيًّا، لم تُمت، ستعيش سيرتك، وهو مقبل لك!" تفسير ما قيل لا يعنيني، والسبب هو عدم إدراكي للتوقيت، لماذا انقطع فجأة الوحي الذي يعلمني أشياء، لتوسوس لي نفسي، بكلماتٍ عن شخص، لا أعرفه ولا يعرفني؟ من الذي ما زال حيًّا؟ وكيف ستعيش سيرته؟ أو الكلام عني تقريبًا؟ إذًا فما الجديد؟ فأنا حي! ولكن كيف ستعيش سيرتي؟ وأنا أجهل من أنا، ولا أعرف شيئًا عن طفولتي أو شبابي حتى!

المدهش في نزول الوحي، ومعرفتي للأمور، هو إحساسٌ بدأ التلاعب بي، أنني لا أشعر بحدائث الأفكار المعروضة، أعرف جيدًا أنني لدي الكثير من المعرفة، ولكن أدهشني هذا الكم! كل القصص والحكايات المعروضة، أشعر كأنني عشتها من قبل، أو أعرفها حق معرفة، ولم تصبني دهشةٌ أو استغرابٌ من فكرةٍ أو قصةٍ ما، حتى لما رأيتُ كل المعجزات السماوية، عجبنتني جدًا، ولكن دون دهشة، أقول لنفسي في كل مرة: "نعم.. شاهدتها من قبل، وسمعتُ عن تلك، وهذا الأمر الساحر أعرفه جيدًا!" وهذه هي الغرابة في حد ذاتها، شخصٌ مثلي كيف عرف تلك الأمور، وأنا الذي لم أقرأ كتابًا طوال حياتي سوى الكتب المدرسية العقيم، وهذا على حد قول أبي، الذي كان يلوم عليّ لأنني كنتُ أنسى ما بها بمجرد خروجي من الامتحان، بعدما

أخرجتها من عقلي على ورقة بيضاء عديمة الفائدة، وأنا لا أذكر متى، أو أين الورقة أو الامتحان!

أعجب من الوحي ونزوله، ومن المعلومات وغرابتها، ومن المعجزات وعظمتها، رؤيا تتكرر كثيراً في الفترة الأخيرة، أرى نفسي في سفينة، مع شخص تظهر عليه علامات التقوى، ثم فجأة دون أي مقدمات، أثقب السفينة فينفجر الماء داخلها، يهلع الرجل ناحيتي ويسألني عن غباء فعلتي وكيف سننجو، فلا أجيبه على الرغم من ابتسامتي، الصراحة أراني وأنا أقول شيئاً، لكنني أعجز عن تفسيره، لم أكن بارعاً في قراءة الشفاه، وأعتقد أنني في يوم، سأسمع ما قلته، خاصة أن الرجل لم يهدأ، وظل يصرخ بوجهي، مشيراً إلى رقبته وتلك الحركة المعروفة، التي تعبر بها عن الذبح، والموضوع يتكرر كثيراً، ونظراتي إليه كلها ثقة، كأنتي على وشك التفسير، وأتركه فقط ليتعلم حكمة ما، أو يتدرب على ضبط النفس، أتركه وأمشي فوق الماء، بسلاسة كاليسيح! باختصار، في كل الرؤى، أنا المعلم وهذا الرجل تلميذي، الذي يتعلم من تجاربي، حتى إن بدت له غريبة غير مجدية.

أما الشق الآخر من الوسوسة، فهو يخص ذلك المجهول، والمفترض أنه آت من أجلي، فأعتقد أنه يوم الهنا والفرح، إذا جاء حقاً أحدهم لينقذني، والله لو أتى إبليس لن أمانع، المهم أن أخرج من قاع النهر، وأشعر بوجود كائن حي غيري، السمك تقريباً نسي النهر ولم يعد يسبح، كل مخلوقات النهر اختفت، وبقيت أنا بمفردي، كل تلك المدة التي أجهلها، هل مرث أعوام

على تلك المعجزة؟ معجزة البقاء بمفردي، دون أكل وشرب، بلا حواس أو ملامح، يهجرني الخيال والحلم، النهر يستضيفني في قاعه، ويمر ماؤه حولي غير منزعج من كيان يهز ثبات سريانه، لأنه سيعود إلى طبيعته حين يتخطاني، وسيجد ذراته تتحدث في ما بينها مثلاً: "هل ابتعدنا قليلاً عن بعضنا؟" لتجيبها أخرى: "اختلال خفيف وذهب إلى حاله، لا تقلقي"، بكل بساطة هذا أنا، كتلة تستطيع التحرك، ومع ذلك لن تتحرك، والسبب هو جهلها بالطرق، وبشكل الحياة حالياً، وبالسبب وراء التحرك من الأساس، إذا كانت النتيجة في النهاية واحدة، الثبات لأنني بلا فائدة.

لا أنكر أنني طوال تلك السنين حاولت كثيراً السباحة والهرب، ولكن الاستسلام كان دوماً حاضراً، لما فشلت في كل المرات، ولم أصل إلى أي جهة، فتعبت من التجربة عامةً، وتركت نفسي للنهر، ولما يريد فعله بي.

لم يعد يشغلني السؤال التافه، المتعلق بالمدة التي سأقضيها هنا، أو الأسئلة المتكررة، حول من أنا وطفولتي، ومن الطفل الذي أقتله في الحلم، في الحقيقة ظهر سؤال جاد، جيد وجاد في الآن ذاته، هل هذه نهايتي؟ هل أنا ميتٌ حالياً، وذلك عذابي؟ الله قادرٌ على فعل كل شيء، ومن المعطيات التي تحاوطني، أرى أنني ساموت بعدما ينتهي الوحي من تعليمي كل ما فاتني، كان الله يخبرني بمدى جهلي، ويدلني بالتعليم، ثم يقبض روحي، فأعرف كيف أجيب عن أسئلة القبر. ولأنني ساموت هنا، فهذا هو قبري، والله العظيم ميتةٌ عجيبة، مدفون في قاع النهر،

جثتي ستتحلل أسرع بفعل الماء، ثم يسير رماد جسدي في مياه النهر، ويبدأ البشر في استخدامه، دون علمهم بوجودي في ذرات الماء، فأجدني في معدة أحدهم، وفي ماء من يغسل سيارته، وفي الكمية التي استخدمها الشيخ للوضوء، وآخر للطهارة من النجاسة، وجزء ذهب ليغسل فرج امرأة بعد ممارسة جنس ممتازة، وفي أكلة تحضرها أم، أو مرمياً أمام محل يبحث صاحبه عن الطراوة، فسكب سطلاً وهو يُسمل، آملاً في نهاري، رزقه كثير وخصاله قليل.

على أي حال، من الواضح أن معلومات الوحي كثيرة، وهذا يعني البقاء لفترة أطول في الأشياء ذاته، العذاب غير المتجدد، الوسوسة المتزايدة من البداية، الجنون الذي يرفضني، العقل المحافظ على وجوده، تحبني ذاتي جداً، فتحرسني من الخبيل، تصلي من أجلي لأتحمل الوحدة، لأبقى أنا ولا أفقد عقلي، وإلى أن يتغير الواقع، أنا منتظر قدوم الشخص الذي سينقذني، سأقبل قدمه حين تنبت لي شفاة، وسأطلب منه كوب شاي بالنعناع، وإذا أراد قتلي بعدها، فوالله الذي نفسي بيده، لن أرفض.

نعمة

الغبي الذي أحبه رماني بالنهر، من شدة ثورته وغضبه،
الغبي الذي أحبه كان خلفي، قاربته يمشي ببطء بسبب ثقل
الجهاز العجيب، والمتردد الذي أحبه كان خائفاً، قاربته يمشي
بريبة، بسبب خوف راكمه العجيب، والمتقاعس الذي أحبه كان
متوتراً، قاربته يمشي بعدم جدية، بسبب عقدة صاحبه الغريبة،
ولما وصلنا وسألني لماذا توقفنا في منتصف النهر، ولما عرف أن
هذا هو المكان المنشود، ظل يسب ويلعن، ويتهمني بالجنون،
الوحيد الذي أحبه، يراني مجنوناً وغير مكتملة النضج، وكلاماً
لم أفهمه، لكن من الواضح أن المعنى كبير، والشتائم قاسية،
يكفيني منظر محبي، وهو يرفض النظر إليّ، يصرخ ويتحدث
إلى الفراغ أمامه، ثم فجأة حرك قاربته تجاهي، في البداية
اصطدمنا بلطف، ثم قفز إلى قاربي، وصفعني!

لم أفهم تصرفه، لماذا يصفعني رجل أحبه، لمجرد أنه رافقني
في رحلة، تحت تهديد قتله؟ أنا لن أقتله، تهديد غير حقيقي،
أنا فعلاً كنتُ خائفة، والجهاز ثقيلٌ لجره، يكفيني ما عانيته
من إصاباتٍ بسبب رسول الخير ابن القحبة، التي يركب أمه
كل مار، جعلتُ أعصاب يدي مرتخية، بالكاد تستطيع حمل
الأشياء، وللمرة الأولى كنتُ مطمئنةً لوجوده بجانبني، هذا
المجنون الذي رماني، ويخاف حالياً من مد يد المساعدة، طبعاً
لن ينحني ليرفعني، لن يستوعب توتر القارب فوق الماء، لن

يُسلم جسده ليسند إلى القارب مثلاً، ويساعدني في الطلوع مجدداً.

عامّة أنا موهوبة في السباحة، تعلمتها في النيل الماشي في الشرقية، وفي كل ترعة وبحيرة وبحر ونهر، من أجل الاستحمام، الفعل الذي رفض الكثيرون أن أقوم به في بيوتهم، خوفاً من عدوى قد تُصيبهم، لسقوط ماء في أحواضهم، ربما يحمل بقعةً مني، ذاكرتي ترفض طردَ هذا المشهد، حين رفضَ رجلٌ، بعدما نام معي، وأخذ كفايته وشهوته، وقذف لبنّه ثلاث مراتٍ، ولما ملحني أقوم إلى الحمام، تحجج بانقطاع الماء، وأني لن أجد الراحة في حمامه الصغير، وقتها لبستُ وشاهدتُ قطته، التي حكى لي ونحن نخلع ملابسنا، أنه كان يُحممها.

وتخيلتُ نفسي قطعةً، يربّت الجميع عليها، يزيل شخصٌ فضلاتها، يضع لها ما لذ وطاب، ويتوسل إليها أن تبقى في مكانها، لتستمتع بالماء الفاتر، النازل عليها لينظفها، وليضع عطرًا مخصصًا! حياةً كاملةً جميلةً لقطّة، وأنا يرفضونني لبقعي، ويا سلام لو كان الحيوان من ذوي الاحتياجات الخاصة، تجدّهم يتنافسون على حبه، والدموع المُنهمرة على حالته، الناس في بلدي، أولاد الكلب، يعشقون الحيوانات المُصابة، ويكرهون البشر أمثالهم، لأنهم ليسوا لطفاءً، يقولون لك: "قطّة لطيفةً بقدم مبتورة، شكّلها لطيف ووديع!" والناس ذاتهم، يقولون لك في مناسبةٍ أخرى: "كيف يدعون شخصًا كهذا يمشي بين الناس؟ قدمه مبتورة وشكله مقرف جدًا!"

الوقت يمر، تظاهرت أكثر من مرة بأنني أغرق، وهو يقف لا يتحرك، يلوم عليّ، يعرض أظفاره في خوفي واضح، تعطلت أفكاره، لم يهده عقله إلى حبل، أو البحث عن عوامة بالقارب، الخوف شل تفكيره تمامًا، ثم ضربني بأكثر المقولات وجعًا، كأنه أطلق عليّ رصاصة: "أنا ذاهب إلى اليايسة يا نعمة، أنتِ عرضت حياتنا للخطر، لا وجود لحبل أو عوامة أو أي وسائل إنقاذ في هذا القارب، الحقيقة إذا طلعت إلى اليايسة، لا أعرف هل ستقودني الشجاعة من جديد إلى الرجوع إليك أم لا، أنا لا أعلم كيف قفزت من قاربي إلى قاربك، حركةً مجنونة كادت تفتك بي، لولا القدر وتدابيره، الجهاز موجود معك فوق القارب في حالة عدم رجوعي، كانت أيامنا جميلة لا شك، ولكن خوف الإنسان عظيم يا نعمة، من ملاقة الموت، وفي حالتي، أنا خائف من الماء والغرق والموت، سامحيني يا نعمة، أنا ضعيف، وضعفي يتحكم في كل أفعالي، حياتي كانت هادئة قبل ظهورك، سأعود إلى روتين حياتي وجمال هدوئها".

ببساطة رحل رجل، لأنه لا يريد المخاطرة، ببساطة ترك حبيبته، التي قال لها أحبك، كل مرة كانت فوقه أو تحته، وذلك بسبب خطورة الموقف، يا سلام يا محيي، كم كنت واضحًا وصريحًا، لم تتغير تلك الصفة بداخلك، محيي السافل بصراحة، والمختل بوضوح، محيي الذي أقسم بجمالي، ولم يسألني يومًا عن بقعي، ولم يشمئز مني، ولم يُشعِرنِي بطمعه فيّ، من أجل المتعة فقط، محيي المطيع الرقيق المحترم، رحل بكل بساطة، لأنه يخاف من الماء، خوفه غلبَ حبه، وتركني كما

تركني الكل، أهلي وحببي وعم سند والله، وخصوصاً الله، الذي خلقني هكذا، لأتعذب فقط، يا سلام يا محيي، سنتعاب فيما بعد، أعدك بذلك، وحياة لبنك العائم داخل رحمي، لتتعاب عتاب عاشقين.

المُهم الرائحة تشتد، رائحة الخبز، والآن هي رائحة خبز مُبتل ننته، ومصدرها من الواضح أنه بالنهر، هل غرق من أتيت لأجله؟ سأسبح إلى الأسفل، وأتمنى أن أجد ما يستحق، لأنني إذا لم أجد شيئاً، سأقتل حبيبي محيي، لأنه سيسخر مني أنا واثقة، حبيبي محيي الذي ذهب وتركني، يظن أنني بسهولة سأوافق على انفصالنا، سألقنه درساً حين أعود لن ينساه، سأتابع رائحته حتى أجده، بعدها سأربطه ربطاً يصعب الفكك منها، سأغتصبه بدوافع غضبي، وسأجعله يتوسل إليّ أن أتوقف عن مضاجعته، سيصرخ كالنساء، سيخبرني أن قلبه سيتوقف من كثرة قذف المنى، ولن أرحمه، حتى يعتذر راکعاً، عن هزازه السخيف، مع حبيبته نعمة، التي يحبها ولا يقدر على العيش دونها.

القارب الموجود واقف، الجهاز الغريب موجود، وها هو الألم، يصحبنى في أثناء نزولي إلى القاع، لابتعادي عنه، سأتحمل كل هذا الخراء، سأصل إلى هدي ولو ميتة، مهما تزايدت لن أرجع إلى السطح، يا محيي يا بن الكلب، لماذا أسبه؟ الألم حاضر في كل الأحوال، كنت سأغوص بمفردي، وسيظل هو بالأعلى، كخالقه الذي بالأعلى، يتفرج علينا ولا يفعل شيئاً، أوقاف أسأل نفسي، لماذا الله؟ لماذا لم يتحدد جنسه مثلاً، الله طبعاً

مُذكر، الجنس الغالب كالعادة، لماذا لم يكن أي اسم آخر، يدل على أنوثة المُسمى؟ ولأنها أنثى، ستعتني بنا أكثر، وستهتم لما نقوله، وسترفض أن نُعاني هكذا! الألم يقتلني ويجعلني أقول كلاماً عجيباً، كيف كانت ستفرق أصلاً؟ الإله في كل حالاته، سيتصرف كما هي الحال الآن، القوة والسيطرة وكرسي العرش، وكما سمعتُ في كثير من الخطب، تلك الميزة التي في معناها أنه يقول للشيء تحول فيتحول تقريباً، أو شيئاً من قبيل قُم فيقوم، لا أتذكر، الألم يحاوطني كالماء، الظلام بدأ وقد لا أرى شيئاً بعد ذلك، الرائحة من هذه الناحية تحديداً، تقريباً أنا أرى شيئاً، نعم! هناك شخصٌ بالأسفل!

رجلٌ يجلس مقرفصاً، يا سلام يا ست نعمة يا خراء البرك، رجلٌ آخر! كل رائحةٍ تقودك إلى رجلٍ! الألم فوق العظيم، كيف يمكنني أن أصرخ، سأسحب هذا الرجل من القاع، وسأصعد إلى السطح، قبل أن يقتلني فراقي عن الجهاز!

اقتربْتُ منه، طبعاً دون ملامح، في البداية قاومني في فزعٍ، يضرب في جميع الاتجاهات، المخبول يدافع عن نفسه، هل أحب حياةَ النهر، فيرفض الخروج معي؟ وما الفائدة من رجلٍ ممسوح الملامح؟ محيي كان كاملاً، ولم تصبه النكبة، هل هذه الرائحة، أم ما زالت تحته؟ كُف عن ضربي وصفعي يا بن الكلاب الوسخة، وعزة وجلالة وجودي بينكم، يا أقذر صنف عرفه التاريخ، لأجعلنك تندم! للأسف الرائحة تُعطيك بالكامل، هو المقصود، ستون نيلة تأخذك أنت وأهلك، تعال معي إلى

السطح، إذا لم أعثر على محيي، سأضاجعك أنت، تعال معي
وإذا صفعنتي مرةً أخرى، سأخلع خصيتيك!

محيي بن طاهرة

لن تفهم نعمة خوفاً، ستتهمني بالخيانة، ربما تُخطط
لقتلي، ستبحث عني في كل مكان، ستنتقم من أي رجلٍ يقابلها،
لتُفرغ شحنةً غضبٍ عارمة، ستتفنن في تعذيبهم، كصنع شمعة
من قضيب رجلٍ، أو تخلع حلمااتهم وتحولها لأزرار قميص، كلما
فكرتُ في ما ستفعله نعمة، إذا ما تقابلنا ثانيةً، لنقل الوصف
الأدق، عندما تعثر عليّ، لن تترك مسامحةً في جلدي دون إصاباتٍ
بالغة، ستعالجني نعمة من الخوف بالموت، أو ستعالجني من
الموت، بالموت الأكثر قسوةً، ستجبر الموتَ على الرحيل، وجلب
من هو أقسى منه، وهي فكرةٌ بشعة، أن تكون غليظاً فظاً لا
يهمك تماماً، الشيء الوحيد الذي يخشاه الجميع!

هكذا هي نعمة، إنسانةٌ حياتها تضيقُ وقت، تنتظر يومَ
القيامة بفارغ الصبر، لأنها حكتُ لي مرةً عن خطبةٍ سمعتها،
والشيخ يقول للمُصلين عن يوم القيامة والحساب، وكيف
سيقف العبد أمام ربه ليُحاسَب، وقتها أقسمتُ لي نعمة إنها
لن تترك موقعها إلا والرب معتذر لها عما بدر منه في حياتها
كلها. تخيل جيروتَ الإنسان!

لم تعترض نعمة على رحيلي، لمحتها وهي تغوص، في البداية ظننتها تفعل ذلك لتقترب من قاربي وتغرقني مثلاً، ولما طال وقت الغوص، تأكدت أنها تركتني، وسعت خلف الرائحة، المجنونة ستقتل نفسها بسبب وهم في دماغها، قد يكون الأمر صدفه، حين وجدتنى بالطريقة ذاتها، وقد يكون الله هو من أراد ذلك، لسبب ما لا يعلمه سواه، ولم تُصدقني عندما قلت لها عن ضرورة التفكير في أمر وجودنا معاً، وفي بقاء أجسادنا سليمة، لم يمسنّا المحو نهائياً، وهذا يدل على شيء خاص وضعه الله بنا، وأراد منا التصرف، طبقاً لحكمته بالطبع، في وقتٍ مُعين.. حدثتها أياماً عن تمييزنا، لم تُصدق كلمة "مختارون"، ضحكك وبصقت في آنٍ واحداً

شخصية غريبة كنعمة، تُعجب الكثير من الرجال، الرجل يهتم بالمرأة القوية، عاشقة الجنس والسيطرة، مَنْ تنافسه في السرير، من تُشعره بمدى قوته في أثناء العلاقة الجنسية، ثم تكشف عن قوتها، فيشعر بضعفٍ لذيذٍ أمام منحنيات وتمرس أنثوي لا يكرهه الرجل عامةً، لأن النتيجة في النهاية ممتازة، نشوة صادقة، لا يدنسها كذبٌ أو نفاق.

عند وصولي إلى اليابسة، التي لم تكن بعيدةً بالمناسبة، عرفت من الالفتات الموجودة أنني في جزيرةٍ بمنطقة المعادي، سمعتُ عنها كثيراً، ولم يشغلني الذهاب إليها قط، جزيرة كانت تابعةً للجيش، للتنزه والأفراح، عرفتُها من كلام بولس عنها، كثيراً ما قال لي إنه يقابل حبيبته هنا، وتخيّلُ أن واحداً من الواقعين الآن حولي، في جزيرة المعادي، قد يكون هو بولس، وبجانبه

حييته، وبمناسبة الكلام عن الحب، أنا جائعٌ جدًّا، وقد أسقط
مغشيًّا عليّ، بسبب قلة الموارد!

لم تستقبلني الجزيرة طويلاً، حدثٌ ما كنتُ أخشاه، رؤى
نعمةٍ صحيحة، هزةٌ خفيفةٌ بدأت، تبعها اهتزازٌ عنيف، ثم
تشققت الأرض، لأتفاجأ بحركةٍ صعب تصديقها تمامًا، الأرض من
حولي تختفي، أو بمعنى أصح، تهوي إلى أسفل!

لا أعرف هل في ركضي أي فائدة، أم أنني أركض كمحاولةٍ
فاشلة للبقاء حيًّا؟ ما أراه صعب تفسيره، الطرق تختفي تمامًا،
المباني يقترب بعضها من بعض، هل سيصيب المحو أيضًا معالمَ
المدينة؟ دخلتُ المبنى المقابل للجزيرة، بعدما عبرتُ الطريق
الذي كان موجودًا من ثوانٍ، صعدتُ الطوابق في مدةٍ قليلة،
وصلتُ إلى سطح البيت، أريد مراقبة الأمر من مسافة أعلى،
لقد كانت نعمة على حق، الطرق تختفي!

على مرمى البصر، لا أرى أي طريق، اختفت الطرق والمسافات
الخاصة خلفها، المباني متلاصقة، المبنى يتحرك تجاه المبنى
المجاور، لوهلةٍ فكرتُ كيف سيمكنني التحرك إذا ما أردتُ
مغادرة المبنى، ومع المنظر العام، أيقنتُ أن أسطح البيوت هي
الطرق الجديدة، لا وجود لطرقٍ، لا لوجود لأرصفتٍ وأشجارٍ، لا
لوجود للافتات، إعلانات، سيارات، حتى كل الناس الواقعين على
الطرق، اختفوا معها.. تخيل معي مدينةً، الموجود فيها فقط
هو المباني! ومن يريد أن يمشي إلى مكانٍ، فعليه أن يمشي على
الأسطح، وسيكون حظه سيئًا إن وصل إلى سطح بيتٍ، ووجد.

أن المبنى الملاصق له أعلى منه بكثير، فلا يقدر على تسلقه ومواصلة مشيه!

أين ذهب الناس؟ هل ماتوا هكذا؟ هل ابتلعتهم الأرض؟ والطرق؟ كيف تختفي الطرق؟ مدينة بلا طرق؟ أين قرأت شيئاً كهذا؟ من كان يتخيل ما يحدث للعالم! وما سبب اختفاء الأرض؟ أو هذا الجزء من الأرض تحديداً؟ ما حكمتك يا رب في بقاء البنايات، ووقوفها على أرض تحتها، وزوال الطرق؟ ما حكمتك يا رب في كل ذلك؟ لقد محوت ملامح الناس، وعرفتهم الغيب، والآن تُخفي الطرق والبشر؟ أيعني الأمر زوال البشر كلهم؟ أم اكتفيت بمن كانوا في الشوارع؟

لا تتوقف الهزات، الصوت مرعب، كأن شخصاً أمسك بمذفع قذائف، ويضرب بلا هدفٍ محدد، أتمنى يا رب أن يتوقف الأمر عند هذا الحد، وعدم اضطراري إلى اللجوء إلى الماء، لن أرجع هناك ثانية، نعمة ستقتلني، والخوف مما يحدث حولي سيقتلني، والخوف من الوحدة سيقتلني، أنا تعبٌ يا رب من هذه الحياة، إلى متى سينتهي اختبارك لنا؟ إذا كانت هذه القيامة، فلنبدأ الحساب، وإذا كانت غير ذلك، فأرجوك كن بجانبني، لقد تعرضتُ لكل شيءٍ يجبرني على الانتحار، ومع ذلك لم أفرط في حياتي، لعظمة إيماني في حكمتك، ولشدة يقيني بانني مختلف، وإن لم أكن مُختاراً، لماذا تُبقيني حياً كل تلك الفترة!

أحسستُ بحركةٍ غريبة، المبنى الذي وقفْتُ على سطحه يدفعه مبنى آخر، أكثر منه طولاً وضخامةً، أتحرك ببطءٍ ومجبوراً، إلى اللاشيء، ولا وجود لمخرج، ركضتُ تجاه المبنى المقابل، الذي كان أقل طولاً، ومنه إلى آخر وآخر، ثم ضربتني فكرةٌ فجأة، إلى أين سأذهب؟ إذا كانت كل البنايات ملتصقةً، كأنها كيانٌ واحد، فلا وجود لمخرجٍ أو باب سوى البنايات التي كنتُ أنا فوق واحدة منها، وهذا يعني أن المدينةَ حاليًا صارت كتلةً واحدة! بلد كامل، بمختلف بناياته، صار كتلةً واحدة! أي جنونٍ هذا؟ هذا يعني أنني سأمشي في هذا الاتجاه إلى نهايةٍ قد أصل إليها بعد عام، ولن أجد شيئاً، وهذا راجع إلى اختفاء أبواب البنايات، واختفاء الطرق بالأسفل! كتلة خرسانية واحدة، هذا يعني أن الحوافَ فقط هي التي ستمكنني من رؤية الأماكن المحيطة، وطبقاً لما يحدث، وأتمنى أن أكون مُخطئاً، المدينة صارت جزيرةً، يحيطها الماء من كل مكان، كتلة خرسانية واحدة، حوافها على البحر، لا وجود للطُّرق، إذا أردتُ الدخول إلى قلب البنايات، فهذا سهل، ولكن إلى أين؟ النهاية محفوظة! سأدخل أي بنايةٍ من سطحها، سأدخل الشقق، التي صارت الآن كقبورٍ، موجودة في مساحاتٍ مختلفة، لا يدخلها الهواء، ولا تلمحها الشمس!

هل العالم على وشك الغرق؟ أستهبط كل تلك الكتلة، الخرسانية مثلاً؟ وتصبح هي الطرق الجديدة؟ ويستطيع الإنسان -إذا ما حدث شيء آخر- البناء فوقها مجدداً؟ ها، يحو الله العالم، يُشكّل عالماً جديداً؟

توقف المبنى المجاور عن الدفع، المبنى الموجود بداخله صار ثابتًا كعادته، حين نظرتُ من السطح إلى الأسفل، وجدتُ المبنى يطل مباشرةً على النهر، دون طريقٍ أو حواجز، شخصٌ غيري مثلاً يحب السباحة، كان سيستمتع جدًا، إذ إنه سيقفز من السطح إلى النهر مباشرةً، دون الخوف من الاحتكاك بشيء، أو الارتطام بصخرة، مُتعة خالصة لمن يحب السباحة ومياه النهر، أما من يكرهها مثلي، فمصره هو البقاء داخل البنايات إلى أن تتغير الأمور.

لماذا يا رب حرمتني من الحرية البسيطة التي كنتُ أنعم بها؟ أمكتوب عليّ أن أظل حبيسًا، ولا أرى الشوارع أبدًا؟ لا أصدق كيف محوتِ الطرق حقًا! لقد مات أولاد الكلب الذين يغضبونك، والذين أكرههم، وأنت عاقبتهم والحياة صارت أجمل، لماذا تُعاقبني أنا أيضًا؟ أتمنى يا رب أن يكون هناك سبب معقول لكل هذا الجنون الذي يحدث، وأتمنى أيضًا ألا يكون هذا بسبب نعمة، وما فعلتهُ بها، نعمة بنتٌ نكرة، أنت خلقتها وأنت غير راضٍ عنها أساسًا، فلا تعاقبني أنا، هي لا تستحق أي تعاطفٍ منك، يا رب أنا مُشتت وأجهل ما أقوله، لقد أنقذتني كثيرًا، فهل يا رب تنقذني من الغرق؟ هل يا رب تنقذني من المحو؟

عام من الدهشة الأولى

العام صلاة الخبز

الاستنتاج العام، لخلاصة الرحلة البشرية، بكامل تفاصيلها، المعروفة مُسبقًا، وغير المعروفة حاليًا، والجارية كتابتها مُستقبلًا، في تشبيه بسيط وموجز، الفقراء هم عماد الأمم، والأغنياء راسمو ملامح الأمم، الفقراء الألوان، والأغنياء الفنانون، الفقراء دومًا البداية، والأغنياء هم الرحلة، والنهاية المحتومة -المكتوبة منذ أبد الأبدين- للفقراء، منذ متى وذهب غني إلى نهايته جبرًا؟ يظن الكثيرون، من مختلف الطبقات، أن الفقير محروم من اختيار سيرته، والغني مُخير في كتابتها، والنهاية واحدة في نظر الغالبية، كلاهما سيخطفه الموت، وهنا الفارق العظيم،

الفقير تحت التراب مدفون، وأهله فوق التراب يشاطرونه
الحزن والدفن!

أما الغني، تحت التراب مقبور، وأهله فوق التراب في نعيم،
يدعون بدوام الرحمة، ويبكون في سياراتهم الفارهة، ويضربهم
الحزن في أثناء شراء قطعة فريدة، ليس على المرحوم لا سمح
الله، بل لعدم حصولهم عليها، بسبب المزاد السخيف، والرجل
الغني جدًا الأسخف، الذي استطاع اقتناصها في آخر لحظة.

وفي مسار الفترة المعروضة، وبعد نزول الأغنياء لإعادة تشغيل
الحياة، لم يرض أحدهم، خاصة الموجودين في ميدان التحرير،
بوظيفته التي أقبل عليها سعيًا، تسرب الملل في البداية، ثم
الكبرياء، والتباهي بالتاريخ النادر، وكيف أن المتكلم كان فريدًا
في مجاله، فيقف المخرج، يذكر الناس بأفلامه العظيمة، ويرد
عليه اللاعب بأهدافه، التي وضعت بلده في مصاف الكبار،
لتدخل الرسامة المصنفة دوليًا، والسبب الرئيس لتسليط الضوء
على دول العالم الثالث، ليخرسهم جميعًا الكاتب المشهور، الذي
حصل على جوائز عدة، لتمييزه في كتابة الروايات، ويذكر عددًا
مهولاً من التكريمات الدولية، ورفع علم واسم بلده، في بلدان
مختلفة، يجلس الأدباء أمامه، في حسرة وغل، لأنهم خسروا
جائزة ماليةً معتبرة، كانت ستنقل معيشتهم إلى مستوى خرافي،
يربحهم من هم الوظيفة ذات الراتب والامتيازات، ليتفرغوا
الواحد للآدب وحكاياته، ثم يبصق الكاتب عليهم، في خيال
لتقديمهم تسليّة رخيصة.

كلهم نسوا الجنة وعمل الخير، وتمنوا ترك الوظائف للعبادة والراحة، خاصة أن القيامة قريبة جدًا، ليجتمعوا في وقت راحتهم، وطلبوا من الكاتب المشهور، الذي يجيد التحدث بدبلوماسية، ويعرف كيف يتلاعب بالألفاظ، فيقنع المستمع بصواب قضيته، بضرورة التحدث إلى السفير العام، وجلب موظفين آخرين بدلاً منهم، يجيدون التعامل مع العملاء، ولا يقف شخص منهم متفخرًا بتاريخه، فتصاعد الأزمة، ويُخرج كل واحدٍ من جعبته إنجازاته، ليركل بعدها رفقًا الطعام، وهو يسب ويلعن اليوم الذي تسبب في إذلاله هكذا، وإذا حاول رسولٌ من رسل الخير لهدئته أو تهديده، يبدأ الضحية في سرد تاريخ الرسول الأسود، ويهدده بالمثل، بفضح شر أعماله، إذا تحدث إليه بهذا النبرة مجددًا، فيفقد الرسل السيطرة على الأغنياء!

لذلك نصح الأغنياء الكاتب المشهور بالتودد إلى صاحب الأمر، ووجوب تعيين الناس العاديين، أصحاب اللاتاريخ واللاإنجازات، الناس الذين يعرفون معنى لقمة العيش، والصبر على العصبية، وإجادة التحكم في الأعصاب، الناس الذين يردون على قصة عظيمة لرجل عظيم بجملتهم المشهورة: "العقبى لنا يا رب"، هؤلاء الذين يحبون دور المساكين، والمسكين سيخاف من رسل الخير، وقتها لن تجد رجلًا منهم يرد على تهديد الرسل بتهديد آخر!

ولأن الكاتب المشهور خبيثٌ لئيم، تعتمد عدم الفهم، لتقف فنانةً معزلة، وتصرخ بعلو صوتها: "نتحدث عن الفقراء طبعًا يا بن الغيبة! هل هذا من سيتحدث باسمنا فعلاً؟

والله العظيم السائق الفلاح الذي كان يعمل لدي أذكي منه
بمراحل!" فيضحك كاره الكاتب في صمت، ويغضب الباحث
عن المصلحة، ويطالب الفنانة بالسكوت، ليعاود الكاتب لعبته
الدينية، بسؤاله الأكثر خبثًا: "هل تريدون مني حقًا، التحدث
إلى صاحب الأمر، ليجلب الناس العاديين أو الفقراء كما قالتِ
الفنانة، وتعود المياه إلى مجاريها، ويعرف الجميع أن المقاماتِ
محفوظة؟" لم يفكر شخصٌ واحد في تعديل كلام الكاتب، الكل
وافق على الفور، سواء بهمهماتٍ أو هزات رأس، الحقيقة من
فم كاتبٍ مُقنعة، يعرف متى يقولها مباشرةً، ومتى يتفنن
في عرضها بالأعيب القلم، الذي عرفنا أن من أسمائه، اللثيم
الأعظم.

ولم يجد الكاتب أي مشقة في عرض طلب الصفوة على رسولٍ
من رسل الخير، يعرفه جيدًا، كان يذهب إلى بيت الكاتب،
وهو لواءٌ بالشرطة، يسهر معه سهراتٍ غير عادية، ويقرأ مع
الصغيرات الحالمات بالشهرة ما كتبه الكاتب المشهور، وفي نهاية
كل سهرة، يدخل مع إحداهن إلى غرفة نوم، يعدها بالحماية،
من أي متطفل، وقرب نشر روايتها أو أعمالها، المهم أن ترضيه،
وتجعل لبنّه يفور.

رسول الخير أكد له أن الأمر سيصل حالاً إلى المسؤول، ولن
يبقى أحدٌ منهم في وظيفته، مع ابتسامة غامضة، لم يفهمها
المُحيطون به، ولكنهم توسموا الخير في رسولهم، الذي ذهب،
فوراً إلى الرسول الأكبر، ليعرض عليه طلبهم، فأخبره الرسول،

الأكبر بأنه سيهاتف صاحب الأمر، والمعروف عنه كرمه الواسع وحبه للخير، ولن يرده خائبًا أبدًا.

تمت المكالمة كما وعد، وجاء الرد واضحًا صريحًا: "من يرفض العمل، يُعَدُّ في ميدان عام، اعرض عليهم الأمر، وإذا رفضوا ولو مرةً واحدة، يُعَدُّ كل معترض! القيامة على الأبواب، العام مر سريعًا، وليس هناك وقت للاعتراض أو تصحيح الأمور، لن أقوم بأي ذنب في تلك الفترة، وهم يخرجون على الحاكم في طلبهم هذا! اسمعني! لا تقل لهم شيئًا! اعدمهم فورًا! وإذا لم تقم بالأمر، سأعذمك بنفسي! والأمر نفسه للرسول الآخرين، اجعل كل رسول ينزل إلى ميدان من الميادين العامة المخصصة للعمل، يسألهم سؤالاً واحدًا، من يريد ترك العمل واستبداله بشخص عادي؟ كل من وافق، يُعَدُّ فورًا، في وسط الميدان، وتترك جثته عبرة للآخرين! لا لا.. انتظر.. أنا تعبٌ من كثرة المسؤوليات ومن كثرة القرارات! اسمعني يا كلب أنت، أمامي ورق لحالات إعدام أخرى، اجمعهم كلهم، سيُعَدُّ رافض العمل مع المذنب مع المخطئ، سيكون يوم الإعدام العظيم! في ميدان التحرير، سنقيم المشانق والمحارق! لا سلام عليك ولا عليهم يا بهائم!"

وهنا كانت الكارثة الكبرى، كيف سيرجع الرسول الأكبر إلى موظفه، يأمره بأن يقول للصفوة بضرورة القيام بالعمل، وليس العمل من أجل لقمة العيش، لكن العمل على حفر قبورهم!

رجع الرسول المكلف بالمهمة إلى الميدان المُعترض على العمل، تحديدًا ميدان التحرير، الذي تكالب عليه الكثير من الصفوة، ووقف وسطهم ممسكًا بمكبر الصوت، وسألهم: "من الذي يود التوقف عن العمل؟ ويريد استبدال شخصٍ عادي به، ليقوم بمهمته؟" خرجت الغالبية العظمى، وتجمعت حوله، وأولهم الكاتب المشهور والفنانة المعتزلة، وخلفهما المُخرج واللاعب والرسمية، كلهم يريبتون على كتف الكاتب المشهور، ويشكرونه على همته في مساعدتهم، وعلى شبكة علاقاته القوية الرائعة، ليقول لهم الكاتب المشهور، في ثقةٍ نابغة من رجلٍ يعرف ماذا يقوله ومتى: "الموضوع بسيط، سنحتفل غدًا بالعودة إلى بيوتنا يا رفاق النعيم الدائم".

عامل الفخار

أيقن فيليب صدقَ يهوذا، لما غاب ولم يظهر، فعرف أن قيامته قريبة، ورجوعه إلى العالم الخارجي أقرب، ولأنه لم يعتد الوحدة، بغيبوبته التي ستتم عامها الأول، بدأ يتنزه فيليب داخل أروقة عقله، يخرج من ذكرى قتلٍ، إلى يوم ولادة، يمشي فوق جسي من الدم، يرى زوجته في حضن رجلٍ آخر، يُشاهد مينا لابسا طوق كلب، ويزحف عاريا كما تأمره أنثى، يلمح ابنته مريم بين أحضان الخليجي والباشا، كلاهما يعتليها في نشوة وقحة، ثم يقف أمام باب، يُشاهده للمرة الأولى، منذ قدومه إلى عالم الضباب.

يطرق طرقتين ثم يدخل إلى ساحةٍ، تشعر أنها ساحة جامع كبير، لا وجود للأسقف، المكان منه للسماء مباشرةً، الأعمدة والأرض الرخام، الفن الهندسي الإسلامي، نسمات الهواء والطرارة الجميلة، الهدوء المُطمئن للنفس، اختفاء الشمس رائع، النور موجود من خلف السحاب، صوتٌ رخيم يتحدث، بحث فيليب عنه، ليجد رجلاً كبيراً، ملامحه ليست عربية تمامًا، يرتدي عمة خضراء، والجلباب الصوف الزاهد فوق جسده، يتكئ بظهره على سبيلٍ للماء، يخطب في مجموعةٍ من الشباب، اقترب فيليب من مصدر الكلام، وجلس في حلقة العلم تلك، ليتعرف على المضمون.

لم يفهم كلمةً واحدةً مما قيل، الشيء الوحيد الذي سمعه، في كل مرةٍ سأل شابٌ من الجالسين، هو بداية الجملة: "يا قديس الأيام الأخيرة"، بعدها يختفي الكلام ويصير عبثاً، فكر كثيراً فيليب من هو قديس الأيام الأخيرة، يعتقد أنه قرأ شيئاً من قبل، أو سمعَ هذا الاسم في حديثٍ، وتعذر عليه الإمساك بخيط يفيده، فأكمل جلسته معهم، لما وجدته من راحةٍ في حضرة هذا الرجل الغريب.

انتهى الدرس وانصرف الطلاب، ولم يُقم المُعلم، ظل ناظرًا إلى السماء كأنه يُخاطبها، ثم وضع يده على صدره، ودون أي مُقدماتٍ وجه كلامه إلى فيليب: "حاولتُ كثيراً التعلم من المسلمين أصولَ الصوفية، جالستُ أبا الحسن الشاذلي في رؤى الوحي ورحلاتي الروحانية، وهو مؤسس الطريقة الشاذلية، والوحيد الذي وافق على مقابلتني، فكما تعرف عالم الأرواح

تقريبًا يُشبهه العالم الخارجي، يموت المرء ومعه كل صراعاته مع الطوائف الأخرى! عرفني الشاذلي على أشهر تلاميذه، أبو العباس المُرسِي، أو كما يقولون في الإسكندرية اليوم، المُرسِي أبو العباس، كانت أجمل الأيام يا فيليب، حين تعلمتُ منهما بعض ما يُريح صدري، ويجعلني قديسًا مرتاح البال، يعرف يُكمل دعوته، بهمة مشحودة.

ذهبنا إلى تونس والمغرب، ولم تبخل تركيا علينا بشيء، وقابلتُ هذا الرجل الذي يُحبه الجميع، جلال الدين الرومي، ونثر أشعاره وحكمه وأوراد تصوفه، وحدثني عن شمس الدين التبريزي، وسمعتُ مني أصول تبشيري للناس، وما أدعو إليه، ودعا لي بالتوفيق وصلاح الحال، و.. اعذرني يا فيليب، لم أقدم نفسي، وهذا واضحٌ في معالم وجهك، الناظر إليّ في قلبي وريبة. أنا يا سيدي الفاضل جدك الأكبر يوسف، قديس الأيام الأخيرة، ونبي المورمونية، لا تتعجب من لفظة جدك، أنا بداية شجرة العائلة، أعرف جيدًا أنني غير عربي، ملامحي أمريكية بجدارة، ولكنني نزلتُ إلى الأقصر، في إحدى جولاتي للتبشير، وللبحث عن لوح ذهبي مفقود، مكتوب عليه تعاليم ديانة طائفتنا، وهو فعلٌ يرجع إلى النبي الأول لديانتنا، النبي مورمون، كتب أصول الديانة على الألواح من ذهب، بلغة غير مفهومه، ولكن الرب اختارني، وتحدث إليّ في ليلة صافية، وأمرني بتأسيس الطائفة المورمونية، وترجم لي كتاب المورمون المكتوب على الألواح، وبدأتُ في التبشير بها.

ولعناية الرب بي، في كل مكانٍ أذهب إليه، هدايني إلى سيدةٍ مُشردة، كانت تمشي في طرقات الأقصر، عارية وفاتنة الجمال، أقسم الجميع لي وقتها على أنهم لم يلمحوها من قبل، تزوجتُ بها وكانت زوجتي الثالثة، فنحن عقيدة مسيحية تؤمن بالتعدد، ورفضت الرجوع معي إلى وطني، المجنونة الحُبلى، قالت لي وقتها إن ابنها لن يخرج من بلده، سألتها كثيرًا كيف تعرف أنه ولدٌ وليس بنتًا، فقالت الملائكة تزورها يوميًا، لتطمئن على الولد، وتلاعبه داخل رحمها، وتُهيئه للحياة عند الخروج.

العائلة تكبر يا فيليب، وتنتشر في المحافظات، الأقصر والفيوم وأسوان والإسكندرية والقاهرة، وكان للقاهرة نصيب الأسد، سواء من العائلة، أو من مُريدي المورمونية، وهي السعادة الخالصة، أن أرى أحفادي، وأنا في السماء، وأنا في الكنائس، وهم يُصلون، وفي بيوتهم، أدعو لهم جميعًا، بالخير والمغفرة والرحمة والمحبة، إلا أنت يا فيليب، كنتَ من نسل أبيك مجيد، ومجيد للأسف من نسلي المظلم الذي أكرهه، النسل الذي لا يؤمن بي ولا بالمسيح إيمانًا صحيحًا، فتزوج أبوك كثيرًا سرًا، مع أن التعدد موجودٌ في عقيدتنا، ولكنه لم يتزوج بالمعنى الصحيح، ولم يبحث عن البتول بنت الأصول، والمسيحية المؤمنة التي تفتح بيتًا، بيتًا يحميه يسوع ودعوات يوسف قديس الأيام الأخيرة، يصرف أمواله على الراقصات والغانيات، وأنت يا مسكين منذ صغرك، تُخبرك أمك أنهم مجرد نسوة في حياته، وهن زوجاته، صدقني يا فيليب، حاولتُ معه، جعلته يرى كوابيس الشر في أحلامه، أحلام قد تهدي الشيطان إلى طريق الرب، ومع ذلك كان

يتغلب عليها حين يفيق من نومه، بالخمر والقهوة والسجائر، وهو يعرف أنها من الممنوعات في عقيدتنا، كأنه يُحاربني يا فيليب، وللأسف كان من طائفة الأرثوذكس، ذلك لأنه يعرف أنهم فقط من سيدخلون الجنة! الصراع الطائفي الحقيق، بين الأرثوذكس والبروتستانت والكاثوليك، وكيف يرى الأرثوذكس أنهم فقط من سيكونون مع يسوع في الملكوت!

ولما وجدتك تقيًا، ومسيحيًا مُخلصًا، كنتُ في غاية الفرح، أخيرًا نسل مؤمن من صُلبٍ مجيد، الذي أمرَ كل نسوته بالرحيل إلى القاهرة، وتركك أنت وأمك في الفيوم، وأنا يا فيليب يا بني، لن أقول كلمةً واحدةً تجرحك، تجاه ماضيك وما فعلته، أنت ضحيةٌ لأبٍ معدوم الإنسانية، لم يستطع التحكم في نزواته وشهواته، وتركك فريسةً للفقر، ولما رجع في يوم، إلى بيتكم ليلاً، قتل أمك أمامك، بعد شجارٍ نشب بينهما، وحتى لا يفتضح أمره، ركض بجثتها، وحرقها داخل القرن، أنت ضحية أبيك يا فيليب، أبوك من فعل هذا بك، أنت تحرقهم لتنتقم لأمك، لتنتقم من أبيك، كل الفتيات والبنات والرجال، الذين رأيتهم جميعًا في أحلامك، كان غرض سؤالهم المعرفة، وليس الإنكار! هم يعرفون كم عانيت يا فيليب، لذلك يسامحونك! وأنا أعرف كيف عانيت في حياتك، وكيف حررك القتل من خطايا أبيك، وكيف شعرتُ في كل مرة قتلتُ شخصًا، براحةٍ غريبة، كأنك تُصلي من أجل المسيح صلاة الدم، تطلب منه محبته ومغفرته، بحرق الجثامين في الأفران.

أنت تستحق حياةً أفضل يا فيليب، لن أتركك أبدًا، سأظل ملاكك الحارس، طوال حياتك وبعد مماتك ويوم ذهابك إلى الملكوت، ولكي تعرف أنني لستُ كاذبًا، أنا من أنقذك من الموت، لما انفجر القطار بفعل فاعلٍ، ركضتُ تجاه جسدك النائم، ومنعتُ عنه إصابةً قاتلةً كانتُ على وشك كسر رقبتك، ولما دعوتُ يسوع، بشرني ببقاء عمرك، وأن الموتَ بعيدٌ.

أيامٌ قليلةٌ وستقوم إلى الحياة من جديد، يا فيليب، نصيحتي الأخيرة لك، حين يحدث الأمر، وتري الطريق واضحًا أمامك، اركض في خطٍّ مُستقيم، لا يسار يريدك، ولا يمين يحميك، الاستقامة هي الملجأ العظيم.

يا فيليب، عُذ إليهم وأنت بالسر عليم، حياتك مميزة، لأنك من نسل نبي، من نسلي أنا يا فيليب، يوسف سميث، النبي الذي بُعث إليهم، قبل الألفية الثانية بألف ومئتي عام، أنت مورموني بالفطرة، لذلك لم تشرب الخمر ولا السجائر ولا القهوة، أتذكر كيف كان نجيب يتعجب منك؟ نعم يا فيليب نعم! أنت مورموني بالفطرة! نحن لا نشرب الخمر ولا القهوة ولا السجائر! وأنا سامحك يا شقي على شربك للأرجيلة!

أنت لستَ كيهودا، أنت ضحيةٌ تائهةٌ، يسوع كان على يمينك يسندك، وأنا على يسارك أعتذر له، كلما قتلتُ أو أذنبتُ، يا فيليب، أنت قديس الأيام الأخيرة، لا تُحارب المسيح، ولا تفعل ما طلبه منك يهودا، ولا تصدقه أساسًا، الرب عليمٌ بكل شيءٍ، ليس هناك تناقض ولا حرب، هذه نهاية الأيام،

وأنت في الملكوت رغم كل خطاياك، لأنني صليتُ من أجلك
كثيراً، يا تائهًا في بئر الذنوب.

حين تقوم، اسأل المسيح على اللوح المفقود، يرفض أن
يخبرني، وقال لي في نهاية الأيام سأقول لحفيدك، وأنا أحتاج
إليه، لمعرفة ما خفي عليّ من تعاليم ديانتنا، لما ترى المسيح
اسأله يا فيليب، أنت الوحيد القادر على ذلك، أنت الوحيد
الذي ستكون قادرًا وقتها، لما يحين اليوم الكبير، سيُصيبك ما
هو أقل منهم، لمعرفة اللوح الذهبي المفقود، أشعر برائحة
الذهب في أنفي تُداعبه، فيليب، لا تأخذني أرجوك!

عامل الدوكو

لم يُصدق عبد القوي الرقم الذي سمعه.. نظر إلى العرائس
المرصوفة في المخزن الكبير للمسرح، وتعجب من شكر بكار
لكل عاملٍ موجود على مساعدته في تحقيق المطلوب، رغم
ضخامة العدد، فإنهم جميعًا كانوا رجالاً بحق، وتحملوا
المسؤولية، ثم خيّرهم بين الرحيل أو البقاء، في كل الأحوال
هو ليس مهتمًا بما يحدث خارج حيز مسرحه، ولا يابيه لأي
عقوبةٍ مهما كانت، الحرية حق مكفول للمواطنين، الحرية حق
متأصل في عقيدة الإنسان، وقبل أن يَخْتَمَ كلامه، أخرج من
كيس أسود زجاجتين، في البداية لم يفهم أحدٌ نوعهما، بعدها
عرف كل شخص واقف، على قرب أو بعد، من بكار وخشبة

مسرحة، أنه يعرض عليهم زجاجتي خمر، الزجاجاة الواحدة عتقت لسنين طويلة، تجعل الجبل يترنح إذا ما شرب كأساً.

لم ينضم عبد القوي إليهم، فُضِّل الوقوف بين العرائس في المخزن، يُدهشه الاختلاف المخلوق، لا وجود لشبه بين اثنتين، بدأ يُحادثها، ويُعرفها بنفسه، ثم يضحك بصوت مكتوم، وكاد يموت من الخوف لما أحس بيد تلمس كتفه اليمنى، ظن في البداية أنها عروسٌ تتحرك، لكنه بسمل وحوقل حين رأى بكار يقف خلفه، في يمينه كأس خمر، وفي يساره زجاجة مياه غازية ناوله إياها، ثم طلب منه ضرورة التركيز في ما هو آتٍ: "اسمعني جيداً يا عبد القوي، أعرف أنني وعدتك بتعليمك كيف تحرك العرائس، ولكنني أريد منك خدمةً طارئةً، هل تعرف شخصاً، أو بمعنى أصح نحاً أو فنناً، يعرف كيف يصنع التماثيل من مادة السيليكون وليس الشمع؟ السيليكون يا عبد القوي، لا أريد تماثيلَ شمع، هل تعرف أحداً يحب الفن من أجل الفن؟ لم يتأثر بموجة الإيمان المزيفة بالخارج؟ شخصٌ إذا تحدثنا إليه لن يجيب بالقيامة والدين وأعمال الخير؟ أنا للأسف لا أعرف كيف!"

ميزةُ الفهم لدى عبد القوي ليست في ترجمة المقولة، بل في الإجابة عن سؤاله النابع من سؤالك الأساسي، وهو ما فعله عبد القوي، بشيء من الحذر، لما سأل بكار، عن السبب الرئيس خلف طلبه، مُعللاً بأنه لم يستفسر عن شيء منذ يومه الأول في المكان، فأجابه بكار بأنه المطلوب في كتابه، هو وكل الزملاء الذين فعلوا مثلما طُلب منهم، وقبل أن يُكمل جملته، سألته

عبد القوي: "زملاء؟ هل يعني كلامك وجود أشخاص آخرين يصنعون منذ عام عرائس خشب، مثلما تفعل أنت كل يوم؟" وعندما أجاب بكار بالإيجاب، وأنهم عشرون بالتمام والكمال، باغته عبد القوي بسؤال آخر، قبل أن يكمل حديثه: "يا بكار، إذا كان العدد مئة ألف لكل واحد، هذا يعني مليونين! ماذا سنفعل بمليونَي قطعة خشب على شكل عرائس خشبية؟"

في حديثٍ مُطولٍ، شرح بكار لعبد القوي حقيقة مرضه، والغرض من حياته البائسة، وكيف أنه فرخ لما تساقطت الكتب، ثم ضربه الحزن لاستمرار بطء حياته، وخلو الكتاب من أي مُغامرةٍ، لكن بعد اكتشافه لتشابه المهمة المطلوبة مع أشخاص آخرين، يعرفهم ويعرفونه، قرر المشاركة فوراً، دون أي استفسارٍ عن العلة، عملَ بيقين تام، وأيقن بإيمان خالص أن المكتوب محتومٌ، وكيف راعى ربه ظروف صحته، فأمره في كتابه أن يحضر أشخاصاً للعمل، ومع الاستمرارية سيحقق المطلوب، وهو ما حدث بكفاءة، كان لا يؤمن بها صراحةً، لخبرته بالتعامل مع العمال المصريين، وكيف أنهم يعبدون الكسل، ولكنه تفاجأ بنشاطهم وحبهم لما يفعلونه، وهو ما انعكس على طريقة الشغل، وتسليم العدد المطلوب يوميًا، كما هو موضح في الكتاب، من قطع خشبية فائقة الجمال، ومكتملة الصنع، دون أي عيوب خلقية.

المعجزة حدثت، والجميع أصبح جاهزاً، بعدد العرائس الخشبية، المقررة عليه في كتابه، قبل أن يظهر العجز الواضح، في

عدم معرفتهم، ويقصد هو وزملاءه، بأصول النحت بالسيليكون،
أو بشخص قد يُساعد.

سأله بغتة: "هل تقصد السيليكون المطاطي؟" تفاجأ بكار
من سؤاله، وأجاب فوراً بأن هذا هو المطلوب فعلاً، واستفسر
منه كيف عرف هذا، فلم يخبره بأنه الرجل الذي يعرف
الكثير، ولا يشغل باله بالتفكير، حاول الهروب من سؤاله، فقال
له بكار: "من الواضح أن الكتاب محقق بشأنك، أنت شخص
موهوب وعظيم! هل ستساعدني في هذا؟"

قال عبد القوي، بنبرة مهزوزة: "كما أخبرتني بسرك وسر
مرضك، سأخبرك بسر عني، أنا أصلاً يا بكار عبارة عن
موسوعة متحركة، أعرف الكثير من المعلومات، وقد أجيبك عن
أي سؤال، كإجابة ظاهرية فقط، ولكنني لا أشغل بالي بالتفكير،
كلما فكرتُ شعرتُ بدهشة، كأنه يأمرني بالتوقف!
لذلك قلْتُ لك المعلومة الظاهرية، ألا وهي النحت بالسيليكون
المطاطي، ولكن أي تفاصيل أخرى، إن لم تخرج مع المعلومة من
البداية، لن تخرج أبداً، ولو بالطبل البلدي!" ضحك بكار على
كلامه، وهز رأسه، شرب الكأس، وعرفه أنه لولا كلام الكتاب
عنه، لم يكن ليصدق تماماً، فعرض عليه عبد القوي أن يسأل
العم آدم.

أخف من ريشة، ركض عبد القوي، من المخزن الكبير،
إلى خشبة المسرح، وبعد سيجارة التحية، وكلام معسول
لكبير العاملين، كانت إجابته هو الآخر فاصلة: "فنان نحت

بالسيليكون؟ أنا أعرف أن السيليكون هذا تستخدمه النسوة لتكبير المناطق التي نُحبها فيهن، لكن للنحت؟ يا سبحان الله، العلم يا أخي الفاضل لم يترك شيئاً إلا وحاول تجميله، تجميله؟ هاهاهاها كلامي كله عن عمليات التجميل، دعني لحالي يا عبد القوي، قُل لبكار أن يبحث بعيداً عن هنا"، لم يتزعزع عبد القوي من مكانه، حاول إقناع العم آدم بتشغيل دماغه، لعله يتذكر شخصاً أو مكاناً، مع تذكيره بأيام الشباب، لما كان رجلاً مُحباً للخير والمُساعدة، وكيف أنه زرع بداخله الشهامة، أكثر من أبيه، وأنه مثله الأعلى في أمورٍ شتى، منذ الصغر.

تفاجأ عبد القوي برد فعلٍ عنيفٍ من العم آدم، الذي لم يابه تماماً لكلام عبد القوي: "أي شهامة؟ وأي مُساعدة؟ وأبوك؟ أبوك من؟ أنت لا تعرف الحاج عبد القوي أصلاً يا.. أنا نسيث اسمك أساساً، المهّم لا تنطق اسمَ الرجل الطيب عبد القوي على لسانك، ولا تذكره بالسوء، ويا بن الكلب أنت لا تقل إنني مثلك الأعلى، وعلمتك الشهامة وكل هذا الكلام الفارغ، ثم ما كلمة منذ الصغر هذه؟ أنا لم أقابلك إلا وأنت بغلٌ كبيرٌ أطول مني هكذا، من أين أتيت بهذه التفاهات يا كُس الكلبة أنت؟" في البداية ضحك عبد القوي لكلام العم آدم، وطلب منه التوقف عن الهزار حالياً، وبعدما يُساعدهما في الأمر، قد يقول كل النكاتِ المُضحكة التي يحبها.

ولكن العمّ آدم لم يغير تعابير وجهه، وقد تملك منه الغضب، لما ضحك عبد القوي، ليستمر العم آدم في فرض احتلاله على أرض كرامة عبد القوي: "يا بني هل تراني شاباً

مثلك؟ أو عبلاً صغيراً يكذب عليك؟ أنا رأيتك منذ سنين لا أذكر عددها، والحاج عبد القوي الله يرحمه هو الذي وجدك صباحاً عند دكانه، وعينك كصبي فيه، لما عرف منك أنك لا تتذكر شيئاً، وفاقده للذاكرة، وبعد عدة شهور، وفي يوم من الأيام، رجع الحاج إلى الدكان، لأنه نسي شيئاً، وأنت كنت تنام في الدكان، قبل حصولك على الشقة التي تسكنها في السيدة، ولما فتح المحل، سمعك وأنت تتحدث، عن أشياء عجيبة، عن صبي صغير قتلته، وعن مركبٍ خربته!

ثم بدأت في الأيام التالية تقول له يا والدي، ثم تعتذر ونقول له يا أسطى، في محاولةٍ خائبةٍ، فعلها كثيرون من قبلك، وفلححت للأسف، ولأن الحاج عبد القوي لم يكرمه الله بالذرية، ولم يعرف له قريباً أو أخاً أو حتى صاحباً، لم يعترض على كلمتك، وبدأ يُعاملك كابنه الوحيد، ابنه الذي جاء إليه بعدما فات العمر، وتعب من كل المحاولات مع الأطباء.

هذا كل ما أعرفه عنك، ذكرياتك التي بنيتها في خيالك، وبدأت تُصدق حُسنَ فعلِ الرجل الطيب، كل هذا يعود إليك، لكن لا تتهمني مرةً أخرى بالمساعدة والشهامة، واللعب معك حين كنت صغيراً، المنطقة أصلاً لا تعرفك، ولم تتجاوب معك إلا بعدما طلب عبد القوي ذلك من الناس، بدافع أنك رجلٌ مريض، وهو يُساعدك! أنا لا أكره في حياتي كلها سوى الإنسان الجاهل اللئيم!"

غاب عبد القوي عن العالم المحيط، وغرق في بحر من التخبط، كلما سبح إلى شاطئ، أمسكه ورماه إلى البحر ثانية! كانت كلمات العم آدم، بمثابة صقعة قوية، من يد الرب، تخيل أن تظهر يد الرب فجأة، وتصفعك في أقل من ثانية، وإن حاولت - هذا إن عرفت - الوقوف، تصفعك مجددًا! وبجدارة هذا ما عاناه عبد القوي، الذي لم يرد على كلمة واحدة مما قاله العم آدم، وركض إلى سريره، ليخرج كتابه ويرجع إلى الذكريات، المدونة حرفًا حرفًا، وصرخ بكامل قوته: "إذا كان كلام العم آدم صحيحًا، فما هذا يا رب؟ هل أنا فعلاً كما قال؟ أم أنه سكران لا يعرف ما يقول؟ ولكن كيف لسكران عقله مُغيب أن يصنع كل تلك الحكايات ببراعة؟ من أنا يا رب؟"

العامه العم آدم

في احتفال بكار بمعجزته، حزنٌ عظيمٌ عشت على الجميع، حين ظن بكار أن الخمر لن تغلب رجاله، ولكن ما وجدته بعدها، جعله يُقسم إن الخمر قد تغلب الملائكة نفسها، ومهما تفاخر الرجل بصعوبة مس السكر له، ستثبت الخمر أنه طفلٌ بعد رابع كأس، وربما يخرج إلى الناس بحثًا عن امرأة تُرضعه، أو ثدي كبير يكفيه.

لم يحسبها بكار جيداً، افتخاره بالمنجز العام وسوسَ لدماغه، على الإلحاد عن الطريق المرسوم، عن الجدية والالتزام، نسي بكار الحذر، وفتنة السهو الغاوية رقصت لبيكار وتمايلت، فلم يلمح العم آدم وهو يصرخ بالحقيقة في وجه عبد القوي، وبعدها مغادرته خارج المسرح، لم يرَ العمَّ آدمَ غاضباً، لم يرَ وهو يناطح السماء، بكلماتٍ غير مفهومة، ولم يرَ وهو يسب الناس، ويطالبهم بتشغيل عقولهم، وتبول على رسولٍ من رسل الخير، الذي كان ماراً بالقرب من المسرح، الذي عانى بكار منذ تأسيسه، ومع بعض العلاقات الخاصة، التي كوَّنها مع رواد المسرح، والفنانين والممثلين والشعراء، عرف بمنع رجال المراقبة المنتشرين في شوارع وسط البلد، وفي كل العصور والحالات، عن زياراتهم للزجة المُباغثة، ولكن الحظَّ لم يكن دوماً الحليف الأمل.

مما قاله العمَّ آدم: "يا أولاد الوسخة، شغلوا عقولكم، عن أي يوم قيامة تتحدثون؟ أين علامات يوم القيامة الموجودة في أديانكم؟ أين ياجوج وماجوج يا مسلمين؟ أين الدابة؟ أين الضيقة العظيمة يا مسيحيين؟ أين قدوم المسيح؟ ما دتم لا تعرفون، هل يرد عليَّ يهودي مثلاً، ويخبرني أين البقرة الحمراء؟ أنا أسألكم جميعاً، عن أبسط العلامات، أين سمع أي شخص منكم، عن سقوط الكتب من السماء فقط، كعلامة من علامات يوم القيامة؟ أين بقية العلامات؟ سقوط الكتب من السماء هذه من العلامات الكبرى والأخيرة، التي تسبق الحساب، هل يجاوبني شخصٌ صادقٌ من نفسه، ويقول لي

معك حق يا عم آدم؟ نحن نسير كالبعير وراء التفسيرات الخاطئة يا عم آدم، نحن نخاف من رسل الخير لأنهم أولاد قحبة يقتلوننا يا عم آدم، هل يملك رجلٌ ذكرًا طويلًا وسميًا، يُخرجه ليدخله في فتحة شرح هذا الرسول؟

اسمعوني، هذا ليس يوم القيامة، هذا اختبارٌ من الجالس فوق العرش، المُستمتع بتحريككم كخصيتي رجلٍ، تحركهما عاهرة لذبونها فيهبج أكثر، أنتم مثيرون للشفقة، الواحد منكم يستحق المُعاملة الوسخة، الضرب بالعصا، حشر العصا في مؤخراتكم، يا ليتكم عاملتم كتب الفلسفة معاملتكم نفسها للجنس ولأفلامه، معاملتكم نفسها للتجسس على أخبار الآخرين، معاملتكم نفسها لأخيكم الإنسان غير المتوافق مع طباعكم القذرة، لو فكر أحدكم فقط، بدلاً من العمل على قوة الانتصاب، والسعي وراء المقويات، لو فكر أحدكم أن يقرأ ويعرف، أن يبحث بنفسه عن المعرفة، لكننا الآن واقفين أمام الحكومة، عقوا السفارة العامة، نحارب ظلمها، ونضرب رسل الخير على عجيزتهم، ولكن إلى من أتكلم؟ إلى الموافقين على العبودية؟ خيبةٌ ثقيلةٌ تدوسك يا آدم، كلامي لك يا آدم الأول، يا من فتنتك ثمرة التفاح، انظر من مكانك إلى أبنائك، تمعن في النظر أكثر، ما رأيك في القطيع المُساق؟ شكلهم رائع أليس كذلك؟ مثلك تمامًا، يا من ركضت خلف نشوة، يا من ركضت خلف ذنب، نُحاسِب نحن جميعًا عليه، إلى يومنا هذا!

قُل لي يا رسول الخير، يا من تنظر إليّ والشر كله في عينيك، جاوبني، آدم هو المُذنب، أكل الثمرة، فنزلنا كلنا إلى الأرض،

لماذا لم يُعاقبه الرب بمفرده؟ لماذا مثلاً لم يأمر قابيل وهابيل بالصعود إلى الجنة؟ وكل من يخطئ يخرج منها إلى الأرض؟ لماذا؟ ما الحكمة من الحياة؟ أن نعيش ونتعبد ثم نموت؟ لنحاسب ونتنظر، هل سأكون في الجنة بالأعلى، أم في الجحيم بالأسفل؟ المكان النهائي واحد، لذا لماذا تعب الأعصاب هذا؟ كان يمكنه أن يخلقنا كلنا في الجنة، ثم يُعاقب المُتَمَرِد على تعاليمه، أو المُخَالَف، لماذا.. لماذا.. لماذا تستغفر يا رسول الخير؟ أنا لم أقل شيئاً مُخَالَفاً للدين، نحن خلفاء الله في الأرض، وميَّزنا بالعقل، واستخدامه واجبٌ علينا، هو يعرف أن روحنا متمرده، لأننا خلفاء الرب، المُتَمَرِد الأكبر، نعم هو المُتَمَرِد الأكبر، تمرد على قوته وعظمته بنفسه، لماذا خلق الدنيا في ستة أيام؟ يمكنه خلق ما لا يمكن حصره من الأكوان، في أقل من ثانية، إذاً من تمرد من البداية؟

من الذي تمرد على البشر؟ وأرسل إليهم معجزاتٍ ومسيحاً دجال، وشخص الفتنة أمامهم، ثم يُطالبهم بتشغيل العقل كي لا تُصيبهم فتنة؟ هو المُتَمَرِد الأعظم، يعرف جيداً نية إبليس، فخلقنا ليؤكد أعظم من عبده، المُتَعَبِد المُخْلِص الأَجْمَل، الذي كان يتمنى رضا الرب، من هنا المُتَمَرِد على التقديس؟"

حاول واحدٌ من العمال الركض تجاه العم آدم ليُدخله إلى المسرح، ولكن الوقت كان قد مر وفات، فقد أخرج الرسول مسدسه من جيبه، وورقة الغفران، فوقف العامل أمام العم آدم، يطالبه بالركض، لأنه سيموت حالاً، لكن الرسول بدأ في تلاوة الرسالة الأخيرة: "إلهي الذي خلق السماوات والأرض،

وجزى الطيب من طيب فعله، وعاقبَ الشريرَ بخبث طبعه، هذا الرجل الذي ضل طريقه، سترد أمانةَ روحه إليك، لتطهرها أنت، من كل ذنوبها، بيدك المباركة الماسحة لكل الخطايا، فتقبل يا رب نُبلَ تصرفنا، وتقبل توبته، ثم سأل العامل عن أمنيته الأخيرة، فالتفت العامل مُتَعَجِّبًا: "لماذا تقتلني أنا! أنا.. أنا فقط أعيده إلى صوابه!" ليجيب الرسول وهو يطلق رصاصه على العامل المسكين: "لقد دافعتَ عن مُذنبٍ مُتفاخِرٍ بذنبه، كيف تريدني أن أسامحك؟ هذا المجرم سَأَقْبُضُ عليه، قرار القتل راجعٌ لنا، وأمثال هؤلاء، الذين يفكرون، ويتكلمون بالمنطق، لهم نهايةٌ نحبها كثيرًا، أما أنتم، فلا يهتم العالم وجودكم من عدمه!"

موت العامل مأساة مؤقتة، لن يتوقف العالم بعدها، وإلقاء القبض على العم آدم أمرٌ حتمي، وإعدامه أمرٌ واجبٌ، والتحقيق مع بكار، لتستره على رجلٍ يعشق الذنوب، أمرٌ مؤكدٌ وواجبٌ وحتمي، خاصةً أن الرسول المُبالِ عليه من قبل عضو العم آدم الذكري، أقسم إنه لن يتركهما -العم آدم وبكار- بين الأحياء، وإنهما في عداد الموتى منذ هذه اللحظة.

العامّة

رب العرائس الخشبية

لم يسمع الرسول، أو لم يفهم تقريبًا، رماه في الحجز الداخلي، التابع لقسم قصر النيل، والقريب من مسرحه بوسط البلد، بعد التحقيق معه، بصحبة مجرم واحد عجوز يجهل جرائمه، حاول بكار شرح مرضه، وضرورة ابتعاده عن مصادر الحرارة، وما قد تفعل به السخونة، كل الأوراق والتحاليل والتحذيرات، التوصيات بمدى خطورة وضعه، ورق رسمي من بعض الجهات، يعتبرونه "مُعاقًا"، ومع ذلك لم يقنعه شيء، وقال لبكار بنبرة جادة: "الشوف يا عزيزي خير دليل"، حتى في التحقيق، لساعة كاملة، يدافع عن نفسه وافيًا، أمام رسولين، الذي ألقى القبض عليه، وزميل كان موجودًا بالصدفة، لم يُطالب بكار بأقل حقوقه، كرسي خشبي يسنده، ليدرك كيف يجيب أسئلتهم.

ابتعد بكار عن إرهاق عقله، في خلق إجاباتٍ من العدم، كان رده على كل اتهامٍ حاضرًا، وفكره بين مسألتين مُشتتًا، الأولى لماذا طعنه السهو فجأةً، والثانية كيف يمكنه الحصول على كرسي خشبي، نسي مرضه تمامًا، أو يمكن القول إنه مزج بين شيئين، المرض والكرسي الخشبي، فعند جلوسه سيعرف الراحة، ومن ثم لن تقلقه حرارة جسده.

التهمة صارت تهمتين، التستر على محب للذنوب، وإخفاء الناس بحجة المساعدة في العمل، وهذا العدد من العمال، كان واجبًا عليهم، أن ينضموا إلى الآخرين، من أجل إعادة تشغيل

الحياة، ثم أضاف الرسول الموجود بالصدفة تهمةً ثالثة، بذل مجهودات في صنع ما لا يُفيد! وعندما وضح بكار حقيقة المكتوب، وأنه لم يفعل ذلك إلا بأمرٍ إلهي، كذبه مُتهمه، حتى مع القسم على مصحفٍ موجودٍ في غرفة التحقيقات، قال الرسول في لقطةٍ درامية: "وكيف نتأكد من صدق كلامك؟ تعال يا بكار نتكلم بالمنطق، لماذا صنعتَ هذا العدد الكبير من العرائس، وأنت تعلم أننا على مشارف القيامة وانتهاء الحياة! في أي ظروفٍ غير تلك، كنتُ سأقول هذا الرجل يستعد من أجل إنتاج مسرحي ضخم، أو تاجرٌ مثلاً طلبَ منه هذه الكمية، لكن كتابًا صادقًا، يُخبرك بأمورٍ سخيفة غير منطقية؟ شغل دماغك قليلًا!"

ثم سأله عن السر وراء الكتاب الآخر الذي يحمله، فأجاب بكار بأنه يعتبر هذا الكتاب كدفترٍ، يُذكره بما ينساه، لأنه مريض كما شرح من قبل، وذكرته قصيرة، وينسى الكثير، لذلك يمشي بالكتابين معًا!

طلب منهما كرسيًا مجددًا، وبعدها سيشرح كل شيء، قوبل طلبه بالرفض، التحقيق لن يستمر أكثر من ذلك، التهم واضحة ومُقنعة، أمرَ الرسول الموجود بالصدفة بوضعه في الحجز، لحين الوصول إلى القرار النهائي، مع الرسول الأكبر.

لما نزل إلى الحجز، ظل بكار واقفًا عند باب الزنزانة. مصدر الهواء الوحيد، في مكانٍ تحت الأرض، قذارته فاقب الصرف الصحي.

انتبه عجوزٌ قاعدٌ إليه، تحوّل وواساه بالصبر، ثم مسح على مكانٍ بجانبه، فوق المصطبة الخشبية الوحيدة، الموضوعة تحت الشباك، داخل الزنزانة القذرة الصغيرة، ناداه بصوت مرتعش، أن يقترب ويجلس بصحبته، هز بكار رأسه بالنفي، ثم سمعَ صوتًا مبشرًا بالخير، العجوز لديه مروحةٌ صغيرةٌ بلاستيكية، تعمل بالكهرباء، تشبه تلك التي يلعب بها الصغار، ليمشي إليه بكار، يقرص بجانبه، يحك ظهره بالجدار، ويسأل السماء، بينه وبين نفسه، في صدقٍ بالغ، متى تخاصره الحرية، ويرقص بعيدًا، عن كل هذا الخراء.

لم تُسعفه المروحة الصغيرة، في مسألة مرضه، حرارته ترتفع يشعر بذلك، في أقل من دقيقة، سيدخل في حالة تشنج وقحة، ربما يسقط على الأرض، وهذا العجوز لما يصل إلى باب الحجز، ويسمعه -إذا سمعه أحد- من الخارج، سيكون محلّقًا في السقف، روحًا لا جسدًا، وستأسف روحه على حاله، وربما تخبر أهل السماء عنه، عن مريض خرج من رحمة الله، معاق في أوراق البشر، لم يتزوج، يجهل جمال المضاجعة، لم يرتبط بفتاة، بعدها سينزل أهل السماء جميعًا، يلقون نظرة وداع أخيرة، تغيل أهل السماء كلهم، في هذه المساحة الضيقة الوسخة، لن ينظر واحدٌ منهم إلى خالقهم ليسأله المغفرة، أو اللطف بهذا الجسد الواقع أمامهم، سيخشى طرده من فوق، رب السماء رحيم، بمن يرى أنهم يستحقون الرحمة، هذه قناعة بكار، الرب يختار من يرحمه، ويختار من يُعذبه.

فُتِحَ الباب، دخل حارسٌ من حراس الرسل، حكى له العجوز ما جرى، جثا على ركبتيه بجانب بكار، الواقع أرضاً ويهتز بعنف، سمع بكار وشيش نارٍ، وتساءل في ضعف، هل سيحرقه هذا الحارس الغبي؟ تحدث الحارس إلى العجوز: "لا تقلق يا عم حمزة، أنا حافظ الحركات الوسخة التي يفعلونها ليخرجوا من الحبس، عامة الباشا أمرني بالتحقق من أمر مرضه، وشكله ليس مريضاً، انظر يا عم حمزة، جئتُ بالوابور، سأصنع لك كوبَ قهوة، لم تذقه في حياتك، قهوة الوابور ليست كأَي قهوة، بعدما نشرب، سأخبر الباشا بأن أخانا هذا، وقع على الأرض، وبدأ التمثيل في مسلسل أنا مريض أريد الخروج".

يمكننا تلخيص دائرة المشهد، في جملٍ سريعة متداخلة، توضح المعاناة على نحو بسيط كالتالي، بطء العجوز، غباء الحارس، جسد بكار المسكين، وابور جاز، مصطبة خشبية وحيدة، مساحة ضيقة رمادية، باب مغلق، حرارة مُرتفعة، تشنجات تزيد، قهقهات وحكايات، قلقُ العجوز، ضحكة الحارس، جسد بكار الملقى، وابور جاز، دور قهوة ثانٍ، مصطبة خشبية وحيدة، مساحة ضيقة رمادية، باب مغلق، حرارة مُرتفعة جداً، تشنجات تكاد تقتل بكار، حكايات الحارس السافلة عن الزواج، صمتُ العجوز، قضيب الحارس الذي يلاعبه علناً، مُعاناة بكار وجسده، وابور جاز، دور شاي هذه المرة، مصطبة خشبية وحيدة، مساحة ضيقة رمادية، باب مغلق، حرارة مرتفعة بفجاجة مستفزة، تشنجات تستعد لقراءة الفاتحة على روح بكار، حكايات أكثر سفالة من الحارس عن البنات، صمت

العجوز، أهات الحارس، جسد بكار المهتز بعنف، وابور جاز، نشيش ماء، مصطبة خشبية وحيدة، مساحة ضيقة رمادية، باب يُفتح، شتائم قذرة موجهة لبارك، ثم إلى الحارس الهائج.

ظل الرسول الموجود بالصدفة يسأل بكار النائم أرضاً عن سبب اهتزازه بعنف هكذا، وأقسم له إنه إن لم يتوقف سيطلق رصاصتين على قلبه، ويقتله حالاً، ومع صدق ما يُعانيه بكار، ظن الرسول بعدم اهتمام بكار لتهديده، فأخرج مسدسه وبدأ العد التنازلي، العجوز قال للرسول: "قد يكون مريضاً فعلاً يا باشا، أحضر طبيباً وإن كذب مرضه، اقتله فوراً!" لم يهتم الرسول لهرتلة العجوز، صرخ مجدداً ببارك، الذي لم يستطع حتى النظر إليه، جسده يهتز بعنف، أمسك بقدم الرسول، قبلها في مشقة ومذلة، يبكي بكار من الألم، من ارتفاع حرارة جسمه، التشنجات لا ترحمه، أيقن بكار أن الدقائق المتبقية ستحدد حياته، إذا ما لحقه شخص، بوضعه فوراً في مكان بارد، أما إن استمر الرسول في تهديده، والحارس في عدم تصديقه، والعجوز في الدعاء له، سيترك للقدر تحديد مصيره، والقدر في تلك الظروف ينحاز إلى المسيطر، الذي يملك سلاحاً وكلمته مسموعة، يهمس في أذنه بضرورة إتمام العملية، وفرض السيطرة على نحو قاس، فيخاف المربوط والسائب، وتسجد له الكرامة والعزة، في كل خطوة له.

سحب الرسول مُسدسه، ورسالة الغفران، وبدأ بتلاوة نص الرسالة: "إلهي الذي خلق السماوات والأرض، وجزى الطيب من طيب فعله، وعاقب الشرير بخبث طبعه، هذا الوقح الذي ضل طريقه، سنرد أمانة روحه إليك، لتطهرها أنت، من كل ذنوبها،

بيدك المباركة الماسحة لكل الخطايا، فتقبل يا رب نُبْلَ تَصَرُّفنا، وتقبل توبته"، ولأن بكار ضعيفٌ كارهٌ لحياته، عاشقٌ لعرائسه فقط، وهبَ الكلام بأصواتٍ مُتعددة، استقبل الرصاصتين بصدٍ رحب، واحدة في رأسه، وزميلتها في قلبه، وسكرات الموت في تلك اللحظة، داعبته بلقطاتٍ لعرائسه، وكلها تتحرك ناحيته، لتحمله فوقها وتسير به، في جنازةٍ مُهيبة، تقودها العرائس الخشب، تمشي بلا خيوط، تمشي بكامل إرادتها، تندد بموت خالقها، لقد اعترفت العرائس كلها، في صوتٍ واحدٍ مسموع، في عقل وتهيؤات بكار فقط، أن رب العرائس هو بكار، وفي موت خالقهم ستفرقهم الحيرة.

مات بكار ولم يعرف لماذا كل هذا العدد، وما الغرض من حياته في المطلق، وكيف أنه عاش حياةً بلا معنى، تحاوطها العرائس والخشب، وبضع مسرحيات لم تظهر للجمهور، مات بكار والبؤس نديمه الأول، مات جاهلاً بأصول المواعدة، جاهلاً بمباهج الحياة، شخصٌ عقيدته الثبات دون حركة، كان إذا خرج إلى مشوارٍ، يضع كل الاعتبارات المُمكنة، بأنه قد يعود جثةً إلى أهله، مات من قابل بنتًا بالصدفة، ولما تواعدا، عجز عن الذهاب يومها، بسبب ارتفاع درجة الحرارة.

كانت الجملة الأخيرة، التي سمعها الرسول والحارس، ولم يفهمها العجوز: "إلى متى كل هذا يا رب"، ثم فارق الحياة، ودُمه يرسم على الأرض أحبالاً كتلك التي تتحكم في عرائسه، كان دوره قد حان، ليصير واحدًا منهم.

يوم الإعدام العظيم

مشقة اليوم على صاحب الأمر، تكمن في خطبة قصيرة، سيقولها للواقفين والمُشاهدين والمحكوم عليهم، بعدها سيتكرم بنطق لفظة: "نفذ"، فيقوم الرسول الأكبر بإعطاء الإشارة للحراس، الذين بدورهم سيشعلون النار في حطبٍ عظيم، تقف فوقه المجموعة المُراد إعدامها، كل واحد منهم مُكبّل مُقيّد، لن يفلح في الهرب من شدة الألم، ويرى المُذنب ما يحل به، وما يحل بزملاء النكسة والعذاب، طلبَ صاحب الأمر عدم وضع غمامة على أعينهم، إذ في رؤية النهاية بهذه الطريقة حزنٌ مُهيب، الحُزن على الموت خائناً، وعلى تساقط الجلد واحتراقه وتشوه المعام، ليتعظ كل شخص حاضر، فيفكر مرتين قبل ارتكاب الذنب.

الرسول الأكبر نفذ أوامرَ صاحب الأمر، بإرسال الحراس إلى جميع المُحافظات، ليعرف الناس بوجود حلقات إعدام جماعية، في كل محافظة، تحت إشراف صاحب الأمر، ورسّل الخير التابعين للمحافظة، فيتفرج الناس عليهم، ويعودون إلى العبادة بعدها، كما أمره بتشبيد مسرح الإعدام في ميدان العباسية بالقاهرة، أمام مسجد النور، وكانت حجته في ذلك وجود العديد من الكباري، فيقف الناس تحت ظلالها، أو فوق الكباري نفسها، أما الحراس والرسل والمُتهمون، هم فقط المسموح لهم بالوجود في محيط مسرح الإعدام، وصاحب الأمر سيجلس بجانب النافورة، فلا تضايقه الحرارةُ غمماً.

أسفل المظلة، في المكان الموضوع خصوصًا لصاحب الأمر، خرجت الكلمات من مكبر الصوت: "كلمة السيد صاحب الأمر"، وبعدها بثوانٍ، إثر خطباتٍ على المكبر، وهزات السلك الذي يتحرك نتيجة نقله من الحارس إلى صاحب الأمر، صمّت الجميع منتظرين رئيسهم، ماتت الأصوات كلها، ما عدا بُكاء المُقبلين على حتفهم، يتابعون مراسم إعدامهم، ويستنكرون قدوم ملاك الموت على مهلٍ.

"السلام عليكم يا أهل الدنيا والأيام الأخيرة، لن أتحدث كثيرًا، لاهتمامي بوقتكم الثمين، واسمحوا لي أن أشرح لماذا نحن هنا.

ببساطة.. هؤلاء الذين سيكون أمامكم، بصقوا على ميثاق الشرف، الموجود بيننا، وأغواهم الذنب بكل سهولة، وقد وضعنا في ما سبق عقوبة المُذنب والخارج على جميل أفعالنا، لذلك أطلب منكم ضرورة التخلص من الرحمة، وعدم النظر إليهم بعين المسكنة، إنهم ليسوا مساكين، بل ذهبوا إلى شرور أعمالهم بكامل حريتهم، وفي عقابهم خلاصٌ لنا جميعًا، من أن يسألنا الله لماذا رأينا منكرًا ولم نغيره، وفي عجالةٍ سأعرض عليكم أسماء المُذنبين وتهمتهم، حتى تذكروا مَنْ على وشك سلك دربهم، كيف كانت نهاية صاحب الذنب الذي أغواه.

آدم السيد شبانة، ضرب وسب وقذف رسل الخير في أثناء تادية عملهم، وهرتلة بكلامٍ لا يليق بالذات الإلهية، عطا الله الخير، مُخرج وكلكم تعرفونه، تقاعس عن العمل، إلهام كريم.

الفنانة المشهورة، تقاعس عن العمل، نبيل جميل، الممثل الذي كنا نحبه ونُحب أعماله، تقاعس عن العمل، ماري مرقس نجيب، أه هذه البنت الصغيرة، التي ساعدت مجرمةً، اسمها نعمة متولي، نعمة تعدت على رسولٍ من رسل الخير، وعاقبها الرسول بقصاص الرصاص، وبسبب هذه الطفلة، لم نتمكن من معرفة قرار الله في أمرها، كما تعلمون، نتركهم لأسبوعين، إذا عاشوا فهذه مشيئة الله من أجل فرصة ثانية، وإذا ماتوا فهذه مشيئته من أجل الخلاص! ولكنها لم تتركها لهذا القدر، ظلت تسقيها وتُطعمها، وعرفنا بالصدفة، لما جاء الرسول المكلف بالمهمة، بعد أسبوعين، ليرى هل ماتت نعمة أم ما زالت على قيد الحياة، فوجدها جالسةً على جانب الطريق، وجراحها مُضمدة، وبجانبيها أكل وشرب!

تخليلوا يا محترمين! بنت صغيرة تهرب من أهلها، وتساعد مُذبذبةً، في طور البرزخ، لا هي بيننا ولا بينهم، وحذرنا كل الموجودين وقتها، كما بلغ الرسول، أن عقوبة الإعدام لمن يساعد، حتى لو كان طفلاً صغيراً، ولكن ماذا عساي أن أقول؟ ولأنني رحيمٌ، لن أعدم أبويها، وسأتركهما عبرةً.

المُهم.. عنايات عدلي، تقاعس عن العمل، تامر هاشم سليم، زنا مع خادمة، يا ستير يا رب، يا سيادة الرسول الأكبر، هل توصلتم إلى الخادمة؟ أريدُها في يوم الإعدام العظيم المقبل. ساحاسبك أنت إن لم تفعل!

هادي المحمدي الشهير ببيكار، صانع عرائس خشب، تقاعس عن العمل ومساعدة عمال على التخفي والتقاعس عن العمل، عُمر حسن، سرقة من محل إلكترونيات، ماذا ستفعل؟ والله العظيم فعلاً ماذا ستفعل بهذا الجهاز؟ نحن على مشارف القيامة، وأنت لديك شغف باللعب والمُشاهدة؟ الكاتب عبد الرحمن عزت، الكاتب المحترم صاحب التكريمات والجوائز، تقاعس عن العمل.

أنا حزينٌ والله، على فقدان أشخاص مثلكم، ولكن الحق حق والعدل عدل، أهلة عبد السلام، تقاعس عن العمل، عامة بقية الأسماء تقاعس عن العمل، وهناك حمزة الجبيلي، عجوز مُتقاعد، آه كان في الزنزانة، هذا الرجل اغتصب حفيدته، وما زال القلب يسأل لماذا يُعاقبنا الله؟" صرخ حمزة بعدما سمع تهمة، وأقسم إنه لم يفعل ذلك، وهذه تهمة تم تليقها له، لأن رسولاً من رسل الخير يريد الزواج بابنته الصغرى، وهو رفض بكل ذوق، فجعله تحت تهديد السلاح يغتصب حفيدته، وطبعاً ركض حارس تجاهه، وضربه بعصا كي يُخرسه، وهدده إذا ما تحدث مجدداً، سيثقب عينيه.

لم يتمالك صاحب الأمر أعصابه، وفي أقل من دقيقة، كان العجوز حمزة جثة هامدة، إذ تلقى رصاصة من رسول كعقاب، له على مقاطعة صاحب الأمر في أثناء إلقاء خطبته، وهذا فعلٌ مُحرم، وكبيرة من كبائر الخروج على الحاكم.. لم يعترض أي شخص من الواقفين حول مسرح الإعدام، كلهم يتابعون، نهاية المذنبين، في تشتت واضح، ما بين القلق والراحة، القلب.

من تشابه المصائر، والراحة لأنهم ما زالوا أحياء، يقفون بين جموع المتفرجين، وليس فوق مسرح أسفله حطب، سيحرقهم بعد لحظات.

واجه صاحب الأمر دناءة فعل حمزة بسكوتٍ وتنهيداتٍ، بهز رأسه ولا يتكلم، ثم فتح الورقة التي يقرأ منها الأسماء، وتابع خطبته: "محبي بن طاهرة، هذا هو الاسم المكتوب هنا، محبي ابن طاهرة، جرمُك توجب صلبك وحرقك يا محبي، التستر على كتب ممنوعة! لماذا يا محبي؟ منعنا الكتب كي نخفف عنا حمل الذنوب، وأنت بكل بساطة، تُخفي في بيتك، نسخ الكتب الممنوعة؟ كأنك يا محبي لا تهتم إطلاقاً بميثاق الشرف وخطتنا للتأكد من تخفيف الذنوب إلى أقصى حد ممكن، فلا يُحاسب شخص بذنب شخص آخر؟ قل لي يا محبي، لماذا هذه الأنانية؟ أيرضيك فعلاً أن نكون مواظبين على مصلحة الجميع، وأنت في الخفاء تقتل كل ما نفعله؟ أيها الغبي، أتقتل أمة كاملة من أجل رواية، لكاتب خائب، لا يعرف الكتابة ولا كيف هي الحياة؟ أمن أجل بضعة القنباصات، تضع الجميع في خطر؟ أين الصليب الذي طلبته منك يا أكبر الرُّسل؟ نعم هذا هو، من فضلكم يا حُرَّاس الخير، ضعوا محبي على الصليب، واصلبوه كأنه المسيح، دقوا المسامير في يديه وقدميه، ثم أحرقوا جسده. عظيم هذا كل شيء اليوم، في النهاية أقول لكم، هذا ما جناه حبكم للشر، وتقبل يا الله منا".

توجه حارس من حراس الخير، وأخرج محيي بن طاهرة من صفوف المذنبين المحكوم عليهم بالحرق، بأمر من الرسول الأكبر، الذي أوصاه الأنبا بمعاقة محيي أشد عقاب، فأمر رجاله بحرق الآخرين، ثم صلب وحرق محيي بمفرده، فيتعذب نفسياً أكثر من أي وقت، وقد يموت من الخوف، ومن المشهد المعروض أمامه، وطبعاً لم يأمر رجاله بذلك، إلا بعد حصوله على الموافقة من صاحب الأمر، لعله كان يفكر مثلاً في إعدام الجميع في الوقت ذاته، ولكن صاحب الأمر لما عرف، ضحك ووافق فوراً، لأنّ هذا يعني مزيداً من المتعة والعظة للمتفرجين.

تحرك عددٌ من قارعي الطبول، في حركةٍ منتظمة، لا يسبق أحدهم زميله، خطواتهم واحدة، في ترتيبٍ زمني واحد، ليقفوا أمام المذنبين، ويبدأ كل شخصٍ منهم في تفريغ شحنة غضب، تحت اسم (عزف أنشودة النظرة الأخيرة)، مع كل قرعة كان يقفز قلبٌ مذنب، الخوف يتسلل إليهم كقاتل، البرودة تضرب أطرافهم، يشعرون باضطرابٍ في تفسير الموقف، البنْتُ الصغيره تبولت على نفسها، تصرخ من الخوف، تنظر إلى أبيها وأُمها، اللذين ركضا تجاه الرسول الأكبر، يقبلان يديه وقدميه ليفرج عن ابنتهما، ويختار من بينهما ما يريد، فيصفعهما في غل، واضح، لتسقط الأم في بئرٍ من البُكاء، وينهزم الأب وتكسر كرامته، ولما جرى ناحية المسرح ليحرر ابنته من هذا العذاب، بطلقةٍ واحدةٍ من سلاح حارس كان أبوها واقفاً أمامها، يودعها بنظرٍ أب كان يتمنى أن تكبر ابنته، ويدخلها الجامعة ويراها

عروسًا، ودعها بنظراتٍ أبٍ حاول طوال حياته تأمين حياة
كريمة لحريم بيته.

فقدتِ البنت الصغيرة وعيها، لكثرة الضغط النفسي الواقع
عليها، ولرؤية والدها مقتولاً، وكان آخر ما سمعته: "ضع ابن
القحبة هذا مع الحطب، جسده سيزيد من قوة انتشار النار"،
وهو الأمر الغريب والعجيب، أن يكون أبوك وقودَ حرقك، وأن
تُحرقِ بنت صغيرة لأنها كانت تتصرف بفطرتها، لمُساعدة نعمة
التنتة، لأن الأطفال أحبُّ الله، لأنهم خُلِقوا بفطرة نقية، ومع
ذلك، نهاية هذه البنت، ستكون أمام الله، بسبب حاكم، يقتص
من مذهبين، تقاعسوا عن العمل، بالإعدام وليس بالخصم من
رواتبهم، ويتضرع إليه بالقبول.

مع صوتِ الطبول توحشت النيران، تلتهم أجسادهم
بتلذذٍ، تحرق ذكريات وسنين حياةٍ، كل مُذنبٍ فاحت رائحته،
لم يتخيل العم آدم على سبيل المثال أن أنفَه سيعرض عليه
رائحته وهو يحترق، أو أنه سينظر إلى الناس، وبدلاً من نظرة
الاحترام للرجل الحكيم، ستصفعه نظرات الشفقة على رجلٍ
يتساقط جلده، وتفوح رائحة احتراق جلده، وملامحُ تتشوه،
ولأن العم آدم كان صريحاً، ولم يكن جباناً طوال رحلته، فُضِّل
الموتُ في صمتٍ، لم يصرخ ولم يستنجد بأحدٍ، قاومَ بشكلٍ ينكره
الحاضر قبل الغائب، كان كل شخصٍ فوق المسرح يصرخ من
آلام الحرق، إلا العم آدم، يحترق وهو ناظرٌ إلى السماء، يتحدث
بصوتٍ غير مسموع إلى الرب المراقب للموقف، لا يطلب منه
وقف هذه المهزلة، لا يطلب منه نجاته، لم يطلب منه أن

تكون النار بردًا وسلامًا، بل قال بعدما هانت قوته، وهذا غضبه المستمر: "نعمة التنتة، أوصيك بالرافة بها، أنت من جعلها مسخًا يمشي بين الناس، وأنت من سيكرمها بنهاية، تليق كاعتذارٍ منك تجاهها، وأنا مدرك جيدًا أن نهايتي بهذا الشكل تخليص ذنوبٍ، وأولها، ذنب اغتصابها وهي صغيرة"، وسقط العم آدم، سقط الأسطورة وملامحه مشوهة، تسبح في بحرٍ من الدماء، المختلط بدماء من كانوا معه على المسرح. شعر خشب المسرح بأن العم آدم يضحك على سخريه القدر، وكيف أن دمه الآن يختلط بدماء صفوة القوم، وتشابه ختامهم جميعًا، ليزيد من حدة النار الماسكة بغيظٍ في جسد العم آدم المتفحم تمامًا، لكن المسرح ينتقم لكرامته، ولسوء أخلاق العم آدم، حتى وهو ميت.

في أثناء ذلك، كان العُراس قد انتهوا من تثبيت الصليب بالأسفلت، ووجدوا المسامير الكبيرة التي ستحمل جسد محيي بن طاهرة، الرجل الذي يُشبه المسيح، والذي سيلاقي مصير المسيح نفسه، الرجل الذي لا يعرف من أين جاء، ولماذا هو هنا الآن، الرجل الذي رفض حركة غش، ومهما حاول الدفاع عن نفسه، وإخبار الناس بحقيقة الأمر، سيقتلونه بحجة الكذب والافتراء، سيقدفونه بالتدليس، وقد يخرج رجلٌ من رجال الكنيسة، ويتهمه بالهرطقة، أو بمعاداة الكنيسة لأنّه مسلمٌ.

وقف محيي في استسلام تام، ينتظر إشارة صاحب الأمر، ليرفعه الحُرّاس على الصليب، أو ليقطعه الرسول الأكبر فورًا، لن يهتم كنه نهايته، يتساءل فقط لماذا سيموت من أجل الكتب؟ وهو الذي قرر أنه مسيحُ العصر، بمسح خطايا الكتاب، ألن يحاول أي كاتب يعرفه أن يطلب من صاحب الأمر تخفيف العقوبة وجعلها الإعدام صلبًا فقط؟ هل يمكن حدوث ذلك؟ أم عليه تقبل النهاية الحتمية، في صبرٍ صادقٍ، أو صديقٍ صبورٍ، لا فارق بينهما، فالأنبياء جميعهم تقبلوا مصيرهم وأمر ربهم، ولأنه يشبه أهم الأنبياء، أقسم أن يتحمل ما تحمله المسيح من قبل، ولن يترك منه الخوف، أو يجبره على اللجوء إلى التذلل، لعل شخصًا يساعده، ويطلب بتخفيف العقوبة.

وهو ما لم ولن يحدث أبدًا، عقوبة محيي بن طاهرة لم تكن حُرمانيتها في الفعل نفسه، بل في توصية الكنيسة الرسول الأكبر بوجوب قتل هذا الرجل، الذي عرض أمرًا بشعًا على الكنيسة، وهو ترجمة الإنجيل بنص أكثر احترافية، ومن كلامه يفهم السامع أنه يقر بتحريف الإنجيل، وضعف الترجمة المقدمة، والموافق عليها من قبل مجالس كنسية، ولجان متخصصة، تعرف دينها وأصول كتبه.

ولما آن دور محيي، فرد ذراعيه، وطلب منهم ربطه الأول في الصليب، ثم دق المسامير، ويمكنهم بعدها نزع الأحبال، هذه طريقة أسهل ليتم الأمر أسرع، وافق الحُرّاس فورًا، ولم يرجع أحدهم إلى الرسول الأكبر، وتحدثوا في ما بينهم، أن ليس المبدأ في أسلوب الصلب، المبدأ في النهاية المطلوبة، الموت.

رفعوه، ربطوا جسده على الصليب، فردوا ذراعيه، وضعوا قدمًا فوق الأخرى، وقف حارس على يمينه، والآخر على يساره، استخدموا رافعة عربات تعود إلى مراكز الصيانة، فيقف الواحد في مستوى الصليب، لأنه أعلى منهما بكثير، ثم وقف حارس ثالث عند القدمين، قال الحارس الأيمن: "لما يشير إلينا صاحب الأمر، سنضرب المسامير كلنا في الآن نفسه، ضربة ثلاثية واحدة، بعدها يمكننا الانتظار، إذا لم يمُت سنحرقه، أو سنرى كيف ستسير الأمور، ربما يرفض صاحب الأمر حرقه"، ليجيب الحارس الأيسر: "لا مشكلة في ذلك، لكن ماذا لو طلب منا الصلب والحرق في الوقت نفسه؟" هنا تدخل الحارس الثالث بالأسفل: "سأركض أنا حينها تجاه العطب، ألقيه لكم، وتُشعل النار فيه، لن يستغرق الأمر دقائق، المهم ننتهي من هذه المراسم، رائحة الجلد المحترق بشعة، ومنظر المذنبين سيدفعني للتقيؤ".

أشار صاحب الأمر ببذء الصلب، كل مسمارٍ فض بكارة يديه، ضحك على محبي وهو يفقد الوعي، لم يتحمل الألم، لم يشعر بشيء، لم يصرخ حتى ليعرف الناس هل تعذب أم لا، قال صاحب الأمر، في مُكبر الصوت: "يا سبحان الله! لقد تحمل المسيح أكثر من ذلك! وهذا الرجل الذي يشبهه فقط لم ينتصر لرجولته ولو لثوانٍ! يا سبحان الله! اسمعوني يا أهل البلد الكرام، سنتركه هنا، لا تحرقه يا أكبر الرسل، هذا الرجل سيموت في أقل من ساعة، من الواضح أنني كنتُ مخطئًا لما ظننتُ أنه سيتحمل مثلما تحمل المسيح، لذلك طلبتُ حرقه أيضًا.

فليعد الجميع إلى ديارهم، والعاملون إلى الميادين، القيامة
على الأبواب، رددوا خلقي قبل رحيلكم.. تقبل يا الله، تقبل
يا الله، تقبل يا الله، لا أسمعكم! أريد صوتاً أعلى! تقبل يا الله!
تقبل يا الله! تقبل يا الله!"

أيام الدهشة الثانية

فيليب

أبانا الذي في السماوات، إني أحبك وأعبدك وأسبحُ لك،
أشكركَ على يسوع ابنك، الذي انتصر على الخطيئة والموت،
أشكركَ على الروح القدس الذي يقويني، ويرشدني إلى نعم
الحياة، أشكركَ على مريم، أمي التي تتشفع لي مع الملائكة
والقديسين، وها أنا أنطرح ساجدًا أمام صليبك، الذي أراه بقلبي
قبل عيني، أيها الرب يسوع المسيح، اغمرني بالدم الثمين،
الذي تدفق من قلبك الأقدس وجراحك المقدسة، اغسلني
بالماء الحي المتدفق من قلبك، وطوقني بالنور المقدس.

ساجدًا أمامك أيُّها الأب، أسألك أن تصفحَ عني وعن أهلي
وأسلافهم، وإن كان هنالك ما يخصني، مادي أم روحي، ولا زال

تحت هيمنة الشرير، أسالك أن تأمره بالرجوع إلى سلطانك، وأن تُظهرَ لي، أيها الأب، بقدرة روحك القدوس، المظاهر التي لا تُرضيك في حياتي، أو تلك الأساليب والوسائل التي يَسرُّ للشرير التغلغل في قلبي وأفعالي، وأطرح أمامك يا رب كل خطايي وكل تقصير، لعلك يا يسوع تتقبل مني، وتهون علينا -أنا وابني- ما يحدث حاليًا.

منذ ساعتين وأنا أصلي من أجل المساعدة، أجهل ما الذي يدور بالخارج، اهتزازت عنيفة، ولا أعرف هل هذا زلزال مثلاً، أم أن اليوم الأخير يقترب؟ الحقيقة أنا لا تهمني تمامًا تقلبات العالم الخارجي، ما يقلقني الآن، كيف سأصرف مع هذه الاهتزازات؟ والمسيح الحي لا يعينني جسدي، أو أي أذى قد يُصيبني، المُهم هو جسد مينا، لن أتركه ولو خرج مارداً يريد حرقني حيًا بنار إبراهيم!

يا يسوع أنقذني، وإذا كان يوسف هو جدي الأكبر ونبياً، فأنقذني أنا وحفيدي يا يوسف، أنا عاجزٌ عن التصرف، كائنٌ ضعيفٌ، مُلقى في فرنٍ، لا يستطيع الخروج، ابنه أضعف منه، ارتجاج جسده يضرب في قلب أبيه، يحفر بمثقابٍ، يضع الإبر ببرودة وبطء.

الفرن بدأ في التمايل، ما يعني أنه على وشك الانهيار، وهذه قمة العجب، لأنني أشرفتُ بنفسي على كل تفصيلة في أثناء بناء الأفران، لأؤكد من ثباتها في جذور الأرض، وفي وقتنا الحالي يتمايل القرن بنا بهذه السهولة؟ لقد حارب هذا القرن

كل ركلات وصراخ الضحايا، فما الشيء المختلف الذي يجبره على الترنح هكذا، بكل بساطة؟

في أقل من ثانية رماني القرن إلى الخارج، وشاهدت الأرض وهي تبتلعهما -مينا والقرن- ثم تختفي، أدركت السبب حاليًا وراء وجود عيني طوال هذه المدة، ليس لتمكينني من الهرب، بل لتعذيبني برؤية ابني، مينا الفؤاد والروح، وجسده الذي تعتصره الأرض الغاضبة، رأيت دماء ابني، دماغه وهو ينفجر، ذراعاه والصليب الموشوم عليه، ضعفه وقلّة حيلته، وهو غير مدرك لما يمر به، يهتز ويضرب يديه في جميع الأرجاء، قبل أن تعصره الأرض كبرتقالية، مات ولدي أمامي، وهو لم يسمع كلمة مني، مات وهو سبب راحتي المؤقتة، لأنني تظاهرت بأنه سمع كل ما قلته.

بحثت عن أرض ثابتة، الكون يتلع نفسه تقريبًا، وجدت البيوت القريبة تلتصق ببعضها، كأنها خائفة، ومع ذلك لا تبتلعها الأرض، فركضت تجاهها، لعلها الحماية المقصودة، لماذا لم أحاول إنقاذ ابني؟ لماذا يا يسوع قتلت مينا، ولم تقتلني أنا؟ يوسف النبي قال لي كم أنه تضرع إليك، وكم صلى من أجلي، كي تبعد الأذى عني، ولكن سهم الأذى أطلقته أنت، ليخترق كل جروح، ويفتحها مجددًا.

صعدت إلى سطح البيت، وشعرت بكل حركة من البيوت الأخرى وهي تدفع البيت الآوي لجسدي الهزيل، أتخيل لو أن السمع لم يفارقني، كنت سأموت خوفًا ورعبًا من أصوات

الانفجارات والهزات، التي أراها فقط، كمسلسل صامت، ولي حق في ما أقوله، حياتي كانت مُستقرةً، وفجأةً ظهرت كل المعجزات فيها، كتب سقطت من السماء، ملامح غادرت الوجوه، جدي كان نبيًا، والآن الطرق تختفي، يا يسوع، أتمنى أن يكون كابوسًا سخيًا، ما أمر به حاليًا، وستوقظني سهرة بحنان، لتُخبرني بأن الفطور جاهزٌ.

ولأن الرب لا يكره أبنائه، بعد هدوء الأرض، ولما رجعت كل شيء إلى سابق عصره، مع اختلافٍ مُخيف ألا وهو اختفاء الطرقات، لم يُدهشني وجود دراجة بُخارية، فوق سطح بيت، أراه من مسافة قريبة، قلتُ لعل صاحبه كان يخاف من السرقة، فعرف كيف يضع الدراجة البخارية فوق سطح بيته، وهذا هو ما قدره لي يسوع، قبل أن يضربني كتاب، جاء من حيث لا أدري، تقريبًا هو كتابي، مثله مثل الذي تساقط عليهم من السماء، من الواضح أن الرب يخبرني بشيء، ولأنه عصي عليّ فهمه، أرسل كتابًا من السماء، أين أنت يا مينا يا ولدي، لقد حصل أبوك على كتابه، يا مينا الفؤاد، كتابي ها هو، لا أريده والمسيح الحي، إذا كان في غيابه رجوعك!

الكتاب لم يترك شاردةً ولا واردةً إلا وسجلها بتاريخ حدوثها، وكل ما فات أنا أحفظه، ما أريده هو الآتي، والآتي المكتوب هنا هو قيادة تلك الدراجة في خطٍ مُستقيم، والبحث عن لوح خشبي وحبلٍ وسُلم، لأنني سأحتاجها مع الدراجة، نظرًا إلى تباين مستوى علو البيوت، وطريقي سهل، إلى الأمام فقط، وقد دونت في كتابي جملةً أعتقد أنني سمعتها في مكانٍ ما:

"الشخص الواقف في نهاية رحلتك، هو الجالس في قلبك بإيمانٍ ويقين".

سرعة الاستجابة هي المطلوب.. ركبْتُ الدراجة البخارية، ولحسن حظي لم يخسر المحرك قدرته، تحركنا معًا، طوال رحلتي، وصورة ابني مينا لا تفارقني، وصورة ابنتي مريم البتول تظهر وتختفي، وصورة أمي المقتولة تُهددني، وصور ضحايا الباشا تبصق عليّ، الحُزن يقود معي، يُساندني في وحدتي، وفي سيري نحو المجهول، وإذا كانت نهاية رحلتي شخصًا، فأمنيته يا يسوع أن يكون أنت، أن أقابلك وأتحدث إليك، تضمني بين يديك، نحميني من هذا العالم الغريب.

يا مينا الفؤاد، أنا آسف لأنني عجزتُ عن حمايتك، ويا مريم البتول، أنا آسف، لأنني عجزتُ عن حمايتكِ، وبدلاً من ذلك، قتلْتُكِ بدافع الخوف.

عبد القوي

تقريبًا شخصٌ ما عثرَ عليّ، وغالبًا أنثى، أيقنْتُ ذلك بعدما خبطتُ يميني ما بين فخذيها دون تعمد، ولم أجد ما أحفظ كيانه جيدًا، وحاليًا لا أعرف المطلوب مني. حيرةٌ سخيضةٌ أن تكونَ عديمَ الحيلة على هذا النحو المُزري، تجلس أمام أنثى، تجهل كيف عثرْتُ عليك، وطبعًا هي تسألك بفضول أنثوي عن سبب وجودك بقاع النهر، واعتقد أنها ستصفعني، وربما

تركلني، اعتقادًا منها بضياغ مجهودها، وقد تضحك على تصرفها الغبي، وتسال نفسها: "هل قفزتُ إلى النهر من أجل هذا المسخ المسحوق؟ محاولة ضائعة إضافية للإنقاذ! وحظي العثر أنني عثرتُ على رجلٍ!" صدقيني يا آنسة، لو كنتُ في حالتي العادية، وكنتُ محمد عبد القوي، عامل الدوكو، كنتُ سأقدم نفسي بطريقةٍ لائقة، ونتحدث عن كل شيء، ولا مانع من ممارسة الجنس، فالعالم على وشك الانتهاء، والذنب المحبوب لدينا، نحن معشر الرجال، هي فتنة الست، الفتنة التي لا نقاومها، وغمشي إليها بكامل إرادتنا.

ما بين كل دقيقة، تمسك بيدي، لا أشعر بشيء تجاه حاسة اللمس، لكنني أدرك أنها تفعل ذلك، لأنني لم أحرك يدي، وبالتالي هي السبب في تحريكها، والمعنى العام من تصرفها، هو حثي على فعل شيء، خاصة بعد استقرار يميني على سطح ما، أجهل تفاصيله، على الرغم من تسلسل فكرة داخل عقلي المشتت بين ملايين الأفكار، فكرة تُخبرني بمدى معرفتي لهذا السطح، وأن هناك ما يُميّزني عن غيري، بخبرتي الواسعة وعلمي الغزير، وقد تتأكد شكوكي، إذا حاولتُ الوصول إلى تفصيلية أكثر وضوحًا، عن مجرد سطح، قد يخص أي جهازٍ أو سيارة.

أنحرك برغبةٍ منها، تمسك بيمينني مرة، ويساري مرة أخرى، تُضيف على حركتي نوعًا من الفوضى، التحرك في جميع النواحي، بلا سببٍ مُعَيَّن، الحركة من أجل الحركة ولا غيرها. ضحككُ بيني وبين نفسي، وفسرتُ تصرفاتها على أنها نوعٌ من

أنواع الرقص، لم يعلمني إياها الوحي، إن كان هناك وحي من الأساس، أم ليست هناك أنثى وأنا أتخيل؟

مشكلة خط الدراما في سيرتي، المرسوم بغوغانية مُحترفة، هي إمكانية كل الاحتمالات! لو حياتي تحتل أكثر من مليون سيناريو، كلها في طور إمكانية الحدوث، أنا مثلاً لستُ غارقاً، أو موظفٌ في شركة مُحترمة، وهذا كابوس سأصحو منه، وربما عامل دوكو فعلاً، ولكن ملامحي موجودة، وهذه قبولتي التي طالُت كثيراً، وسيجيء شخصٌ حالاً ويهزني لأقوم وأساعد، فيعطيني مبلغاً وقدره جراء لون لحم الهوانم فوق كل تماثيله، ومن الممكن حقيقة الأحداث التي أمر بها، والوحي موجود، والأنثى أيضاً موجودة، وفي النهاية أنا شخصٌ غير الشخص الذي عاش حياته! يعني أنا لستُ محمد عبد القوي، وقد أكون أي واحد، كعادل الفولي، مدير موارد بشرية في شركة مرموقة، متزوج بهاجر، ولديه ابنة اسمها ميار، عامةً، أنا دائرة الاحتمالات اللانهائية.

دون أي مُقدمات هزتني الأستاذة، التي قررتُ أن اسمها هبة، فهي نجدة من السماء، وهبةٌ من هباته القليلة في حياتي، ولما حاولتُ الفرارَ من عنقها، عرقلتني، ثم بعدها ساعدتني على النهوض، وركلتني بين فخذي ركلةً غل، كأنها تصب جام غضبها على مخلوقٍ ضعيفٍ مثلي، وتلومه على وساخة الموقف، وعلى كل ما يمر به العالم من مصائب، وأشكر القدرَ على انعدام الشعور في الفترة الحالية، وإلا رأيتُ نفسي بعد ركلتها سابحاً في الهواء من شدة الألم.

مع توقعي لشعورها باليأس، جريتِ البنتُ طريقةً أخرى، وجعلتني أمسك شيئاً حديدياً، أعرفه ويعرفني، وهنا كانتِ المفاجأة، هل هذا الذي أحسسه، مُسدس آلة الرش؟ كيف جاءتْ به إلى هنا؟ أين أنا؟ وهل جاءتْ هبة وخاطرٌ بحياتها من أجل لون لحم الهوانم؟ أملك عدداً من المانيكانات؟ كيف سأخبرها بالثمن؟ قد تغشني وتقول إنني طليثٌ واحدًا، وأنا لعجزي عن البصر، طليثٌ اثنين! هل تعاني من جنون الوحدة؟ كيف عرفتُ طريقي أساساً؟ مع كل الأشياء غير المفهومة، هذا الأمر الأكثر غرابة!

عرفتُ يا هبة أن هذه آلة الرش، ماذا تريدن مني يا بنت المجنونة؟

نعمة

هل قفزتُ إلى النهر، من أجل هذا المسخ الممسوح؟ محاولة ضائعة إضافية للإنقاذ! وحظي العثر أنني عثرتُ على رجل! يا سلام يا نعمة، حاسة الشم ممتازة عندك، يجذب انتباهها الرجال، حاسةً وسخةً كصاحبته! وأنت يا خراء البهائم ما فائدتك؟ هل لك علاقة بهذا الجهاز؟ أم أنه مرتبطٌ بي وحدي؟ تعال إلى هنا، وتوقف عن مقاومتي، لقد أقسمتُ بركلك، خذ هذه الركلة بين خصيتيك، والمرّة المقبلة وحياة روعي الحلوة، سامسكهما بين يدي، وأقتلعهما بكراهية الدنيا كلها!

لما أمسك بمسدس الرش، شعرتُ بأنه يعرف الجهاز، الأمر مُريح، قد تكون هناك علاقة بين الجهاز وبينه، ولأنني بحثتُ عنه، وعرفتُ طريقه من الرائحة، وجب عليك يا أستاذ مجهول أن تشكرَ تاج رأسك نعمة، التي أنقذتْك من الغرق، وأخرجتْك إلى العالم من جديد، من غيري كان من الممكن أن تموتَ دون أن يُحركَ العالمُ شخصًا واحدًا، أو عُصْلَةً شعر امرأة، للبحث عنك!

حين خرجنا من النهر، قررتُ أن الحل المناسب هو التوجه إلى جزيرةٍ ملتحها في منتصف النهر، تبعد عنا بقليل، فركبتُ القارب الموجود عليه الجهاز، وسحبْتُ هذا الغريب معي، أعتقد أنني فكرتُ في طريقةٍ ممتازة، وذلك بسبب الحلم المُستمر الذي أراه بخصوص الطرق التي ستختفي، ولصعوبة ركضي بصحبة شخصٍ عاجز، وجهازٍ ثقيل كهذا، سأظل هنا، مع مؤنٍ محيي التي تركها، والمؤن الخاصة بي، وإذا فشلتُ في العثور على شيءٍ إضافي، ربما قد أضع هذا المسخ فوق نارٍ وأجهزه للشواء والأكل.

أنا واثقة بأنني مُباركة، واثقة بتحقيق أحلامي، وتائهُةً لدرجةٍ كبيرة، ماذا عليّ فعله حاليًا؟ هل أترك هذا الغريب مع جهازه؟ أم أبقى كما قُلْتُ بسبب الطرق؟ هل أسعى خلف الرائحة الثالثة، رائحة المعدن؟ الاختيارات كثيرة، يا سلام يا نعمة، هل ستنقذين العالم مثلًا بروح أمك؟ فلنبقَ بمكاننا، نرتاح فقط، وعند اقتراب المؤن على النفاد نترك تلك الجزيرة بصاحبنا بجهازه، ونصعد إلى تلك الشوارع هناك، كما

فعل محيي، و.. و.. ما هذا؟ هل هذه تهيؤات؟ حين أتيتُ إلى هنا مع محيي، لم تكن البنايات قريبةً هكذا من النهر! هل تحركت أم ما الحكاية؟ ورحمة عم سند لم يكن المنظر العام بهذا الشكل! أذكر كيف رحل محيي، وأنني تابعتُه إلى أن صعد، ثم اختفى، ما الذي حدث؟

كيف تلتصق البنايات كلها بمرسى النهر؟ إذا فتح أحدهم النافذة، سيقفز مُباشرةً إلى النهر، دون أي خوفٍ! في أقل من ثانية قفزتُ إلى القارب، كانت أسرع مرة جددت فيها، لم يهمني وجع ذراعي، ومع اقترابي من الضفة تركتُ القاربَ وأكملتُ الطريقَ سباحةً، وصلتُ في أقل من ربع ساعة، صعدتُ السلم وكانت المفاجأة، لا وجود لطريق، السلم يُخرجني إلى مدخل بناية، ولا وجود حتى لمساحة صغيرة بين البناية والسور القصير المبني على ضفة النهر، أكملتُ رحلةً طلوعي إلى السطح، لأصرخ من المشهد!

الصراخ من الخوف بصدقي شعورٌ لم يرافقني كثيرًا، صرختُ في فرحة، صرختُ ضاحكةً، صرختُ لسبيين، الأول لأن الطريقَ اختفتُ كما رأيتُ في أحلامي، والآخر لأنني ابتعدتُ مسافةً كبيرة عن الجهاز ولم أشعر بالألم، ولم تتحرك البُقعة أو تطلب مني البقاء! أنا حرة! حرة ومباركة فعلاً! أنا.. أنا عرافة مثلاً؟ طبعاً! عرافة لا يُقيدها شيء، ولا يقدر على قوتها وأحلامها أي شخص! أقرأ لك البخت، وأقول لك متى ستموت! الموت! نعم الموت! هل مات محيي؟ تقريبًا رحل عن دنيانا، لم يستطع الركض، ابتلعتَه الأرض، وهي تسبه وتشخر له، وتقول له كيف

تترك نعمة، كيف تترك طبق اللحم، وتذهب لتأكل طبق الكُشري!

البلد أصبح قطعة واحدة! المنظر غريب جداً، بنايات على المستوى نفسه، بنايات على طول النظر، وبنايات أعلى تظهر من بعيد، وتقريباً أنا لن أتحرك من هنا، يا سلام يا نعمة، محظوظة وحياة جمالِك، سأذهب إلى كل بناية، وأنزل من باب السطح إلى بيوتها، سأبحث في كل دور، سأدخل كل شقة، أنام فيها، أضع من يعجبني من الرجال النائمين في خوف، الطعام والشراب موجودان بوفرة حالياً، لقد وفر الله عليّ مشقة الترحال، وكل فترة سأصعد إلى هنا لأرى ماذا يفعل الأحمق الذي أنقذته، عديم الفائدة الموجود على الجزيرة، سأحاول ألا أبتعد كثيراً عن هذا المكان، في حال حدث شيء، سأقفز إلى النهر مباشرة، دون أي خوف، أنا في أمان تام.

إذا تحقّق نبوءاتي، وأنا مُباركة وتأكدت من ذلك، والمهم حالياً هو العثور على الرائحة الثالثة، والتي لسبب غريب أشعر باقترابها، يداعب المعدن أنفي، الرائحة تزداد قوة، والشكل العام يقول إنني لن أذهب خلفها، ومن الواضح أنه يا قاعدين يكفيكو شر الجايين، وأنا عرافة العالم، فلا خوف عليّ، ولا شر ولا غيره، يا سلام يا نعمة، أسدّ بحق ورحمة عم سند.

هل لمحت شخصاً يتحرك بالأسفل؟ يا من هنا، اظهر وبّن، هذا أفضل لك!

محيي بن طاهرة

إتقان فن المساومة ميزة تنفذ صاحبها في أعتى المواقف، وتعدد الخيارات المتاحة نعمة تُبعد مآلگها عن النهايات المأساوية، والحمد لله أنا خيبة خام تمشي على قدميها، لا أتقن الفن الأول، ولا أملك الخيارات المتعددة، والنعمة الوحيدة في حياتي هي البنث التي تقريباً واقفة بالأعلى، المستعدة بسلاح لتقطع رقبتني أو تُهشم رأسي، وقد تغتصبني -آه والله العظيم- بلا رحمة، والمُعجزة المنتظرة في موقفي أن تصعد روح نعمة إلى خالقها، فلا يعرفني الأذى، ولا أشكو له -بعد ضرب مُبرح- قسوة نعمة.

بحسبة بسيطة، إذا صعدت إليها، واعترفت بحماقة تصرفي، ربما تُسامحني، والبنث كما عرفت منها تحبني، فاستغلال هذا الحب من الممكن أن ينجدني، ولن ألومها إذا صفعتنني أو ركلتني، شحنة غضب أنثوي ستنفجر في وجهي، ثم ترجع الماء إلى مجاريها، حتى لو كان المجرى هو بالوعة نعمة الطافحة.

طلعت في ثقة تامة، يستندني أمل على يميني، وصبر على يساري، تقابلنا أمام باب السطح، داخل البناية الموجودة مباشرة فوق السلم الطالع من النهر، ولما عرفت نعمة أن الشخص الذي لمحتُه هو أنا، صرخت بكل غيظ: "أنت حي!" وقفت عاجزاً عن تفسير مراخها، هل هي مثلاً فرحانة؟ ظننت أن الأرض ابتلعتنني؟ أم أنها حزينة؟ وكانت تمنى الموت لمحيي، الرجل الظالم المُفتري، الذي تركها بمنتصف النهر، وهرب من

مواجهة خوفه؟ بخلت نعمة عليّ بفرصة الاعتذار، ركضت تجاهي بكل غل الدنيا، وركلت الهواء بعدما تراجعت في اللحظة الأخيرة!

طلبت منها تكملة حديثنا، أو بداية اللوم والعتاب، بسطح البناية، وهذا هو فن الاحتياط أو الحيلة، إذ إن المساحة كلما زادت اتساعاً، زادت معها فرصك لتفادي ضربات العدو، وللعثور على أقرب الأسلحة، في حالة تغيير خطتك على نحو إجباري، من الهجوم بالكلام الناعم إلى الدفاع بقلب مُستमित.

لم تفلح كل محاولاتها، تفاديت صفعات وركلات تُشبه الرصاص في صدمة الجرح، حتى الخنق لم تتركه، شرعت في خنقي بكل الطرق الممكنة، والعبد لله يفلت بقدرة قادر، نار الزُكة تشتعل أكثر مع كل محاولة فاشلة للنيل مني، من الواضح أن قتلي هو هدفها، ولا رجعة عن قرارها نهائياً، والكلمة الوحيدة التي مهدت لمُعاهدة صلح مؤقتة كانت: "أنا آسف"، وريثما نطقُها بصدقي، هدأت ثورتها، وخلف ذلك الهدوء عتاب قاتل، أراه آتياً في عينيها، ستجرحني بصخر الكلام، ولن أقدر على منعها، لما فيه من استفزاز ساذج، كأنني أقول لها: "أنا لستُ أسفاً، وأعلى ما في خيالك افعليه".

سكنت نعمة لدقيقة كاملة، مشّت ناحية طرف السطح كأنها تستعد للقفز، أشارت إليّ بالاقتراب، لم تعطيني الفرصة لأفتنها بنظرات الرجل النادم، لا تحرك عينيها بعيداً، عن جزيرة موجودة في المنتصف، وعليها رجلٌ وهو تقريباً الذي أنقذته،

تراقبُ تحركاته العشوائية، شكله مُضحكٌ جدًّا، يقع ويقوم،
يمشي ثم يقع، يزحف تجاه الجهاز العجيب، يلمسه فقط،
بعدها يبتعد عنه، ليكرر دورة حركته القصيرة ثانيةً، الوقوع
والقيام، الزحف واللمس.

صلبتني نعمة بكل كلمةٍ خرجتُ من إنجيل حزنها
المقدس: "آسف على ماذا يا محيي؟ على بُقعي؟ على كل
لبلةٍ كان يركبني رجلٌ؟ على موت عم سند؟ على رفض الناس
لشكلي ولوجودي؟ على ضربي وسحلي ثم تركي للموت؟ على
إعدام البنت الوحيدة التي ساعدتني؟ على الشارع الذي صار
بيتي بعدما رماني الرجل الخول الذي خلفني؟ على ممارستي
للشذوذ مع امرأةٍ ومع أطفالٍ؟ على أمراض النفسية؟ على
الكريم الذي يحول فرجي إلى اللون الأحمر ولم أعرفه إلا منذ
فترة؟ على عدم تحقيق رغبتني في الزواج؟ آسف على أنني
إنسانة تعيش كأحقر من أحقر كلبة؟ وحياتك يا محيي أعرف
كلبةً تأكل الكفتة والكباب يوميًا! لقد أثبتُّ لك أنني مُباركة
يا محيي، حين عثرتُ عليك ثم عليه، ولما تحقق حلمي، لماذا
عاملتني يا محيي على أنني شرموطة، أرسلها الله لك، فتسمع
صوت الآهات حين تركبني، بدلاً من مُضاجعة النسوان
الساكنات؟ لماذا يا محيي تركتني بكل هذه السهولة؟ يا محيي
أنت أقسمت لي بجمال حياتك، لما دخلتُ أنا فيها، وأقسمتُ
إنني واحدة تعرف كيف تُغريك بمفاتنها دون أي مجهودٍ؟

بسبب خوفك من الماء، تقول ببساطة اذهبي في ستين
داهية يا نعمة! والآن تقول لي أنا آسف؟ لماذا لم يقلها عم

سند حين مات وتركتني؟ والست اعتدال لما طلبت مني لحس فرجها؟ وصاحب محل الكشري وابنه التجس ابن النجسة؟ لماذا لم يهمس بها الخول الذي خلفني وهو يرميني إلى الشارع؟ لماذا لم يهمس بها العرص الذي اغتصمني وأنا صغيرة؟ لماذا لم يهمس بها كل رجل بعد ما خلص مزاجه مني، وغرق وجهي أو فتحة الخراء بلبنه؟ لماذا لم يقلها الرجل ابن الوسخة، الذي جاء أيضًا إلى ورشة العم سند، واغتصمني بسبب تنوري المرفوعة دون قصدٍ، فهاج على كُس طفلة ظاهر من تحت ملابسها الداخلية؟ ولما دافع عنى عم سند، ضربه وقتله! الرجل الوحيد الطيب، مات وهو يدافع عن طفلة، لا تفهم لماذا يُخرج رجلٌ قضيته، بكل هذا الحجم والكبر، ويمرره فوق فرجي، ويسألني إذا كنتُ فرحانة أم لا! عم سند مات شهيدًا! مات شهيدًا، والرجل ابن الوسخة ركض، ولم يرجع إلى الآن! كل رجل مارس معي الجنس، قررتُ أنه اغتصمني يا محيي، لم يرجع أي منهم ثانية! تخيل يا محيي، هذا الرجل، الذي قتل العم سند، هو أول من دفعني إلى عالم السرير والجنس! تركتُ منزل العم سند بعد موته، لم أقوَ على الوجود في المكان نفسه، وظللتُ أقف كل يوم، بعدما استقررتُ في أبي حماد، أقف أمام مسجد العسال، وأدعو للعم سند، وأسأل الله لماذا! لماذا كل يوم كنتُ أرى الرجل المُغتصب القاتل في وجوه أولاد الوسخة، وهم يطلبون مني مص ذنرهم، أو لحس فلقمة مؤخراتهم؟ وفي كل زنقةٍ أو ركوبةٍ من رجلٍ لي، كنتُ أقول في سري: أتمنى الموت يشوف الرجل ابن الوسخة، ويكون ميتًا. قل لي يا محيي، لماذا

لم ينزل الرب إلى هنا، إلى سطح هذه البناية، ويقول لي يا نعمة أنا آسف على هذه الحياة بنت الكلب، ظننتُك أقوى من هذا! أنا آسفة يا محيي، أنت عارٌّ على الرجولة، ولن أطلب منك مسامحتي على ما سأفعله.

الغلط الأكبر في أي علاقةٍ هو البوح الساذج الذي يُفتت كل جدارٍ حاولتُ أن تبنيه حول شيءٍ ما، تُخفيه عن الناظرين، تُرغم العارفين بالأمور على الاعتراف بفشل تنبؤاتهم، لمعرفة القصة المُستقرة في أعماق نقطة داخلِك، قد تظل مبهمًا لسنين طوال، وبمجرد مقابلة، دبرها القدر، غلفتها الظروف بطبقةٍ من فتنة الراحة، وطبقتين من خليط الإعجاب واللحظة المُنتظرة، وثلاث طبقاتٍ من الحُب الفاخر.

هذه كانت غلطتي، البوح في لحظةٍ ضعيفٍ، حين ظننتُ أن نعمة لن تستغل خوفي من الماء، وها هو أنا، الشخص ذاته، المُعترف بخوفه لحبيبة، أو لبنتٍ كان يظنها حبيبةً، ها أنا طائرٌ في الهواء، بعدما دفعتني نعمة من فوق البناية، وهي تعرف أنني أخاف من الماء، وأُنني سأغرق بعد محاولات واستغاثاتٍ عدٍ، وفي أقل من دقيقة، ستحاول غريزة التمسك بالحياة إنقاذي أو العثور على قشةٍ تُنقذني، ثم تفشل وأموت، والحقيقة سأكون كاذبًا إذا أقنعتُ نفسي بأن الحُب هو من قتلني، أنا لم يقتلني الحب، أنا قتلتنِي الثقة برد الفعل، كما قتلَت المسيح الحقيقي، الذي كان واثقًا بأن فعلته ستطهر ذنوبَ البشر، وبعدها سيتعامل كل شخصٍ بطيب خاطر،

وسيتذكر في كل الأوقات أن رجلاً مات من أجله، فلا يُقدم على أي ذنبٍ أو خطيئة.

أنا آسف يا نعمة، وآسف لي لما راوغتُ حذري، وقُلْتُ له بكل ثقة: "شحنهُ غضبٍ أنثوي، ستنفجر في وجهي، ثم تعود الماء إلى مجاريها"، أنا أكره الماء والمجاري ونعمة.

اليوم قبل الأخير

العامّة

الحادّة الأعظم

في مقر القصر الرئاسي، من الساعة السادسة صباحًا، داخل غرفة الاجتماعات، التي شهدت من النجاسة والقذارة ما يفوق قدر تحمل مكان، جلس صاحب الأمر وحوله حاشيته، كل شخص يُقدّم الاقتراحات الأخيرة، قبل المكوث بالبيوت، والتعبّد إلى أن تقوم القيامة، ووضّح صاحب الأمر للموجودين ضرورة عرض الاقتراحات كلها، مهما كانت جودتها، ونسيان الحرج أو الخوف، لأن الوقت لم يعد متاحًا كما كان من قبل، ونبه لمبدأ التصويت على كل فكرة، فلا وجود لموافقة فردية، والإجماع على الأمر هو سمة جلستهم الأخيرة.

كل واحدٍ منهم فتح أجندته، وأثبتَ للحاضرين كفاءةً دوره، وكيفية الانصياع للأوامر من أجل مصلحة الجميع، وخاصة مصلحة صاحب الأمر، آخر حكام البلاد، الذي سيدخل الجنة بلا حساب ولا سابقة عذاب، ثم يتبع كلامه بخطبة قصيرة عن فن إدارة الأزمات، وعن الرضا السابح في قلبه لأنه ترك شاطئ الفتن، وزهد كل شيء يُغويه، وفتح بابَه للحسنات وأعمال الخير، ويختتم حديثه بالدعاء لصاحب الأمر، مع وعدٍ صريح واضح: "لما يسألني الله عنك يا صاحب الأمر، سأقول يا ليت عمار الدنيا زاد، لتتعلم من علمه، ونشهد على عدله بين العباد"، ثم بدأت الاقتراحات والأفكار تنهال على صاحب الأمر، كسيل غادر فرج أنثى، لم تصل إلى ذروة نشوتها منذ فترة طويلة.

تباين مستوى ما تم عرضه من أفكار.. البداية لم تكن جيدة، ومع الاستمرار في الضغط من جانب صاحب الأمر، خرجت فكرة جعلت الكل صامتًا لأكثر من خمس دقائق، فقد قال المتحدث الرسمي باسم الأزهر الشريف: "هذا الاقتراح يا صاحب الأمر يلازماني منذ اليوم الأول لتساقط الكتب، وكنتُ أرفضه نظرًا إلى تفضيلي الابتعاد عن الجدال العقيم، ولكن ما دمت تريد اقتراحًا يُضيف إلى رصيدك الكثير من الحسنات، فسأخبرك بما يفيدك من ناحية الدين، والكلمة النهائية لك!"

بعد سماعه لكل كلمةٍ قالها المتحدث الرسمي، رفع يمينه صاحب الأمر، وقال بصوتٍ جهوري يُحرك الحماس داخل الأجساد: "الموافق منكم على هذا الاقتراح يهدم الأهرامات والمعابد وكل التماثيل الفرعونية وغير الفرعونية، التي كان

غرضها تأريخ الحضارات والديانات، وهدم متاحف الفنون التي تعرض لوحاتٍ عارية، والتماثيل المنحوتة للآلهة والمُفكرين وغيرهم، وذلك لحرمانية السابق ذكرهم، كعلاماتٍ واضحة على الكُفر والإلحاد، مع العلم أن التفكير في الأمر من جهة دينية بحثة، وليس ث من أجل تأريخ أو غيره، القيامة على الأبواب، ونحن آخر أجناس البشر، لا وجود لأجناس بعدنا، عرفنا ما عرفناه، وسنختم معرفتنا بأمور الدنيا، على ما تم التوصل إليه، وهدمها طبعًا بدافع الغيرة على الدين، وإضافة ما يُساعد صاحب الأمر -وهو أنا- على نحو أكبر، في امتحان الآخرة، الموافق منكم، فليتفضل برفع يديه".

في أقل من نصف ساعة كان الخبر منتشرًا لدى رسل الخير وحراسهم بجميع المحافظات، وكان الأمر واضحًا، هدم كل المعالم التاريخية والأثرية، تفجير القلاع والأهرامات والمتاحف، كل الأماكن التي شهدت فيما قبل أحداثًا منافيةً للدين، كل ما يخص الحضارات بمختلف السنين، وعندما فكر الرسول الأكبر، وسأل صاحب الأمر: "سؤالي يا سيدي غرضه الاستفسار وليس الاستنفار، هناك بعض المتاحف التي تجمع بين مختلف الحضارات والفنون، وهناك بداخلها ما يخص الديانة الإسلامية مثلًا، فهل نتركها أم نفجرها أيضًا؟"

لم يتأخر الرد من صاحب الأمر، الذي قاله بصوت عالٍ في الهاتف، ليسمعه الموجودون الموافقون على أي قرار: "أهدم كل شيء! لا أريد متحفًا مهما كانت أهمية المعرض بداخله، يا غبي افهمني! نحن آخر الأجيال، لمن سنترك هذه المتاحف؟

من سيتعلم بعدنا أمورًا تخص الإسلام أو المسيحية أو اليهودية؟ غداً ستقوم القيامة وسنحاسب كلنا، نفذ الأمر حالاً، واسمعي يا غبي جيداً، كل ما يفيدك في تنفيذ الأمر استخدمه، مختلف أنواع القنابل، من أولها إلى أحدثها، قاذفة صواريخ، طائرات حربية، مدافع، اجعل المهمة كأننا سنخوض حرباً! لا تبخل على طلبي بأي سلاح، في أقل من ساعتين أريد مكاملةً تُبشرني فيها بإتمام المهمة!"

صفق الحضور لصاحب الفكرة، وقام صاحب الأمر وقبل رأسه شاكرًا، ثم شكر كل الموجودين لأنهم وافقوا على هذا الاقتراح رغم مساس التفجيرات بما يخصهم، ومع ذلك كانت مصلحة صاحب الأمر هي المسألة الأولى لديهم، ولما شعر سفير الثقافة العام بعظمة ما فعله المتحدث الرسمي، وكيف ساعد صاحب الأمر على الشعور بالراحة النفسية، تسلل إلى نفسه الحقد والغيرة، فذكر الجميع بأنه صاحب فكرة هدم مكتبة الإسكندرية، ليصفق الحاضرون له، ويبدأ السفراء في التهليل: "نحن جاهزون بعون الله جاهزون، نحن جاهزون بعون الله جاهزون"، ثم بدأ سفير الثقافة حفلًا تملق لصاحب الأمر، لما عبر عن جزيل شكره لإزالة الهم عن قلبه، لأنه كثيراً ما كان يسأل عن حُرمانية منصبه، وأنه لم ينسَ قط وعد صاحب الأمر له بتحقيق ما هو في مصلحته، وعدم تركه لمواجهة المصير بمفرده.

توالى الاقتراحات تبعاً، هذا يُخبرهم بحتمية الاحتفال بزجاجات ماء، ربما يُصينا العطش، وذاك يُذكرهم بالصفح

والمسامحة للجميع، وواحدتهم طلب من صاحب الأمر أن يخرج إلى الناس في بيان، يشكرهم على تعاونهم في هذه الفترة، ويطلب من الناس الدعاء له، فهو يستحق الثناء، نظرًا إلى أنه ساعدهم على تقليل الذنوب، ومن ثم أصبح جزءًا مهمًا في دخولهم الجنة، بعد حساب الرب.

وكان آخر الاقتراحات، قبل أن يتجه الموجودون إلى بيوتهم، صلاة جماعية، يأتي إليها من يستطيع، في ميدان التحرير، يتحد صوت الدعاء، بقلب واحد، باختلاف الديانات، أن تكون حسن الخاتمة من نصيبهم، وأن يدخل صاحب الأمر الجنة، لأنه يستحقها، فهو نعم الحاكم ونعم الناصح، قبل أن يُقاطعها سفير الثقافة: "ونعم الهادم.. لا تُسن فهمي.. أقصد.. أقصد الهادم الأعظم لكل الذنوب طبعًا!"

عامل الفخار

غادر فيليب نحو عالم الحقيقة، وترك برزخ الغيبوبة ويهوذا والنبي يوسف، ولما فتح عينيه، وجد الفراغ العظيم أمامه، لا وجود لمرضى أو ممرضات، والأطباء طبعًا مشغولون، فأيقن أن الونس مع سريريه والمحاليل المتعلقة.

الصمت الذي ضرب المكان، لم يقدر على فيليب، لأنه صرخ بكل قوته، وبعلو صوته، ليعلن عن قيامته، وليحاول الوصول إلى شخص يعرفه، وهو ما نجح فيه، لما رأى ممرضة تركض

تجاهه، وتطلب منه الهدوء، وتعدّه بحكاية خرافية، لا يُصدّقها عاقل، ستسردها بإيجاز شديد، وعليه ألا يسأل كثيراً، ففضيلة الوقت باتت مُستحيلة، وهي ممرضة ستقف أمام الله غداً، وستُحاسب على التقاعس عن أداء دورها كملاك رحمة.

بدأت كلامها بجُمْلٍ ساحرة خاطفة، تارةً تطمئنه، وتارةً أخرى تهز كيانه خوفاً: "يا عم فيليب، اسمعني وغلاوة المسيح حبيبك، ولا تطلب مزيداً من التفسير، سأحكي لك كل شيء، بنية عدم تعرضك لصدمة، حين تواجه.. والله ما عارفة ماذا أقول، اسمعني يا عم فيليب، هذا الكلام هو الواقع، كل ما سأحكيه الآن، هو الوقائع التي حدثت، في أثناء غيبوبتك، وسبحان الله، لقد رجعت إلينا في اليوم قبل الأخير، كأن الله يريد مني تجهيزك لما سيحدث غداً!"

حكيت الممرضة كل ما فات، لم تُخبره بتفاصيل التفاصيل، بدايةً من تساقط الكتب، مروراً بالمدينة الفاضلة وقوانينها، تغيير القوانين طبقاً للمتغيرات، تغيير اسم الحكومة للسفارة العامة، الرئيس صار لقبه صاحب الأمر، منع الكتب، رُسل الخير والحُرّاس، لجوء الجميع إلى الفقر، الناس كرهوا القلوس تماماً، اكتشف اليوم الأخير بكل الكتب، وصولاً إلى إعادة تشغيل الحياة، ثورة الناس على الذنوب، وإعدام عاشقي الذنوب.

لم يتفاعل مع حكايتها، السكوت كان رده الواضح، ولم تُرهق الممرضة نفسها بسؤاله عن إدراكه لما قالت، ولم تقل بعدها الممرضة شيئاً سوى السماح له بتبديل ملابسه، وأنها ستهاثف

الرقم الوحيد الموجود لديهم، في حالة رجوع الوعي إليه، والذي طلبَ صاحبه ذلك، بعد موافقة ابنه مينا وزوجته، ولم يمر أقل من ربع ساعة، إلا وكان الباشا واقفاً أمام فيليب، ينظر إليه بعين المُعجزة، ويطلب منه مرافقته إلى الخارج.

أدرك فيليب عند خروجه إلى العالم الصامت أنه كان طوال هذه الفترة بالقاهرة، تم نقله من المشفى الحكومي، بعد حادثة القطار، إلى المشفى الخاص رغبةً من الباشا، مشى في عالم ساكت، الشارع وحيدٌ، لا يفهم شيئاً مما يدور حوله، ركب بجانب الباشا، في سيارته الفارسة، الباشا يتحدث إليه، وهو يفكر في كلام الممرضة، وفي كلام يهوذا والنبي يوسف: "السائق تركني منذ فترة طويلة يا فيليب، يتعبد لأن المخبولين أوهموه باليوم الأخير، أه يا فيليب، يا صديقي العزيز، أراك كما المسيح، عندما قام ثانية!" لم يُعلق فيليب، فأكمل الباشا آملاً في بداية حديث: "الحقيقة يا فيليب أنا كنتُ متواصلاً مع الممرضة، التي عرضتُ عليها كل السبل، من راتبٍ ثابت أو ترقية، لتبقى معك، وفي النهاية وافقتُ، بشرط أن أوفر لها ولحبيبها كل مراسم الزواج! لا مفر من الشكر يا فيليب، لولا ما فعلته، لكننتُ نائمًا في المشفى بمفردك!"

الطريق طويل، وصمتُ فيليب هز ثباتَ الباشا، الذي حاول عدة مراتٍ فتح حواراتٍ مع فيليب، والأخير لا يجاريه، يكتفي بابتسامةٍ أو إيماءةٍ رأس، وقد ينطق كلمةً واحدةً أو جملةً قصيرة، مثل (مضبوط) و(لا بأس)، أو (حكمة الرب)، توتر الباشا يتزايد مع كل ميلٍ، وفيليب يحاول تفسير مشاعره، شخصٌ غائبٌ عن

الوعي لمدة عام، يرجع فيجد الناس يخبرونه بانتهاء العام، وهذه حقيقة وليس قليلًا أجنبيًا، والصدمة الأخرى هي عدم وجود أهله بجانبه، سأل نفسه وسط كلام الباشا: "إذا كان فعلاً غداً هو اليوم الأخير، فلماذا لم يقف مينا بجانبني، وأين زوجتي التي كانت تُقسم لي بالمسيح الحي على وجودها معي في أي مكان، حتى لو القبر؟"

علاماتُ الأرق وعدم الفهم، الظاهرة بوضوح، على وجه وتصرفات فيليب، وسوستُ للباشا بسرعة التدخل، والحديث معه، لمرور الوقت بسرعة، لا تحتمل أي تأجيل: "فيليب، أنت تعرفني جيداً، منذ اليوم الأول، وتعرف كم أكره الموت، وغداً سنقف أمام المسيح، لذلك أريد منك آخر خدمة تُقدمها لرجل يحترمك كثيراً، أريد منك حرقني في القرن يا فيليب! نعم كما سمعت، لا أريد أن أكون موجوداً وحاضراً غداً، أريد أن تذهب روحي المتعبة، لتحدث إلى يسوع، عساه يغفر لي، بسبب صفاء الروح دوماً! أخبرونا ونحن صغار أن الروح طيبة، لأنها من الرب، لذلك لا توسوس للإنسان، من يفعل ذلك هو طين الإنسان نفسه، المُمثل في النفس البشرية، التي تكره الإنسان، وتريده مُعذباً، لأنها من طين، وتشعر بالدونية دائماً، تشعر أنها أحقر المواد التي تُفخّث فيها الروح!"

طلبٌ كذلك يُحرك أعمدة السماء، ولكن الإنسان الصّمت، الجالس في عالم آخر، لا يتكلم ولا يرد، لأنه في عالم من آلاف الأسئلة، التي تضربه بعدم منطقية الأحداث، والذي يفشل هو في منطقة الواقع، والباشا يتحدث عن أسباب طلبه،

يشرح ويوضح، يهز كتفَ فيليب ليتأكد من مجاراته، وفيليب يرى أمامه جثامين ضحاياه، على زجاج السيارة، وعلى المقعد الخلفي، وعلى الصليب المتراقص النازل من المرأة الأمامية، الباشا يخبط يديه على المقود، يصرخ في شخص رحلت روحه مبكراً، وتقريباً من يُحرك الجسد الآن هو الفضول البشري لمعرفة كيف سينتهي الأمر.

انتبه فيليب للكلمة عرفت بمكرٍ ودهاء كيف تفتحم خلوته، لما قال الباشا: "لا تحرقني"، ومع تكلمة الجملة، اقترح الباشا عدة طرق للقتل، مثل الغرق أو إطلاق الرصاص، ويمكن عن طريق شرب السم، أو الخنق باليد أو الغاز، وإن رفض فيليب، سيحاول الباشا البحث عن آخر، أو قتل نفسه، الموضوع ليس في هوية القاتل، الموضوع بالنسبة إلى الباشا إيجاد شخص سيحقق المطلوب فعلاً، اليقين في تنفيذ الأمر هو المُراد، يعرف جيداً أن الإنسان قد يتردد في إنهاء حياته بيديه، ودائماً ما يحتاج إلى مصيبة تسوقه إلى الانتحار، أو شخص ينفذ في مُتعة خالصة.

"طوال غيابك عن عالمنا يا فيليب وأنا يومياً كنتُ أفكر في قتل نفسي، والصراحة فكرتُ مرةً في قتلِكَ، تجنباً لبوحك بأسرارنا في أثناء غيبوبتك، ثم قلْتُ لن يصدقهُ أحدٌ، بحجة التخريف وغياب العقل والوعي، وهذا آخر ما أطلبه منك يا فيليب، أن تقتلني، وتجعلني أبعث من جديد، لأواجه مصيراً مجهولاً، سأحاول الدعاء ليسوع، الأرواح طيبة، يا فيليب تحدث إلي! أترفض فعلاً مُساعدتي! يا بن القحبة يا حيوان! أترفض

مُساعدة ولي نعمتك، الذي جعلك تعيش في نعيم! عامةً يا فيليب، سأقول لك آخر جملة، قبل أن أسكت حتى نصل إلى اليوم، أنا ذهبتُ كثيراً إلى القرية في غيابك، كي أطمئن على عائلتك، وأدفع لهم كل ما يريدونه، والحقيقة يا فيليب، ضاجعتُ زوجتك حد الاكتفاء، جعلتها تصرخ أكثر من مرة، تلعن اليوم الذي تزوجتك فيه، جعلتها تُقسم إنها لم تمارس الجنس إلا معي، وإنها معك كانتُ تُدغدغ فرجها قليلاً لعله يضحك".

العامة الهدمُ الأعظم

في أثناء تحرك حُرّاس الخير إلى جميع الأماكن المطلوب هدمها، سار بجانبهم سؤالٌ مُخادعٌ، وبدأ يقنعهم بحجته، وسرق عقل حارسٍ منهم، ليظهر لهم في هيئة استفسارٍ بسيط، هدفه عظيم، فسأل الحارسُ زملاءه: "لماذا لا نهدم كل ما هو مُحرم عامةً؟" وحين عرفَ أنهم لم يفهموا مقصده، وضع بطريقةٍ مباشرةٍ سهل فهمها: "الرسول الأكبر طلبَ منا هدم المتاحف والمعابد والأهرامات وغيره، ووصل الكلام إلينا من رسل الخير، أن المهمة بغرض تأمين صحيفة صاحب الأمر، وما تم ذكره ليستِ المحرمات كلها، فلماذا لا تُهدم أيضًا مقاماتِ وأضرحةِ الأولياء، وقبور القديسين، وكل هذه الخزعات؟ ما رأيكم؟ واعتقد أن أمراً كهذا سيضيف إلى صحيفة أعمالنا الكثير

من الحسنات، لأننا حاربنا جهلَ التقاليد والمعتقدات، فالواهب هو الله، وصاحب المعجزات هو الله!"

في البداية واجهته بعض الاعتراضات، وكيف أن الأولياء ساعدوا أشخاصًا في جلب الرزق والعيال وفك ضيقة، وحكى لهم حارس عن قصته وكرامة ولي، الشيخ السيد عبد القادر الدشوطي، لما أنقذه من الغرق وهو عليل، يسبح في البحر مع والده، ووقتها أصاب الشد العضلي أباه، فلم يقدر على السباحة، ولا على حمل الطفل معه، وأقسم الحارس إنه رأى الشيخ الدشوطي ماشيًا على سطح البحر، وحمله على ظهره، ومشى به إلى الشاطئ، ثم عاد وعالج أباه، الذي ظن بزوال الشد من تلقاء نفسه، وحين سألته إذا ما شاهد هذا الرجل، فكانت إجابة أبيه: "أي رجل؟ وكيف سبحت هكذا إلى الشاطئ؟ وكيف ترك أباك يواجه الموت يا بن الكلب؟"

تعالى القصص مع كرامات الأولياء، ليقترب حارس من الموجودين استشارة الأمر مع رسول، وحسب أوامره سيمثل الجميع، وقد وافق المهتم بالموضوع على ذلك، ولم يمنحهم الحظ فرصة، إذ إن الرسل مشغولون بعبادتهم الأخيرة، ولحسن حظهم رد الرسول الأكبر على اللاسلكي، ووافق على الاقتراح فورًا، وكلف حارسين في كل منطقة، بجميع المحافظات، بتحطيم المقامات والأضرحة.

في أماكن متفرقة، في محافظات مختلفة، لم يهتم شخص واحد بما يحدث بالخارج، رجل يبكي بحرقه داخل منزله، وصوت

الانفجار يصرخ بالخارج، امرأة تتضرع للخالق، والهرم الأكبر يتضرع ليبقى، ولدٌ صغيرٌ يسأل عن إمكانية جلب لعبته معه، في أثناء الوقوف أمام الرب، وأبو الهول يستفسر عن سبب تفجيره، ولماذا يقتلونه وهو لم يفعل شيئاً؟ بنتٌ تُخرجُ فستانَ فرجها، تلبسه للمرة الأولى والأخيرة، والمتحف المصري تتساقط دموعه، مومياءات وعتائل العظماء وبرديات، عجوزٌ يتكئ على عصاه، ويمجد الرب، يسأله أن يُسكنه الملكوت، ومعابد الأقصر وأسوان تركع بعد آلاف السنين، ولا تصدق كيف هُزم شموخها بفعل الإنسان الجبان.

كل معلم من المعالم الأثرية، كل ضريح ومقام، كل معبدٍ ومتحفٍ، كل رسمٍ وتمثالٍ، كل هرمٍ ومنحوتةٍ، كلهم سألوا في صوتٍ واحد، من وسط البارود والمدافع، من بين القنابل والقاذفات، سألوا أربابَ حضاراتهم، سألوا صانعيهم، لماذا قد يمحوا الإنسان تاريخَ أخيه الإنسان، بكل هذه السهولة؟

لماذا يجحد الإنسان فضلَ الحجارة، وفضلَ الألوان، فضلَ الجير، وفضلَ الماء والزلط والجبس والأسمنت، فضلَ السحر والدعاء، على مدار القرون، منذ بدء الخليقة، وكلهم كانوا شهوداً على سريان الأيام، كل مبنى كان واقفاً، كل تمثالٍ كان حاضراً، كل رسمٍ كانت شاهدةً، على تعب وإلهام وحزن وسعادة إنسانٍ، حاول توصيل رسالة، رسالة فحوها، لقد كنتُ هنا يوماً ما، فلا تنسَ زماني ولا تجحد جهدي، لقد كنتُ هنا، وصنعتُ هذا من أجلك، لتقف أمام العالم، تتفاخر بصنيعة ابن جنسك، وابن حضارتك الذي سبقك، وابن دولتك الذي

ينتظر منك الكثير، والذي ينتظر منك أن تضيفَ إلى التاريخ،
الذي حاولنا كتابته جميعًا، اكتب معنا تاريخًا لا يُنسى، اصنع
معنا معالمَ الأجيال، ولا تكن جبانًا!

أقسم حارسُ إنه شاهد آلهة الفراعنة وهم يخرجون من
تماثيلهم، ينظرون إلى رسل وحُرّاس الخير بعين الغضب وعدم
الفهم، يركضون في محاولةٍ أخيرةٍ بائسةٍ للحاق بتمثالٍ أو معبدٍ
من الهدم والضياع، وأقسم حارسُ آخر، في محافظة الإسكندرية،
إنه سمعَ ورأى سيرابيس، إله الشفاء عند القدماء المصريين،
وهو يصفق للحُرّاس ويشكرهم، ويقول لهم: "لقد دمروا كل
حجارة بالسيرابيوم، ونسيني الناس بسبب كنيسة هنا، بُنيت
فوق أنقاض معبدي، السيرابيوم العظيم، أشكركم على مناصرة
الإله المنسي!"

طوال اليوم، ورسَل وحُرّاس الخير، في كل المُحافظات، يركضون
بحثًا عن المعابد والمتاحف والمقامات والأضرحة، يلهثون خلف
كل ما قد يوضع في سجل سيئات صاحب الأمر، ويدمر أحدهم
الأثر العظيم، بنفس راضية، وبضحكة وأمنيةٍ في دخول الجنة،
يضرب الرسول الحارس، إذا لم يُصب الهدف من أول رمية،
ويضرب الحارسُ زميلَه الأقل خبرةً، إذا لم يخبره بمكان متحفٍ أو
معبدٍ، ويضرب الحارسُ قليل الخبرة زميلَه الأحدث في الخدمة،
إذا لم يحضر شربة ماء أو كوبَ شايٍ، كما طلب منه، وفي النهاية،
بعدما ينتهي كل شخصٍ مما كُلِّفَ به، يرسلون إلى رسول الخير،
المسؤول عن جماعة الحُرّاس، فيهدأ قلبه، ويرسل بدوره إلى
الرسول الأكبر، الذي يُطمئن صاحب الأمر، مع كل أثر يزول.

أغبى خطيئة قد تُذكر في قصة البشر، أن محو تاريخهم تم بأيديهم، تم بموافقتهم وتأييدهم، تم والجميع سعيد بالفعل العظيم الذي سيدخله الجنة، وأعظم خطيئة، لا مفر من ذكرها، في سجل الأفراد، هو عدم تحرك أي شخص، عاش حياته يردد مقولة الشغف، والجملة الأكثر شيوعاً: "أنا مُبدع حقيقي، شغوفٌ بموهبتي وفني وعملي، أحب الفن، وأنتم جهلاء، يجذبكم التصنع والكذب!" لكل شخص منهم، عرف من منزله أو مكتبه، عرف أن المتحف الذي لطالما عرض به لوحاته، أو المعبد الذي كتب عنه كثيراً، أو المنحوتة التي منحته درجة التفوق، أو اللوحة التي جعلته الأشهر بين الفنانين، عرفوا أن تم محوها، ولم يتحرك أحدهم، ليقف أمام جرار أو سلاح، كلهم دفنوا رؤوسهم، بطريقة أكثر جبنًا من النعام، في طين أكذوبة الولاء، وضياع العمر في الأبحاث والعمل، كلهم سجدوا لخوفهم، للخوف من الغد، وكانت هذه المرة الوحيدة التي لم يُخاطر فيها الناس بمقولة: "لا تخف من الغد"، الناس كانوا خائفين، من الساعات ومن اليوم ومن الغد.

وليختتم البشر سجل تاريخهم، قال الحارس المسؤول عن هدم الأضرحة إنه شاهد الأولياء جميعاً يقفون صفًا واحدًا في السماء، يتقدمهم وليٌّ لا يعرفه، يصلون صلاة جماعة، ويدعون في الوقت ذاته: "اللهم نصرًا مُبينًا، على البشر الجاحدين، لكل سجدَةٍ سجدناها لك، من أجل مصالحهم وأزماتهم، اللهم نصرًا مُبينًا على الإنسان، قاتل أخيه الإنسان، ومعتنق مبدأ المحو، الإنسان الذي مسح آلاف السنين، في لحظةٍ ضعفٍ وعدم يقين،

اللهم نصرًا مُبينًا على الإنسان، غالب طباع الشياطين والجان، والراقص فوق جثامين الأولياء، ومُدمر تاريخ العشق الإلهي، اللهم نصرًا مُبينًا على الإنسان، الذي سيقابلك في وقتٍ قريب، فردّه إلى حياةٍ قاسية لا تطيب."

ابنة الشوارع

بفضل البنت الصغيرة ماري مرقس نجيب، عاشتْ نعمة ورجعتْ تتحرك في الشوارع، ولم تفعل شيئًا وقتها، لما جاء رسول الخير وقبضَ على الطفلة الصغيرة، التي احترقت حتى الموت، من أجل مُساعدة ابنة الشوارع، توسلتْ أم البنت، وركع أبوها لنعمة، ولكنها قالتْ لهما: "ابنتكما مخطئة، من طلب منها إنقاذي؟ يوم الـهنا هو يوم تـركي لهذه الدنيا بنت الوسخة، ولكن الشرموطة الصغيرة هي التي حافظتْ عليّ، ورجعتني من جديد إلى الحياة، عامة، أتمنى أن تلحقا بها في أقرب وقت، لا أريد كلمةً أخرى يا أولاد الوسخة".

مشّت نعمة إلى أرض الله الواسعة، وشعرَتْ في كل خطوةٍ بألمٍ في فخذيهما يُبطِئ من حركتها، مع ضعفٍ ينخر في عضلاتِ يديها، فكلما حاولتِ الإمساك بحجرٍ، خانها التوفيق وسقط منها، فعرفتْ أن الوهنَ سيكون آخر صفة تُصاحبها، إلى أن تقابل خالقها غداً، وستلوم عليه وتُفرغ كل ما بداخلها من حُزنٍ وغضبٍ، وأقسمتْ إنها لن تهتم بأي شخصٍ يقف خلفها

في طابور الحساب، ستتحدث وحين تنتهي، ربما -وتقول ربما-
تتحرك خارج الصف، ليدخل مكانها آخر، ويُحسابه الله.

سقط الاهتمام من نعمة، تمشي بلا فائدة، قالت بصوت
مسموع: "بنت الوسخة الصغيرة، ترفض الخروج من دماغي،
كل يوم أفكر فيها، أحاول طردها ولا فائدة! لماذا يا بنتي
فعلت ذلك؟ لماذا؟ الموت هو النهاية الحتمية، كلهم ماتوا
وتركوني، أبوك وأمك جاءا إليّ أملين في مساعدة، كيف أساعدك
يا حبيبتي؟ تطلبين المساعدة من واحدة يكرهها خالقها؟
كنتِ السبب الوحيد في بقاء روعي، ابتسامتك كل يوم وأنتِ
تُعطيني الماء أو رغيف خبز مبلول، كنتِ شجاعة، أشجع من
ربك الذي تركني هكذا، ولم يفعل شيئاً ليُنقذني، كنتِ أكثر
اهتماماً منه أيضاً، هو خلقني بيقع، جعل الكل يكرهونني،
ولكنه هُزِمَ أمامك أنتِ وعم سند، فشل في وضع الكراهية
داخل قلبيكما! وحياتك يا من لا أعرف اسمك، نسيته من كثرة
التعب والوجع، شاهدتهم وهم يأخذونك، وشعرتُ بقطعة
مني تذهب معك، حاولتُ الركض تجاههم، لكن الضعف
منعني، رأيتُ السماء تضحك عليك، كأنها تُعاقبني، كأنها تقول
لي وها هو شخص آخر تُحبينه، سنحرمك منه، يا حسرة قلبي
على بنتٍ صغيرة جميلة مثلك، ماتت من أجل مسخ، تكرهه
الرحمة والحنان، مسخ تكرهه الحياة بشكل عام، مسخ يمسخ
البشر فيه خراء أفكارهم، يا ليتني أنا من أخذوني، وبقيتِ
مع أهلك يا غالية".

بعد أقل من دقيقة، بدأت نعمة في لعن البنت الصغيرة، وشكرت الظروف التي جعلتها تموت، وأنها لم تعد إلى أهلها، فلماذا تقتصر المعاناة عليها فقط؟ لقد نسيث نعمة كلامها منذ دقيقة، عن الفقر والخير، عن الأمل الذي زار نعمة بسبب أفعال البنت الصغيرة، شتمت نعمة الأم والأب ورسول الخير وصاحب الأمر، ثم فتحت كتابها، لترى تفاصيل اليوم قبل الأخير، فوجدت كل الدلائل التي تقودها إلى محل ملابس، تعجبت نعمة من الجهة، وذلك بسبب مكوث الناس في بيوتهم للتعبد ولطلب المغفرة من خالقهم، ومع ذلك توجهت إلى المكان، وقالت: "من الواضح أنني سأموت هناك، يا سلام يا نعمة، ميتة تليق بهانم مثلك".

لما وصلت إلى وجهتها، لمحّت رجلاً يجلس أمام المحل، يقرأ كتابه، يتسم مرةً ويبيكي مراتٍ، يقول بصوتٍ مسموع: "أذكر هذا اليوم، سبحان الله، كنتُ قد نسيثُ هذه الذكريات، سبحان الله"، اقتربت منه، وسألته عن سبب وجوده، ليخبرها بأنه الكتاب، الذي وصف له مقابلةً مع امرأةٍ مباركة، وأن يُريها المخزنَ الكبير أسفل المحل، ولا يعرف ماذا سيفيد المخزن امرأةً مثلها، لكنها أوامر خالقه، وتجب عليه الطاعة.

دخلت معه المحل، لم يشرح لها شيئاً بخصوص المكان، المحل صغير، مساحته ضيقة، أرفف الملابس خالية، وفي آخر المحل هناك باب، فتحه ليُكشف عن سلمٍ قصير، نزلت خلفه، أضاء صفًا من اللمبات الصفراء، في منتصف سقف المخزن، لترى بنفسها مساحةً هائلة، حيطان رمادية، والكثير من القماش

والأكياس البلاستيكية، عرفت أن شغلها مرهق، ولن تكون الزيارة خفيفة، قال لها، لما أحس بخيبة أمل في نظراتها: "هذا هو المخزن، سامحيني يا بنتي، أنا أصلاً تركتُ هذا المحل منذ تساقط الكتب، من وقتها أو قبلها بقليل، وأشعر أن المكان مسكون! آه والله العظيم، أسمع بالمخزن أصوات بكاء، وفي بعض الأحيان ضحكات، نزلتُ إليه كثيراً لأعرف من الأسفل، خصوصاً أن الأصوات كانت كثيرة، ما يعني أنهم أعداد، ومع ذلك، لم أجد كتباً حتى! نهاية الكلام، المطلوب منك البقاء بداخله وتنظيفه، لكن قبل ذلك، وهو يا بنتي المكتوب والله العظيم عندي، وأعتقد أيضاً أنه المكتوب عندك!"

سحبته تجاهها، وفتحت له سحاب بنطاله، وأخرجت ذكره، وجعلته ينتصب أسرع من قطار، ولم تعطه الفرصة ليفرض سيطرته، طرحت الرجل أرضاً، ثم ركبته في غيظ وحنق، عضوه اختفى داخل فتحة شرجها، الرجل يبكي من فرط اللذة، ظلت تقول له: "عجيب يا جدي أن تودع الدنيا بذنب كهذا"، ليقول لها الرجل الذي يقاوم قذف منيه: "لم ألمس امرأة منذ ماتت زوجتي في حادثة ونحن بالثلاثين من عمرنا، وأنا الآن بالخامسة والسبعين، أعتقد أنها آخر لذة لعجوز سيموت غداً، سامحيني يا بنتي، ولكنني أريد فعلها مرة ثانية، والله نسيبتُ طعم الجنس، أنا مخلص جداً لصباح زوجتي، حتى العادة السرية لم أمارسها، كانت تزورني بين الحين والآخر، وتضاجع في الحلم، آه يا بنتي، يا ليت الدنيا تبقى ليوم آخر، يا ليت الدنيا تبقى ليوم آخر!"

تدخل عضوه بسرعة وتُخرجه، لم تهتم تمامًا للجنس، تنظر حولها في استغراب، ما المطلوب منها هنا؟ ولماذا هنا بالتحديد؟ الرجل أسفلها يصرخ من المتعة، وعقلها يصرخ من اللامنتقية، الرجل يصفع مؤخرتها، وهي تصفع بنظراتها الفراغ المائل أمامها، وتسال آهاتِ العجوز، لماذا طلب منها كتابها المجيء إلى مكانٍ قذرٍ كهذا، وما الفائدة من تنظيفه؟ الدنيا ستنتهي غدًا، أو بعد ساعاتٍ لأن اليوم على وشك الانتهاء، ولكن كيف تنتهي الدنيا ولا ينتهي شقاء نعمة؟

الرجل قذف منيه أكثر من ثلاث مراتٍ، وهي تقوم ليتساقط لبنه من فتحة شرجها، فيضع يديه على خصرها، لتنزل عليه مجددًا في تأفف، قالت له في سخرية: "لا تتعجل الموت يا عجوز، غدًا كلنا سيموت، على الأقل مثًا نظيفًا وليس نجسًا، وكفاك قذف مني بداخلي، يضرب بيتك غرقتني، صدقتك حين قلت إنك نسييت الجنس، لبنك غزير يا عجوز يا شقي، فلنجعل المرة الأخيرة جنسًا فمويًا، فليكن لبنك هو آخر ما أشربه، ما رأيك؟"

لم يرفض العجوز الموافق على أي شيء ستطلبه نعمة، حتى حين قالت ضاحكة إنها ستأخذ خمسين جنيهًا مقابل هذه النكحة الممتازة، التي لن تنساها وستذكرها بفخرٍ وسط كل الناس، ولن تخجل من فعلتها هذه، يجب أن يخجل الناس من كذبهم، والافتراء على ممارسة الجنس، والنظر إلى المتحرر من أفكارهم بعين الغضب، نعمة تكره البشر وخالقهم، وتحب نفسها والجنس.

تركبت الرجل أرضاً، يرتاح من مهرة عتية لم يستطع ترويضها كما ينبغي، وبدأت في التنظيف، فتحت الكيس الأزرق البلاستيك، أخرجت منه قطعة قماش، ومسحت قذف الرجل من مؤخرتها، وهي تردد: "يا سلام يا نعمة، ملاك قال إنك مباركة! كيف أكون مباركة وأنا أنظف وأضجع؟" قال الرجل لها: "غداً يا نعمة، سيزورنا رجل، لا أعرف ما السبب وراء زيارته، ولكنني سأكون موجوداً، لأؤكد من أن كل شيء بخير"، فشتمته في سرها، وبدأت في ترتيب المخزن.

عامل الدوكو

بعد إعدام العم آدم، وجهل العمال بما حدث لبحار، قرر عبد القوي الاختباء في مسرح العرائس، بعيداً عن أعين رسول الخير وخراسه، إذ إن تفكيره هداه إلى الزحف بين العرائس، الموضوع في مخزن المسرح، والوصول إلى أبعد نقطة، فتصعب على أي حارس رؤيته أو الإمساك به من بين كل هذه الكائنات الخشبية المرصوة بشكلٍ مرعب.

ضحك عبد القوي حين رأى عددًا لا بأس به من رافضي الوجود بالخارج، فعلوا مثلما فعل تمامًا، ولكن واحدًا منهم قال لعبد القوي بصوتٍ خفيض: "هذا ما أمرني به كتابي، الشكل العام يقول إن هناك مصلحة يا عبد القوي!" وكلامه جعل عبد القوي يفتح الكتاب ليقرا السطور الأخيرة قبل الصفحة البيضاء، ليتعجب من المطلوب، ويغلق ويفتح الكتاب مجددًا،

لعل القدرَ يتغير، ومع ذلك يجد المكتوب ذاته، لم يمسه
التغير نهائياً.

سأل عبد القوي العاملَ الذي حدثه عن المصلحة، كم
عدد الموجودين، فعرف أنهم عشرة بالتمام والكمال، بعدها
سألهم جميعاً: "أبيننا من يعرف كيف يقود عربة النقل
الواقفة بالخارج تلك؟" رفع واحدٌ يديه، ليتأكد من أن الأمر
مدرّوسٌ ومكتوبٌ، فسأله مجدداً: "هل تعرف الطريق إلى أبي
حماد بمحافظة الشرقية؟" فهز رأسه السائق بالإيجاب، فأيقن
أن كل تفصيلية، من قبل خالق كل التفاصيل، صحيحةٌ ومرسومةٌ
ومدرّوسةٌ، وعليه البدء بتنفيذ مهمته الأخيرة، ليُقابل وجهَ ربه
الكريم غداً، ويشكره على حياته، التي لم تكن رائعةً، ولكنها
أصبحت كذلك، في هذا العام الغريب.

شرح لهم الخطة في وضوح تام: "سنضع كل ما نقدر عليه
من تلك العرائس الخشبية، في صندوق عربة النقل، ثم سنتجه
إلى محل ملابس، ونضعها في مخزنٍ موجود أسفله، وأتمنى ألا
يسألني أحدكم عن السبب، ورحمة الغالين لا أعرف شيئاً!"
خرج عاملٌ من بين العرائس، عرضَ عليهم البقاء قليلاً، إلى أن
ينتهي من تأمين المكان، والتأكد من عدم وجود أي شخص
يراقبهم. وافقوا جميعاً بمن فيهم عبد القوي، الذي حدث
نفسه بوجوب الانتباه لما يفعله، فهو لا يبحث عن نهايةٍ
ماساويةٍ لحياةٍ وسخةٍ مثل حياته.

عاد العامل وحثهم على البدء، ركض عبد القوي إلى خارج المسرح، خاف من صمت العالم، راعه المنظر المُخيف، قال في البداية إن المسرح موجودٌ بشارع جانبي، فطبيعي هذا الهدوء، لكنه تراجع عن فكرته، وقال: "الحياة على وشك الانتهاء عامة".

الوقت يمر، ورجال اللحظات الأخيرة يركضون من المخزن إلى العربة، ومن العربة إلى المخزن، كل واحدٍ يحمل في المرة الواحدة ما يفوق الخمس عرائس، إذا سقط منهم شيء تركوه، الثانية في موقفهم -حقًا وصدقًا- مُهمّة، وما بين فترات ركضهم يقف واحدٌ منهم، يرتاح وفي الوقت ذاته يُراقب هل لمحهم حارسٌ أو رسول خير، ثم يعود بعد ثانية أو اثنتين، ويساعد زملاء المُهمّة المجهولة، وكما تعود العمال، مع كل نقلةٍ تتعالى الأناشيد، هذا يشدو بكلمات، فيرد عليه الآخر، بعدها يُكمل الجملةً الثالثهم، فيرقص رابعهم بشكلٍ مُضحك وهو يركض، فيهلل خامسهم من داخل صندوق العربة، ويطلب سادسهم حاجةً لأَم كلثوم، فينتفض سابعهم ويبدأ: "أغداً ألقاك؟" ليرد عليه ثامنهم: "يا خوف قلبي من غدي"، ليُصحح تاسعهم لثامنهم، وهو يتنفس بسرعة: "يا خوف.. يا خوف فؤادي.. آه يا نفسي.. وليس قلبي.. يا مُغفل"، فيلومه الثامن: "وهل تفرق الآن؟ هذه آخر أغنية سنغنيها! المعنى واحد يا أخي!"

وقف عاشرهم مُصفاً لهم، نظر عبد القوي والبقية إليه، ليترك الجميع المُهمّة، ويرقصون على أنغام تصفيقه، وبدأ يغني أغنيةً من تأليفه: "فلترقص كالإسكندرائية والبورسعيدية، على

نغمات الحلوة السسمية، تعالوا معنا يا إسماعيلآوية، قولوا
للشمس الواقفة فوق، هذا القمر ليس القمر، لكنه أصلاً
مسروق، هذا القمر الظاهر لنا، هو رغيف خبز محروق،
يطلع من فرن حبيبتنا أم فاروق، وفاروق سافر للصحراء من
أجل العيش، وأهل الحارة كلهم شتموه يا شاويش، قالوا
كيف تسافر يا بن الكلب يا جاحد، وأمك تملك كل العيش
بإذن الواحد، تعالوا نرقص كأنها الرقصة الأخيرة، ونوزع بين
الأحباب لحماً وبيرة، أو نشرب من كأس الخمر ونشكر، ونتأمل
صورة يسوع ونُفكر، هل صلبه الخمر في ليلة أنس، أم طهره
من خطايا شر الجنس، فلنرقص يا زملاء النيكّة الأخيرة، هذه
المرأة فلققتها كبيرة، فلنرقص يا زملاء النيكّة الأخيرة، هذه المرأة
فردتها خطيرة!"

ضحكوا على مفرداته السافلة، وعرفوا منه أنه كان شاعراً،
حاول كثيراً نشر دواوينه، ولكن كل محاولاته فشلت، بسبب
غرابة ما يكتبه، والسبب الحقيقي، أنه كان بمفرده دائماً، يكره
جماعات الأدب والوسط الثقافي، لا يرتاح للمجاملات أو لحفلات
التوقيع، وكان يصيبه القياء إذا ما دعاه أحدهم لأمسية شعرية
في أماكنهم المعروفة، وحكى لهم عن شاعرة، نجحت في الحصول
على جائزة، بعدما مصت ذكور أعضاء لجنة التحكيم.

سرقهم عبد القوي من المتعة والحكايات، حين أخبرهم
بوجوب الرحيل، وامتلاء صندوق السيارة بعدد ممتاز من
العرائس، ليقف الجميع أمام السيارة، ويقول الشاعر: "هذه
نهاية رحلتنا معاً يا عبد القوي، عرفتُ منهم أن المكتوب هو

المُساعدة فقط، ستكمل طريقك مع السائق، بالمناسبة، اسمي كيرلس، والسائق اسمه محمود، وهؤلاء أحمد وأيمن وعماد وكريم وبولا وياسين وأدهم وحاتم، ربما نتقابل غداً، فيعرف بعضنا بعضاً، أو نذكر للرب أننا كنا على علاقة طيبة، فيدخلنا الملكوت جميعاً، لأننا صُحبة مُباركة، تستحق الخير، تستحق كل الخير، وشُكراً لكم على سماعكم لآخر قصيدة كتبتها، ولأنكم لم ترفضوا المحتوى، بل ضحكتم ومنكم من مدح شعري، هذه أفضل نهاية لشاعر يبحث عن التحقق، الآن أقول إن الجمهور أجبن، وإنني لستُ في حاجةٍ إلى التملق أو الكذب، مع السلامة يا أسطى محمود، مع السلامة يا عبد القوي، في رعاية سيد الرعاية والحنان والأرض".

طوال الطريق يُحدث عبد القوي نفسه بالغرض من مهمته، وكلام العم آدم، عن أصله ونسبه، عن حياته التي عاشها طويلاً، عن عقله الذي لا يفكر ويعرف الكثير، ثم بصق على يمينه وقال: "ملعون عم آدم وجنونه، أنا ابن الأسطى عبد القوي، وحياتي هي حياتي، الله يحرقك ويحرق اليوم الذي قابلتك فيه يا عم آدم".

وقف الأسطى محمود السائق، قبل المحل بمسافة، وقال لعبد القوي إن كتابه يخبره بضرورة دخوله بمفرده، وأن المهمة ستنتهي مع الشخص المرافق عند معرفة المكان المنشود فقط. ووعده بتوصيله إلى أي مكان يريده، حتى لو رجع من الشرقية إلى الأقصر، فشكره عبد القوي على نبيل أخلاقه، وأراد التأكد من كلامه، فوجده في كتابه، مع جملةٍ أخرى: "الاعتراف بكل

شيء، هو ما تبقى، سينتظرك البوح أمام المرسى، الذي هو صباح اليوم الأخير، ولا تقرب المسافة المنشودة، فتصيبك لعنة وتمشي ألف ألف عام، بلا هدفٍ أو مصلحةٍ، شكره عبد القوي مجدداً، وأخبره بأنه سيسرق أي سيارة بالخارج، ويعود بها هو، فخرج السائق وأقسم أن يُساعده هو في تشغيل أي سيارة يُريدها، فضحك عبد القوي وأشار إلى سيارة من طراز نيسان، كانت تقف بالقرب من المحل، ليكسر زجاجها السائق، وبعد معافرة معها دارت، وقال له بصوت عالٍ: "حظك حلو يا عبده، البنزين يكفيك للوصول إلى القاهرة، نلتقي أمام الله يا رجل يا طيب!"

غادرَ عبد القوي، بعدما ودع الأسطى محمود، ليكمل سلسلة الأسئلة، في أثناء القيادة، من طريق الإسماعيلية الصحراوي، إلى القاهرة، لم يُريكه غياب الناس جميعاً، كلهم في بيوتهم، يصلّون لخالقهم، ويطلبون منه الرحمة والغفران، إلا محمد عبد القوي، يمشي بمفرده، لم يشعر بأنه داخل سيارة، بل رأى نفسه كطفلٍ فقير، لا يعرف أباه ولا أمه، ينتظر حسنة أو فعل خيرٍ من شخصٍ ما، فتح كتابه والصفحة قبل الأخيرة، قرأ عنوان المرسى، وسأل نفسه: "مَن البوح الذي سأقابله؟ هل سيخبرني شخصٌ بكل ما أجهله؟ أم سأحدثه أنا عن نفسي وما أعرفه؟"

اليوم الأخير

محيي ابن طاهرة

أهل المدينة كلهم صاروا بلا ملامح.

صحا الناس على صراخ أحدهم، ومع كل باب يُفْتَح، تخرج الصرخة قبل صاحب الدار، لم تتمكن الحكومة من فهم ما حدث، رجال الدين قالوا: "طردنا الله من سلطانه!" صرخ رسول من رسل الخير: "هذه ليست القيامة!" رجال السياسة لم يتحدثوا، كانوا أسرع المتأثرين بمسح الحياة عنهم، كيف سيسمعهم شخص وتفاصيلهم مبهمه، لن يصدقهم أحد مطلقاً! كل أهل المدينة صاروا بلا ملامح، إلا هو، محيي ابن طاهرة، الذي وقف في الشارع، لا يفهم ما يدور، نسي كل شيء، الناس تجري هنا وهناك، الملامح تتساقط من عليهم، الصرخات

تعالى ثم تهدأ فجأة، وهو يقرأ الكتاب، الذي تلاشى في يديه كذرات ترابٍ مُسحَّت من فوق خوانٍ، تناثر الكتاب في الهواء، ثم تبع كتابه كتب الآخرين، تتطاير الصفحات، بعدها تتحول إلى قصاصاتٍ، ومن قصاصاتٍ إلى ذراتٍ، ومن ذراتٍ إلى الاختفاء الأبدي.

ما حدث لهم يؤنب ضميره، ومن بين دهشته كان يمشي سعيداً سعادةً الخليل إبراهيم حين أتاه أمر الكباش، أخيراً لن يبهت أحداً لرؤيته، لن يمجده مسيحي، لن تمسك عجوز بصليب وتقبله، لن يستغفر مسلمٌ، ولن يمزح معه آخر ويدعوه للإسلام!

أول ما سألته نفسه محيي: "إلى متى سيستمر وجودي بمفردي هكذا؟ هل ستقع عني معالم وجهي، مثلما حدث لهم، أم سأظل على هيئتي؟ أقداني الإنسان هذه المرة؟ هل قالوا كلهم لربهم خذ ملامحنا واترك ابن طاهرة؟ أم أن الله غضبَ عليهم، فتركني لأنني نسخة من المسيح، وعذبهم بما يستحقونه، بعدما خذلوا المسيح الذي حمل عنهم الخطايا؟ والسؤال الأهم، هل هذا هو اليوم الذي تحدث الناس عنه؟ إنها ليست القيامة. ما الذي يحدث بالضبط؟"

نظر محيي خلفه فوجد صليباً كبيراً عليه آثار دماء، ضحك وقال: "خرافات اليوم جعلتني أرى الصليب، هل صلبني أحدهم مثلاً؟ ولماذا أنا هنا أساساً؟"

لمح محيي بنتًا صغيرة، تقوم وتركض ناحيته، لم تكن البنْتُ في أحسن حالٍ، قالت له: "اسمها نعمة! لا تنسَ.. اسمها نعمة!" وركضتِ البنْتُ واختفتْ.. لاحظ محيي أن ملامحَ البنْتُ لم تقع كما يحدث للبقية، وأن الأطفالَ كلهم بخيرٍ، لم يمسهُم المحو، لكنهم يركضون فجأة دون أي مقدماتٍ، كأنهم يعرفون مكانًا سيذهبون إليه، حاول محيي الركض معهم، ففشل من المحاولة الأولى لما تفاجأ بسرعة الأطفال غير الطبيعية! الطفل الواحد منهم قد يسبق طائرةً ويعود إلى مكانه من جديد، قبل أن تتحرك هي!

صرخ محيي في غضبٍ: "ماذا يحدث يا رب؟ هل هذا يوم القيامة أم ماذا؟ وأين ذهبت الكتب! ماذا يحدث يا رب؟"

عامل الفخار

لم يُصدق مينا كلامَ العيل الذي جاء وأخبره بوجود أبيه أمام فرنه المعروف، وركض معه فرحًا، وحين وصل، شاهد طرف جليباب أبيه وهو يدخل الفرن، فعرف أنه إما يضع فخارًا بالداخل، أو يُخرج ما قد صنعه في عدد السويعات التي لم يعرف بوجوده هنا، فصعد إلى فوهة الفرن، وصاح به: "والمسيح الحي إذا لم تكن أبي، لكنني كرهتُ تصرفي معك! لا يصح يا أبا مينا أن تخرج من المشفى دون علمنا وتأتي إلى هنا، ثم تبدأ في العمل! يا فيليب، توقف عن العمل الآن، وتعال، قلبي مقبوض، أنت لا تعرف ما الذي سيحدث اليوم".

ضحك فيليب، وقال لابنه: "بسلامة أضطجع بل أيضًا أنام، لأنك أنت يا رب منفردًا في طمأنينة تسكنني.. انزل يا مينا، انزل يا بن أمك، تعال وساعدني"، حين نزل مينا، سمع فيليب صوت سقوط شيئين واصطدامهما، ظل واقفًا بلا حراك، قال فيليب في عصبية: "يا مينا، الجو هنا ليس ساحرًا كي نبقى طوال اليوم يا..". لكنه صرخَ لما وجدَ جسدًا فقط، لا ملامح، وجهه ممسوح، أمسكه وهزه لربما يتوقف عن هرجه، إذا كان هذا هرجًا!

لم يتحرك مينا وبقي مكانه، في ضعفٍ وخنوع، كأنه مسافرٌ يجهل أي بلدةٍ نزل إليها، مسح على رأسه، بحركة عصبية، يحك دماغه بسرعة كدليل عدم فهمٍ وخوفٍ، يمسك بيد أبيه في استسلام تام، القرن حولهما شديد السواد، وبين قطع الفخار يرى فيليب حمرةً، ونور الرب بالأعلى، يدخل من الفوهة العالية فوقهما، والسلم الخشبي الذي يساعد على الطلوع والنزول، بجانب مينا، سقط معه نصفين، همَّ فيليب بالصراخ، ولم يُطعه الصوت، فوضعَ يديه على رقبتَه، ثم حركهما إلى فمه، ليتراجع إلى الخلف، ويسند ظهره إلى الفخار من قوة الصدمة النفسية، لقد مُحييت ملامحه هو الآخر، بكى فيليب، وشعر بأن عينيه على وشك الخروج من مقليتهما، للمرة الأولى الحرارة تؤلمه، بدأ فيليب في الصلاة والدعاء، بصوتٍ بينه وبين نفسه: "أبانا الذي في السماوات، احمل عني الكأس إذا أمكن، يا يسوع، حمّل الله الذي يحمي الخطيئة من العالم، أنت تحب البشرية كثيرًا، بحيث إنك لا تتواضع فقط بتأنسك، بل أنت

الحمل الوديع، الذي يحمل جميع خطايانا، شكرًا على هبة تواضعك ورحمتك ومغفرتك، أبانا الذي في السماء، أنا خائف والطمأنينة والتحنان في يدك، التحنان في يدك يا يسوع، لقد غادرتُ المشفى، بعدما ساعدتني بيدك الرحيمة، وأخرجتني إلى العالم من جديد، قُل لي يا يسوع، ما الذي يحدث، أنا عبدُك الضعيف الآثم الجاهل بما يدور حوله!"

تأكد فيليب من أن مينا ما زال حيًا، ثم نظرَ إلى الفخار الموجود بالمكان، وخلفه رماد مخلوط برفات جثة، فابتسم لما تخلص أخيرًا من الباشا الذي ضاجع امرأته، وكانت هذه السيئة الوحيدة التي لم تشفع للباشا كي يرفض فيليب قتله، كما طلبَ منه!

لم يقتله فيليب لأنه كان ظالمًا، السبب وراء تحوله إلى قاتلٍ، ولكنه قتله بدافع الغيرة على زوجته سهرة، التي لطخت شرفه، وهذه جريمة، في حق فيليب مجيد، الرجل الذي يُحب المسيح ويهوذا في آنٍ واحد.

ابنة الشوارع

ظلت تتحدث إلى الرجل الغريب، الواقف أمام عربة نقل، الذي يُقسم لها إن المطلوبَ منه هو وضع كل العرائس الخشبية داخل المخزن، ونعمة تسبه وتقول له: "امش من هنا يا بن الوسخة! لقد فشخني التنظيف، وأنت تريد بكل هذه

السهولة أن تضع العرائس الخشبية، وتعيد الفوضى من جديد! امش أحسن لك وإلا سأقطع عضوك وأضعه على باب المحل!" جثا الرجل على ركبتيه وقبل يديها، بكى بحرقة، يتلثم في الكلام، وهي تأمره بالصمت، لصعوبة فهم ما يقوله، ولكرهما للإزعاج.

وفي وسط حربيهما القائمة، جاء الرجل العجوز مجدداً، وبكلمات لائمه أخبرها بأنه قال لها أمس في أثناء كلامهما -وغمز لها- عن مجيء هذا السائق ومساعدته في وضع العرائس بالمخزن، كآخر ما سيفعله طبقاً لأوامر الكتاب، فترجعت في تأففٍ، وأقسمت على عدم تنظيفه مرة أخرى، ولو نزلت السماء إلى الأرض.

شكرها السائق على تفهمها، وبدأ في وضع العرائس داخل المخزن، دون أي ترتيب، وبطريقة عشوائية، ما أثار غضب نعمة، لتركه عدة ركلات متلاحقة، بسبب عدم اهتمامه بمجهودها الذي بذلته في تنظيف هذا المخزن، فيتدخل الرجل العجوز، ويعددها بتنظيف المخزن بعدما ينتهي السائق من مهمته، ويغمز لها ثانية، ثم يضع يديه على قضيبه، فتبتعد نعمة عنهما، وهي تسب وتلعن كل صنف الرجال.

في أقل من ساعة كانت العرائس في مكانها، والسائق داخل سيارته، وقضيب العجوز بمؤخرة نعمة، التي صفعته وقالت له: "اسمعني! أنا لن أموت وأنا عذراء! ما رأيك أيها العجوز! تفتحني اليوم، وسأجعلك تقذف منيك في أي مكان، سواء هنا

أو بالخلف!" رقص العجوز تحتها من جمال ما عرضته عليه، ثم تراجع عن موقفه، لما لمح البقع الخضراء، ومنظرها الذي لا يسر الناظرين، وكيف تعامد عددٌ من البقع مع تفاصيل فرجها، فصار شكله بشعاً، يرفض الاقتراب منه كلبٌ جربان.

انتهى الرجل العجوز بسرعة من متعته الأخيرة، وعندما بدأت في إدخال ذكره إلى فرجها، تحجج بأنه يحتاج إلى الراحة، وعامل السن لا يسمح له بالكثير من الجنس في يومين، وظل مُستلقياً على الأرض، يعتذر لنعمة عن عدم الوفاء بوعده، ولكنه سيعطيها ما تريد من المال، لتوافق نعمة بلا أي تردد، وتقول لنفسها: "حتى لو كانت آخر خمسين جنيهاً، لن أتركها لابن القعبة هذا"، وبعدما نظفت مخزنَ محل ملابسٍ مجدداً، وقميصها الأبيض الملطخ بحيواناته المنوية، خرج العجوز المنتشي، البخيل في كل شيء، إلى محله وهي خلفه، فتح درج مكتبه، وأخرج ورقة لم تبينها، لأن عينيه سقطتا فجأة!

صرخ في فزع، صرخته مختلفة تماماً عن تلك التي أخرجها وحيواناته الصغيرة تهاجم فتحة مؤخرتها وقميصها، ثم وقع أنفه ولحقه فمه، وفي دقيقة تكوم بجانب المكتب، جسده يهتز بعنف، كأنه يبكي لموت أحدهم، قالت له: "الخمسون جنيهاً، موافق؟" بالطبع لن يرد إليها إجابةً، سحب ما طالته يمينها من المكتب، ورحلت عن الكتلة المشوهة، التي صارت مجهولةً.

في الخارج، يمينا ويسارا، الناس على الأرض، فوق الرصيف، ومنهم من وقف مكانه، الجميع بلا ملامح، أجساد مبهمة، ضعفٌ مُبهج، تضحك نعمة من قلبها، أخيرا رأتهم مذلولين مُهانين، تتمنى أن يكونَ الأمرُ حقيقيا، وليس حلمًا أو دعايةً سخيفة كسخفهم المزعج.

السيارات واقفة بمنتصف الطريق، الحافلات والدراجات البخارية، الحياة تعطلت كساعة قديمة، تصرخ نعمة فيهم: "يا أولاد الكلب، هذه نهايتكم لما فعلتموه بي، من هذه اللحظة لن أضع المرهم الذي وصفه لي طبيب الجلدية، واصفا استخدامَه لتهدئة البقع، نعمة ستحرر من ملابسها، وحجابها، وكل ما يخفيني عن أعينكم، يا أولاد الكلب، أنا عارية بينكم، أنا الوحيدة الكاملة الآن وكلكم ناقصون!"

تجري وسطهم وترقص، أجسادهم تتساقط من حولها، الناس يصرخون حُزنًا وهماً، ونعمة تصرخ من الفرحة، الأجساد تهتز خوفاً، ونعمة جسدها يهتز رقصاً، تنظر إلى ضعفهم، تمسك برجلٍ ممسوح الملامح، تصفحه وتلكمه وتشد عضوه، والمسكين لا يقدر عليها، ركلته بين خصيتيه فسقط أرضاً في صمت تام، ثم شاهدت امرأة تمسك بقدميها لتساعدها، فتدوس على رأسها بكامل قوتها، وتسبها على طلب المساعدة منها، تطوف نعمة حول الأجساد والجثامين، تضع رأس شخص في مؤخرتها، ثم تضع رأس آخر على فرجها، أمسكت بواحد يظهر من لبسه أنه من رسل الخير، وركضت به بأسرع ما يمكن، إلى أقرب

حائط، لئسعدھا صوت ارتطام الجلد بالحجر، ويسيل الدم من رأسه، ويقع أرضاً.

إذا كان عدلاً ما حدث، إذا كان انتقاماً سماوياً، أو تصحيح خطأ إلهي، أو اعتذاراً رسمياً من صاحب العرش عما عانته نعمة منذ سنوات، فمن ملامحها ومعالم فرحتها، هي موافقة وتقبلت رد الكرامة، كرامة بنت مسكينة، وجسد تستعمره بقع خضراء، جعلت البشر يلقبونها بنعمة النتنه، مع أن البقع لا رائحة لها، ولم تضر أحداً.

وجهت نعمة كلاتها إلى السماء: "ربما هو اليوم الذي تحدثوا عنه في كل مناسبة، أنا لا أعرف معالم يوم القيامة، ولكنني سعيدة جداً بهذا الضعف، وأتمنى أن تدوم عليهم نعمة الضعف وعدم المقاومة والذل!"

تركض نعمة هنا وهناك، تشعر بوجود عم سند وماري بجانبها، يرقصون كلهم فوق أجساد البشر، ونعمة تصرخ: "يا سلام يا نعمة، الحرية أخيراً، والموت والذل لهم! موتوا يا أولاد الوسخة!"

عامل الدوكو

أمام مرسى المراكب، الموجود في ميدان التحرير، المعروف لكل المشائين والواقفين، يستند عبد القوي إلى السور الذي يعتليه الأحاباب والأشخاص كارهو الحب في الآن ذاته، ويجيء كل

واحد منهم ليشاهد الحبيين ويعكر صفو جلستهما في معظم الأحيان، لأنه حاقّد، وفي أحيانٍ أخرى بسبب فراغ حياته من أي دور يُفيد نفسه قبل المُجتمع.

تفاصيل سيرة عبد القوي تسير مع ماء النهر، بدايةً من المهنة المملة التي لا يعرف غيرها، وتوارثها عن أبيه، مهنة من لا مهنة له، ثم يتذكر كلام العم آدم، ويبدأ في سؤال النهر: "من أنا؟" فيجيبه النهر بمركبٍ يتهادى فوق سطحه، ويمر في بطءٍ رتيب، إلى أن شعر بيدٍ تهز كتفه، ليلتفت ويجدها منة، واقفةً بشحمها ولحمها الموجودين في مناطق معينة فقط، ودون أي تقدميةٍ تليق بالموقف، أو بالوصول والمقابلة بعد مدة طويلة، أخبرته بأنها حجزت قاربًا صغيرًا، من رجلٍ أراد فعلَ الخير، في اليوم الأخير، وعبد القوي لم يعترض، مشى معها بكامل إرادته، وبعد التحية والسلام، قال المراكبي: "حبل هذا القارب طويلٌ جدًا، سأترك القارب يحرك النهر، ولن يبتعد بكما كثيرًا، لن أركب معكما طبعًا، هذه آخر مُحادثة بينكما".

بعد ابتعاد القارب بمسافةٍ جيدة، طلبَ عبد القوي من منة أن يقول لها كل شيءٍ دون أدنى مُقاطعةٍ لكلامه، ومن ثم تستطيع هي الكلام، وذلك لانتهاء الوقت، وعدم معرفة متى تحديدًا ستقوم القيامة، الناس كلهم في انتظار الحدث الأكبر والأهم، إما داخل بيوتهم ساجدين، وإما في المساجد والكنائس بالبكاء والحسرة.

أسرع من قطار، حكى قصة حياته، المهنة وكلام عم آدم وأبوه، السبب وراء فسخ خطبته منها، تذبذب قراراته، عقله كاره التفكير، الذي يعرف الكثير ظاهرياً فقط، عدم شعوره بالندم على ما فعله معها، جهله بالسبب من وراء المواجهة، العرائس والمخزن، الفكرة التي جاءت ولم يسع لتنفيذها، ولما سألته عن أي فكرة يتحدث، ذكرها بالشهور المفروض إضافتها إلى عُمر الإنسان، ثم كلام عم آدم مجدداً.

سكت بعدها، ففهمت أن دورها قد حان، فقالت ما جاء ثم أخرجه من عباءة الكتمان: "كلنا في الشارع كنا نعرف يا محمد، لقد ظهرت من العدم، وجدك الحاج عبد القوي أمام باب دكانه، كلام العم آدم صحيح، والحقيقة يا محمد، أنت من قال في أحلامه أحبك يا عبد القوي يا أبي العزيز، والحاج لم يرزقه الله بالأطفال، فقال أنت ابني، ومن يومها والناس يعاملونك -بأمر منه- على أنك ابنه الوحيد، الذي كبر معه، وعاش ليحمل اسمه من بعده، وكان الحاج عبد القوي عاشقاً للحكايات، لذلك كلما كنت تسأله عن شيء يخص طفولتك، عرف كيف يزرعه في عقلك، بصور لأطفال لن تُقابلهم في حياتك، صور رخيصة من محل تصوير مجهول، لتقتنع أنه أنت في مراحل عمرية مختلفة".

أقسمت منة بالمصحف الشريف على كل الأيام التي بكث فيها وكانت ستبوح له بالسر، لولا وعد جميع من في المنطقة للحاج عبد القوي الرجل الطيب، الذي لم يؤذ أحداً طوال عمره، وتأكيدهم له على أن سره في بث، وأضافت وهي على

وشك البُكاء: "أنا حظي عامةً مثل خراء الكلب، أحببتُ الرجل الوحيد الذي يجهل الكل أصله وفصله، ولكنني أقسمتُ بيني وبين نفسي على أنني لن أخذل الحاج عبد القوي، على الرغم من عدم معرفته بقصة الحب التي بين.. آسفة يا محمد، قصة الحب التي كانت بيننا، ولكن الوعد وعد!

المنطقة كلها صدقت المعجزة التي حدثت، بعدما أقسم الحاج عبد القوي أنه لما رآك للمرة الأولى كنتَ عجوزًا، ولما نظفك وحلق لك شعرك ولحيتك، رجعتَ شابًا، بلامح جميلة، كملامحك يا عبد القوي"، الصدمات تتوالى، وعبد القوي لا يتكلم، ينظر إلى منة، وعيناه تائهتان، يحركهما بسرعة، كأنه يبحث في وجهها عن أي مظهرٍ من مظاهر الكذب، قبل أن تقول له منة: "والشيء الأخير الذي أود قوله لأموت وأنا مرتاحة، أنا كنتُ سعيدةً بفسخ علاقتنا يا محمد، حاولتُ في البداية الحفاظ عليك، وعندما وجدتك مصممًا، عرفتُ أنها إشارة من الله ليُبعد عنك عاهرةٌ مثلي، نعم يا محمد عاهرة، الحقيقة صاحب المحل الذي أعمل لديه، زنقني وركبني أكثر من عدد مرات شروق الشمس وغروبها على منطقة السيدة زينب، والصراحة كنتُ محتاجةً إلى مال تلك المداعبات، نعم يا محمد أكثر من ألف مرة، والرجل يضع قضيبه في فمي، ويجبرني على ابتلاع قذفه، أو وضع ذكره في فتحة مؤخرتي، إلى أن أصرخ من الوجع، وأطالبه بإخراجه، وبحثتُ كثيرًا عن طريقٍ قد تُعيد فتحتي إلى سابق عهدها، وتنظيف المنطقة من سوادها، بسبب الاحمرار والالتهابات الناتجة عن المضاجعة، فعندما

تهدأ تتحول إلى سوادٍ، فيعرف العالم بالأمور أن هذه الأنثى قد ركبها ذكرٌ يعشق الجنسَ الخلفي، إلى أن لفظته مؤخرتها إلى غير رجعة".

كثرة بُكاء منة دفعت عبد القوي إلى احتضانها، وهو مُشتتٌ بين نكران فعلتها، وجهله بحقيقة أصله، يربت على كتفها، ثم بدأ يشعر بيديها تنزلان بصدفةٍ عجيبة فوق قضيبه، فلا يتحرك ولا يطلب منها رفعهما، بل يرفع هو وجهها ويشرع في تقبيلها، ليصرخ لما وجد شفيتها تسقطان أرضاً، فيقوم ويرجع متأرجحاً، ليسقط إلى ماء النهر، التي لم تمنع استضافة رجل بلا هوية، رجل ينازع الموتَ، ليعرف من هو، وهل يستحق هذه النهاية، أم هناك قصة ستُحكى.

آخر ما شاهده عبد القوي، قبل سقوطه في النهر، كانت ذرات الكتب المتطايرة، ثم سقطت ملامحه كلها، وكان آخر ما قاله: "هل هكذا ستكون القيامة يا رب؟"

العجيب في الحكاية، أن شخصاً عادياً مثل عبد القوي، تحفه نهاية غير عادية، خاصة أنه ابن الأشياء العادية، السجائر المحلية، عصير "جهينة" الرخيص، المقهى الشعبي، الفطائر الشرقية، الأماكن التي يذهب إليها الجميع، عبد القوي ابن الانتشار، حتى منة، التي كانت خطيبته، كانت تضع الهاتف فوق خدها الأيمن، وتسنده بحجابها، هذا المخبأ السري، وضعت به تذاكر السفر والأنفاق ومראהً صغيرة، لتأكد من رسمة حاجبيها! لم يعرفه التفرد يوماً، يستقبحه الاختلاف، وحين

يأتيه ملك الموت في أثناء رحلته النهرية التي ينتظر مقابلة نهايتها، سيندهش من روتينية حياته السابقة، سيستفسر: "إذا طلبتُ من الجبار أن يمد في عمرك، هل ستتغير؟" سيجيبه حينها، ولا يعرف كيف دون فم أو حتى أذن تسمع: "سأتعرف على أشياء عادية جديدة، لن أصير مميزاً أبداً".

العامة وصاحب الأمر

الناس كلهم صاروا بلا ملامح، وكل الأطفال ركضوا بطريقة عجيبة، وسوادٌ عجيب طفق بالسماء، ولم يهتم واحدٌ بالنظر إلى أعلى، لما يمر به كل مُصابٍ حالئاً، ولأن الغالبية العظمى صارت بلا أعين، صفحاتُ الكتب تناثرت في الهواء بعدما أدت مهمتها، ورجعت إلى خالقها، دون تفصيلةٍ زيادةٍ أو سطر ناقص، السؤال العام، الذي ظهر في أدمغة الناس، كنبئٍ طلع لهم برسالةٍ سماوية: "هل هذا يوم القيامة؟ لم نخبرنا أي ديانةٍ بمحو الملامح!"

المشهد العام واضح، الركض بصورة هستيرية، البكاء للجميع، الأطفال إلى مصيرٍ مجهول، الضعفُ يسود، الخنوع يضحك على أشكالهم، خليفة الله على الأرض يجلس في صمتٍ تام، يسأل نفسه في الثانية الواحدة ألف سؤال، كل مشاعره الإنسانية، التي تباهي بها دومًا، وتفاخر بوجوده في قمة السلسلة، وأنه الجنس الأسمى، صار الآن مثله مثل أحقر خراء كلب، الكل يمر بجانبه، يبصق عليه أو يتأفف من رائحته، الفارق الوحيد

في موقفه، لن يمر بجانبه من يبصق أو يتأفف، لأن من كان يفعلها منعه محتته، الإنسان بات ممسوحًا، الإنسان صار فعلاً عديم الفائدة، حتى قدرته على التعبير، فقدتها في لحظة! كان يصرخ ويضحك ويأكل ويشرب، يدعو ويتكلم ويشعر ويُعبّر، وحاليًا، هو كتلة من جلد، تقف في مكانها، تنتظر من يحملها، أو يُشكلها.

في حركة خاطفة، ومع ابتعاد مناسبٍ عن المشهد العام، ندخل من نافذة قصرٍ، موجود ضمن قصور صلاح سالم، ومن زاوية مختفية، في ركن غرفة أنيقة، تليق بمقام صاحبها، نرى صاحب الأمر جالسًا، لا يُصدق ما يدور حوله، سواء داخل القصر أو خارجه، يهاتف كل رجاله، لا يرد أحد، أو يرفع السماعه أحدهم فيصرخ ثم يحل الصمت، ليغلق صاحب الأمر الخط ويبحث عن حلول أخرى قد تُفيده في محتته وربما تُخرجه منها، لاعتقاده بأن لقب "آخر زعماء الوطن" شيء يستحق نوعًا من التكريم، أو أضعف الإيمان، هو تأخير تعرضه للمصيبة، لأنه زعيم عادل مثلاً.

رأى فمه وهو يسقط، حاول بيأس بشري أن يُعيده إلى مكانه فسقط مجددًا، ثم تبعه الأنف، وتوقف الزمان حوله لما رأى رجلًا يمشي داخل غرفته، بكامل حرите، يتأمل عيشة الثراء التي كان يتمتع بها صاحب الأمر، حتى توقف العجوز عن المشاهدة، واقترب منه لُيُسمعه آخر كلمات: "لم أظهر لكم، ولم يُفكر واحدكم في الموضوع على نحو صحيح، أين شكوك حول عدم ظهوري؟ ألم ينتظري الناس كثيرًا؟ ألم يلصقوا الانتظار

باسمي؟ يا صاحب الأمر، أنت لستَ الحاكم الأخير للوطن، هنالك لقبٌ أعظم ينتظرك، الحاكم الأخير لجنته، تخيل يا صديقي؟ الوطن باقٍ، وأنتم إلى زوال! كل يوم كنتُ أصلي من أجلكم، ولكن الأمر لن يتوقف مهما حدث، سألقاتم يوم يؤذن لي.. قُل لي، أين القِيلة؟ أريد أن ألحقَ الظهر".

آخر ما رآه صاحبُ الأمر، كان الرجل المجهول وسجادة الصلاة، بعدها غاب في عالم المحو، صاحب الأمر لم يجد تكريماً مناسباً يليق بما قدمه من خدماتٍ لصحائف الشعب، ولن يجد من يكتب عنه ويمجده، صاحبُ الأمر أصبح أضعف من المواطن الضعيف، لا يملك جيشاً من الإعلام، لا يحاوطه سفراء الآراء والتعريض، صاحبُ الأمر صار وحيداً، وللأمانة ليس مقبوراً أو يُحاسب، بل صار وحيداً فوق الأرض، على نحو عادي جدّاً، وليس وحيداً وحدة المنبوذ أو وحدة كاره الحياة، وحدة المختلف أو وحدة المكتئب، وحدة بكامل إرادته أو وحدة الباحث عن شريك حياة، صار وحيداً بأمرٍ من السماء، مثله مثل الملايين بل المليارات، يهتز في عنفي، يقوم ويقع، يضرب الفراغ أمامه في إحباطٍ بشع.

نسي أماكن الأشياء، نسي أن هنا كان سريره، وفي تلك الزاوية كرسيه المفضل للقراءة، وعلى مقربةٍ منه المنضدة الصغيرة، الحاملة في حزنٍ تام لمجموعة غيبةٍ من الكتب والرسائل، وطلبات العمل والتوصيات، نسي كل شيء، وسأل سؤالاً واحداً فقط: "هل أنا فعلاً حاكم الوطن الأخير أم أنني مجرد حاكم جاء للوطن، وبعدها -وفي حالته تحديداً- سيُنسى؟ لن يذكر

التاريخ شيئاً عنه، لن يدون شخصٌ واحدٌ ساذجٌ أو غبي عن إنجازات مُزيفة، أو عن حلولٍ كانت مُقدمة من قبل، ولم ينفذها الحاكم السابق، لن يمدحه شخصٌ يأمل في وظيفة، سيموت صاحبُ الأمر، وهذه المرة الوحيدة التي لن يكتب فيها المُنتصر التاريخ، ولن يكتبه الذكي أو اللئيم، سيموت صاحبُ الأمر، لا من الخوف بل من النسيان، سيقتله التجاهل الأبدى، سيقتله سقوطه من فعل التاريخ، سيلتهمه على مهلٍ وحش الخيبة، سيضعه في إبريق، ويصنع منه كوبَ شاي، ليشربه مع الحسرة والندم، ويحكى لهما عن نكهة شايه، نكهة بطعم حاكمٍ، أقنعوه في أواخر حكمه بأن الرب سيعد له احتفالاً خاصاً على شرف ولايته الأخيرة للبلاد.

كل ذكريات صاحب الأمر ماتت، خططه واستعائته برجاله للتوصل إلى حلول تُخفض من جبال السيئات، وتضيف إلى سطح الحسنات ما قد يحوله إلى هضبةٍ أو مرتفعٍ على الأقل، فيعرف كيف يقف بين الناس مختالاً فخوراً بما صنعه، ليضمن لشعبه الجنة، وليضمن لنفسه جنتين، أو كرسيًا بجانب عرش الرحمن، فيتباهى به الله، ويقول لخلقه: "انظروا! هذا الرجل كان حاكمًا عادلاً!" ضحك صاحبُ الأمر بينه وبين نفسه، وهو يقول بصوتٍ لا يسمعه سواه: "الحاكم الأخير للبلاد".

أيام الدهشة الثانية

محيي بن طاهرة

سمعتها بصوتٍ جلل، سمعتُ نعمة التي دفعتني، كي أسقط في الماء، وأموت بعقدةٍ خوفي، وأموت غرقًا بسبب غضبها: "محيي يمشي على النهر! أها! محيي يمشي على النهر!" حين لمسني ماء النهر، شعرتُ بومضةٍ تضريني، رأيتُ أكثر من ألفي عام، رأيتُ نفسي صغيرًا، يمسك بالطين ويُسكِّله على هيئة عصافير، ثم ينفخ فيها لتطير، ويصفق الأطفال، وتصفق معهم الدهشة، من لذة المعجزات.

رأيتُ نفسي بجانب رجلٍ عجوز، أعرفه جيدًا، يوسف النجار، يصنع منضدةً، ولما ذهب ليحضر الخشب ورجع، اكتشف بعدما قطعه وهذبه أن لوحًا أطول من الآخر، فأمرتُ

اللوحي القصير بمجاراة أخيه في الطول والسلك، فشكرني يوسف النجار على مُساعدتي بنظرة كلها فخر، وبكلمات كلها دعم، وطلبَ مني وقفها التوقف عن قتل من يضايقني من زملاء العلم، فقد أخبره مُعلمي بوفاة طفلٍ بمرضٍ خبيث، أصابه فجأة، وقال له التلاميذ وقتها: "هو من فعلها، قال له أكرهك وأنمى أن يُصيبك مرضٌ لا تقدر عليه وتموت فوراً!"

في لحظة نورانية فُتِحَت السماءُ من فوقِي، ورأيتُ كل شيءٍ كما تعودتُ أن أراه، وفي لحظة صدقٍ، وإيمانٍ بما يحمله قلبي وصدري، مشيتُ على سطح الماء، وشاهدتُ خيالاتٍ لي ولشخصٍ، يقول يا رب نجني، فظهرتُ له وقلتُ: "يا قليل الإيمان، لماذا شككتُ؟" كان بطرس الرسول، آه يا بطرس، يا سمعان ابن يونا، أنا من سمّاك "بطرس"، كنتُ تلميذاً ليوحنا المعمدان، وجئتُني معه، ورأيتُ نورَ الرب في قلبك، قَبِلْتُكَ كتلميذٍ، ثم جعلتُك رفيقاً يلازمُني باستمرارٍ، وفي النهاية، سمعتُ صوتَ الأب يقول لي: "بطرس الرسول"، فمنحتُك شرفَ الرسولية.

أمشي على الماء، أشعر بوجود العالم على يميني، وبقعود بشره على يساري، أرى وجوهَ العائدين إلى الحياة، بأمرٍ مني، أرى ابتساماتِ الشفاء، بأمرٍ مني، أرى البناتِ التي اتهموها في شرفها، وحين دافعتُ عنها، وقلتُ لهم: "من كان منكم بلا ذنبٍ، فليرمها بحجرٍ".

أسمع دروسي وتعاليمي، أرى الحواريين، ثم فجأةً ملحتُ أُمي، المباركة بين النساء، نور السماء والأرض، أُمي التي عرفتُ

أنها مصدرَ النور الكوني، مريم العذراء، الحُزن المؤقت الذي زارني، عند موتها، والسعادة الأبدية التي وزعتها بين الناس لما صعدت إلى السماء، أذكر وقتها يا مريم، حين أرسلتُ ملاكًا، ليزف إليك خبرَ انتقالكِ إلى الأمجاد السماوية، وعندما طلبتِ مني جمع الرسل كلهم، وفعلتُ ما تمنيتِ يا روح قلبي، وجاء كل رسولٍ إلى الجسمانية، في الوقت ذاته بمعجزةٍ إلهية، بعدما كانوا في دولٍ مُتفرقة، يكرزون بالإنجيل وينشرون تعاليمي.

الجميع انتظرنِي، إلى أن جئتُ محمولاً على مركبةٍ شاروبيمية، وجالساً على العرش الإلهي، حولي الملائكة ومعهم آدم وحواء، وصاحب المزامير العذب داوود النبي، مجيئنا كان بدايةً نهاية وجودك في هذا العالم الزائل، رأينا روحك الطاهرة وهي تصعد إلى السماء، وقال داوود النبي: "كريم في عيني الرب موت قديسيه"، وعندما حملك الرسل فوق أعناقهم، ومشوا بصندوق جسدك المقدس، لندفنك في حقل يهوشافاط بجبل الزيتون، هاجمهم اليهود الأشرار، وضربتهم أنا بالعمى، إلا هذا النجس الذي وصل إلى التابوت، واعتدى عليه، ففصلتُ يديه عن جسمه، وبقيتا ملتصقتين بالتابوت، وظل هو يبكي ويطلب مني الرحمة، سألتُ نفسي يا مريم، وأنا أنظر في أمره، وهل أرحمه أم أجعله عبرةً: "من أين لهم بكل تلك الواقعة؟ لماذا رفضوا تعاليم ابن الإنسان والمُعلم الوحيد؟"

وها أنا يا مريم، لقد عاد يسوع، ابن الإنسان، ابن الله، الكائن في صورة الله، المُخلص، المُعلم الوحيد، نور العالم، القدوس البار، رب السبت، واهب الحياة الأبدية، الفادي،

آدم الثاني، ملك الملوك، الكاهن الأعظم، حجر الزاوية، الراعي الصالح، رجعتُ بأمرٍ من أبي، من إلهي العظيم، سأنفذ كل ما يطلبه، دون أي استفسارٍ عن مشيئة الرب، ولن يمنعني هؤلاء، عاشقو الخطايا، هؤلاء من أعطيتهم فرصةً وفديتهم بحياتي، ليعيشوا بمعنى التضحية، وفي النهاية ها هم يا سيدة السماء والأرض، الإنسان الغارق في الخطايا، ويطلب الرحمة مساءً، ثم يعود إلى خطيته نهارًا، كان الرب طفلًا صغير، سيسامحه في كل مرة ويصدق توبته.

نعمة والمسيح

يا سواد نهارك وأيامك يا نعمة! محيي الذي تُحبينه غرق، وظهر المسيح! يا سواد نهارك ونهايتك يا نعمة! يا سواد نهارك وأيامك، ونهايتك وحياتك كلها يا نعمة! يا رب أنا تعبثُ من كثرة الصدمات! لماذا يظهر لي المسيح؟ هل محيي كان وليًا من الأولياء الصالحين؟ هل سيقسمني المسيح نعمتين؟ وكل نعمةٍ مني تركض، إلى أن تجد أوسخ بنزين، وتحرق جسدها ابن الهرمة! يا سواد السواد، والنهاية بنت الوسخة!

في عز حُزني، طلع محيي -أقصد المسيح- ووقف قدامي، يتسم في حنان، جسده أضخم من محيي، رجلٌ مصنوعٌ من ثقة، يلبس عباءةً بيضاء، نوره يُغطي على كل شيء، تُحيط برأسه هالةٌ من نور تقريبًا، يقف في الهواء، يا خراب الدنيا وعمرك يا نعمة، المسيح سينتقم من أجل المسكين الذي

كنتُ أتلذذ بمضاجعته، وقتلته بعدما رميته بالماء! لماذا يا رب أرسلت المسيح ليقتلني؟ عرفتُ أنني مُباركة، ولكن ليس إلى الدرجة التي تجعلك تُعاملني بهذه الطريقة، وتضع نبياً أو رسولاً أو مهما يكن أمامي ليُعاقبني على فعلتي! أنا أعرف عنه معلومات خفيفة، من شكل الصليبان وصورته التي كانت في بيوت ومجلات المسيحيين الذين ضاجعوني، ومن محيي نفسه، الذي قال لي على مشكلته، والشبه بينه وبين المسيح، يا رب وحياء أغلى حاجة لديك، يا أجده رب في الدنيا كلها، أنقذني!

يا ساتر يا رب، المسيح يقترب مني، كيف يسير في الهواء هكذا؟ عارف يا رب، هذه المرة الأولى التي أعرف فيها طعم الخوف! الصراحة، المسيح هيبَةٌ تربكني، وتجعلني أبحث عن مخرج، ولكن أين؟ إذا خرجتُ من هذه المحنة، سأحاول أن أثبت للمسيح أنني لستُ سيئة إلى هذا الحد. يا حلاوة نهاية أيامك يا نعمة! تُقابلين المسيح بهذه البساطة! وقف المسيح قدامي، وقال بصوت هادئ لا يُشبه صوتَ محيي تمامًا: "نعمة المباركة.. يا سلام يا نعمة، كم تمنيتُ مُقابلتك، سمعتُ عنك الكثير، وعن شجاعتك واختلافك، إلهي أوحى إليّ بالاستفادة من قدراتك"، كيف يقول جملتي نفسها؟ أنا فقط من يقول يا سلام يا نعمة!

نزل إلى أرض السطح، ومشى إلى أن تقابلنا، جسده طويل جداً، ما أجمل ملامحه، وما أجمل الراحة النفسية في وجوده، وما.. أين البقع؟ هل تختفي البقع إذا ظهر المسيح؟ لماذا لم تظهر من زمان؟

"اسمعيني يا نعمة يا مُباركة، هوني على نفسك، بالحق أنطق وللحق أقول، كنتُ تائهاً كحملٍ حادٍ عن مسيرة قطيعه، كنتُ بذاكرةٍ أخرى، وبجسدٍ إنساني، وبمعجزة ربانية أمره بأن يحتمل هالةً وكيونةً المسيح، محيي المسكين الضعيف، لم يكن موجوداً، جسده خلقه أبي، وجعلني إنساناً وليس ابنَ الإنسان، تجربتي مع البشر غريبة، خطاياكم ومشاعركم، كيف يريد الإنسان المملوك وهو غارق في بحر الخطيئة، يمسكه الذنب من رقبتِه، ويهدده بالموت إذا لم يفعلْه، فيقوم به الإنسان، ثم يطلب التبرك بي، أو بغيري، من أجل مغفرة ومسح خطايا، وبمناسبة الخطايا يا نعمة، كل خطايا علاقتكما، أنتِ ومحبيي المسكين، عفوتُ عنها، كيف أحاسبُكِ على خطايا مع بشري ليس موجوداً؟ كيف أحاسبُكِ وأنتِ الضحية؟ نعم يا نعمة، ضحية المجتمع الظالم، العاشق للتنمر، العاشق للذنوب ولتعذيب الضعفاء، العاشق للتكبر على من خلقهم الله بصفاتٍ خاصة، ولم يخلقهم مثلهم، بصورتهم التي يرونها أعظم الصور! أنا أعتذر لك يا نعمة، عن كل يومٍ شرعت فيه بالحزن والألم، وها أنا أطبب على قلبك، وأمسخ عنه الحزن كله، والآن يا مُباركة في السماء قبل الأرض، استخدمي حاسة التتبع، واجلسي لي كل العرائس الخشب من المخزن، أنا أعرف أين هي، ولكنني أثبتُ لك كيف أنك مُباركة، وسترين بنفسكِ حين تعودين إليّ، من أجل الهدف الأسمى، المخلوقة أنتِ من أجله، يا مُباركة في السماء والأرض، وسأرسل معكِ ملكاً، ستخبرينه بالمكان، وهو سيضرب الأرض والحائط، وسيجلب العرائس، لا تُجهدي نفسك

بحمل الأشياء، لا يتعب من يحبه المسيح، وأنا أحبكِ يا نعمة
يا مُباركة".

عبد القوي والمسيح

تركنتي الأنثى العجيبة مع شيءٍ أعجب، جهاز أو آلة مثلاً،
وعادات الحال كما كانت، أتمنى أن ينقذني الله أو شبح العم
آدم من تلك الوحدة البائسة، أو يرجع الوحي ويتحدث إليّ
عن معلومات لا أعرفها، عن من أنا؟ وعن ذكريات طفولتي
وشبابي، وقد يُفسر لي أحلامي العجيبة، عن الصغير الذي أقتله
في كل مرة، وقد... هل... هل يتحرك جسدي دون إرادتي؟ هل أنا
طائرٌ في الهواء؟ ماذا يحدث يا رب؟ جسدي يهتز ويتحرك، وأنا
عاجزٌ عن تفسير ما يجري!

بعد فترة مجهولة، كعادة رحلتي منذ المُصيبة، أشعر باستقرارٍ
مألوف، كتلة جسمي مُستقرة، على سطحٍ أعرفه، أو كنتُ أعرفه،
التوازن العادي، الإحساس بمدخلات الحياة الإنسانية، المعادلة
المحسوبة نسبياً، جسدٌ في حيزٍ مُخصص له، يجاريه في حركته وفي
وجوده عامةً، الأمر لم يعد كما كان، عضلات الجسد في انتكاسةٍ،
بطريقةٍ غريبةٍ وغامضةٍ، بدأتُ حاسة الشعور ترجع إليّ، وهذه
المرة أشعر بأنني لستُ أنا، الجسد باتٌ قديماً، وحكمة غريبة،
بل حركات مُتفرقة غريبة، في مُحيط وجهي وتحديداً ذقني،
هل تنبت لي لحية؟ هذا شعور مخيف! هل توقف الوقت
طوال المحنة؟ ونحن على وشك الرجوع إلى المعروف، ولأننا لم

نحسب التوقيت، سنعود -وبحسبة بسيطة- طبقاً للعمر الذي يفترض أن نكونه؟

تثقل حركة جسدي، يغادرنى الشباب وتهجرني الحيوية، أنا أسمع من يناديني؟ انتظرنى لا تغادر أرجوك، من المؤكد أن المحنة تنتهي، انظر! أنفى أيضاً عاد، وفمي أشعر بشفتي، أصرخ لمن يناديني: "أنا هنا! أنا أتكلم! سبحانك يا رب أنا أتكلم وأسمع! انتظرنى يا من تنادينى"، أبكي من شدة فرحتي بعودة كباني الطبيعى إلى حالته الطبيعية، أسقط أرضاً وأبكي من جمال المعجزة، وفي سياق غير حكايتي، سيعود النظر إلى فاقده، سيعود طبيعياً، ويرى أمامه الأشياء، بألوانها وبهيئتها، أما أنا، فقد عاد النظر إليّ، وأرى أنني فوق سطح بناءة أعتقد، ولا وجود لأي فواصل، ومن الواضح أن الطرق اختفت، والأكثر وضوحاً أنني أقف أمام شخص هائم في الهواء بطريقة غريبة، ويُشبه سيدنا المسيح عليه السلام، إذًا، أنا ميت أو هذه القيامة وقد جاء المسيح، وبعثني الله عجوزاً، والبقية ستأتي هي الأخرى بهذا العمر.

خرجت كلمات من فمه، الحياة تعود إلى سابق عهدها، إلى المعطيات التي تربينا كبشر عليها، شخص يتكلم وشخص يسمع، شخص لديه ملامح، وشخص آخر لديه ملامح مختلفة، مناقشة بين شخصين، الشيء العادي الروتيني المعروف، الذي اختفى بقدرة قادر، وعاد بعد فترة نجهلها: "ممشئة الرب محو، وممشئة الرب نهدم، وممشئة الرب نُحيي، وممشئة الرب نُعيد إليك ذاكرتك، كلام الحياة الأبدية عندي، باسم الأب

والروح القدس، أنت إيسع بن أخطوب، الذي لُقِّب في عهودٍ مختلفة بالكثير والكثير، من ضمنهم الخضر الشريف، أنت نبي يا إيسع، مشيِّتٌ مثلي على الماء، وأحييتُ الموتى، وبرأتُ الأكمة والأبرص، وكنتُ مع النبي موسى يا إيسع، بمشيئة الرب تذكر سيرتك، وتذكر تعاليمك على يد إيليا، مُبجل أنت في كل الدهور".

حياةٌ كاملة مُسح، حياةٌ كاملة أخرى تومض فجأة، ولادتي وحياتي، طفولتي وتربيتي، تعاليم إيليا، يوم جاءني الوحي، يوم صرْتُ نبيًا، بعد موت إيليا، أدعو الناس إلى الله، مُستمسكًا بمنهاج إيليا وشريعته، أذكر نهر الأردن لما استتبَّس فمشيْتُ فوقه، أذكر الطفل الذي قام من الموت، بأمرٍ من الله، وعلى بركة يدي، لما ظلَّ عبدٌ صالحَ لعشر ليالٍ كاملة لا يبرح مكانه، يُصلي من أجل عودته، وجاءني الوحي في منامٍ، وسمعتُ صوتَ الرب يقولها لي: "بأمرٍ مني يقوم وبأمرٍ مني يعيش حياة الهنا"، أذكر الخلاف الذي دار في فترة، عن عبادة الناس لي، والاختلاف القائم بينهم، وتكفير من اتبعوا عيسى لهم، أذكر جيّدًا كيف سمعتُ هذا الرجل، الذي قال بصوتٍ مسموع: "إذا كان عيسى يُحيى الموتى ويمشي على الماء ويبرئ الأبرص والأكمة، فاليسع جاء قبله، إذًا نتبع تعاليمه ونراه هو من ضمن الثالوث المقدس، وليس عيسى!"

لقبوني بالخضر، في حكايتي مع موسى، تلك الحكاية العجيبة، وتصرفاتي الأغرب، سألتُ المسيح: "قُل لي يا يسوع، لماذا كانت تصرفاتي عجيبة هكذا؟ لماذا قتلْتُ الطفل وهدمتُ الجدار

وأغرقت السفينة؟" ليتسم المسيح، ويضع يمينه على كتفي،
ونمّثي معًا في الهواء، إلى أن نستقر على سطح الماء، فيجيبني
بصوته الهادئ، المعروف في السماء، المحبوب لكل كائن خلق:
"الذاكرة ستعود إليك على نحو أسرع، عامةً يا إيسع دعني
أخبرك شيئًا، أنت لم تفعل كل هذا يا صديقي، هذه عظاتٌ
وُضِعَتْ في كتاب، ليعرف السامع ويتعظ من الحكمة، هل
من المعقول يا إيسع أن تُعلم أنت كليم الله بهذه الطريقة؟
هذا نبي كان يتكلم إلى الرب مباشرةً، دون وحي أو ملاك
ينزل ويطلع مع كل أمرٍ، قصتك مجرد عظة، ليعرف الناس
ويخافوا، ويبحثوا دومًا عن الحلول، ثم اسمعني جيدًا، هل
يقتل نبي طفلًا؟ لأنه كان مُزعجًا وعاقًا؟ ألم يكن من الأولى
الدعاء له بصلاح الحال؟ وفي هذه القصة، لماذا لم تطلب من
موسى التكلّم إلى ربه، وطلب الهداية لهذا الطفل؟ لماذا القتل
كان الحل الأقرب والأول؟ هذه عظة، ليخاف الناس، ويعرف كل
أب وأم أن الابن العاق قد يكون مصيره القتل من قبل ناسٍ لا
يعرفونه، إذا لم يحسن كل شخص في تأدية دوره.

أما السؤال الآخر، الذي أسمعه بوضوح، كأنك تسأله داخل
رأسي، نعم لا تتعجب يا إيسع، أنا أسمع أفكارك، هوّن على
نفسك، يا إيسع أنا قررتُ أن تكون معي، في ما أمرني به الرب،
لأنك أقرب الأنبياء، إلى ما خصني به الرب من معجزاتٍ، لذلك
ستكون مساعدتك شيئًا يتحدث به أهل السماء لقرونٍ من
الزمان، والحق أقول لك يا إيسع، اليوم الأخير لكل ما يحدث
هنا يحتاج إلى معجزتين في الآن نفسه، وليست معجزة تليها

مُعجزة، وأنا لا أقدر على ذلك، وفي الوقت الحالي يا يسع،
توقف عن التفكير في حياتك المؤقتة التي جعلناك تعيشها
وسطهم، كل شيء كان مُقدراً، لقد عشت هائماً، تجهل من
أنت، رجلٌ عجوزٌ، يعتبره الناس مجذوباً، لدرجة أنك نسيْتَ
معجزاتك ونبؤتك، من قلة إيمان الناس بك، تخيّل! نبي منسي!
عامّة حان اليوم الأخير للبشر، كان الاعتماد عليك هو الأمر
الأكثر يقيناً، يسع، يا صديق الرحلة، يا من سبقتنني في الدعوة،
وعرفت عني كثيرًا، يا خالداً بسبب حكمة ربانية، لا يعلمها
أحدٌ إلا الرب، لقد شكرت الأرض السماء على حملها لنبيين،
هل تسمعها يا يسع؟"

فيليب والمسيح

أبانا السماوي نرفع اسمك ونُعظّمك، لأجل عمل عنايتك
فيّنا، نحن الخطاة غير المُستحقين، نشكرك من أجل حفظك
لأولادك، في الدخول والخروج، في الليل والنهار، في المحنة والكرب،
كما في السعة والفرح، نشكرك لأنك تسهر على راحتنا وحفظنا
وسلامتنا، نشكرك لأنك علمتنا الاهتمام بكل أحد، والصلاة من
أجل الجميع، نشكرك أبانا لأنك قائدنا في السفر، ومُرشدنا في
الطرق، ومُدبر أمورنا في الحاضر والمستقبل.

رحلتي كانت أغرب من الخيال، دراجتي البخارية كادت
تنطق، من فرط العجائب والغرائب، وأقلها كان نزول المباني

إلى مستوى واحد، فلم أجد في مسيرتي بنايةً واحدةً أعلى ولو بقليل، ما دفعني إلى التخلص من الخشبة والحبل، والقيادة بسرعة وسلاسة، لا يشوبهما مبنى يجبرني على التسلق، أو آخر يعوق حركتي ورحلتي عامةً.

أميال سفري كانت بصحبة النبي يوسف، يظهر خلفي تارةً، ويظهر أمامي ويقود هو تارةً أخرى، يُحدثني عن نهاية الدرب السعيدة، ويذكر لي اللوح الذهبي المفقود، ويأمرني بنسيان كلام يهوذا، وبضرورة طاعة المسيح، في كل وقتٍ وزمانٍ، واليقين التام بقلب مؤمن، بمعجزات المسيح، ومقدرته على فعل ما يريد، وأنه العالم بكل الأمور، الذي يحرك حياتنا طبقاً لإرادته المباركة، وكلنا مسافرون في سفينة، قبطانها يسوع، وحتماً سيصل إلى بر الأمان، ولن نعرفنا الأذى أو الشرير.

لشعوري براحة وأمان مطلقين، أغلقتُ عيني عن الطريق، ماذا سيحدث لي؟ الطريق ممهد دون عوائقٍ، وأرهقني الفراغ الأبيض العظيم الذي أقود فوقه، مجرد درب طويل، لا وجود لأشجار أو لافتات، لا وجود لأي شيءٍ قد يلفت نظرك، فتجد الاختلاف ولو كان بسيطاً.

أغرب ما في رحلتي هو ظهور رجلين، أراهما بوضوح، وعرفتُ من شكلهما أنني أوشكتُ على الوصول إلى النهاية المرجوة، وخُيِّل إليّ في البداية وقوفهما فوق سيارة أو جبل من الأحجار مثلاً، ومع كل اقترابٍ منهما، ومع وضوح الشوف والبصر، وإيمان القلب حالياً بإمكانية حدوث أي شيءٍ، اقتنع

عقلي قبل قلبي بوقوفهما في الهواء، أعلى عن الأرض بمسافة واضحة، للناظرين، إذا ما كان هناك ناظر.

وفي لحظة اقترابي العظمى، التفت واحدٌ منهما تجاهي، وفتح ذراعيه، وبانت ملامحه، وأنا سافقد الوعي حالاً، إذا كان هذا يسوع المسيح، الواقف بالأعلى بصحبة رجلٍ، وطبعاً لأنه معه، فلما هو مؤمنٌ صالحٌ، أو معجزةً من معجزاته، ولأن المسيح متواضعٌ، وتواضع معنا عامةً بتأنسنه، نزل إليّ ومعه رفيقه، يسوع المسيح، قلبي يدق بقوةٍ، سيخرج من مكانه ليقبل رأس المسيح، وإذا كانت الحكمة من بقاء عيني في أثناء المحنة لتحين نهايتي وأنا آخر من رأيتُه حبيبي يسوع المسيح، فليقبض روحي، وسيذكرني أهل السماء في ما بينهم، بحقدٍ من رجلٍ، كان قاتلاً ولكنه مؤمن، وقابل المسيح بنفسه، في آخر أيامه.

يتكلم المسيح وأنا لا أسمع، فضحك وشعرتُ بضحكة، تخرج من الأرض والعالم والكون كله، مسح على وجهي، فرجعتُ إلى ما كنتُ عليه، إنساناً عادياً، بكامل ملامحه، ولم يعطني عقلي فرصةً لترسل إلى أجزاء جسدي إشارةً برجوع كل ما يخصها مجدداً، بل ضربني بإشارة، مفادها أن أسجد للمسيح، وأقبل قدميه أو صدره، وهو ما نفذته بالحرف الواحد، صرتُ ساجداً، أطلب منه المغفرة والصفح، بصوتي الذي كدتُ أنساه، بدموعي النديمة، التي كانتُ معي طوال المحنة، بسمعي الذي رجع ويسمع المسيح، وهو يقول لصاحبه: "هذا حفيده يا إيسع".

ساعدني على القيام، جسدي يرتجف من عظمة اللقاء،
أن تقف أمام ابن الإنسان، تسمع المسيح صاحب المعجزات،
المعلم الوحيد والأوحد، ويُساعدك هو على الوقوف، حرفياً
وليس مجازاً، كمن يقول لك شعرتُ بالمسيح يُساعدني، وهو
يقصد المُساعدة المعنوية، الوضع مختلف! أنا فعلاً وحقاً
يساعدني المسيح على الوقوف.

"فيليب حفيد يوسف النبي، المؤمن بي وبعدي يهوذا
الإسخريوطي، انظر يا إيسع، هذا رجلٌ من الذين رجعوا إلى
الوراء، ولم يعودوا يمشون معي، هذا رجل جمع بقلبه حُبِّي
وحب يهوذا، الخائن الذي أوقع بابن الإنسان، هذا يا إيسع،
لقبه في السماء، حامل الأكذوبتين، وصاحب القلب المريض،
تعال يا فيليب، ولا تقل شيئاً، سأخبرك بكل ما تريد معرفته،
وسواء أصدقتني أم لم تُصدقني، فأنت ملعونٌ يا فيليب، ودورك
في الحياة الجديدة سيستمر، لن تترك المُعاناة بكل سهولة، ودّع
ابن الإنسان يرد إليك كل الأكاذيب دون أن تنطقها، فتؤمن به
وتنكر الكاذبين، أعداء المسيح والحق.

فأما المريض بالشر يهوذا، فكيف صدقتَ يا فيليب أنه
هو من صُلب؟ كيف صدقتَ يا فيليب أن ابنَ الإنسان
الفادي، سيترك من يموت بدلاً منه؟ أنا من خلص البشرية من
خطاياها، سأهرب مثل الخونة؟ وإذا كان يهوذا هو المصلوب،
كيف تحدث إلى المصلوب عن يمينه، اللص النائب، وقال له
إنك اليوم تكون معي في الفردوس، أيعقل يا فيليب أن يدخل
الخائن الفردوس؟ ولا تُفكر بأن هذه مكافأة إلهي له، لأنه

اختار الموت ليفديني، كل من كان في أورشليم شاهد جثمان
يهوذا المشنوق، بعدما عرفوا جرم فعلته بتسليمي لليهود!

هل شاهدت الثقوب الخمس يا فيليب؟ ثقوب المسامير في
يديه وقدميه، وجرح الرمح، وجراح إكليل الشوك؟ يهوذا روحٌ
هائمة، طردها الرب من سلطانه، يحوم في العالم بعذاب أبدي،
يبحث عن كل روح ضالة، ويملاً كأس تفكيرها بغمره المغشوشة،
المصنوعة من أفكارٍ وأكاذيب، يهوذا مريضٌ بالكذب والغش،
يريد من يربت عليه، ويقول له أنت المُخلص، والمسيح لم
يفعل شيئاً!

أما ما يخص جدك الأكبر، يوسف سميث، فاعذرنى يا فيليب،
يوسف نبي كاذبٌ، مريضٌ هو الآخر، يبحث عن الشهرة، يبحث
عن معجزة إلهية، ولأنه جاحدٌ، لم ينظر إلى النعم والمعجزات
التي قررت أن يعيش فيها البشر بأمر من إلهي، وجعل
جماعته تؤمن بي، وإيمانهم النيقاوي ناقصٌ، يتبعون كتاباً لا
يحمل تعاليمي ولا سيرتي، تخاريف نُقشت من ألواح ذهبية
تحمل تاريخاً فرعونيّاً للفراعنة وأسراهم، عثر عليها مقاولٌ
شاب، كان يعيش في الأقصر، وأخبره سائحٌ بقدرته على بيع
هذه الألواح لرجلٍ يجيد التعامل معها، وسيعيطه ثمنًا رائعًا،
ولأن تعاليم الرب واحدة في مختلف العصور والدهور، ظن
المعتوه يوسف أنه وجد إشارةً سماويةً، وأحضر من يترجم
له، ومع إضافاتٍ من خياله، صار نبيًا وقديسًا، يتبعه الناس،
ضلالاً بين يا فيليب، والإنسان روحه ضعيفة، تركض خلف
المعجزات ولو بالسماح.

لقد طلبتُ من إلهي أن تكون أنت العبرة الأبدية لكل
المُذنبين، لأنك خارجٌ من بيتٍ لم يعترف بابن الإنسان كما
ينبغي، ولأنك ركضتَ خلف شهوتك، وقتلتَ الروحَ العظيمة
التي فديتها بنفسي، لتعيش وتنجب وتعبد إلهي، فعلتَ ذلك
بقلة إيمان، لا يا فيليب لا! فعلتَ ذلك بإيمان قاتل مهووس،
يقتل ليلاً، ويطلب مني المغفرة صباحاً! أنت أكثر أهل هذه
الحياة دناسةً، أنت غلبتَ بفعلتك السحرة والشياطين، هم
طريقهم مرسوم من البداية، ولا يؤمنون بي ولا بإلهي، ولكن رجلاً
مثلك، يحفظ كلامي ويُصلي من أجلي، ويقتل من أجل مينا؟
وعقلُك المسكين يخبرك بمقتل أمك؟ فلا تحاول علاج روحك
ونفسك من شرور الإنسان، ثم تسعى خلف القتل؟ أتصلي من
أجل المسيح؟ ثم تُصلي من أجل دم الشرير وأتباعه؟ ستعرف
نهايتك المأساوية يا فيليب.

الدهشة الثالثة

السارد الأول

الجزء الأهم في حكاية كتلك تلزمه خبرة السرد، كما أخبرت الساردة بأنني سأندخل في وقتٍ مُعيَّن، ولأنني خلقتُ من الكلمات والسطور، ومعروف باسم "وحي الحكايات"، سأكمل الحكاية من هنا، من الجزء الأهم، لأكثر الحكايات عظمتُ، الحكاية التي عرفتُها من ملايين السنين، منذ خلقتني رب العالم والحكايات كلها، الذي أوجدني مع آدم، في الوقت نفسه، نفخ فيه من روحه، فقام الطين، ونفخ في من حكمته وكلامه، فقام الوحي، وحي دمه من حكايات، عقله معجزة قصصية، وعرفتُ اسمي، السارد الأول، السارد الذي لديه القدرة على التكاثر مع

الحكايات، فيُخرج للدينا الساردين الذين يتكون جسدُهم من كلماتٍ، وعقلُهم من حكايتهم الوحيدة التي سيحكونها.

غيرتي الحقيقية لم تكن من جنسي، أو من كياني وتفسيره، غيرتي الحقيقية كانت من عدم وجود حواء كالتي حظي بها آدم، حواء بوابة الخلود والولادة، حاولتُ كثيراً معرفة طعم الجنس، ولكن فشلاً عظيماً حاوطني، الجنس في حيزٍ معطياتي، جنس افتراضي، أتخيل نفسي فوق كلماتٍ، وبعد مداعبات وقبلات، يطلع ساردٌ، كلهم شكل واحد، كلهم نسخة مني، وكلما فكرتُ في ساردةٍ، في أنثى، يكون شكلها مختلفاً عنهم، لا يتم الأمر! ولما تكلمتُ مع رب العالم والحكايات، وطلبتُ منه أنثى، تكلم بحكمته وقال: "ساردة؟ ساردةٌ أيها السارد الأول، تعني أنك تبحث عن معجزة، قديسة مثلاً، وقديسة في حالتك تعني حكايةً مختلفةً، لم يسردها ساردٌ من قبل، الموضوع لطيف جداً! لك ما طلبتُ!"

سمعتُ كل الحكايات، التي خرجتُ للعالم، والتي لم تخرج بعد، عاصرتُ البداية وبداية البداية والفراغ العظيم، عاصرتُ آدم وحواء وإبليس، عاصرتُ النزول إلى الأرض، وفرت حكايات للعالم، بكل اللغات، من أول اللغات غير المفهومة، مروراً بلغات الإشارة، وصولاً إلى اللغة المنطوقة، واختلافها في الحضارات، ومختلف العهود.

أنعم الرب عليّ بحكايةٍ، وأمرني بخلق سارد، وهذه المرة ستكون ساردة، ولأن الحكاية عظيمة، أوصي بضرورة حضوري

في نهايتها، لأنها لن تتحمل ما تحكيه، وستخرج عن سياق الحكاية، وتبدأ في طرح الأسئلة، ولم يكن السارد لحوثًا إطلاقًا، السارد هو باب العبور إلى عالم حكاية لم تكن معروفة، لذلك وجب عليه حضور الحكمة، وسرد الأحداث لا غير، دون إظهار الدهشة، أو التعجب من معجزات لن يتقبلها عقله، المصنوع من حكايته وحكايته فقط، فسحبها لما حان وقتي، وأدخلتها إلى ملكوت الساردين.

عرفتُ من رب العالم والحكايات أن هذه الحكاية هي مرحلة الانتقال إلى عالم جديد، يوجب وجود مستوى أعلى وأكثر شمولية من مجرد حكايات جديدة أو قديمة.

المهم في ما تبقى من الحكاية هو أنها ستدخلنا إلى مرحلة جديدة تمامًا، وهذا يعني خلق ساردين جدد، وخلق حكايات أكثر، وحذر الرب من ملل الحكايات القديمة، وأمر بحكايات أكثر متعة وإبداعًا، لأن القادمين مختلفون، عقلهم لن يتقبل حكاية عادية، كعقل البشر العادي الروتيني الممل.

فباسم رب العالم والحكايات، نُكمل حكاية المحو، من منظور سردي، يهدف إلى السرد لا غير، غرضه التعريف بما تبقى، ولا يضمّر في خفاياه أي نوايا سيئة أو خبيثة، ليستفسر أو يقول رأيه، أو يعترض ويقول لماذا، سردٌ خالص بلا رأي أو تنظير.

نعمة المَباركة

بعدما حملها الملاك، وطار بها أسرع من الضوء تجاه رائحة الخشب التي كانت تتبعها، الموجودة في محافظة الشرقية، لتصل إلى البناية المنشودة، المدفون تحتها المحل، المُختفي بداخله المخزن، المقبورة بداخله العرائس، الحاملة بين ثناياها سرًا عجيبيًا، أشارت إليه بتحديد صائب، ودقةٍ قديسة تعرف دعوتها، ليضعها فوق سطح البناية، ويتضخم الملاك، فيصير بحجم السماء، وتنفذ يمينه من بين الحجر، ويُخرجها بكل العرائس الخشبية، ونعمة صامته ومدهوشة، وهنا لا يجوز استخدام كلمة (كانها)، لأنها بالفعل رأَتْ معجزةً، فلا يصح قول (كانها رأَتْ معجزةً)، بل يجب الوصول إلى جُمْلٍ أدق، تصف حال المَباركة نعمة، وهي في حالتها، وقفت صامتهً ومدهوشةً، بفعل إحساس غرائبي يسري في تفكيرها، يغبرها بحقيقة المعروض أمامها.

لما عاد الملاك إلى المسيح، وفي غمضة عين، رص العرائس الخشبية، وجعل نعمة المَباركة تقف بجانبها، تنتظر تكليفاً جديداً، أو انتهاء حياتها، أيهما أقرب لحكمة المسيح أو رفيقه اليسع.

نظر المسيح إلى السماء، وتضرع إلى الأب: "إلهي، ها هم، بمشيئتك وقدرتك، تنفخ فيهم من كلمتك المقدسة، أما أطفالي، البراة الكامنة ونقاء السريرة، فأصنع لهم جسراً، من الأرض إلى السماء، فيصرون ملائكةً إذا شئت، أو يبقون أطفالاً في الملكوت،

يلعبون ويمرحون، وستعتني مريم العذراء بهم جميعًا، وستحكي لهم الحكايات، وتُعد الكعك والحلويات والخبز، إلهي، بأمر منك، أنادي على الأطفال، يصعدون كلهم إليك، أعطني إشارة، لنبدأ المحو الأول!"

والإشارة كانت حاضرةً، والسما صارت مفتوحة، وظهر ملاك بيده بوابة، حولها ألعاب وكعك وأشكال كارتونية، ليرحب بالوافدين الجدد، إلى السماء، ونعمة فقدت وعيها، لما شافت الأطفال يطيرون في الهواء، ويدخلون من هذه البوابة، ومع كل طفل يدخل، تدب الروح في الخشب، فتقوم العرائس الخشبية، واحدة تلو الأخرى، ففهمت نعمة أن روح الأطفال انتقلت منهم إلى العرائس الخشب.

بأمر من المسيح، عادت نعمة إلى وعيها، وكلفها بدورها الأخير: "قديسة مثلك، يجب أن تتحمل المعجزات! والآن مهمتك الأعظم يا مباركة، الحق أقول لك يا نعمة، أنت الشجرة المباركة، هذا سبب وجود البقع الخضراء، البقع هي فروعك، التي ستصعد إلى السماء، وسيلان دم أبيض منك، عند الجراح أو الحيض، يرجع إلى أصلك، وبمشيئة الرب تتحولين إلى الشجرة المباركة، أضخم شجرة في تاريخ البشرية، سيراك كل شخص على وجه الأرض، سيراك من بالصين ومن في كهف عظيم، فيسترشد الناس بك، ويسيروا إلى المسيح أبيهم، الذي سيخلصهم من خطاياهم إلى الأبد.. إلهي، فلتحل معجزتك على الشجرة المباركة، نعمة التي عانت كثيرًا، وها هي عرفت، كم توجد في شقوق المعاناة قطرات ماء المعجزات".

ابتسمت نعمة، وهي تتحول إلى شجرة، طولها يرتفع إلى الدرجة التي شعرت بها بأنها ستدخل إلى مملكة الرب، تخرج منها فروع وأوراق خضراء، شجرة ضخمة زاهية، لا عيب فيها، خشبها متين لم يعرفه أهل الأرض قط، تبتسم نعمة وهي راضية، يسقط من ذاكرتها كل أيام الحزن والفقر والخوف، يهجر ذاكرتها البغاء والجنس، تسقط ملامح محبي وأهلها، ترى رسول الخير الذي عذبها يعترق، ترى العم آدم الذي اغتصبها وهي صغيرة يصرخ من شدة عذابه. طلبت من المسيح طلباً أخيراً: "هل يمكن أن تُعين حارساً عليّ؟ هو أطيب خلق الله، اسمه العم سند، مات شهيداً، حين دافع عني وأنا صغيرة، هل يمكن أن يكون حارسي؟ الذي يهتم بي ويُهذب أوراقي؟ وقبل أن أنسى، هل يمكنني أيضاً الاطمئنان على البنت الصغيرة التي أنقذتني من الموت؟ اسمها ماري. وطلبي الأخير، الكيس البلاستيكي الأزرق، أريدُه مُعلّقاً على أفرعي، هذا الكيس كان أماناً دوماً يا محبي، أقصد يا يسوع!"

ابتسم المسيح وهز رأسه موافقاً، فضحكت نعمة، وشكرته على نُبل مواقفه، ثم قال لها: "أمرك عجب يا نعمة! ظننتكِ ستطلبين أن يكون حارسك حبيبك محبي!" ضحكت نعمة بصوت عالٍ، كانت أصدق ضحكة تخرج منها، ولا تكذب إذا قلنا إنها الضحكة الحقيقية الوحيدة التي خرجت منها بصدق وإيمان!

وكان آخر ما قالته قبل أن يكتمل شكلها: "يا سلام يا نعمة، النهاية لم تكن سيئة كما توقعت، والله لم يكن يُعذبكِ،

بل يُجهزك، لا سلام عليكم يا أهل الشر، تعالوا واهتدوا بنور
المباركة، نعمة النعم".

إليسع

لم يكن إليسع مقتنعًا بما قاله المسيح عن رمزية قصته مع
النبي موسى، وكان التفكير في كل خطوة، منذ عودة الذاكرة
إليه، عقيدةً اعتنقها، ليُحرر روحه المتعبّة من أحلام أنهكته،
ومن خلود رماءه في حروب النسيان.

المسيح مشغولٌ بما كُلفَ به، وإليسع مشغولٌ بحياته
وتقلباتها، ولما طلب يسوع منه القيام بمهمته، قالها إليسع
بصراحة واضحة: "لن أتحرك يا يسوع، قبل أن يرسل إليّ الرب
إشارةً، فأعرف أنني ما زلتُ إليسع النبي، أو الخضر، أو مهما
كان الشخص الصالح الذي كنتُ عليه، ذاكرتي مشوشة، نومض
بلقطاتٍ أعرفها وأخرى أجهلها، وهذا أمرٌ عجيب يستحق إيمانًا
تامًا، من أدراني أن كل ما يدور حولي يحدث بالفعل؟ وليست
تهيؤات من عجوز، نسي نبوته ونفسه، فصار يرافق الخرف
والهذيان؟"

الإشارة لرجل عادي قد تكون قطعةً تظهر وتموء، أو خبرًا في
جريدة، وربما تظهر آية من كتاب سماوي عندما تفتح الكتاب
صدفةً وبيأس الباحث عن معجزة، فيقتنع يقينك بما أرسله
لك رب المعجزات والإشارات واليقين!

ولكن إشارة إلى نبي؟ نبي يرى المسيح أمامه؟ ومن خلفهما شجرة ضخمة كانت من ثوانٍ إنسانة؟

ولأن المسيح حق، والحق جاهز لترسيخ اليقين، أشار إليه بالنظر إلى نهر النيل، فتراجع إليسع إلى الخلف، لما انشق النهر، وبقي فوق سطح طميه ممثى مائي، يسمح بنقل الأشياء فوقه، فتسير بببطء وتصل إلى وجهتها، ليتفاجأ إليسع بهجرة المانيكان المقدسة، حين رأى مانيكانات، تأتي من العدم، كلها على ظهرها، تتجمع أسفل المكان الطاهر، الذي يقف عليه إليسع والمسيح، تتراكم المانيكانات على نحو هستيري، والنيل مشقوق وماؤه إلى أعلى، فقال يسوع لرفيقه: "هل تؤمن برسالتى الآن يا إليسع؟ هل تذكرهم؟ كنت ترميهم كل يوم وأنت محمد عبد القوي، وكنت تدهنهم بلحم الهوانم، وتكسب بالكاد، وحاليًا ستعرف مهمتك، وأنت لم تكن نبيًا منسياً بالصدفة، أو من أجل لا غرض، بل بأمر إلهي يتم تجهيزك، يا رفيق معجزاتي، ويا تلميذ حبيب الروح إيليا".

إليسع إيمانه يتعاظم مع كل مانيكان يصل، فطلب من المسيح معرفة دوره، ليثق قلبه تمام الثقة والإيمان، وهذا ليس تكذيباً لمعجزة المسيح أو إشارة الرب، بل ليطمئن قلبه أكثر، فأشار إليه المسيح بالركوب على ظهر ملاك، سيحوم به فوق كل منطقة وشارع، في كل المحافظات والبلاد، سيلف العالم في ثوانٍ قليلة، سيحوم به فوق الدول كلها، وعليه أن يحيي الناس، من ميتة المحو المؤقتة، سيقوم الناس إليه، برهن إشارته، وبعدها سيتوافدون إلى مكان المسيح، بسبب الشجرة المباركة، التي يراها

من في الصين، ومن في كهفٍ مظلمٍ عظيم. لما انتهى يسوع من كلامه، كان إليسع راكبًا على ظهر ملاكٍ شفاف كالزجاج، يقف به في كل مربعٍ سكني كبير، ويهز رأسه لإليسع، ليفهم أنها علامة البدء، فيأمرهم بمشيئة الرب وبمقدرته، المتمثلة في معجزات النبي إليسع، أن يقوموا وأن تعود ملامحهم إليهم، فيضرب الملاك بجناحيه العظيمين، فيقوم الناس بأمر ربهم، وبمباركة نبيهم إليسع، وبرفقة الملاك العظيم.

كل شخص، في كل دولة، في كل مكان، قام من مكانه، وإليسع يؤمن مع كل قيامةٍ لفردٍ ضعيف، يخبره قلبه بأنه هنا أخيرًا، بأنه إليسع والخضر وكل الرجال الذين وصفهم التاريخ، بأنهم عظماء الأمة، وأعمدة حضاراتها.

أيقن إليسع، وصرخ بعلو صوته: "أنا إليسع، علي السلام، أنا الخضر الشريف، رضي الله عني وأرضاني، أخيرًا أيقنْتُ بقلبي، من أنا، وعرفتُ من أنا، أخيرًا سيرتاح بالي من طوفان الأسئلة، أنا إليسع، النبي الخالد، أبد الآبدين!"

الغاية

مشاعرٌ مختلطة، ما بين الدهشة والفرحة، بُكاء ودعاء، صلواتٌ من أجل الرب، صرخاتٌ لشدة البهجة، عدم تصديق زوال المحنة، أحضانٌ لغرباء، قفزات ورقص، أغاني بتمجيد الإنسان، وسيرته الباقية، والقضاء على أي شيء، المهم هو

الإنسان، خليفة الأرض سيبقى، وأي شيء آخر، إلى زوال، بلا رجعة أو ندم.

قاموا بداخل بيوتهم، لم يفهموا في البداية ما الذي حدث، ولماذا صارت بيوتهم تحت الأرض، ثم بجزء من التفكير عرفوا أن الطرق اخنفت، وأن البيوت لم تُدفن، فصعدوا جميعًا إلى أسطح بناياتهم، بغريزة البقاء، بغريزة البحث عن هواء نقي، كرد فعل للتمتع بالعيشة مجددًا، واستنشاق ما يدل على عودتهم إلى الحياة، راعهم المنظر، سطح أبيض كامل، فراغ أبيض مُخيف، لا لافتات أو أشجار، باستثناء شجرة ضخمة كبيرة، فتعالت الصيحات بالركض تجاهها، قد تكون هذه الشجرة المباركة، التي سترشد الناس إلى الطريق الصحيح، ومن ثم إلى بدء الحساب.

اختلفت التفسيرات بينهم، نعمة القيامة حاضرة، ما زالت حاضرة، يرفض العامة تفسير الأمر على نحو آخر، لم يهتم شخص منهم بتشغيل دماغه، والسؤال عن سقوط الملامح، المهم هو الرجوع إلى الطبيعة، ومعرفة كيف سينتهي الأمر، مسيرات ضخمة، تركض بتحفيظ من المسرات، وتنفض عن روحها تراب الأوجاع الفائتة، سنصل إلى الشجرة، وسينتهي كل شيء، سيحاسبنا الله برحمته الواسعة، ولن نرى حزنًا مُرًا.

وسط فرحتهم، سألت أم، بصوت عالٍ وصراخ: "أين ابنتي؟ هل رأي أحدكم ابنتي؟" وهنا تنبه معظم الأمهات الموجودات في محيط تلك السيدة، وتعالت صيحاتهن بالسؤال نفسه،

فيجيبهن رجلٌ: "يا معتوهات! نفسي نفسي! نفسي نفسي!" فهدأت منهن من هدأت، ولكن السيدة ذاتها ركضت تجاهه وقالت: "وأين تأثير الأمر فينا؟ أين غياب عقلنا بسبب المنظر والعذاب والحروب؟ نفسي نفسي سنقولها جميعًا على نحو لا إرادي، وسنرى بيننا الأنبياء! يا غبي!" أعادت كلامها بصوت أعلى، وساندتها سيداتٌ أخريات، والدفع من الخلف مستمر، وبات مستحيلًا الرجوع إلى الخلف، الأعداد الغفيرة ستقتل من يسقط سهوًا.

الأعداد تتدافع، كتل بشرية كبيرة متفرقة، تركض تجاه الشجرة المباركة، بينهم في حرج بالغ، ويأس متصاعد، من يسأل عن زوجته أو زوجها، من يسأل عن ابنه أو ابنته، من يسأل بجانبه هل رأى هذه العجوز؟ هي جدته ويحبها، والدفع اللاإرادي مستمر، حتى وصلت رسالة من الأمام، مفادها: "إنه المسيح! إنه المسيح!" فبكى الناس وزاد الدفع، ركضوا بشكل أسرع تجاهه، يجري واحد منهم ناحية أملهم الأخير.

توقفوا فجأة لما شاهدوا المسيح فوقهم، يطالبهم بالهدوء، وأنه سيزيح أي غمة: "أحباب المسيح، ابن الإنسان، بمشيئة الرب تجمعنا على الخير، وعلى إرادة الرب، نحمد الله على رجوع الملامح إليكم، نحمد الله على رجوعكم إلى الحياة، والآن كل ما أريده منكم هو شيء أبسط من الماء، أريد الرجال في ناحية، والسيدات في ناحية، والأمهات بمختلف أعمارهن في ناحية، ولا تخافوا على أطفالكم، أنا أعرف مكانهم وهم تحت رعاية ونظر الرب، حرقًا".

المسيح خطبته الأخيرة إلى العامة

"أحباب المسيح، الحق أقول لكم، لأن يعمل في قلبي حزنٌ، ويغرقني بنهرٍ من الشك، شك أصله الإنسان، الذي هو أنتم، والذي كانت الحياة بين أيديكم، ونعمة الروح بداخلكم، ونعم الرب تحاوطكم، أحباب المسيح، أقولها لكم في آخر كلماتٍ ستُنطق على وجه الأرض.

فديتُ الإنسان، ظننتُ أن تضحيتي ستفتح لكم أبواب التأمل، وينظر كل شخص منكم، على مر العصور، إلى الحياة بقلبه، بنواياه الطيبة، ومع ذلك، فتح كل واحد فيكم باب بيته وحياته وقلبه للشر والشرير والأشرار، ترك الطهارة وحلو الإيمان واليقين بالأفعال الجيدة تغادر حياته دون عناء.

صليتُ من أجلكم كثيراً، وقفتُ أمام إلهي أكثر، أسأله بكل الأسباب الممكنة أن تظل الرحمة موجودة، تجاه كائنات ضعيفة مثلكم، كائن الإنسان غير الجدير بالنعم، سرق ونهب، زنا وسب وشتم ولعن، قتل دون حق، الجشع استوطن قلبه، مات ضميره، سعى نحو المال والمصالح، قتل الحيوانات والنباتات، قتل أخاه الإنسان إذا ما كان على غير وفاق مع آراء عقله المتشددة، قتل أخاه الإنسان المختلف معه في المعتقدات، حرك الشر تجاه حيوات البشر، حرك الشر بالحروب والمكر، حرك الشر بالاحتلال والسعي تجاه الضلال، بخطى ثابتة، لم ينكر أفعاله.

لهث الإنسان غير الجدير بالنعم خلف المال والزنا، ونسي الفقراء، وتلذذ بفقريهم، واستغل فقرهم للظهور في مختلف المناسبات، ليقول للناس كذباً إنه مناصرهم، وهو أول من ترك أخاه الفقير يلتمه وحش الفقر ذو المخالب، ويضحك على منظره المسكين، ويقول لأولاده احذروا من الفقر، واعملوا على جلب الأموال، بكل الطرق المشروعة وغير المشروعة، ثم استغفروا الرب ليلاً، أو في صلواتكم، فهو الرحمن الرحيم، لن يتركنا وسيغفر لنا مهما حدث، نحن أبناء الرب، خلفاء الإله على الأرض، ولن يتركنا أبداً.

ظلم الإنسان أخاه الإنسان، حين سرق منه مكانته المستحقة، وتعمد تجاهله وتشويه سمعته، وسرق حقه في منصب أو وظيفة أو ثناء أو جائزة، وخلق كل الحجج والأعذار والردود، ومنطق كلامه، ليعرف كيف يرد على من يتهمه، ثم ابتعد عن الرد، وسب من يهاجمه، وسب المطالبين بحقوقهم، وسجنهم وقتلهم، وقال بصوت عالٍ في وجه أصحاب الحق: لا حقوق لكم هنا، الحق سيتم تقسيمه بيني وبين الأصدقاء والرفاق.

ظلم الإنسان أخاه الإنسان، لما ثار أخوه ضد الظلم، وخرج يهتف بسقوط الحاكم الظالم في مختلف العصور، ووقف ضده، من أجل مصالحته، لا من أجل المصلحة العامة، ولا من أجل الوطن، وسحله إلى المتاهات، ودفنه في السجون، وقتله بدم بارد، قتله ضاحكاً، ونام هانئاً، لأن إنساناً مثله، يملك السلطة الأعلى، أصبح راضياً عنه وعن ظلمه لأخيه الإنسان.

ظلمَ الإنسان أخاه الإنسان، عندما قتل كل المواهب الحقيقية، وتجاهلها وهو معترفٌ بجديّة ما تقدمه، وسعى نحو التافهين وأصحاب المصالح، وطلع في كل المناسبات يمجّد في التافه والسارق وعديم الموهبة، وينسى صاحب الموهبة الحقيقية، وإذا حاول شخصٌ ما تذكيره بالمفروض والمرفوض، ثار وهاج، وتكلم عن خبرته وعلمه بالمفروض، والمرفوض هو اعتراض الأشخاص، أصحاب المواهب الحقيقية، على رأيه في تلميع فلان، وإخفاء فلان.

ظلم الإنسان أخاه الإنسان، لما مات المظلوم همًّا، سواء من الفقر أو قلة الموارد أو عدم التقدير.

ظلمَ الإنسان أخاه الإنسان، لما دمر كل العلاقات البشرية الصحيحة، فركض خلف الزنا من باغية، أو سيدة متزوجة، أو شابة تعشق الذنوب، وهو متزوج، وركض خلف الفواحش، وهو غير متزوج، لأنه غير قادر على تكاليف الزواج، بسبب تعنت أخيه الإنسان في طلباته.

ظلمَ الإنسان أخاه الإنسان، لما كان كاذبًا، في وسائل الإعلام بمختلف أنواعها، وعرض له كذبًا خالصًا، ولم يهتم بعرض الحقيقة، لأنه خائفٌ على وظيفته، وليس خائفًا من تنويم شعب بكامله، وتغطيته بالأكاذيب، بل وقتل من يناضل منهم.

ظلمَ الإنسان أخاه الإنسان، وهو يتحدّث عنه في السر، ويهزأ من شكله أو جسده أو حالته الخاصة، وهو يهزأ بإصابته أو جماله غير الموجود، وهو يهزأ ويسخر من تصرفات حقيقية،

وهو يكذب الشخص، مهما كانت ظروفه، لأنه المتحكم وصاحب السلطة، فلا يعنيه ظرف مريض أو حالة وفاة، المهم وجودك بالعمل.

ظلم الإنسان أخاه الإنسان، بالخيانة والزنا، مع زوجة أو أخت أو أم أخيه الإنسان، بالكلام عن شرفه وشرف عائلته، بنشر الأكاذيب ليحصد عطف الآخرين، أو استحسان المديرين.

ظلم الإنسان أخاه الإنسان، في كل زمان ومكان، وحالاً كلكم أمامي، تريدون مني الرحمة والمغفرة؟ أقولها لكم يا أهل الأرض، فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض، وتأسف في قلبه، وغفر ورحم كثيراً، ولكن الإنسان لا يستحق رحمة الرب.

هذه لحظتكم الأخيرة، وبعدها سيظهر للأرض الخليفة الجديد، سترون بأنفسكم الذل، وكيف أنكم فرطتم ممتهى السهولة في حياتكم، لطمعكم وحبكم للشهوات والمال، لكرهكم للفقير والفقراء، لخبثكم وطبيعتكم الشريرة، الرب رحيم ولكنه يغضب، أتتكم الكوارث كتنبئ، وكلما خرجتم من كارثة، وتغلبتم عليها بحفظ الله، رجعتم إلى ذنوبكم وشور أنفسكم، بشكل أكثر بشاعة.

لا سلام عليكم يا أهل الأرض، ولا حب لكم يا أعداء المسيح، أمر مستحيل أن تكونوا أحباب المسيح.

لقد أوحيت إليكم، بأفكار تُساعدكم على محو أنفسكم بأنفسكم، أوحيت إليكم بهدم تاريخكم، أرسلت إليكم الكتب، وإذا كان حكام الدول حاضرين، أقول لكم يا أظلم أهل الأرض،

أنا من نشرْتُ خبرَ القيامةِ في دولكم، أنا من هاتفْتُ الخطوطِ في مصر، ومن أعلَنْتُ في الجرائدِ بالسويد، ومن دخلْتُ على حسابِ شخصي لوسيلةِ تواصلكم الاجتماعي، وغردتُ لملايينِ المُستخدمين بقربِ القيامةِ في ألمانيا، وأنا من أخرجُ التصريحَ من الكونجرسِ في أمريكا، وأنا من وضعتُ لافتةً كبيرةً بحجمِ بنايةٍ في الصين، مفادها: القيامةُ تقتربُ! بعدَ العامِ تأتي القيامةُ! إلهي، همشيتك وبسرك وبقدراتك، اللانهائية، أدعوك أن تمحوهم جميعاً، أن تخرجَ الروحَ منهم، وتذهبَ إلى جسدِ خليفتك الجديد، أدعوك إلهي محو تاريخ الإنسان بكامله، كأنه جنسٌ لم يحضر إلى الحياة نهائياً، كأنه لم يكن هناك آدم أو حواء.

امحهم جميعاً يا رب، وامحُ تاريخهم وأعمالهم، سنين وجودهم، ذكرياتهم واختراعاتهم، مشاعرهم وذنوبهم، خيراتهم وخيرهم، حسناتهم وسيئاتهم، امحُ الإنسان يا رب، كأنه لم يكن إطلاقاً.

العامّة

(صوت جماعي)

لقد استبدلنا الله..

طوال هذه المدة، كنا نعتقد أننا على مشارف القيامة، بعض العلامات لم يظهر، صدقنا بظهور تلك المعجزات، كعلامة واضحة وصريحة على اقتراب نهاية الأيام، بدايةً من تساقط الكتب، مروراً بمحو ملامحنا، حتى وصلنا إلى عودة الملامح وظهور المسيح.

حين عادتْ ملامحنا، وركضنا تجاه الشجرة، ولمحنا المسيح، لم نشعر براحةٍ، نحن هكذا، البشر وحاستهم السادسة، الشعور بالمصيبة أو نذير الشؤم، ظهور المسيح كان غريباً، ابتسامته الظاهرة بجهدٍ، علامات القلق البادية على رقيقه، الذي لم نعرف اسمه، وكان هائماً في الهواء مثله، إلى أن وقف فوقنا، وطلب منا الانقسام إلى جماعاتٍ، رجال ونساء وأمهات، دثر كل شيءٍ يخص أطفالنا، فعرفنا أن هناك أمراً، لن نحمد الله على عواقبه.

بدأ المسيح بكلام عادي، لم نبتهج حتى لما سمعنا (أحباب المسيح)، ثم قام بتوبيخنا جميعاً، منظر مُذل جداً، كلمات كالخناجر، تسكن قلوبنا بجروح، يتكلم بشكلٍ عام، لم يُحدد من الذي فعل ذلك، ومن كان عبداً صالحاً في حياته، ومن كان عبداً شقيّاً يرمي في أحضان الذنوب، كعشيقةٍ لم يُقابلها منذ فترة.

لقد استبدلنا الله..

وها نحن، نتساقط واحدًا تلو الآخر، نرى بأعيننا، والمسيح يمسح على واحدنا، فيقع دون كلمة واحدة، ويطلع من نهر النيل، الموجود على حافة البنايات، بعد اختفاء الطرق، يطلع مانيكان، يتحرك مثلنا، الشكل ذاته، لكنه ليس إنسانًا، عيناه بهما روح، ومن الواضح أن أرواحنا غادرت أجسادنا، واستقرت في أجساد المانيكان، الذي كان يذهب تحت قدم المسيح، يُقبلها ثم يذهب إلى الرجل الصالح، الواقف مع المسيح في الهواء.

يقترّب المانيكان من الرجل الصالح الواقف بجانب المسيح، والذي عرفنا أنه إيلسع، فيرش عليه بمسدس خارج من جهاز عجيب، ليتحول لون المانيكان إلى لون جلودنا، كأن المانيكان يحصل على جلده من هذا الرجل، ثم يُقبل يديه وقدمه، ويذهب بعدها إلى المسيح، يقبل يديه وقدميه هو الآخر، ثم يجلس المانيكان، بجانب زملاء الخلق الجديد، في أدب تام، وحكمة كاذبة.

لقد استبدلنا الله..

وسمعنا من المسيح أننا سيتم محونا من التاريخ كله، ولن نصعد إلى الله ليُحاسبنا، لقد قرر الله أن يمحو جنس البشر بكامله من سجلات الكرة الأرضية، لم نتخيل في يوم من الأيام أن نسمعها بأنفسنا: "لم يكن البشر في يوم موجودين، والجنس الجديد هو المانيكان"، لقد محا الله البشر تمامًا، ولم يعطهم الفرصة للحساب، ولا لدخول الجنة أو النار، لم نفهم كيف

يحدث هذا؟ بعدما تم محونا إلى أين سنذهب؟ هل سنتبخر في الهواء؟

لقد استبدلنا الله..

ولم نعرف قبل أن نموت، من كان المُحقِّق؟ وأي ديانة هي الحق؟ وأي طائفة في الديانة الواحدة هي الأصح؟ لم نعرف من هو المهدي المنتظر، لم نشهد المعركة الأخيرة، لم نتحدث إلى المسيح، ونطلب منه الطمأنينة، لم يعطنا المسيح فرصة للكلام، ولا حتى لنُخرج من بيننا من يستحق معاملةً حسنة، لأنه كان صالحًا في دنياه.

لقد استبدلنا الله، بكائنٍ مِن صُنْعِنَا، صنعناه لأننا لن نقف في واجهة محل إلى الأبد دون إرادة، يُحركنا من يشاء، ويهشمنا من يشاء، ويُهْمِشُنَا مِن يَشَاء، ومتى شاء صاحبُ المحل، فعل بنا ما يحلو له، من تغيير لون أو خلع رأس وكتف، ولم يتوقف الرب عند هذا الاستبدال، بل جعل أجسادنا ترجع إلى طينها، إلى حالتها الأولى، وبمعجزة وأمر إلهي، أجسادنا تتداخل، لنصنع طرقًا جديدة، فيدوس علينا المانيكان، أو الإنسان الجديد، إذا كان إنسانًا.

لقد استبدلنا الله، صرنا طرقًا، يدوس عليه المانيكان والحيوانات، يمشي عليها كل ما اخترعناه، أي ذلُّ هذا؟ بعدما كانت الدنيا كلها طوع أمرنا، أصبحنا جزءًا من الدنيا، ونعيش لخدمة المانيكان، وبقية الكائنات الموجودة.

لقد استبدلنا الله، وسمعنا المسيح وهو يتكلم إلى الأمهات، ويقول لهن: "الأمهات الفاسقات صرن طينًا وطرقًا، أما أنتن أيها الأمهات الصالحات، قديسات العالم الجديد، لن يحدث لكن أي شيء، سيتم استخدامكن لتعليم جنس المانيكان، الإناث منهم طبعًا، التربية وتكوين الأسرة والاستقرار في البيوت، وسنقيم طائفة اسمها القديسات، الأم نعمة مُباركة، لا تستحق كل ما حدث، رأيتُ حياتكن كلها، رأيتُ كم المعاناة والتضحية من أجل أزواجكن وأولادكن وبناتكن، ومع ذلك كانوا جاحدين لكن، تعالوا معي يا قديسات! لتتعارفوا مع المانيكانات الإناث"، وكان الذل الأكبر، أن المانيكان رفض تسميته بإنسان، وطلب من المسيح أن يظل التصنيف الجنسي "المانيكان"، ولن يعترض على شيءٍ آخر، وطبعًا الأسماء باقية، وليصل الذل إلى السماء السابعة، كل مانيكان سيكون على اسم صاحب الروح.

لقد استبدلنا الله، وانتهى عصر البشرية، وبدأ عصر جنس جديد، وكنا نظن أن النهاية لدينا، وأنا آخر من سيشهد علامات القيامة، استبدلنا الله ولم نسأل سؤالاً واحدًا فقط، من الذي فعل ذلك؟ هل هو الله؟ أم أن المسيح فعلها كما سمعنا من شخص يذوب معنا، ظل يصرخ: "المسيح هو من فعلها! لأنه لا يعرف يوم القيامة! المسيح هو من معا البشر، لأنه كرهنا بعدما أحبنا وضحى، لقد تحدثتُ إلى يهوذا وقال لي، المَسِيح...!" وكان هذا الشخص الوحيد، الذي سحبه المسيح إلى السماء، ولم نعرف ما الذي حدث له.

هل هذه القيامة الحقيقية؟ نقصد هل هذا شكل القيامة الصحيح، والذي لم تقدر أي ديانة على توضيحه، فكذب علينا الأنبياء لتقبل الموت ونهاياته المأساوية؟

لقد استبدلنا الله، ومحا خليفته من على وجه الأرض، بدأ خليفته جاهلاً، وانتهى جاهلاً جداً.

محانا الله واستبدلنا.. وسمع الإنسان الجاحد، ورأى الإنسان الشرير، وعرف الإنسان القذر، بنفسه، كلهم عاشوا ثلاث دهشات لحياة أخيرة، وأيقنوا بعد كل معجزة أن الكتب لم تكن لمساعدتهم، وأن القيامة لم تكن قريبة، وأن كل ما عرفوه طوال حياتهم، بمشيئة الرب تغير، وهو القادر على كل شيء.

كان آخر ما رأيناه، المسيح ورفيقه، وهما يصعدان إلى السماء، يضحكان في رضا تام، كأنهما لم يقتلا البشر كلهم، صعدا إلى ربهما، بعد إتمام المهمة على أكمل وجه.

وكان آخر ما عرفناه، أن الواحد منا لم يتل كتابه ليحوى الغيب ويعرف مصيره، بل قرأنا كلنا بلا استثناء، في صوت واحد، في غياب بشري واحد، بتفكير ساذج، يخبرنا بأننا أسياد العالم، لأننا محونا الغيب، ولم ندرك حينها، أنها كانت تلاوات محو جنسنا، بمشيئة الرب، وبغضب من الرب، الذي من علينا بكل الفرص، ولم نستغلها.

نتمنى أن تذكرنا الأمهات لدى الرب، وأن تحكي للأجيال الجديدة القادمة عن كائن كان موجوداً، اسمه الإنسان، ويعتذرون لهم عن عدم وجود ما يثبت كلامهن، بعد محو

كل تاريخنا، بأيدينا وبقراراتنا، إلا إذا أبقى الرب على الأمهات،
بأشكالهن الحالية، حينها سننظمّن.

وإذا ذهبن إلى العالم الجديد، بأشكال غير أشكالهن، ولم
يصدق خليفة الأرض الجديد، بوجود الإنسان من قبله، قولوا
لهم: "كانت أسطورة، تستحق أن يحكيها الواحد".

بداية جديدة

آدم

اسمي آدم، وأنا أول مانيكان على وجه الأرض، وهذه زوجتي حواء، ستساعدني على اختيار ذرية صالحة، من الأطفال الخشب، وسأجتهد في تعليمهم، والمحافظة عليهم من أي شر. وهذا مخلوق عجيب، وهبه لي المسيح، وأخبرني بضرورة تربيته، لأنه مُسلَّ جدًّا، وسيبهجني بما يفعله، فهو عبارة عن جسد رجل، ورأسه على شكل قرن كبير، يُخرج لي منها أي شكل فخر أريده، فإذا قُلْتُ مثلاً: "يا فيليب! تمثال للمسيح!" فيُخرج لي تمثالاً من الفخار على هيئة المسيح، ثم يتساقط سائل أحمر

من الخلف، من فتحةٍ غريبةٍ توجد أسفل ظهره، ويجلس على الأرض، ويهتز جسده بعنف، ثم يعود إلى هيئته الطبيعية. مخلوقٌ عجيبٌ الصراحة، عجيبٌ ومسكين.

تمت بمباركة

رب العالم والحكايات.

2019/9/25

نبذة عن الكاتب

مصطفى منير، روائي مصري من مواليد القاهرة 89، تخرج في كلية الألسن جامعة عين شمس، قسم اللغة الإنجليزية. صدرت له عدّة مؤلفات، مثل رواية (قيامة الظل) عام 2018، وكتاب حانة الفوضى عام 2017، عن دار بردية، ورواية رهف عام 2016، ورواية باب عام 2015، عن دار الحلم للنشر والتوزيع.

تِلَاوَاتُ الْقَحْوِ

"ثَلَاثَ دَهْشَاتٍ لِحَيَاةٍ أُخِيرَ"

كان آخر ما رأيناه، هو ورفيقه، وهما يصعدان إلى السماء، يضحكان في رضا تام، كأنهما لم يقتلَا البشرَ كلَّهم. صعدا إلى ربِّهما، بعد إتمام المهمة على أكمل وجه.

وكان آخر ما عرفناه، أن الواحدَ منا لم يتلُ كتابه ليُحَوِّ الغيب ويعرف مصيره، بل قرأنا كلنا بلا استثناء، في صوت واحد، في غباء بشري واحد، بتفكير ساذج، يخبرنا بأننا أسياد العالم، لأننا محونا الغيب، ولم ندرك حينها، أنها كانت تلاوات محو جنسنا، بمشيئة الرب، وبغضبٍ من الرب، الذي منَّ علينا بكل الفرص، ولم نستغلها.